المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الدكتور حسين الحاج حسن

حضارة العرب في صدر الإسلام

حضارة العرب
في صدر الإسلام

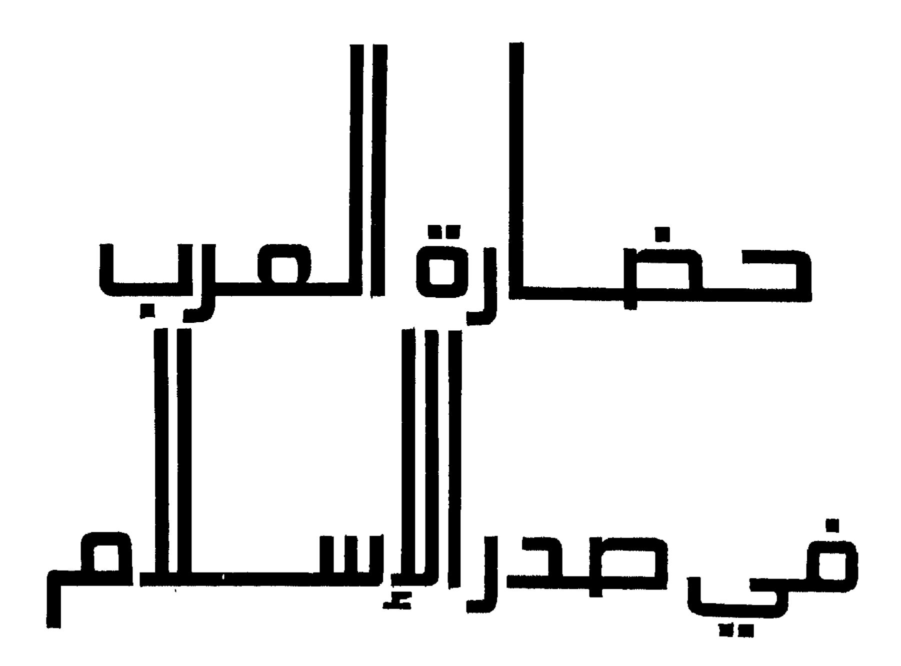
الطبعة الأولى

1412هـ - 1992م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت - الحمراء - شارع اميل اده - بناية سلام
هاتف ١٠٢٤٢٨ — ٨٠٢٤٠٧ — ٨٠٢٢٩٦
بيروت - المصيطبة - بناية طاهر هاتف ٣٠١٠٣٠ - ٣١١٣١٠
ص.ب ـ ١١٣ ٦٣١١ تلكس LE ٢٠٦٦٥ - ٢٠٦٨٠ - لبنان

الدكتور حسين الحاج حسن



المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد المرسلين وإمام المصلحين وعلى آله الطيبين .

ولدت الحضارة منذ أن صحا الضمير في الفكر الإنساني وقد سارت على سلم الترقي لتحقق الهدف المنشود من أجل تكامل الحياة والنهوض بها نحو الأكمل والأفضل والأمثل . وهل تكف نسيمات الحرية عن الهبوب وهل يتوقف دم القلب عن الدوران ؟ وهل يتوقف الفكر الوهاج عن العطاء وتبقى عجلة الحياة في حركة دائمة وتدفق مستمر ؟ والحضارة هي اتقان فن العيش الحر الكريم . هي فعل نام متحرك كالكائن الحي تولد ناعمة الأظفار ثم يشتد ساعدها ويبدأ عهدها بالأزهار ومن بعد الإثمار . ودراسة الحضارة الإسلامية هي الدراسة المثمرة حقاً لتاريخ الإسلام . وما تاريخ الأمة إلا تاريخ حضارتها وتطورها وتقدمها وليس تاريخ حروبها ومعاركها وفتوحاتها فحسب . وكتابة التاريخ مهمة صعبة وشاقة ، فهي تتطلب فكراً واعياً وإرادة قوية ، وضميراً حياً . أن يكون المؤرخ صادقاً مع نفسه مخلصاً لدينه لا تأخذه في قول الحق لومة لائم .

وقد كتب في الحضارة الإسلامية كثير من الكتاب ، وهي على نفاستها وعظم قدرها لم يستطع الخوض في درسها ، ومعاناة البحث فيها إلّا نفر قليل ، وذلك لما يلاقيه الباحث من مشاق ومتاعب . وما كان لأحد أن يلم بجميع أطرافها إلا إذا جمع شتات المصادر ، ونظر بعين ثاقبة في آثار الأولين ومحصها تمحيصاً دقيقاً . والإسلام ، كما هو واضح من آثاره يجمع بين الإيمان العميق والحياة السعيدة الإنسانية الكريمة . عقيدة اعتمدت على السمو الفكري والوجداني والوجود الطبيعي ، والثقافة الإنسانية العامة .

والإسلام حضارة إنسانية كاملة تشتمل على جميع مفاتيح المعرفة الكونية ، حضارة

ربانية وحدت بين مطالب الروح والجسد ، فدعت إلى الإيمان بالله الواحد الصمد ، نهى عن الشرك به وأمر بتحكيم العقل والتأمل في مظاهر الكون والتفكير في قدرته فحث على العلم ﴿ **وقل ربي زدني علماً** ﴾ ورفع من شأن الإنسان وكرمه ﴿ **وكرمنا بني آدم** ﴾ وسخر له كل ما في الكون لخدمته وفائدته وسعادته ﴿ **ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض . . .** ﴾ .

فالحمد لله على الإسلام الذي وهبنا العقل لنعرف والإرادة لنقول كلمة الحق ونعمل به تنفيذاً لمشيئته وعملاً بشريعته .

والإسلام ثورة اجتماعية على التمييز الطبقي والاستبداد والاستكبار والاستغلال وكل ما يعرقل سير الإنسان في حياته السعيدة الكريمة . رسم خطوط العدالة الاجتماعية ، ودعا إلى التمسك بالأخلاق الفاضلة والصفات الكريمة والمثل العليا وحث على العلم واكتساب المعرفة بجميع ألوانها وأنواعها ، وأوصى بالإحسان والتقوى وحارب العصبية القبلية داعياً إلى توثيق الروابط الاجتماعية .

وقد وحد الإسلام كلمة العرب ولا شيء يوحدهم سواه ، وقرر مبدأ الشورى ومسؤولية الحاكم أمام المحكومين ، وكفل حرية الرأي ورسم أخلاقاً مثالية للحرب والجهاد في سبيل الله . لقد جعل منهم أمة واحدة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر إنه حضارة إنسانية كاملة وواضحة وخالدة . إلا أن العرب المسلمين تعرضوا إلى نكسات ، فأصاب الحضارة الإسلامية بعض الركود والتأخر ، وأصاب الثقافة الإسلامية تخلف في مستواها ومسيرتها . وذلك يعود إلى أسباب تخرج عن الإسلام وتعود لانحراف بعض المسلمين عن الخط الصحيح الذي رسمه الرسول الأعظم ، رسول رب العالمين .

اشتمل الكتاب على احد عشرة فصلا : ذكرنا في **الفصل الأول** ما لابد منه من تعريفات ومصطلحات حضارية ، وميزنا بعض الفوارق بين الحضارة والتمدن والثقافة . والحضارة لا يمكن أن تكون منغلقة على ذاتها فتتأثر وتؤثر وتأخذ وتعطي . ولكل حضارة تاريخ وبصورة خاصة الحضارات القديمة : الفارسية والرومانية واليونانية ـ ثم الحضارة العربية قبل الإسلام .

ثم جعلنا **الفصل الثاني** من هذا الكتاب : عوامل تكوين الحضارة : الدين ـ الاقتصاد ـ العلم ـ الأخلاق ـ الثقافة ـ العامل النفسي ـ التربية ـ الموقع الجغرافي .

إن كل شجرة حضارة لها بذور وإرث حضاري لذلك أفردنا **الفصل الثالث** : بذور

الحضارة الإسلامية . وجدنا أن الإسلام أشاد بالعقل ومقوماته فدعا إلى التطوير ورفض التقليد وأثبت بالحجة والبرهان العلمي . وأما **الفصل الرابع** فتكلمنا فيه على أصول الحضارة الإسلامية : القرآن الكريم ـ والسنة النبوية الشريفة . وهنا كان لا بد من ذكر نواح عدة هامة في الإسلام : الناحية الدينية والناحية الاجتماعية والناحية الأخلاقية والناحية الاقتصادية والناحية العلمية والناحية الأدبية والناحية السياسية .

ثم انتقلنا إلى بقية الفصول الذي تضمن النظام المالي : المداخيل والمصاريف فقلنا إن المال في الإسلام والإنفاق في سبيل الله والإنسان ليس سوى ناقل لهذا المال من يد إلى يد . وانهينا الباب بالحديث عن الزراعة والصناعة والتجارة بأنواعها .

أما في **الفصل الثامن** فقد تحدثنا عن الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام فكيف تكوَّن المجتمع الإسلامي وما هي حقوق الذميين ، والإسلام ونظام الطبقات . والمرأة في الإسلام وكيف تم تحريرها وانصافها وانقاذها من الحياة المهنية قبل الإسلام .

وبعد الحياة الاجتماعية عطفنا في **الفصل التاسع** على الحياة الأدبية في صدر الإسلام وكيف تميز الأدب الإسلامي المتأثر بالقرآن الكريم . ويأتي دور الحديث الشريف وجهود العلماء المسلمين في مقاومة الوضع فيه وبيان أحوال الرواة بوضع قواعد ثابتة لمعرفة الحديث الموضوع وقد اعتمدها المؤرخون في أصول علم الرواية التاريخة . ثم التفسير بأنواعه والخطابة بأشكالها وأنهينا الفصل بالفن الأدبي في الحديث النبوي .

وبعد الفن الأدبي جاء دور الفن المعماري في **الفصل العاشر** تناولنا فيه بناء الأمصار والمدن والمساجد . وبعد تحدثنا عن شعار الإسلام الذي هو السلام ، ثم عن الحرية في الإسلام بألوانها المختلفة ، ثم عن مطالب الروح والجسد وكيف سوى الإسلام بينهما بعدل واعتدال وقفلنا الباب بغربة الإسلام في مجتمع الحضارة .

وأخيراً كان **الفصل الحادي عشرة** الذي اشتمل على المعارف في صدر الإسلام والحركة الفكرية التي منها البذور العلمية الضرورية والمفاتيح الأساسية لكل العلوم التي نمت وازدهرت وأثمرت في العصور التالية .

هذا ولا يخفى الأمر على كل ذي بصر وبصيرة أن الإسلام حقق إنسانية الإنسان وأعطاه مكاناً كريماً رفيعاً سامياً في نطاق الدين الجديد الذي هلَّ على العرب خاصة والعالم عامة خيراً وإصلاحاً وتطوراً وحضارة. إن تكريم الإنسان والمساواة بين جميع أفراد خلق الله يكمن في صلب العقيدة الإسلامية . فلا امتيازات ولا مذهبية ولا شعوبية ولا فضل

لإنسـان على الآخـر ، إلا بمقدار مـا يقدم من خـير لعباد الله . وذلـك إنطلاقـاً من الآيـة الكـريمة : ﴿ **يـا أيها النـاس إنـا خلقنـاكم من ذكـر وأنثى وجعلنـاكم شعـوبـاً وقبـائـل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ [الحجرات : 13] .

هذا ما استطعت تقديمه أيها الأخوة المؤمنون أرجو أن أكون قد أصبت في نهجه شيئـاً من التوفيق وما التوفيق إلا من عند الله بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

الفصل الأول

تعريف الحضارة وماهيتها

رأينا أن نعرف الحضارة أولاً لننفذ من خلال هذا التعريف إلى ماهيتها وجوهرها .

فما هو المقصود « بالحضارة » لغة واصطلاحاً ؟

إذا استنطقنا اللغة العربية وجدنا أن الحضارة تعني الإقامة في الحضر ، أي في المدن والقرى ، بخلاف البداوة ، وهي الإقامة المتنقلة في البوادي . جاء في لسان العرب : « والحضر خلاف البدو والحاضر خلاف البادي ، وبدا : خرج إلى البادية وأقام بها » .

ويقال : فلان من أهل البادية وفلان من أهل الحاضرة ، وفلان بدوي وفلان حضري . قال القطامي :

فمن تكن الحضارة أعجبته ... فأيَّ رجال بادية ترانا[1]

وأريد من الحضارة ما يستتبع الإقامة في الحضر من الاستقرار الذي ينشأ عن زراعة الأرض ، وهو السبيل الأكيد لأبناء المجتمع في مجالات التطور المختلفة . مما يستلزم تآزرهم وتعاونهم وتبادل الأفكار والمعلومات فيما بينهم في شتى شؤون الحياة ؛ من علوم وفنون ، وثقافة وعمران ، وما إلى ذلك مما يتصل بتقدم الإنسان . فإذا ولجوا هذه السبل تقدموا في فنون اكتساب العيش ، وفي بناء المدن وفي الانتظام الداخلي والتعامل الخارجي ، وعندها يكون لهم حظهم من الرفاه والإبداع ، ومن الحضارة بوجه عام .

ان اجتماع أهل الحضر في مكان معين وقرارهم به إنما يكون للتعاون على دفع الضرر عنهم ، وتحصيل أسباب المعاش بالزراعة والصناعة والتجارة ، والفنون والعلوم المختلفة

---

(1) راجع لسان العرب . وقال المتنبي في هذا المجال :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية ... وفي البداوة حسن غير مجلوب

والترقي بها حتى تصل إلى درجة الاتقان والجودة المرسومة لها . فالحضارة إذن هي مدى ما وصلت إليه كل أمة في نواحي نشاطها الفكري والعقلي من علوم وعمران ، وفنون ومعارف وأخلاق وأهداف سامية ، والترقي بها جميعها إلى أفضل مسالكها في مدارج الحياة حتى تصل إلى الغاية التي تواتيها . والحضارة عند ابن خلدون : « أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه ، وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر . . . »[2] وقد عرفها أيضاً ديورانت فقال بأنها : « نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من انتاجه الثقافي »[3] هذه التعاريف متقاربة في دلالاتها من بعضها ، وإن كانت لا تحيط بمفهوم الحضارة إحاطة كاملة من جميع جوانبها .

ونقف مع ابن خلدون وقفة قصيرة ، المؤرخ العربي والعالم الاجتماعي الذي عالج شؤون الحضارة بصورة منظمة واستحق أن يعتبر مؤسس « علم العمران والاجتماع الإنساني »[4] .

يقارن ابن خلدون بين البداوة والحضارة فيرى أن نحلة البدو من المعاش تقتصر على الضروري منه فيكون «اجتماعهم وتعاونهم وعمرانهم من القوت والسكن والدفء إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك »[5] .

ولما أفسحت لهم الحياة مجالها ليتطوروا انتقلوا عندها إلى أحوال جديدة ، فتكونت أجيال الحضر ؛ وصف معايشهم وصفاتهم موضحاً مدلولات الحضارة في التراث العربي بصورة عامة . قال :

« ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر ثم تزيد أحوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت

---

(2) المقدمة فصل : ان الحضارة في الأمصار من قبل الدول . والرفه : لين العيش رفه الرجل : لان عيشه . القاموس المحيط .

(3) مقدمة قصة الحضارة ج 1 ص 3 .

(4) المقدمة ص 38 .

(5) المقدمة ص 120 .

واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالاة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنجيدها والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غايتها فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها الماء ويعالجون في صرحها ويبالغون في تنجيدها ويبالغون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون . وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على نسبة وجدهم »[6] وإن هذا التمييز بين البداوة والحضارة قديم جداً نجده معاداً ومردداً في ما صح وصوله إلينا من تاريخ وأدب ونظم وعادات وأعراف وتقاليد من عناصر تراثنا .

ذلك أن التفاعل بين هذين النمطين من الحياة كان العامل الأساسي من عوامل ماضينا ، سواء في الاجتماع أو الأدب أو السياسة أو غير ذلك ، وحتى الآن نراه ما زال قائماً في مناطق عدة من مجتمعنا الحديث ، وله آثاره ورواسبه في مختلف نواحي حياتنا الحاضرة .

ومن الملاحظ أن هذا الوصف للحضارة عند ابن خلدون لا يحيط بها إحاطة كاملة . لأنه أهمل الأمور العلمية والمعارف الإنسانية . على أن العنصر الأساسي عنده في الحضارة هو إنشاء المدن وبناء الأمصار . ولذلك كان موضوع الفصل الرابع من المقدمة : « في العمران الحضاري والبلدان والأمصار » . كما يرى ابن خلدون أن القوم إذا سلكوا سبل العمران ، وأوغلوا في الصنائع وفي فنون التأنق وفي مظاهر الحضارة المختلفة تعرضوا حتماً للخراب . لأن الحضارة في نظره تحمل في ثناياها بذور الفساد ، وهي جيل طبيعي وغاية للبداوة ، ولكنها آخر أجيال العمران . يقول :

« كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوساً . وتبين في المعقول والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواه ونموها وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة ثم تأخذ بعد ذلك بالانحطاط . فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضاً كذلك لأنه غاية لا مزيد وراءها ، وذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها »[7] .

فغاية العمران عند ابن خلدون هي الحضارة والترف وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى

(6) المصدر نفسه ص 121 .

(7) المقدمة ص 371 .

فساد وخراب . والحضارة في نظره هي التفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه . وهنا نتوقف عند كلمة « تفنن » التي يرمي بها إلى الفن في معرفة الحياة ، والترقي في أساليبها ومناهجها وطرق أدائها . فالإنسان المتحضر هو الذي يتقن فن العيش من أجل حياة إنسانية كريمة راقية (L'art de vivre) أما الترف فهو الزيادة عن الحاجة في كل مناحي الحياة[8] وموجز القول أن مفهوم الحضارة عند العرب عموماً كان يدور على ذلك النمط من الحياة المناقض للبداوة[9] ، والمنشىء للمدن والأمصار ، المستقر فيها ، المتصف بفنون منتظمة من الملك والإدارة ، ومن مكاسب العيش ، ومن الصنائع والعلوم ، ومن وسائل الدعة والرفاه . وفي العربية الحديثة نجد كلمة « مدنية » مرادفة للحضارة ، وعلى الأرجح أنها مستمدة من الكلمة الفرنجية Civilisation .

المدنية :

وقد استعمل الفلاسفة العرب لفظة « مدني » بمعنى « اجتماعي » أخذاً عن اليونان الذين كانت المدينة عندهم مظهراً من مظاهر الاجتماع المنتظم المتحضر . يقول ابن خلدون :

« ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران »[10] . كما استعمل صيغة « التمدن » بمعنى التحضر فقال : « ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري إليها » .

والخلاصة أن المعنى الأصلي للفظتي الحضارة والمدنية إنما هو سكنى الحواضر أو المدن . والاستعمال العربي الحديث يطلقهما مترادفتين دون تخصيص أو تمييز . والأصلان العربي والأجنبي متعلقان كلاهما بالمدن والعمران .

الثقافة :

وكذلك نجد كلمة «Culture» تدل أيضاً على معنى الحضارة وهي مأخوذة عن اللاتينية «Cultura» من فعل Golere ومعناه حرث أو نمى ، وبقيت هذه الدلالة في العصور القديمة والوسيطة مقصورة على حراثة الأرض وتنمية محصولاتها . تلك الدلالة نجدها في كلمة «Agriculture» . أما شيشرون فقد استعملها بالمعنى المجازي ويقصد بها فلاحة العقل وتنميته . ولكن بقي هذا المعنى نادراً حتى أوائل العصور الحديثة حيث بدأت تستعمل في الانكليزية والفرنسية بمدلولها المادي والعقلي ، مع إضافة الشيء المقصود تنميته . «La culture du blé, La culture des lettres» .

---

(8) راجع حضارة العرب في عصر الجاهلية للمؤلف ص 14 .

(9) راجع المعاجم في تعريف الحضر والحضارة والبدو والبداوة .

(10) المقدمة ص 41 .

وبقيت هذه اللفظة على ما هي عليه حتى القرن الثامن عشر حيث وجدنا الكتاب الفرنسيين ومنهم « ڤولتير » مثلاً يطلقون لفظة Culture على المعنى المطلق لتدل على تنمية العقل والذوق . « وبعد هذا المحصل من المدلول العقلي والذوقي والأدبي انتقلت إلى العربية بلفظة ثقافة »[11] فلماذا عبر الافرنج عن الحضارة بلفظة فلاحة Culture ، وكيف ترجمها العرب بلفظة ثقافة ؟ إذا كانت الكلمة وليدة ظروف البيئة المعبرة عن حاجات الأمة ورغباتها وطموحاتها وظروفها الحياتية ، فأظن أن كلا الأمتين العربية والافرنجية قد أصابتا الهدف . فالافرنج كانوا يهتمون جداً بزراعة الأرض لأنهم وجدوا فيها ما يسد حاجاتهم المعيشية وما يسهل لهم الوصول إلى المعارف النشطة والعلوم المتطورة .

أما العرب فقد استعملوا الثقافة من ثقف الرمح إذا قومه وجعله مستقيماً ، ذلك أن حياتهم المبنية على الغزوات والحروب ، كان قوامها الرمح ، مصدر التغلب وآلة النصر في كل معركة . فلا غنى لأي بدوي عنه . والرجل الكامل عندهم هو الذي يحسن العوم والرمي والكتابة[12] .

والحضارة في ميزان العلم الحديث ظاهرة إنسانية عامة ، وليس من جنس بشري إلا وله نصيب من التحضر ، وليس من فرق إلا في المستوى[13] .

أما أرنولد فقد جعل مولد الحضارة يبدأ مع وعي الضمير ، وهذا يكون تاريخاً لبداية الحضارة[14] وهذا ما دعا أوجست كونت ، منشيء علم الاجتماع ، إلى وضع قانون للتطور الحضاري ، ذلك القانون الذي لا يحول بين الإنسان وبين أن يعمل في مواجهة الأحداث الحياتية . وتوضيح ذلك قال : « ان الحضارة الإنسانية لا يتم سيرها وفقاً لخط مستقيم ، وإنما وفقاً لمجموعة من التأرجحات المتباينة وغير المتساوية ، وعن طريق المعرفة الحقيقية لمركز هذه الحركة يمكننا تنظيم هذا التأرجح الطبيعي مقدماً ، كما يمكننا العمل على التقليل من تلك التأرجحات ومن هذا التردد .

والأفراد في نظر كونت لديهم القدرة على تأخير أو تقديم حركة التاريخ . والكلمتان الفرنسية والانكليزية مشتقتان من اللاتينية من : Civis أي المدني أو المواطن في المدينة . ثم أخذت تستعمل مجازاً في ما بعد . وينتهي بنا المطاف بعد هذا الاستعراض السريع

(11) حضارة العرب في عصر الجاهلية للمؤلف ص 15 .

(12) حضارة العرب في عصر الجاهلية للمؤلف ص 15 .

(13) الحضارة العربية لحسين مؤنس ص 49 .

(14) المصدر السابق ص 91 .

أننا لا نجد لهاتين الكلمتين في اللغات الغربية الحديثة تحديدات مستقرة وتمييزاً واضحاً بوجه عام . إلا أن بعض الكتاب أطلقوا Culture على المظاهر المادية للحضارة : كالصناعة (والتكنولوجيا) وأمثالها و Civilisation على المظاهر العقلية والأدبية ، ولكن هناك من ذهب إلى العكس من هذا تماماً . يقول باحث أمريكي : « إن النقاد الأوروبيين الذين يقرون بتقدم أمريكا المادي ولكنهم يعتبرونها متأخرة في الميدان الثقافي يكادون ينقسمون قسمين متعادلين بين الذين يصفون أمريكا بالتقدم في ما يدعونه Civilisation والتخلف في ما يدعونه Culture وبين الذين يقولون العكس »[15] .

وكما ترى أن هذا المفهوم لم يبلغ بعد ما أريد له من الضبط والدقة بين جمهور المثقفين ولا يزال اضطراب الدلالات قائماً بين لفظة Culture ولفظة مرادفتها Civilisation وهنا لا بد لنا من العودة إلى ابن خلدون في هذا المنحى ، فإن له محاولة علمية سابقة تأتلف مع سوابقه الأخرى لتبرز مكانته في علم الاجتماع . يقول إن العلم الذي يباشره مستحدث الصنعة وكأنه علم مستنبط النشأة . . . فإن كنت قد استوفيت مسائله ، وميزت من سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله وهداية ، وان فاتني شيء في إحصائه واشتبهت بغيره فلناظر المحقق إصلاحه ولي الفضل لأني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق والله يهدي بنوره من يشاء »[16] .

إن علم العمران عنده هو ما يقصده علماء الاجتماع اليوم Culture ومفهومه مفهوم شامل يتناول الحياة الاجتماعية بكاملها ويضم مختلف أشكالها وألوانها وحالاتها . ونستدل على ذلك من نصوص عديدة ، منها تعريفه لعلم العمران : « بأنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض له من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال »[17] .

ويمر العمران بأطوار أهمها : العمران البدوي والعمران الحضري . والعمران عنده هو نمط الحياة بصورة عامة ، وبمعنى وصفي غير تقويمي حيث يشمل أحوال المجتمعات البدائية والمتحضرة على السواء .

---

(15) في معركة الحضارة للدكتور قسطنطين زريق ص 36 .

(16) المقدمة ص 38 وص 40 .

(17) المصدر نفسه ص 35 .

وبعد هذا الاستنطاق اللغوي لكلمة حضارة ، ما هو مفهومنا نحن للحضارة ؟ وما هو مفهوم العرب لها في عصر صدر الإسلام ؟ .

يتألف المجتمع من أفراد وكتل بشرية يجب أن يكون بينهم شيء من الترابط الداخلي والتعاون والتآزر لبلوغ هدف خير موحد ، وبذلك يتميز كل مجتمع عن غيره من المجتمعات الأخرى . وحضارة هذا المجتمع تتمثل في نظمه ومؤسساته ، وفي مكاسبه وإنجازاته ، وفي القيم والمعاني التي تنطوي عليها حياته . فالمجتمع بعد هذا يشبه الجسد والحضارة روحه التي يحيا بها . والتنسيق والانسجام بين الروح والجسد أمر واجب وضروري من أجل حياة راقية كريمة . وبعد هذا نخلص إلى القول :

« ان الحضارة تجسيد عملي للنشاط الفكري عند الإنسان عبر اجتيازه معارج الحياة ؛ وتاريخ الحضارة سجل حافل لتطور عطاء هذا الفكر ومدى فعاليته في مختلف نواحي الحياة : من اقتصادية وسياسية واجتماعية وادارية وحربية وأدبية وعمرانية ؛ كما تتناول الحضارة إلى جانب ذلك وسائل انتاج الإنسان ومستوى معيشته ، وفنونه الجميلة ومعتقداته الدينية ، وكيفية تحصيله علومه ، وطرق صياغة آدابه ، ووسائل كفاحه المستمر مع نفسه أولاً ، ومع الطبيعة ثانياً من أجل البقاء »[18] .

« إن الحضارة الإنسانية هي إمكانية صراع الإنسان مع نفسه ومع الطبيعة ، وطرق أدائه لحاجاته المختلفة ، واختصاره الزمن لبلوغ حياة أبقى وأنقى وأرقى »[19] .

وبهذا التعريف سوف نتلمس معالم حضارة العرب في صدر الإسلام في مختلف مناحيها المادية والروحية . وما هو مفهوم الإسلام للحضارة الإنسانية ، وما هي الدرجات التي بلغها المسلمون على السلم الحضاري العالمي ؟

وإذا كان المجتمع جسداً والحضارة روحاً ، كيف عالج المسلمون الجسد والروح ، وما هي نظرة الإسلام الواقعية للتنسيق المتكامل بين مطالب الجسد ومَطالب الروح ؟

وهل كانت حضارة العرب في صدر الإسلام انطلاقاً خيراً ليقظة الضمير الإنساني وبداية طيبة لبزوغ نور الحياة الإنسانية الحرة الكريمة ؟

ما هي وقائع المجتمع العربي في تلك الفترة من الزمن ؟ وما هي المعوقات والصعوبات التى واجهها العرب في طريقهم لبلوغ حياة متحضرة راقية ؟ وهل نجحوا في

(18) حضارة العرب في عصر الجاهلية للمؤلف ص 16 .

(19) المرجع نفسه ص 16 .

تذليلها وتغييرها ؟ كيف تم لهم ذلك وما هي النتائج التي حصلوها ؟

ونوجز القول : ما هي الخطوات العملية والتغييرات الجذرية التي قدمها العرب في صدر الإسلام على الصعيدين الحضاري والإنساني ؟

الحضارات القديمة

وجدنا من المستحسن قبل التكلم على الحضارة الإسلامية ، والفكر الإسلامي ، أن نلم إلمامة خفيفة بحال الحضارات القديمة قبل الإسلام ، لأن ذلك يكشف لنا عن الظروف والأحوال التي سبقت ميلاد الحضارة الإسلامية ولابستها .

يرى كثير من المؤرخين أن الحضارة الإسلامية مزيج من الحضارات القديمة الكبيرة في الشرق كالفارسية واليونانية والرومية والهندية . . . وهذا أمر طبيعي في نمط النشوء الحضاري . ذلك أن أي حضارة في العالم قد مرت بدور الاقتباس والتقليد ثم تطورت ونمت حتى أصبحت تعطي وتبدع في جميع ميادين المعرفة .

وكذلك هي الحضارة الإسلامية ، والدين الإسلامي أتى ليكمل ويتمم الأديان السابقة فهو سلسلة الإيمان الديني الإلهي . يعترف ويصدق كل ما جاء في الرسالات السماوية ويؤمن بالرسل والأنبياء جميعاً المذكورين في التوراة والإنجيل . قال تعالى : **﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً . . . ﴾** فالحضارة العقائدية القديمة موجودة مع وجود الديانات السماوية قبل الإسلام وبصورة خاصة في الجزيرة العربية .

الحضارة الفارسية

كانت بلاد الفرس قبل الإسلام أمبراطورية كبيرة من أشد دول العالم بأساً وآثاراً في الأرض . وكان أهلها في بادىء أمرها صابئة يعبدون الشمس والقمر والكواكب . ثم غلبت عليهم المجوسية (عبادة النار)[20] وصارت الدين الرسمي للدولة ، وبعدها انتشرت فيهم نحلة الثنوية[21] وهي الاعتقاد بوجود قوتين علويتين : اله الخير واله الشر . ثم فشت فيهم بدعة المزدكية[22] ، وهي مذهب إباحي .

---

(20) على يد زرادشت .

(21) على يد الزنديق ماني .

(22) على يد مزدك الاباحي . ومن تعاليمه أن الله جل وعلا إنما جعل الأرزاق في الأرض لتقسم بين الناس بالتساوي ، ومن كان عنده فضل من النساء والأموال والأمتعة فليس هو بأولى به من غيره . وهنا ظهر السفلة واغتنموا الفرصة .

كما ظهرت النصرانية بمذهبيها المتعادلين : النسطوري واليعقوبي .

وهكذا كما نرى تعددت فيهم النحل والبدع ، وتنازعتهم المعتقدات الفاسدة وشغلتهم عن القيام بواجباتهم الاجتماعية والإنسانية لمجتمعهم .

أما ملوكهم فكان البعض منهم ينصرون هذا المذهب ، والبعض الآخر يعارضونه فضعفوا ووهنوا وفسد مجتمعهم .

وإذا كانت الحضارة وحدة متكاملة ، لم تكن حالتهم السياسية بأفضل من حالتهم الدينية . يذكر التاريخ أن صراعاً حربياً محلياً جرى بين الساسانين (الفرس) والبيزنطيين في الشرق ، وبينهم وبين الترك في الشمال .

وكان العرب في الغرب يتربصون بهم الدوائر في كل آن ، وقد توصلوا إلى الاعتداء عليهم ولا سيما قبيلة بكر بن وائل ؛ فقد حاربت الفرس وانتصرت عليهم في الموقعة المعروفة بذي قار التي جرت عام 604 م .

ومما يبدو أن الحروب كانت مستمرة عندهم، الخارجية والفتن الداخلية ، وليس أدل على الحالة السياسية المضطربة من أنه تعاقب على الملك في السنوات العشر التي سبقت الفتح الإسلامي « اثنا عشر ملكاً بين رجل وامرأة وصبي صغير ومغتصب من غير بيت الملك » ومن صفات ملوكهم الانغماس في اللهو والترف والاسراف في الشهوات الرخيصة والاستكبار على الشعب ، متوهمين أنهم من معدن آخر ومن طينة غير طينة العامة . هذه الحروب المتواصلة وذلك البذخ والاسراف كان مدعاة لاستنزاف دماء الشعب ، وفرض الضرائب الباهظة ، وجمع الأموال بعنف لا هوادة فيه .

كل ذلك سبب فشل الاقتصاد في البلاد والانحلال في كل مرافق الدولة التي كانت تزاحم الرومان وتنافسهم في السيادة على العالم ، والتي كانت لها حضارة مزدهرة أفادت منها الحضارة الإسلامية إفادة جلى كما أسهمت في تقدم الحضارة الإنسانية عامة .

الحضارة الرومانية

توسعت دولة الروم توسعاً كبيراً حتى بلغت من السلطان ما لم تبلغه دولة أخرى في زمانها ، حيث بسطت سلطانها على أكثر بلاد المعمورة . كانت تدين بالوثنية ، ثم تحولت إلى المسيحية في عهد قسطنطين الأكبر 324 ـ 337 م بعد منازعات ومشاحنات بين أرباب الديانتين . ثم أصبحت المسيحية دين الدولة الأوحد في عهد الأمبراطور تيودسيوس (349 ـ 394 م) . وفي خلال هذه المنازعات انقسم المسيحيون على

أنفسهم في شـأن عقيـدتهم ، ودار الجـدل بينهم حتى تعـددت آراؤهـم ومجـامعـهم الدينية(23) .

والأبـاطرة كـانوا هم أصحـاب الرأي والسيـطرة ، يضعفون هـذه العقيدة ويقـوون الأخرى والتاريخ يذكـر ما أصـاب مسيحيي مصر في عهد دقليـانوس سنـة 304 م الذي قتل علماء الملة وزعماءها ليحمي الوثنية . ومنذ ذلك الوقت أخذ الأقباط يؤرخـون بوقعـة شهدائهم حتى يومنا هذا .

هذه الفتن الداخلية والانقسام فيما بينهم شغلهم عن تدبـير الملك وسياسـة البلاد ، فـاختلت موازين الأمـور ، وفسدت الأحـوال في البلاد واضـطربت شؤون الـولايـات ، ودبت الفوضى في جميع أطراف الأمبراطورية الرومانية .

وفـوق هذا كله لا ننسى أن الأبـاطرة كـانوا مشغـولين بملذاتهم الشخصيـة ، يلهثون وراء شهـواتهم ، مترفعـين على شعـوبهم ، همهـم الأطيبـان : المـآكـل الشهيـة والنسـاء الفـاتنات . أضف إلى ذلـك الحروب بينهم وبـين الفرس التي لا تكـاد تخبو نـارهـا ، مما اضطر الدولة والحالة هذه من الانحلال والفوضى ، إلى فرض الضرائب الفادحة وجبايتها بوسائل القسوة والعنف لتغطيـة نفقات الحروب الباهظة وبـذخ الأباطـرة اللامحـدود . مما أدى إلى تدهور الحالة الاقتصادية في البلاد وانتشار العوز والفقر بين أفراد الرعية .

الحضارة اليونانية

يذكر التاريخ أن اليـونان أو الاغـريق سكنوا قـديماً جـزيرة البلقـان وجزر بحـر ايجه وسـواحل آسيـا الصغرى (تـركيا) . وكـان لهم مستعمرات سكنيـة على سـاحل البحـر الأسود . ولم تكن لهم دولة واحدة وإنما كانوا مجموعة من الـدويلات رغم وجـود الوحـدة العرقية والثقافية بينهم . وقد عرف من مدنهم المشهورة : (أثينا) مدينـة الفلسفة والعلم والمعرفة .

ومدينة اسبارطة : المعروفة بمدينة الحرب والقوة العسكرية . وقد وقعت الحرب بـين المدينتين زمناً طويلاً دون أن تنتصر الواحدة على الأخرى ، إلا أنه أخيراً انحلت اسبرطـة وانتصرت أثينا بعد خسائر فادحة في الأرواح والأموال .

عرفت اليونان بوجود رجالات عـظام نبغوا بـالفكر والأدب أمثـال هومـيروس الذي

---

(23) راجع ما ذكره ابن خلدون بشأن العقيدة التي يسمونها الأمانة المتعلقة بالثالوث .

وضع الالياذة المشهورة والأوذيسة . وفي ميدان الفلسفة بشتى فروعها النظرية وما وراء الطبيعة والمنطق والأخلاق عرف أفلاطون ، وأرسطو ، وسقراط ، وأبيقور ولكل منهم نظرة مختلفة عن الآخر بالنسبة للطبيعة وما وراء الطبيعة . وفي حقل التشريع والقانون أهم علمائهم (صولون) و (دراكون) . وفي العلوم العامة والرياضيات كان إقليدس .

وقديماً كانت الزراعة عماد حياتهم إلا أن الصناعات الغذائية كملتها . ثم نشطت عندهم التجارة . ولكن رغم تفوقهم الفكري والثقافي والعلمي لم يبسطوا يدهم الاستعمارية على البلاد المجاورة .

كان المجتمع اليوناني مقسماً إلى ثلاث طبقات : 1 ـ أغنياء إقطاعيون . 2 ـ أصحاب مهن وفلاحون وعمال . 3 ـ العبيد . أما نظام الأسرة في أثينا فكان مغايراً لما كان عليه في اسبارطة إذ أن الأول اعتمد على نمو الفكر والثاني على القوة العسكرية .

وأخيراً الناحية الدينية كانوا كغيرهم من الأمم الأخرى في تلك المرحلة البدائية وثنيين ، يعتقدون بوجود آلهة متعددة كبيرها (زوس) زعموا أنه سكن قمة جبل أولمب ـ وله أخ اله البحار اسمه (توسيدون) وابن أخ اسمه (أبولو) اله الفن والجمال . وابنته هي آثينا الٰهة الحكمة . وهناك آلهة أخرى : آله الحب ، وآله الخصب وآله الخمر . ولا ننسى الفن اليوناني الرائع الذي أدهش عقول البشر ، فن النحت والعمارة وبصورة خاصة تزيين الأعمدة وزركشتها بالأشكال المختلفة من النباتات والزهور وبعض الحيوانات . . .

ونقطة هامة جداً في تقدم الحياة الاجتماعية عند اليونان ، ألا وهي الحرية . حيث كان لها الدور الهام في التقدم الحضاري والإنساني .

حقاً لقد بلغت هذه الدول شوطاً بعيداً في الحقل الحضاري حتى بلغت قمة المجد قبل الإسلام وكان لا بد لها من أن تنحدر بتأثير العوامل التي ذكرناها ، وهي البعد عن الخط الإلٓهي والخط الإنساني . وليس بمستغرب أن يسقطوا وينهاروا لأن هذه سنة الله في خلقه ، ﴿ **ولن تجد لسنة الله تبديلاً** ﴾[24] و ﴿ **لن تجد لسنة الله تحويلاً** ﴾ [فاطر : 43] .

يقول علماء الاجتماع وأصحاب النظر البعيد بسنن الكون وأحوال العمران الإنساني : أن الارتقاء على السلم الحضاري دور من أدوار كل أمة ولا بد لها من اجتيازه

(24) الأحزاب الآية 62 وفاطر الآية 43 والفتح الآية 23 .

عندما تتهيأ لها الظروف ، وأن ذلك لا ينالها إلا مرة واحدة في حياتها . هي فرصة العمر عليها أن تتهيأ لاقتناصها قبل فوات الأوان .

والأمة في ترقيها لها قمة معينة ، قد تبلغها حسب جدها واجتهادها وعلومها ومعارفها ، وهي في قوة صعودها الحضاري كالحجر الذي نقذف به إلى الأعلى ، يتصاعد ارتفاعاً حسب قوة اليد القاذفة ومهارتها ليبلغ علواً معيناً ثم يبدأ بالنزول رويداً رويداً حتى يعود إلى النقطة التي انطلق منها .

أما تساقط حضارة الأمة وانهيارها ، فلا ينزل في انحداره إلى الصفر ، حسبما يقول بعض علماء الاجتماع المعروفين . كما حصل لتلك الدول الثلاث : الفرس والرومان واليونان . حيث بلغت أعلى قمة مجدها قبل الإسلام ، ثم بدأت بالانحدار بعد ذلك المرتقى العظيم وبدأ غيرها من الأمم في ترتقي الطريق الذي تركته .

وبهذا المعنى قال أحد الشعراء :

لكل شيء إذا ما تم نقصان

وقال غيره :

إذا تم شيء بدا نقصه ترقب زوالاً إذا قيل تم

ومع ذلك لا يمكن إلا الاعتراف بأن الحضارة الإسلامية قد استفادت كثيراً من حضارة هذه الأمم التي ذكرناها . وبدا ذلك واضحاً في تراثها الأدبي والفكري والفلسفي والعلمي والاجتماعي . . . كما سنبين فيما بعد .

الحضارة العربية قبل الاسلام

كانت الجزيرة العربية على صلات وثيقة مع جيرانها عن طريق التبادل التجاري والثقافي . فقد كانت طريقاً للتبادل التجاري بين الممالك المتاخمة . وكانت مكة أهم المراكز التجارية . فقد استغل القرشيون صلاتهم التجارية ومكانة مدينتهم التجارية ، فنظموا رحلاتهم على موسمين في الشتاء إلى اليمن لشراء السلع ، وفي الصيف إلى الشام لبيعها . وقد ازدهرت تجارتهم حتى بلغت قافلتهم خمسمائة وألف بعير كما يروي الطبري .

كما كانت جزيرة العرب هدفاً للتيارات الثقافية الأجنبية ، فانتشرت فيها اليهودية والنصرانية ، ومصطرعاً للنفوذ الفارسي والروماني ، ولكن محاولاتهم كانت تبوء بالفشل

فرأوا أن يمدوا نفوذهم السياسي عن طريق إمارتين أقاموهما على التخوم ، إمارة الحيرة على تخوم الفرس ، وإمارة الغساسنة على تخوم الرومان . وقد كان لهاتين الامارتين أثر كبير في نمو الحضارة العربية . أهم مراكز الحضارة العربية : مكة والمدينة والطائف واليمن .

مكة

وسميت بكة وأم القرى ، ترجع أهميتها إلى موقعها الجغرافي ومكانتها التجارية ، فهي ملتقى القوافل التي كانت تؤم الجزيرة قبل الإسلام وبعده ، وهي أيضاً المركز الديني الأول لعرب الجاهلية . ففيها الكعبة التي كانوا يقيمون فيها أصنامهم .

أوكل أمر مكة وحجابة الكعبة إلى قصي بن كلاب بعد أن كان ذلك بيد خزاعة . وقد أنشأ دار الندوة ، حيث كان يجمع كبار قريش للتداول في الشؤون العامة والخاصة ، ويطعم الحجيج ويتولى سقايتهم ويروي ضيوف الله .

ومن الأمور التي ساعدت في رفع مكانة مكة بين العرب ، بالإضافة إلى مركزها الديني والتجاري ، أنها وضعت حلف الفضول ؛ فلقد تداعت بعض القبائل ، بنو هاشم وبنو عبد المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة « فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه ، حتى ترد عليه مظلمته » .

وقد استفاد القرشيون من المكانة الكبرى التي احتلتها مدينتهم ، من ذلك اختلاطهم بأمم مختلفة تتكلم بلغات متعددة مما حملهم على تعلم تلك اللغات تسهيلاً للتعامل مع أهلها . وقد أخذوا في جاهليتهم كثيراً من كلمات مصرية وحبشية وفارسية وأدخلوها في لغتهم .

المدينة

وتدعى يثرب ، تلي مكة في الأهمية ، وتمتاز أراضيها بالخصب ، لذلك ازدهرت فيها التجارة . وقد سكنها العمالقة بادىء الأمر ، وظلوا فيها إلى أن تغلبت عليهم بعض قبائل اليهود وكان من أثر دخول اليهود أن تقدمت فيها الزراعة تقدماً ملحوظاً ، وانتعشت صناعة الحرير والأسلحة والتجارة . وقد بقي فيها اليهود إلى أن نزح إليها الأوس والخزرج من بلاد اليمن ، ووقع نزاع تارة مع الأوس وطوراً مع الخزرج ، إلى أن كان يوم (بُعاث) وهي من أعمال يثرب وكان النصر حليف الأوس بعد أن تحالفوا مع اليهود ضد الخزرج . ولم يمض زمن طويل حتى تم دخول الرسول (ص) إلى المدينة وبدأ عهد جديد لتنظيم شؤونها .

الطائف

تقع على بقعة مرتفعة مما جعلها مصيفاً لطيفاً للمكيين ، تمتاز بخصب تربتها وكثرة مياهها وجودة مناخها . وقد أعطاها هذا الموقع الطبيعي مكانة تجارية عظيمة . فكانت ممراً للقوافل القادمة من شمال الجزيرة إلى جنوبها ، ومن العراق إلى اليمن . وقد كان بينها وبين مكة علاقات تجارية مميزة بسبب كونها مصيفاً يقصده كبار تجار قريش . وقبيلة بني ثقيف كانت تسيطر على المدينة وتعمر أرضها وتعتني بزراعتها .

اليمن

يقال أن اسمها مشتق من اليُمْن وهو الخصب ، وهي مشهورة بخصب أرضها ، ووفرة مياهها وكثرة معادنها . وفوق ذلك تتميز بموقعها الجغرافي الاستراتيجي حيث كان لها صلات تجارية واسعة مع الهند والحبشة ومصر وفارس ، وشمال الجزيرة العربية وغيرها من البلاد . ومن حاصلاتها : العطور والصموغ والجلود والمنسوجات ، كما كانت تتجر في حاصلات الشرق الأدنى التي كانت تجلب إليها بحراً ، ثم تنتقل إلى ممالك البحر الأبيض المتوسط عن طريق الحجاز أو البحر الأحمر[25] .

وما يستدل من الاطلال الباقية في اليمن ، ومن النقوش التي كشفها الباحثون ، ومن النقود اليمنية التي عثر عليها أخيراً في صنعاء ، ومن النقوش التي وجدت في شمال الجزيرة ، والتي تشير إلى وجود علاقات تجارية مع اليمن ، ومما ذكره القرآن الكريم ، عما كان بين بلقيس ملكة سبأ وسليمان (ع) ، يدل على أن بلاد اليمن كانت بها فيما سلف من الزمان ممالك ذات مدنية وحضارة[26] أما من حيث الناحية السياسية فلم يكن ملك اليمن صاحب شأن وسلطة يرهب غيره ، يدل على ذلك تخوف الملكة بلقيس ، وهي من أشهر ملوكهم ، حين تسلمت رسالة النبي سليمان (ع) وقولها لقومها :

﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ﴾ [النمل : 34] وقول سليمان (ع) مهدداً لها : **﴿ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾** [النمل : 37] .

هذه هي أهم المراكز الحضارية في جزيرة العرب قبل أن يشرق عليها نور الإسلام ، وقبل أن تحدث تلك النهضة الرائعة التي غيرت أوضاع الجزيرة تغيراً جذرياً كاملاً من جميع نواحي الحياة .

---

(25) حضارة العرب لجوستاف لوبون ص 106 .

(26) المصدر نفسه ص 108 .

حياة العرب السياسية قبل الاسلام :

كان معظم سكان الجزيرة العربية قبائل بدوية يعيشون من مصدر واحد ، تربية الماشية لا يجتمعون تحت لواء واحد ولا يعترفون بسلطة عامة . وعندما يجف الماء ويخف الكلأ يعمدون إلى الغزو والحروب . غير أن الأمر كان يختلف في المراكز الحضارية التي ذكرناها .

فمكة مثلاً كانت مقر قبائل متجاورة في مساكنها ، مما أوجد فيها نوعاً من توزيع العمل والاتحاد المصلحي . لكنها بقيت شديدة التمسك بشخصيتها تأبى الاندماج بسواها فالفرد من سكانها ظل ينتمي إلى قبيلته وليس إلى مدينته . غير أن القرشيين عرفوا نوعاً من مجالس الشورى ، كدار الندوة ، يجتمعون فيها للتشاور في الأمور الخاصة والعامة . وقد تميزت الكعبة بمنصب ديني كبير ، تحفظ فيها الأصنام وتعنى برعاية الحجاج . وهذه الأمور تكسب القائمين عليها شهرة ومكانة عالية بين العرب .

وما أفادتنا به المصادر التاريخية أن خمسة بطون من قريش توزعت فيما بينها الأعمال الدينية :

أ ـ **السقاية والعمارة** : كانت لبني هاشم (سقاية الحجيج والمحافظة على الآداب في البيت الحرام .

ب ـ **السدانة والحجابة** : لبني عبد الدار (خدمة البيت) .

ج ـ **الرفادة** : لبني نوفل (ما تقدمه قريش من أموالها لترفد به المنقطع من الحجاج) .

د ـ **الايسار** : لبني جمح (الأزلام التي يفزع إليها في الملمات) .

هـ ـ **الأموال المحجرة** : لبني سهم (الأوقاف التي يقدمونها لآلهتهم) .

أما عن القضاء في الجاهلية ، ما وصل إلينا أن العرب لم يعرفوا القضاء بالمعنى الصحيح ، إنما كانوا يحتكمون في ما بينهم من خلاف إلى شيخ القبيلة لثقتهم به . ولم يكن محاكم لهؤلاء الحكام « وإنما في بيته يؤتي الحكم » والقانون الذي يستند إليه الحاكم هو الأعراف والعادات والتقاليد ، وحكمه لم يكن ملزماً للمتخاصمين .

حياة العرب الاجتماعية قبل الاسلام

كان العرب في الجاهلية ينقسمون إلى قسمين : بدو وحضر ، وحياتهم بسيطة كل

البساطة . لباس بسيط وأكل بسيط ، وبيت بسيط ، وحياة فكرية بعيدة عن الغموض والتعقيد .

فالبدو يعيشون متنقلين في الصحراء طلباً للكلأ والماء ، والحضر يعيشون حياة مستقرة في الحواضر ويشتغلون في التجارة معتمدين في غذائهم على الألبان واللحوم والتمور والحبوب وكان شرب الخمر ولعب الميسر والصيد من وسائل اللهو التي عرفوها .

ولم تكن هناك رابطة تربط بينهم أشد من العصبية القبلية ، وهذا ما دعاهم إلى الاهتمام بأنسابهم اهتماماً كبيراً .

يتألف المجتمع القبلي الجاهلي من ثلاث طبقات : الأحرار والموالي والارقاء .

1 ـ الأحرار

وهم الطبقة العليا من القبيلة لهم امتيازات خاصة ، وقد صورهم لنا الرواة من الظالمين الطغاة والأنانيين ، همهم ملذاتهم وشهواتهم .

والأعشي يصور لنا بطش الملوك بالناس وتخريبهم البلاد قال :

إذا ما سار نحو بلاد قوم   ازارهم المنية والحماما[27]

وقد حاز الملوك الكثير من الجواري وبنوا القصور الواسعة، وعبوا من لذائذ الحياة ما لذ لهم وطاب وتنزهوا واصطادوا وتلهوا .

ويكتسب الشرف عندهم من طرق عدة الطريق الأول والأهم النسب ، فقد يكون الفرد من أبناء الملوك والسادة والأثرياء فيرث عنهم النسب والجاه والمال دون بذل جهد وكد ذهن .

وقد يكسب الشرف من القيام بأعمال بطولية عظيمة وأهمها الظفر بالحرب . يقول الأعشى مفتخراً :

لو أن كل معد كان شاركنا   في يوم ذي قار خطاهم الشرف[28]

وقال عنترة الذي بيّض شبه ببطولته الخارقة ما قاله الشاعر :

سيذكرني قومي إذا جد جدهم   وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

كما عرفنا أن بنات الأشراف لا يتم تزويجهن إلا من رجال في منزلتهن ، ولذلك كثرت العوانس والقواعد منهن[29] .

(27) راجع حضارة العرب في عصر الجاهلية للمؤلف ص 119 ديوان الأعشى قصيدة 29 .

(28) الديوان القصيدة 24 .

(29) الأغاني ج 13 ص 226 .

« والرواة خصوا هذه الطبقة العليا في مجتمعهم ، طبقة الأشراف ، باهتمام بالغ ، فاكتفوا بذكر قتلاهم وحدهم في المعارك دون سائر المحاربين الآخرين »(30) .

2 ـ الموالي .

الطبقة الثانية في المجتمع الجاهلي . والمولى عبد أعتقه سيده فأصبح حراً ، له ما للأحرار وعليه ما عليهم ؛ ولكن يظل مرتبطاً بسيده القديم برابطة تسمى رابطة الولاء . فالمولى إذا مات ولم يكن له وارث ورثه معتقه ، وإذا قتل دفعت ديته إلى معتقه ، وإذا كان المولى أمة تخطب من معتقها ، فهو الذي يقبض مهرها . وفوق هذا فالمولى لا يباح له أن يتزوج حرة ، وديته نصف دية الحر . وهو ينسب إلى سيده السابق الذي أعتقه .

ولفظة مولى كانت تطلق على مولى العتاقة ، أي العبد الذي يعتقه سيده ، ولكنهم تصرفوا في هذا المعنى فأصبح يدل أيضاً على :

أ ـ مولى الموالاة ، وهو الذي يوالي رجلاً ويجعل له ولايته وتصرفه .
ب ـ مولى الحلف ، وهو الذي يحالف آخر على الحرب .
ج ـ مولى الرحم ، وهو الذي يتزوج من قبيلة ويعيش فيها وينسب إليها .

المرأة في الجاهلية

كانت ضحية تقاليدهم الظالمة والمهينة ، فقد كانت عرضة للسبي في الغزوات ، وعرضة للوأد في السلم . فإذا ولد لرجل بنت خشي على نفسه العار أو الفقر ، فإما أن يبقيها لرعي إبله وغنمه ، وإما أن يئدها حية في حفرة ثم يهيل عليها التراب . وهناك نقطة ثالثة سوداء في تاريخ الجاهلية هي :

تعدد الأزواج ، أي أن تجمع امرأة بين عدد من الأزواج في وقت واحد . . وكانت إذا أرادت تطليق زوجها تحوِّل فناء خبائها من جهة إلى أخرى ، فإذا أفاق الرجل ووجده قد تحول علم أن امرأته قد طلقته فيتركها إلى زوجة أخرى .

حياة العرب الاقتصادية قبل الاسلام

لم يعرف العرب الزراعة ، إلا في بعض المناطق الخصبة في الجزيرة ، التي تتوافر فيها المياه ، لأن الأكثرية كانت تعيش على ما تعطيه الماشية . غير أن التجارة كانت مزدهرة نوعاً ما ، لأن جزيرة العرب كانت منذ القديم طريقاً عظيماً لها ، وكان التجار يخرجون

---

(30) حضارة العرب في عصر الجاهلية للمؤلف ص 121 .

بسلعهم في قوافل ، وفي الشتاء وفي الصيف .

أما الصناعة فلم يكن لها نصيب وافر في حياة الجاهليين إلا بشكل بدائي يكاد لا يتعدى حدود حياتهم الساذجة . وكانت الأسواق تزدهر في مواسم الحج حيث كان يتوافد التجار من كل حدب وصوب لعرض بضائعهم ومنتوجاتهم الزراعية في الأسواق ، كما كانوا يعرضون في الوقت نفسه انتاجهم الأدبي فتنشد القصائد الطويلة .

حياة العرب الفكرية قبل الاسلام :

في هذه المرحلة البدائية تميز العرب بسذاجة علمية تتصف بضعف التحليل ، وعدم ربط العلة بالمعلول ربطاً علمياً ومنطقياً ، وهذا ما يشرح لنا ما كانوا عليه من الخرافات والأساطير[31] سبب كثرة الأساطير دليل على قصورهم في تعليل الحوادث ورجوعهم إلى العرافة والكهانة وزجر الطير لمعرفة مستقبلهم .

تميز البدوي ، بنظرته الجزئية إلى الأمور ، بعيدة عن الشمولية كما كانت الحال عند اليونان مثلاً . من هنا اتسم انتاجهم الأدبي بضعف المنطق في غالبيته وعدم الترابط بين الأفكار . وإذا أردنا أن نحصي مظاهر الحياة الفكرية في الجاهلية وجدنا أنها لا تتعدى بعض المعارف المتفرقة في اللغة والشعر والخطابة والقصص والأمثال ، يضاف إلى ذلك علم الأنساب والعيافة والريافة والفراسة وبعض المعارف الفلكية ورصد النجوم[32]

وقد اكتسبوا هذه المعارف بالتجربة الظاهرة المعتمدة على الحس والملاحظة العابرة وقادتهم إليها طبيعة حياتهم المتنقلة ، والغير مستقرة ، وبيئتهم الصحراوية الجافة والقليلة الموارد . وكان التطبيب عندهم على نوعين :

أ ـ تطبيب يعتمد على شرب الأدوية البسيطة كالعسل والسمن وغيره وبتر العضو المريض في حالة اليأس من شفاء المريض ، أو الكي بالنار وهو آخر علاج عندهم .

ب ـ والتطبيب عن طريق الكهان والعرافين ، كان يتم بالتقرب من الأصنام والرقى . حيث أنهم كانوا يزعمون أن الشياطين الساكنة في المريض تخرج منه بالضرب الموجع وهي المسببة لكل الأمراض المستعصية .

---

(31) راجع الأسطورة عند العرب في الجاهلية للمؤلف .

(32) راجع حضارة العرب في عصر الجاهلية للمؤلف .

حياة العرب الدينية قبل الاسلام :

عبد العرب في الجاهلية معبودات عدة منها الأوثان والأشجار والحيوان والظواهر الطبيعية والكواكب كالشمس والقمر(33) ، كغيرهم من الأمم الأخرى المجاورة لهم التي استعاروا كثيراً من آلهتها . وقد جعلوا من الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل (ع) مركزاً دينياً لهم يحجون إليه ويكرمونه ، وفيه كانوا يضعون أصنامهم المختلفة الأشكال والأحجام . أشهر هذه الأصنام : اللات ومناة والعزى ، يتقربون إليها بالذبائح والقرابين ، وقد كانوا يعتبرونها « بنات الله » .

وكان من بينهم فئات يعتقدون بوجوب استسلام الإنسان لقضاء الله وقدره ، وأنه يوجد إله أكبر يسيّر أمور حياتهم بالاشتراك مع الآلهة الأخرى . هؤلاء كانوا يدعون الحنفاء . ولا ننسى أن من العرب من عرف النصرانية واليهودية .

اليهودية : انتشرت في جزيرة العرب قبل الإسلام بقرون وأقامت لها مراكز ومستعمرات في الواحات الخصبة التي اختارتها . ومن أشهرها يثرب وخيبر وتيماء وفدك . وأشهر القبائل اليهودية المعروفة : بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة ؛ انتشروا في جنوب الجزيرة حتى تهود بعض قبائل اليمن .

النصرانية : يذكر لنا التاريخ أن النصرانية قد تسربت إلى الجزيرة العربية عن طريق سوريا وشبه جزيرة سيناء في القرن الرابع الميلادي . من مذاهب المسيحية التي انتشرت المذهب اليعقوبي والمذهب النسطوري . انتشر الأول في غسان وسائر قبائل الشام والثاني في الحيرة .

وكانت نجران أعظم مواطن النصرانيّة في جزيرة العرب ، بنى فيها بنو عبد مدان كعبة على غرار كعبة مكة وقد اشتهر من حكماء النصارى : اسقف نجران وقس بن ساعدة وأمية بن أبي الصلت وعدي بن زيد .

كان لكل ما ذكرنا للعرب في الجاهلية من معارف وعلوم وعادات وأعراف وأخلاق وآداب وثقافات امتازوا بها أثر ظاهر في الحضارة الإسلامية .

يقول جوستاف لوبون : « كان للعرب قبل ظهور محمد آداب ناضجة ولغة راقية ، وأنهم كانوا ذوي صلات تجارية بأرقى أمم العالم منذ القديم ، وأنهم استطاعوا في أقل

---

(33) راجع الأسطورة عند العرب في الجاهلية للمؤلف فصل الأساطير الدينية .

من مائة سنة أن يقيموا حضارة من أنضر الحضارات التي عرفها التاريخ »[34] ويقول أيضاً في موضع آخر :

« والعرب الذين استطاعوا في أقل من قرن أن يقيموا دولة عظيمة ، ويبدعوا حضارة عالية جديدة ، هم لا ريب من ذوي القرائح التي لا تتم إلا بتوالي الوراثة ، وبثقافة مستمرة »[35] .

مظاهر الحضارة

تتجلى دراسة حضارة شعب من الشعوب بدراسة مظاهرها المختلفة كالمظهر الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، والفكري ، والفني .

وتتطرق دراسة المظهر الاقتصادي والاجتماعي إلى دراسة الإنتاج بشكله ووسائله وأسلوبه والقوى المنتجة والعلاقات الاجتماعية الناشئة عن نوع الإنتاج . لأن إنتاج الخيرات هو الذي يحدد حياة المجتمع البشري وتطوره . وإن تاريخ تطور المجتمع البشري هو عبارة عن انتقال حتمي من تشكيلة اقتصادية اجتماعية إلى تشكيلة أخرى أكثر تقدماً . وعلى هذا الأساس نستطيع تقسيم تاريخ تطور المجتمع البشري إلى عدة مراحل هي :

مرحلة النظام المشاعي البدائي ، ثم مرحلة النظام العبودي ، ثم مرحلة النظام الإقطاعي ثم الرأسمالي ثم الاشتراكي . وهكذا فإن ما يهمنا من دراسة الناحية الاقتصادية من تاريخ الحضارة هو علاقتها بالإنسان وأساليب معيشته ، وتأثيرها على الحياة الاجتماعية والفكرية والفنية .

وتبحث دراسة المظهر السياسي للحضارة في نشوء الدول ونوع الحكم والسلطات الحاكمة والإدارة الحكومية ومؤسساتها . وهناك نظريات كثيرة لدى علماء السياسة تبحث في أصل نشوء الدول ومنها : نظرية الأصل العسكري وقوامها أن الحرب تخلق الزعيم والملك وتولد الدولة وتقيم النظام . أي عندما نشب القتال اختار المقاتلون أشجعهم لتولي القيادة ثم أصبح زعيماً وأخذ بيده زمام السلطة . وهناك النظرية الاقتصادية النفعية

---

(34) حضارة العرب ص 98 ولا نلوم العالم الكبير بقوله (محمد) دون أن يقول صلى الله عليه وآله وسلم ، أو على الأقل ، يقول الرسول ، أو النبي ، لأن الله اختاره وسماه وفضله على جميع الناس . فاحتراماً للأسلوب الأخلاقي وانصافاً للتاريخ على جميع من أرادوا ذكر الرسول الأعظم محمد (ص) أن يقولوا : النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبصورة خاصة (لوبون) .

(35) المصدر نفسه ص 70 .

في أصل الدولة ، وتقول إن إنجاز المشاريع العامة كإقامة السدود وحفر الأقنية وشق الطرقات يتطلب إشراك جماعات كبيرة من الأفراد ، وهذا يستوجب قيام السلطة التي تضع القوانين لتأمين إنجاز العمل ، وهكذا تنشأ الدولة بسبب ضرورة النظام .

أما نظرية العقد الاجتماعي التي نادى بها جان جاك روسو فقوامها : أن الأفراد تنازلوا عن حقوقهم الطبيعية للمجتمع بوجه الإجمال ، وترتب على هذا التنازل تشكل سلطة سياسية وقيام الدولة . غير أن الأفراد ظلوا مشاركين في السيادة واستردوا تحت حماية الدولة تلك الحقوق التي تنازلوا عنها . فالعقد هو إتفاق متبادل بين الفرد والدولة يربط الفرد من جهة بسائر الأفراد ومن جهة أخرى بالدولة . ولذلك فإن رغبة الأكثرية أو رغبة المجموع هي مظهر السيادة .

وقد قال البعض : بنظرية الأصل التاريخي أو التطوري للدولة ، أي أنها تدرجت من جماعات متفرقة وقرى يحكمها رؤساؤها إلى دولة بصورة تدريجية عن طريق اتحاد هذه الجماعات والقرى . كما قال آخرون بنظرية الأصل الديني لنشوء الدولة ، أي أن الدولة نشأت بعمل سلطة دينية نظمتها وأوجدت القوانين ثم وطدت حكمها. وبرأينا إن تطور المجتمع البشري من مرحلة النظام المشاعي إلى مرحلة النظام العبودي وظهور الملكية الخاصة ، وانقسام المجتمع إلى طبقات مستغِلّة وأخرى مستغلَّة ـ كل هذا أدى إلى نشوء الدولة . حيث أن ظهور الملكية الخاصة قاد إلى عدم المساواة في الملكية ، وهذا أدى بدوره إلى ظهور عدم التساوي في الحقوق والواجبات . وقد أخذت الطبقة الغنية في يدها دفة قيادة القوى الحربية واستخدمتها من أجل مصلحتها الخاصة للاستيلاء على أملاك جديدة وعبيد ينتجون الثروات . ولم يكن بوسع مالكي العبيد من الطبقات الغنية إخضاع العبيد وغيرهم من أبناء الطبقة الفقيرة وإكراههم على العمل من أجل زيادة ثرواتهم الخاصة وإشباع جشعهم المتزايد إلا بوجود جهاز دائم للعنف والقسر ، لذلك أوجدوا هذا الجهاز الذي تطور تدريجياً حتى أخذ شكل الدولة . والدولة في المجتمعات الاستثمارية هي جهاز يحمي مصالح الطبقة المسيطرة المستغلة ، ويدافع عن بقاء الاستعباد الطبقي ، ويستخدم لقمع تمرد الجماهير الكادحة ضد السيطرة والاستغلال .

أما دراسة المظهر الفكري للحضارة فتشمل كل ما يتعلق بالتفكير والإنتاج الفكري من معتقدات دينية وآداب وعلوم . وقد ظهرت المعتقدات الدينية منذ القدم . وكان من أهم عوامل التدين الخوف والحيرة في أسباب الحوادث التي يصعب تعليلها ، والأمل بالمساعدة الإلهية وغير ذلك وعبد الإنسان القديم أشياء كثيرة منها سماوية كالقمر والشمس والنجوم ، ومنها أرضية كالأرض والجبال والأنهار والأشجار والنباتات ، ومنها

بشرية كعبادة الأجداد والصالحين والأبطال والملوك ، ومنها عبادات لقوى خيالية غامضة وخارقة . وللعبادات عقائدها وطقوسها وأساليبها ورجال يشرفون عليها هم الكهنة الذين استغلوا الديانة لصالح الطبقات المسيطرة في المجتمع . وقد تطورت العبادات مع تطور التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية .

أما الأدب فإنه التعبير الغني عن فكر وعواطف ووصف نواحي حياة المجتمع . وتشمل دراسة الآداب على دراسة الشعر والنثر بضروبه المختلفة وعلوم اللغة والتاريخ والجغرافيا والفلسفة وعلم النفس والاجتماع والمنطق وغير ذلك من العلوم النظرية . وتشمل الناحية العلمية في المظهر الفكري دراسة العلوم بشتى أنواعها كالعلوم الطبيعية والرياضية والفيزيائية وغيرها . أما دراسة المظهر الفني في الحضارة فهي التعرف على الفنون بمختلف أنواعها : كفن البناء والنحت والرسم والنقش والغناء والموسيقى والرقص والتمثيل وغير ذلك .

وأخيراً لا بد من القول أن جميع المظاهر الحضارية يؤثر بعضها في البعض الآخر ، لذلك في دراسة الحضارات يجب تبيان التأثيرات المتبادلة بين المظاهر الحضارية والعلاقات الجدلية المنطقية فيما بينها . وبالواقع إن أسلوب الإنتاج يحدد جميع جوانب حياة المجتمع ، حيث أن طابع علاقات الإنتاج يحدد البناء الاقتصادي في المجتمع ، وهذا الأساس والبناء التحتي الذي تظهر عليه مختلف العلاقات الاجتماعية يحدد المؤسسات الحقوقية والسياسية ، كما يحدد بصورة غير مباشرة مختلف الأفكار التي يتميز بها المجتمع المعني : كالأفكار السياسية والفلسفية والعقائدية والفنية وما إلى ذلك - أي كل ما يمكن تعريفه كبناء فوقي إيديولوجي وسياسي للمجتمع . وإن تبدل الأساس الاقتصادي أي البناء التحتي ، أو حدوث تغيرات فيه يؤدي إلى تبدلٍ أو تغير في طابع البناء الفوقي أي في طابع المؤسسات السياسية وطابع الإيديولوجية .

غير أن البناء الفوقي ، رغم أنه رهين بالأساس والبناء التحتي ، يؤثر بدوره على البناء الاقتصادي وعلاقات الإنتاج ، وفي وسعه تسريع أو عرقلة تبديلها . إن البناء الاقتصادي في المجتمع العبودي والإقطاعي والرأسمالي يتميز بالتناحر وصراع الطبقات ، لأنه يقوم على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ، وعلى استغلال الطبقات السائدة والمسيطرة في المجتمع للطبقات الشعبية الكادحة .

الفصل الثاني

عوامل تكوين الحضارة

للحضارة عوامل عدة تتكون بها وتوجد بوجودها ، ولها عناصر تستحث خطاها أو تعوق مسراها .

يرى أكثر العلماء أن وجود الحضارة يعتمد على عناصر رئيسية لا بد منها وهي :

1 ـ الموارد الاقتصادية . 2 ـ النظم الدينية والأخلاقية . 3 ـ النظم السياسية . 4 ـ العلوم والفنون .

وسنرى فيما بعد أن الحضارة الإسلامية قد استوعبت هذه العناصر جميعها ، وعنيت بها عناية تامة ، وبرزت فيها إلى أفضل درجات الاتقان .

وأما العوامل التي تنشط في تكوين الحضارة وتنميتها وازدهارها فكثيرة ؛ من أهمها :

1 ـ الدين . 2 ـ الاقتصاد . 3 ـ العلم . 4 ـ الأخلاق ـ 5 ـ الثقافة . 6 ـ العامل النفسي . 7 ـ التربية . 8 ـ الموقع الجغرافي .

وقبل التفصيل في بيان أهمية هذه المقومات الحضارية في تقدم الحضارة الإنسانية أو تراجعها أو عرقلة مسيرتها ، لا بد لنا من بيان حقائق هامة تلقي الضوء على مسيرة الركب الحضاري عبر التاريخ .

أولاً : إن حضارة أي أمة تبدو لنا من خلال العقائد والنظم والفنون وكل ما يتعلق بها من وجوه الكسب والإنتاج والإبداع في حياة تلك الأمة كما تظهر لنا أيضاً من خلال الأدوات المادية ونوعيتها وطرق استعمالها . ولكن ثمة اعتباراً آخر يمكن اتخاذه مبدأً للبحث وهو أن هذه المنتجات هي أيضاً عناصر تتألف منها الحضارة المعينة ، ومقومات

تتكون بها وتكون بأقدار متفاوتة في تكوين الحضارة .

ثانياً : تظهر الحضارة حينها يكون صنع أو إنشاء ، سواء أكان ذلك في الطبيعة المادية أو في الطبيعة البشرية والطبائع الموروثة . جميعها هي مادة للحضارة ، ولكنها ليست مظهراً من مظاهرها . وإذا أردنا أن نتتبع المظاهر الحضارية ، لأي شعب من الشعوب ، وجب أن نتقصى عمل الإنسان المنتج والصانع المنشىء والفنان المبدع على اختلاف ألوان هذا الصنع وتفاوت مراتبه التقنية والفنية .

ثالثاً : الحضارة عمل جماعي وليست من صنع فرد وحدة ، فالفرد لا يستطيع إنشاء حضارة بنفسه إلا بمساعدة إخوانه المختلفين في المواهب والاختصاصات ؛ وهو لا يوجد وجوداً حقيقياً إلا في مجتمع يتفاعل مع أفراده وما يحملون من تراث وأعراق وتقاليد . حتى المعتزلون فإن نتاجهم الحضاري ينشأ من ثورتهم على مجتمعهم . فالحضارة بهذا المعنى ، نتاج جماعي ، أو كما يقول ابن خلدون : هي نوع من أنواع العمران أو طور من أطواره ، والعمران بدوره ناشىء عن الاجتماع الإنساني[1] إنطلاقاً من هذه الحقائق لنمض في تبيّن وشرح العناصر أو المقومات التي تعمل في تكوين الحضارة وتقدمها .

1 ـ الدين

لا بد لأي أمة من الأمم أن يسود بين أفرادها كلهم أو بعضهم العقيدة الدينية ، لأنها تمثل عاملاً رئيسياً في توحيدهم وتعاونهم ، وجانباً هاماً من الإيمان بما هو كائن وراء هذه الطبيعة الفانية . وهذا الاعتقاد يرفع أخلاق القوم من مرحلة نفع العمل وضرره إلى مرحلة الإخلاص للعمل ذاته ، ويجعل حياتهم أشرف مقاماً وأنبل هدفاً وأكثر اطمئناناً واحتمالاً لنوائب الزمان وصروف الدهر .

2 ـ الاقتصاد

قيل المال عصب الحياة فكما أن الصبح يتنفس بواسطة النور فتدب الحركة والحياة ، وكما أن الوردة تحيا بندى الصباح وكما أن الماء ينعش نباتات الأرض ويحيي ما عليها ، فكذلك المال يحيي المجتمع ويدب فيه الحياة والحركة والنماء ، فحيث يوجد الماء يوجد الخصب والعطاء . وقد كان للعامل الاقتصادي أهمية كبرى في تكون قبيلة من القبائل البدو الذين كانوا على درجة نادرة من الفطنة والذكاء ، فاتسموا بأسمى ألوان الخلق كالشجاعة والكرم والمروءة والشمم والوفاء . لكن هذه الطاقة الفكرية لا فائدة منها من

---

(1) المقدمة ص 41 وما بعدها .

غير وجود عوامل اقتصادية تطمئنها على مورد محقق من الطعام والحياة ، بدل شن الغارات والغزوات التي تمحق كل شيء وتزرع في نفوس الرعية القلق والخوف وعدم الارتياح وتعرقل سير الحضارة بكل ما تحمل على أجنحتها من علوم وفنون وترف وسعادة .

3 ـ العلم

عن طريق العلم توصل الإنسان إلى إكتشاف معارفه وفهم أحكامه ومعتقداته ، وكسب مفاهيمه وتصوراته الفكرية التي تتكون لديه نتيجة محاولاته المتكررة لفهم الظواهر والأشياء المحيطة به ، ولقد حاول منذ العصور الأولى أن يتعرف على عناصر البيئة التي يعيش فيها ليكشف الكثير من أسرارها ، محاولاً الوقوف على حقيقة القوى الموجهة لها ، لأن الإنسان منذ نشأته الأولى خلق محباً للاستطلاع . وليس له إلا العلم الذي يوصله إلى ما يريد .

وهذا أمر طبيعي لأنه لا يستطيع أن يعيش وسط الظواهر والأشياء دون أن يكون لنفسه عنها بعض الأفكار والمعارف التي تساعده على تحديد سلوكه واتجاهها، وبالتالي تمكنه من القضاء على المشكلات التي تعوق سبل حياته .

والمعرفة لا تقتصر على الظواهر من لون معين ، وإنما هي تتناول جميع ما يحيط بالإنسان وكل ما يتصل به . وكلما ازداد الإنسان علماً ازداد حضارة ورقياً .

والإسلام أول ما دعا إلى العلم وكسب المعرفة لتتكامل شخصية الإنسان ويقوم بالمهمة التي كلفه الله بها ﴿ **إني جاعلك في الأرض خليفة** ﴾ . وأول آية نزلت على الرسول محمد بن عبد الله ، الرسول الأمين : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾ . مقترنة بالحقيقة العلمية في الآية الثانية : ﴿ **خلق الإنسان من علق** ﴾ . وهي كلمة تفسير بيولوجي علمي دقيق . واستمر الوحي : ﴿ **اقرأ باسم ربك الأكرم الذي علم** « الإنسان » **بالقلم** ﴾ والقلم هنا العقل أو الفكر إلى آخر السورة . . .

4 ـ الأخلاق

للأخلاق أهمية كبرى في رقي المجتمعات وتطورها ، إذ لا بد من قيم أخلاقية تسود الجماعة وتربط بينها حتى تكون هناك قواعد أصيلة يرعاها الجميع ، ويعترف بها حتى الخارجون عليها ؛ ولا فائدة من العلوم إذا لم تقترن بالأخلاق ، فكلاهما مكمل للآخر وبهما يتقدم المجتمع في طريق الحضارة والازدهار والسعادة .

من هنا كان وصف الله عز وجل للرسول محمد (ص) بالخلق العظيم بعد الآية

الكريمة : ﴿ وقل ربي زدني علماً ﴾ . [طه : 114] ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [القلم : 4] وقال الرسول الأعظم محمد (ص) : « إن أحبكم إلي ، وأقربكم مني مجالس يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقاً ، الموطئون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون »[1] .

هذه القيم الأخلاقية التي هي ركن أصيل من أركان بناء الحضارة وتقدم المجتمع تكتسب عن طريق الأسرة والمدرسة أو الجامعة ثم المسجد .

5 ـ الثقافة

العامل الثقافي له دوره الهام في نشأة الحضارة ؛ فالوحدة اللغوية لا بد منها إلى حد كبير لتكون وسيلة بين الناس لتبادل المعلومات وتلقيح الأفكار ، الأمر الذي يجعل الحضارة تسير بخطى وئيدة نحو الكمال . والثقافة هي تراث حضاري إنساني لا وطن لها ، فكل الأرض مجالها . . والزمان على امتداده هو عمق تطورها . . وهي ليست ملك جماعة من البشر دون أخرى . . إلا أن تقدم أمة نسبياً أكثر من غيره في عرف العلماء يسمى تقدماً حضارياً . والحضارة باب مفتوح تقدمها أمام كل مجتهد يقدم للمجتمع أكبر طاقاته الفكرية وأفضل مهاراته الفنية .

وقد بدأت الثقافة حين بدأ الإنسان يفكر بوجوده على الأرض ، وما هي منزلته بين الموجودات المادية الجامدة والنباتية والحيوانية . ومن ثم أخذ يفكر بنفسه وبمن حوله وبمن سبقه . . وبدأ يشعر وجدانياً وعقلياً بوجود الخالق : « الله سبحانه وتعالى فاطر السماوات والأرض ورب العالمين » الذي وهبه الحياة وأعطاه نعمة العقل . . من هنا نستطيع القول أن الثقافة متصلة بالعقل والوجود ، وقد بدأت مع الإيمان بالله وبالوجود الإنساني من الناحية العقائدية . . يقول الإنسان المؤمن : أنا موجود فأنا اؤمن بالله الذي خلقني وأعطاني الفكر والحياة . وفي هذا قال العالم المفكر ديكارت « أنا أفكر فأنا موجود » وفي العصر الحالي نجد كلمة « ايديولوجّيا » للتعبير عن الثقافة الفكرية (الروحية) . لكننا إذا أردنا أن نفكر في المجال المثالي (الإسلامي) وجدنا أن الحضارة والثقافة الإسلامية امتداد من الفكر المثالي وطبق ونفذ على الحياة الإنسانية كاملة . . الأمر المفقود عند الآخرين سواء في الديانات السماوية أو الأفكار الفلسفية . كما سنبين ذلك فيما بعد . ونحب أن ننوه أن الأمة الإسلامية كانت كالنحل تجمع رحيق الزهر وتطبعه بطابعها وتوزعه على العالم ولا فرق عندها فيمن يأتي من الناس ! ليتذوق العسل . .

والعلماء في العصر الحديث إذا حللوا ظواهر هذا الكون ودرسوها مستخدمين الطريقة الاستدلالية فهل يفعلون أكثر من إثارة قدرة عظيمة أوجدت هذا العالم . . هي

(1) المجازات البنوية للشريف الرضي .

الله تعالى جل وعلا ؟ قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **أفمن خلق السماوات والأرضَ وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كانَ لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون** ﴾ [النمل : 60] .

6 ـ العامل النفسي

الاستقرار هو سبب رئيسي لإتقان العمل ، وإتقان العمل مظهر جلي من مظاهر الحضارة ، وكل هذا لا يحصل إلا بعد الارتياح النفسي . ولا بد أن يشعر الناس بوجود نظام سياسي عادل يسودهم مهما كان نوع ذلك النظام . كما لا بد لهم من أن يشعروا بالاطمئنان على أرواحهم ولا يتوقعون الغزو والهلاك عند منعطف كل طريق في حياتهم ، كما كان يحصل للعرب في الجاهلية من نشوب الغزوات المتلاحقة على الماء والكلأ والحروب التي تشتعل لأتفه الأسباب . إن مثل هذا المجتمع لا يستطيع أن يأخذ بأسباب الحضارة وهو في مثل هذه الحالة من القلق والخوف والاضطراب النفسي .

ولما جاء الإسلام بنظامه العادل ووضع الحدود لكل القضايا والأمور ، ومنع التجاوز ، وناصر الضعيف ، وقاوم الظالم وحث على العلم ومكارم الأخلاق ، شعر الناس جميعاً بالاستقرار النفسي والراحة التامة والاطمئنان الخالص بوجود سلطة عادلة تحفظ الحقوق وتصون الكرامة وتحقق الشريعة الإلهية على الأرض رحمة للعالمين .

7 ـ التربية

الهدف من التربية هو إعداد المواطن للحياة الكاملة . ولكي نحقق الحياة الكاملة للفرد في المجتمع علينا أن نعمل بالنقاط التالية[2] .

ـ قبل كل شيء يجب أن تهدف التربية إلى تعليم الأفراد فن المحافظة على الذات .

ـ علينا تعليم الفرد ليتمكن من كسب عيشه بالطرق المشروعة قانونياً .

ـ علينا تعليم المربين فن رعاية الطفل رعاية كريمة صالحة للبقاء على الجنس الجيد والنوع الصالح .

ـ يجب أن نهيىء الفرد للقيام بمهام الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية قياماً صالحاً سليماً من كل الشوائب والانحرافات .

ـ علينا تزويد الفرد بما يمكنه من التمتع بالتراث الثقافي للجنس البشري من فن وأدب وعلم وأخلاق .

---

(2) الفيلسوف الانجليزي الاجتماعي سبنسر 1820 م ـ 1903 م .

وبهذا تكون التربية وسيلة فعالة تنتقل بها الحضارة من جيل إلى جيل كيفما كانت هذه الوسيلة . فلا بد أن نورث الناشئة تراث الأمة وروحها وأعرافها ، فتورثهم عن طريق التقليد ثم الاقتباس ثم التلقين جميع ما توصلنا إليه من علوم ومعارف وفنون وأخلاق . سواء أكان المربي الأم أو الأب أو المعلم أو المرشد ، لا فرق . لأن أي تراث ما هو إلا الأداة الأساسية التي تحول الجنس البشري من المرحلة الحيوانية إلى المراحل الإنسانية ، لتعطيه حقه في الحياة الحرة الكريمة التي أرادها الله لعباده الصالحين .

8 ـ الموقع الجغرافي

المياه عنصر رئيسي في الحياة ، وهي من أهم العوامل في تكوين الحضارة وتقدمها ؛ فالإقليم الذي تجود تربته بالماء نرى فيه الخصب والنماء والخير العميم ، والبلاد التي تهيىء لها أنهارها طريقاً هيناً للاتصال بغيرها ، وشواطئها فيها المواضع التي تصلح مرافىء طبيعية لسفنها التجارية ، وتقع على الطريق الرئيسي للتجارة العالمية ، مثل هذه البلاد تزدهر فيها الحضارة وتبتسم لها الحياة . وكذلك المناطق من الأرض التي تجود تربتها بالمعادن المختلفة يؤمل لها تقدماً ملموساً عندما تتيسر لها الأفكار الناضجة والأيدي الماهرة .

أما الأقطار الاستوائية التي تجتاحها الطفيليات والأمراض ، والأقطار الجافة القليلة المياه والمعتمدة على أمطار الطبيعة ، يسودها كسل وخمول وفقر وإهمال من شأنه أن يصرف الجهود عن الأخذ بأسباب التقدم والحضارة ؛ ولا تعطي للإنسان شيئاً من الجهد لينفقه في ميدان العلوم والفنون وجمال التفكير .

من هنا نرى أن الموقع الجغرافي لبعض المدن في البلاد الإسلامية ، كمكة والمدينة والطائف التي كثر فيها المياه ، قد تزاحمت عليها الأقدام ونشطت فيها عوامل النشاط الاقتصادي كالتجارة والزراعة والصناعة وكانت مشاعل مشرقة للحضارة والاستقرار والسعادة .

هذه أهم العناصر التي تتألف منها الحضارة الإنسانية[4] والتي استوعبتها الحضارة الإسلامية جميعها وبرزت فيها وتفوقت . ولو انعدمت هذه العوامل لانعدمت الحضارة معها ، بل ربما انعدم عنصر واحد من عناصرها فتتأخر الحضارة وتتعثر خطى تقدمها وازدهارها فانحلال خلقي أو عقلي ينشأ عن الحياة في الحواضر المكتظة بألوان من السكان وبالمثيرات المختلفة ، أو احتكار السلع والمال واكتنازه بالقناطير المقنطرة يؤدي بالناس إلى

---

(3) يحسن مراجعة قصة الحضارة للعلامة ديورانت ج 3 ص 2 وما بعدها .

حرب الطبقات الاجتماعية والثورات الهدامة والحرمان المميت . أو انقلاب جيولوجي خطير أو ما شاكل ذلك من ويلات اجتماعية وكوارث بشرية تنتهي بفناء الحضارة والمتحضرين .

الفصل الثالث

بذور الحضارة الاسلامية

1 ـ العلم

ورحم الله الناس فأرسل خاتم النبيين والرسل محمداً (ص) بشيراً ونذيراً لقومه خاصة وللناس عامة . وما لبثت الدعوة الإسلامية أن احتلت مكانها في قلوب المؤمنين ، لأنها دعوة منطلقها كريم ، ومبعثها رحيم . هي تدعو إلى الإيمان بالله ، خالق الكون وفاطر السماوات والارض . وهي تحض على الخير وتنهى عن الشر . وتكرم الإنسان وتدفع به إلى تحصيل العلم وكسب المعرفة أينما وجدها وأنى عثر عليها .

إن أولى آيات القرآن الكريم نزلت على الرسول الأعظم تحض على العلم . قال تعالى : ﴿ **إقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾ فاقترنت القراءة الأولى بالحقيقة العلمية في الآية الثانية : ﴿ **خلق الإنسان من علق** ﴾ وهي كلمة تفسير بيولوجي علمي دقيق .

ومن المعروف أن النبي محمداً (ص) كان أمياً لا يحسن القراءة والكتابة . . فأجاب الملاك جبريل : ما أنا بقارىء ! لكن الوحي استمر :

﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾ [العلق : 1] ﴿ **اقرأ وربك الأكرم** ﴾ [الآية : 3] ﴿ **الذي علم بالقلم** ﴾ [الآية : 4] . والقلم هنا يعني العقل والبصر . ﴿ **علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ [الآية : 5] وهذا يعني أن في الأمر جدة ونهضة .

والإسلام حض على العلم لأنه يعلم أن الشخصية الإنسانية لا يقومها ولا يرقيها ويشحذ قواها إلا العلم . من هنا كان تفريقه بين العلماء وغيرهم . قال سبحانه : ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ [الزمر : 9] فقد حصر سبحانه التذكر بأولي الألباب (أي العقول) ولا مقوم للألباب غير العلم .

وكلما ازداد المرء علماً ازداد يقيناً وقرباً من الله وخشية له . قال سبحانـه : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماءُ** ﴾ [فاطر : 28] .

ثم نـرى القرآن في آيـة أُخـرى يصرح بـأن العلماء لهم درجـات عنـد ربهم وميـزات يخصهم بهـا : ﴿ **يـرفـع الله الـذين آمنـوا منكم والـذين أوتـوا العلم درجـات** ﴾ [المجادلة : 11] .

كما أنه سبحانه اعتد بشهادة أهل العلم في وحدانيته فقال :
﴿ **شهـد الله أنه لا إلـه إلا هـو والمـلائكـة وأولـوا العلم قـائـماً بـالقسط** ﴾ [آل عمران : 18] .

فقد ساوى عزَّ وجلَّ شهادة العلماء بشهادته وشهادة الملائكة . وفي هذا رفع قدر أهل العلم وتعظيمهم .

ولا ريب أن العلماء هم أكثر الناس فهـماً لآلاء الله ووعياً لحكمـة آياتـه وتمثلاً لبـديع قدرته : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ [العنكبوت : 43] .

ويخاطب الله في كتابه الكريم العقل والقلب جميعاً ويـدفع بهـما إلى التأمـل في كل مـا خلق سبحانه من المخلوقـات المحكمة الخلق والمتقنـة الصنع . فـالعقل الـراجح والقلب المتفتـح إذا أنعما النـظر في آياتـه المباركـة كان ذلـك أقرب إلى الإيمـان وأدنى إلى التقوى . ﴿ **لخلقُ السـماوات والأرض أكـبر من خلق النـاس ولكن أكـثر النـاس لا يعلمـون** ﴾ [غافر : 57] .

أما في نطاق دفع العقل الإنسـاني إلى التفكير يقـول سبحانـه وتعالى : ﴿ **ومن آيـاته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ [الروم : 22] ويخاطب الإسلام العقل ويحضه على التفكير في خلق الكون والـوصول إلى شواطىء المعرفة ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . قال تعالى :

﴿ **إن في خلق السـماوات والأرض واختلاف الليـل والنهـار والفلك التي تجـري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كـل دابة وتصريف الـريـاح والسحـاب المسخـر بـين السـماء والأرض لآيـات لقـوم يعقلون** ﴾ [البقرة : 164] .

ولما كانت الحضارة بنت العلم ، والعلم ضالة المؤمن وغاية المسلم يسعى إليها جميعـاً من واقـع كتابـه الذي آمن بـه ، فإن العلم بـلا ريب يدفـع إلى الخلق والإبداع والتفكـر

والتدبر ومن هذه الينابيع الثرة والأصيلة تنبت الحضارة وتثمر المعرفة ويعم العمران في البلاد .

إشادة الإسلام بالعقل

الإسلام يحث على تحكيم العقل في كل ما يعرض للإنسان من أمور ، والمراد بالعقل ذلك الذي استوفى شروط الفهم التي تؤهله لاستيعاب ما يلقى إليه . والقرآن الكريم يحتكم إلى العقل وينعى على من لا يستعمله . وقد ورد ذكر العقل باسم القرآن وأفعاله ما يبلغ زهاء خمسين مرة ، وكلمة أولو الألباب في بضع عشرة مرة ، وكلمة أولي النهي مرة واحدة . والعقل في القرآن نعمة كبرى ولا بد من اللجوء إلى حكمه في كل شيء . يقول سبحانه في تذييل كثير من الآيات القرآنية مثل ذلك :

﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ . ﴿ **ولقد بينا الآيات لقوم يعقلون** ﴾ . ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ . ﴿ **لعلهم يتفكرون** ﴾ . ﴿ **أفلا يتفكرون** ﴾ .

هذه إشادة كبيرة بالعقل اختص بها الإسلام ، لا نجد نظيراً لها في الأديان الأخرى .

مقومات العقل في الإسلام

يقول الإسلام إن علم الإنسان ليس مصدره العقل فقط بل المشاهدة الصحيحة والتجارب . وهذا ما يعمل به العلم الحديث في عصرنا اليوم .

هذه المشاهدة العلمية تستعمل فيها الحواس وبصورة خاصة السمع والبصر لكن شرط استعانتها بالملاحظة الدقيقة المباشرة كالميكروسكوبات التي نستطيع أن نشاهد بواسطتها ما تعجز عن رؤيته العين المجردة . أو التلسكوب الذي يقرب للإنسان الأجسام البعيدة فيرى ما لم يكن يراه من قبل .

هذه المشاهدة هي الطريق الذي سلكه العلم الطبيعي للوصول إلى مقدمات صحيحة وهي أصل علمي بل أصل قرآني . نورد بعض الآيات على سبيل الذكر منها : ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾ [العنكبوت : 20] هنا استعمال البصر مع العقل .

وقال سبحانه : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾ [الحج : 46] . والمراد بالقلوب في هذه الآية العقول لأنها موطن الإدراك . يدل على

ذلك قوله تعالى : ﴿ **قلوب يعقلون بها** ﴾ .

ويعلمنا الإسلام أن العقل لا ينمو ولا يقوى إلا عن طريق التجارب والمشاهدات التي يراها ويكسبها في حياته عن طريق السمع والبصر والعقل . قال سبحانه : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ [النمل : 78]والقلب المريض من الناحية المادية أقل خطراً من القلب المريض بمرض نفسي ، يحجب عنه النور العلمي الذي يقوم به حياته الصحيحة ، نور المعرفة الحقيقية .

الإسلام يقرر أن للكون نواميس ثابتة

من أصول العلم اطراد الحقائق الطبيعية ، فالذي تثبته التجارب الطبيعية العلمية أنه حق في وقت ما سيبقى دائماً حقاً في كل الأوقات .

هذا الأصل العلمي هو أصل قرآني . قال سبحانه وتعالى : ﴿ . . . **فهل ينظرون إلاّ سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً** ﴾ [فاطر : 43] .

الإسلام يدعو إلى التطوير ويرفض التقليد

العلم الحديث يرفض التقليد الأعمى فلا يقبل ما ثبت عن أكابر العلماء من غير دليل قاطع وبرهان ساطع ؛ وهذا ما يدعو إليه القرآن الذي يشدد على التحليل العقلي ويرفض التقاليد الماضية . وصف لنا إناساً كانوا يتمسكون بالرأي ، لا لأنهم عقلوه ، ولكن لأن آباءهم فعلوه . قال تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أوَ لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون** ﴾ [المائدة : 104] .

والقرآن ينفر الشعوب من التقليد الأعمى لقوادهم السياسيين ورؤسائهم فيصرح بأن القادة ومن اقتدى بهم يتساوون في العذاب في الآخرة إذا كانوا على باطل . قال سبحانه : ﴿ **إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت به الأسباب** ﴾ [البقرة : 166] .

الإسلام دين اليقين

العلم يحاذر من أن ينزل الظن منزلة اليقين ، فيقيس مقدار اقتراب الأمور من الحق بمقدار متانة الحجة التي تشهد بذلك الاقتراب . فإن كانت الحجة قاطعة فالقضية حق بلا إشكال ، وإن كانت غير قاطعة فتصبح ظناً ، وبعض الظن إثم لأنه لا يقوم مقام

اليقين . وهذا التفريق العلمي الدقيق بين ما هو ظن وما هو يقين أكده القرآن الذي حذر الناس من الأوهام والظنون وأمر بالاعتماد على العلم اليقيني .

قال تعالى : ﴿ **وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً** ﴾ [يونس : 36] .

فأكثر الناس لا يتبعون فيما يعتقدون إلا الظن ، والظن تصور لا يستند إلى دليل عقلي ، وهو قد يؤدي بصاحبه إلى وهم باطل لا يفيد ما يفيده الحق الذي عليه مدار الإيمان الصحيح . لذلك أمر القرآن بالاعتماد على العلم اليقيني ونعى على الذين يجرون وراء الوهم والظن . قال تعالى : ﴿ **وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم** ﴾ [الأنعام : 119] .

ويأمر الله عباده المسلمين بأن يتقيدوا بالأسس العلمية ولا يتوهمون ويظنون كالدهريين والجاهليين . قال تعالى :

﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً** ﴾ [الإسراء : 36] يطلب إلينا سبحانه أن لا نتبع كل ما يقال لنا مما ليس لدينا عنه علم يقيني ، لأن الإنسان يسأل يوم الحساب عما تلقاه سمعه وأدركه بصره ووعاه قلبه من المدركات غير الصحيحة التي تؤذي الناس وقد تجرهم إلى جهل ضار ومعتقد ضال .

الحكمة القرآنية أساسها العلم الثابت المحقق وليست الملاحظة العابرة والظن المجرد كما هو شأن الفلسفات اليونانية والرومانية وغيرها قبل الإسلام . وهذا الطراز الجديد من الحكمة لم يتطور إلا في القرن التاسع عشر تحت اسم الفلسفة الوضعية Positivisme الحديثة النشوء التي تعتمد على الدليل المحسوس وهو بعينه أساس الحكمة القرآنية .

لقد تعبت الإنسانية من الفلسفات الظنية التي أدت إلى بناء أحكام خيالية وطوحت بالذين اتبعوها إلى نواح شتى من الخلافات والنزاعات .

الإسلام دين الحجة الحقيقية والبرهان العلمي

لا يعترف العلم بأي نتيجة أو خلاصة إلا إذا قام عليها البرهان اليقيني القاطع . والقرآن يأمر الإنسان أن لا يقبل شيئاً أنه حق إلا إذا أثبتته الحجة وقام عليه البرهان . جاء في قوله تعالى : ﴿ **وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ [البقرة : 111] .

والله تعالى يطالب المشركين بالبرهان على ما اتخذوا من آلهة من دونه ، وهي مطالبة

تعجيز بلا ريب قال عزَّ وجلّ : ﴿ **أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ [النمل : 64] .

إن كل ما ذكرنا من العلم والتعلم وما أكد عليه الإسلام في هذا المجال يعتبر بذوراً حضارية أصيلة ترفع من شأن المجتمع وتشيع في جوانبه الأمن والسلام ، وتنشط مرافقه في طرق التقدم والسؤدد والسعادة ، وينعم أفراده بعيشة راضية .

2 ـ الأخلاق

ورد في اللغة الخلق : الفطرة ، والخليقة : الطبيعة . قال الشاعر :

ومهما تكن عند امرىءٍ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ومن صفات المسلمين المؤمنين ، حسن الخلق . فالفرد تعلو قيمته في المجتمع بعلمه وأخلاقه ، والأمة ترقى سلم الحضارة وتستمر في البقاء بعلومها وأخلاقها ، وإن لم يكن شعارها الأخلاق الحسنة ، فمعنى ذلك زوالها أو زوال مجدها وعزتها .

وقد مدح الله سبحانه رسوله الأعظم محمداً (ص) بحسن أخلاقه : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ [القلم : 4] . وقال الرسول الأمين محمد (ص) : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . ولا يخفى أن الإسلام حث على مكارم الأخلاق في شريعته السمحاء لقيام دولة عادلة شعارها إنسانية الإنسان .

من وصايا النبي (ص) لعلي (ع) في مكارم الأخلاق قوله : (يا علي لكل ذنب توبة إلا سوء الخلق ، فإن صاحبه كلما خرج من ذنب دخل في ذنب . يا علي ثلاثة من مكارم الأخلاق ، في الدنيا والآخرة : أن تعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك وتحلم عمن جهل عليك . يا علي ثلاث من لم تكن فيه لم يتم عمله : ورع يحجزه عن معاصي الله عزَّ وجلّ ، وخلق يداري به الناس ، وحلم يرد به جهل الجاهل) .

ومما جاء في مكارم الأخلاق ، عن النبي (ص) والعترة الطاهرة من آل بيته الذين هم صفوة الأمم وينبوع الفضائل : إنه لما أتى المسلمون بسبايا طيء ، كانت من بينهم جارية حسناء ، فقالت : يا محمد ، إن رأيت أن تخلي عني ، ولا تشمت بي أحياء العرب ، فإني ابنة سرّة قومي ، كان أبي ، يفك العاني ، ويعطي الفاني ، ويحمي الذمار ، ويقري الضيف ، ويشبع الجائع ، ويكسب المعدم ، ويفرج عن المكروب ، أنا ابنة حاتم طيء ، فقال : خلوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاق ، فقال أبو بردة : يا رسول الله ! الله يحب مكارم الأخلاق ؟

فقال (ص) يا أبا بردة ، لا يدخل أحد الجنة إلا بحسن الخلق[1] .
ومكارم الأخلاق ، التي خص النبي (ص) بها عشرة : اليقين ، القناعة ، والصبر ، والشكر ، والحلم ، وحسن الخلق ، والسخاء ، والغيرة ، والشجاعة ، والمروءة[2] .

وقد قيل تمام السعادة بمكارم الأخلاق ، كما أن تمام الشجرة بالثمرة .

وعن علي بن أبي طالب (ع) :
الإنسان عقله دينه ، وكرمه خلقه ، ومروءته حيث يجعل نفسه والرزق والأيام دول ، والناس من رجل ، وإنما الفضل بالأخلاق .

وقال الإمام جعفر الصادق (ع) :
إحسانكم أخلاقكم ، وأكرمكم أتقياؤكم ، والنسب واحد ، من آدم خلقكم .

أجل إن الدين الإسلامي قد اهتم اهتماماً بالغاً بتثقيف النفوس البشرية لتكون لها الحياة الأفضل والمثل العليا والسعادة في الدارين ، الدنيا والآخرة . وكل ما في الدنيا سخره الله تعالى لقضاء حوائج الإنسان وسد منافعه الدنيوية .

ولا ريب أن التعاليم الدينية هي خير وسيلة لإبعاد الناس عن الرذائل ، فهي نور وهدى منزلة من رب العالمين على رسوله الأمين وكل التعاليم الأخرى من أي مصدر كانت محدودة ومصيرها الزوال . فالحري بنا في هذه الأيام ونحن تتجاذبنا التيارات المختلفة ، من هنا وهناك ، لتبعدنا عن رسالتنا الخالدة ، وتحط من أخلاقنا ، أن نرمي بها إلى الوراء البعيد بكل ما أوتينا من علم وصبر وشجاعة ، لنحافظ على النشء الإسلامي ونحفظ مجتمعنا من الأمراض الاجتماعية الخطرة . وعلينا أن نعمل كما عمل المسلمون في صدر الإسلام حاملين الرسالة الإنسانية وقد تخلقوا بالأخلاق النبيلة السامية التي تزودوا بها من القرآن الكريم ، حتى جعلوا تلك الأمم التي انضوت تحت ظلال الدولة الإسلامية العادلة ، تنظر نظرة إجلال وإكبار ومحبة وتقدير . ونحن نوجز أهم ما يمكن أن تتمثل فيه تلك الأخلاق الرسالية :

أ ـ الإحسان

من الأخلاق الإسلامية الرفيعة الإحسان ، والمحسن يتمتع بخلق كريم وسلوك عظيم ومحبة خاصة عند من يحسن إليهم إذ يستعبد قلوبهم ، بإحسانه ومحبته .

---

(1) عن كتاب مكارم الأخلاق للطبرسي .
(2) عن كتاب مجمع البحرين للطريحي ، مادة كرم والمروءة تجمع أكثر الصفات الحسنة .

والإسلام شجع على العمل الصالح والإحسان إلى الآخرين لتتوثق عرى المحبة بين أفراد المجتمع الواحد . قال تعالى : ﴿ **وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين** ﴾ [البقرة : 194] .

وإذا أحسن الله إلى عبده فعلى العبد أن يحسن إلى إخوانه المحتاجين مما أفاء الله عليه قال سبحانه : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين** ﴾ [القصص : 77] . حتى الأعداء تلين قلوبهم ويزول الغضب منها عند الإحسان إليهم .

قال عزَّ وجلّ : ﴿ **ولا تستوي الحسنة ولا السيئة إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾ [فصلت : 34] .

وقال الرسول الأعظم (ص) : « إن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفو يعزكم الله ، والصدقة لا تزيد المال إلا كثرة فتصدّقوا يرحمكم الله » .

ب ـ الحلم

ومن مزايا الإسلام الحميدة ، الحلم . الذي يزين صاحبه فيجعله محبوباً من جميع الناس . وحد الحلم ، ضبط النفس عند الغضب وكظم الغيظ من غير ذل أو هوان .

ولا ريب أن ضبط النفس في مثل تلك الحالات يحتاج إلى تعب وجهاد . ذلك أن التغلب على النفس ومغالبة الهوى ، أهم من التغلب على الآخرين . وبعد هذا الترويض النفسي يصبح الحليم إنساناً وقوراً محترماً في محيطه الاجتماعي ، لأن الحلم دلالة واضحة على رجحان العقل وزيادة الإدراك ، حتى أنه يرفع صاحبه إلى أعلى الدرجات ، وهو من صفات الأنبياء المرسلين ، والأئمة المعصومين وغيرهم من الرجال العظام الذين سجلوا على صفحات التاريخ أعلى مراتب الكمال والسؤدد .

ولما كان الحلم في هذه المنزلة الرفيعة فقد وصف الله به نفسه في كتابه العزيز قال سبحانه : ﴿ **والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين ، ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حليم** ﴾ [الحج : 58 ـ 59] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **فبشّرناه بغلام حليم** ﴾[3] .

---

(3) الصافات الآية 101 وراجع الآيات : التغابن 17 وهود الآية 75 والبقرة الآية 263 والتوبة 114 والمائدة 101 وآل عمران 155 .

وقال الرسول الأعظم : « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتخير الخير يعطه ، ومن يتوق الشر يوقه »[4] وبهذا أشار إلى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم وهو مكتسب مستفاد .

وعن أبي جعفر (ع) قال : كان علي بن الحسين يقول : إنه ليعجبني الرجل أن يدركه حلمه عند غضبه[5] .

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) : من لانت كلمته ، وجبت محبته[6] .

ومما روي عن تأثير الكلمة في النفس ومقدار الحلم في كسب رضى الله والناس ما حدث للإمام جعفر الصادق مع الخليفة العباسي . بعث إليه المنصور يوماً فأتاه فقال : إني أريد أن استشيرك في أمر : قد رأيت إطباق أهل المدينة على حربي ، وتأنيت مرة بعد أخرى ، فلا أراهم ينتهون ، وقد رأيت أن أبعث إليها من يجمِّر نخيلها ويغوِّر عيونها فما ترى ؟ فسكت جعفر الصادق (ع) . فقال المنصور : ما لك لا تتكلم ؟ قال : أتكلم آمناً ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! إن سليمان بن داود أعطي فشكر ، وإن أيوب ابتلي فصبر ، وإن يوسف قدر فغفر وإن محمداً (ص) أوذي فاحتمل ، وقد جعلك الله من نسل الذين يغفرون فيصفحون ، فطفىء غضبه وسكت .

جـ ـ الوفاء وحفظ العهد

الوفاء وحفظ العهد هما من المزايا الإسلامية الحميدة التي يتحلى بها المؤمنون المخلصون ، ليكونوا قدوة حسنة في مجتمعهم . . وهما ملكة تلزم المتخلق بها القيام بواجبه وأداء ما عليه من حق لأخيه وأهله وذويه بإخلاص تام لا تشوبه أي شائبة . ولا ريب أن الوفاء وحفظ العهد لا يأتيان إلا عن نية صادقة وعزيمة ثابتة وهما كالمرآة تعكسان بوضوح وصفاء سريرة المتحلي بهما وطيب طويته .

ولما كانت هاتان الصفتان رمزاً للإنسانية الصادقة ، وأساساً في بناء مجتمع سليم ، نرى الإسلام قد أمرنا بالتخلق بهما والسير على مناهجهما كما جاء في القرآن الكريم قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً** ﴾ [الاسراء : 34] .

وقال عزَّ وجلّ : ﴿ **وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا**

---

(4) عن إحياء علوم الدين للغزالي .

(5) أصول الكافي للشيخ الكليني .

(6) العقد الفريد لابن عبد ربه .

قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكَّرون ﴾ [الأنعام : 152] . وقال رسول الله (ص) : « عليكم بصدق الحديث ، ووفاء العهد ، وحفظ الأمانة ، فإنها وصية الأنبياء » .

ومن أمثلة الوفاء في التاريخ الإسلامي الذين ضرب المثل بهم في الوفاء نخبة أبطال من أصحاب الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) . كانوا مخلصين لله ولرسوله ، أحراراً في أقوالهم ، أحراراً في أفعالهم أحراراً في عقائدهم . لقد آثروا الموت على الحياة وفاء لابن رسول الله (ع) .

ومن جميل ما ذكر في الوفاء ، ما رواه لنا التاريخ عن النساء الوافدات على معاوية بن أبي سفيان[7] .

د ـ الصدق

الصدق صفة إنسانية سامية تكفل استقرار المجتمع وتضمن الثقة بين الأفراد ، لذلك اعتبر أساساً من الأسس التي دعا إليها الإسلام في بناء المجتمع الإنساني الراقي . والصدق ضرورة إجتماعية يجب أن تنال حظاً كبيراً من العناية في الأسرة والمدرسة والجامعة ، لأن به ترد الحقوق وتتوثق الصلات الاجتماعية بين الأفراد وتسهل المعاملة بينهم . لذلك دعا الله سبحانه وتعالى المؤمنين للتخلق به فقال عزَّ وجلَّ يخاطبهم : **﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾** [التوبة : 119] .

وقال جل وعلا : **﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾** [الأحزاب : 70] .

وقال الرسول الأعظم : « عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً .

وإياكم والكذب فإنه يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »[8] .

ومن أنواع الصدق : صدق الوعد والأمانة .

فصدق الوعد هو من الصفات الحميدة التي يتحلى بها الإنسان ، وهي سبب جوهري من أسباب نجاح الفرد في المجتمع في هذه الحياة . والقرآن الكريم دعا إلى هذه

---

(7) راجع أخبار ذلك في العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ج 2 ص 102 .

(8) رواه مسلم .

الصفة النبيلة فمدح بها النبي إسماعيل (ع) بقوله : ﴿ **واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً** ﴾ [مريم : 54] .

وهل أصدق وعداً من إنسان يتلّه أبوه للذبح فيطيعه صابراً لا يتلكأ عن تنفيذ الوعد الذي أمر به الله جل وعلا ؟ ! قال تعالى : ﴿ . . . **يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال : يا أبَتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ، وفديناه بذبح عظيم** ﴾[9] .

فالصدق كما نرى ضرورة من ضروريات المجتمع المتحضر ولذلك دعا إليه الإسلام كما دعا إلى كل فضيلة إنسانية تسمو بالمجموعات البشرية عن كل خلل يصيب كيانها .

ومن أنواع الصدق ، الأمانة التي هي من أرفع الصفات في الإنسان ، ومن أقوى الدعائم التي يقوم عليها أي مجتمع سليم يهدف إلى حياة إنسانية كريمة . لهذا نرى الإسلام يدعو إليها ويعتبرها من صفات العباد المؤمنين . قال تعالى : ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ [المؤمنون : 8] .

هـ ـ التقوى

التقوى في أصل معناها جعل النفس في وقاية ، ولا تجعل النفس في وقاية إلا بالنسبة لما يخاف منه ، والخوف من الله هو أصلها ، ولكن الخوف يستدعي العلم بالمخوف[10] . فالذي يخشى الله أكثر هو الذي يتقيه أكثر . قال تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ .

والمتقون هم الذين يقون أنفسهم من سخط الله في الدنيا والآخرة ، فعليهم أن ينفذوا أوامره ويطبقوا شريعته ويقفوا عند حدوده . ولا شك أنه سبحانه وتعالى لا يأمر إلا بما هو خير لكافة خلقه ، ولا ينهى إلا عما يضرهم .

والتقوى هي فضيلة إنسانية أراد بها القرآن الكريم إحكام ما بين الإنسان والإنسان ، وما بين الإنسان وخالقه . لذلك دعانا الله إلى العمل بها بأساليب مختلفة

---

(9) الصافات الآية 102 و103 و104 و107 .

(10) روح الدين الإسلامي لعفيف طبارة ولكني أرى أن الخشية من الله غير الخوف منه ، لأن الله يحب عباده ، والذي يحب شيئاً لا يخافه ولكن يحبه ويقدره وينفذ رغباته . من هنا كان قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : ربي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك .

لتوجيه نفوسنا إليه . وقد وصف القرآن التقوى بأنها صيانة النفس عن كل ما يضر ، والابتعاد عن كل ما يحول بين الإنسان والغايات النبيلة التي بها كمال الجسم والروح والتناسق بينهما على أفضل ما يكون .

لذلك وصف الله من تحلّوا بالفضائل الإنسانية والمثل الأخلاقية العليا بالمتقين . قال عزَّ وجلَّ : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** ﴾ [البقرة : 177] .

فتأمل هذه الصفات الإنسانية والأخلاقية كلها التي وصف بها الله سبحانه بصفة التقوى .

ولا تقتصر التقوى في الشريعة الإسلامية الكاملة علي هذه الصفات وحدها بل يضاف إليها صفات نبيلة اجتماعية أخرى : فالعدل من التقوى . لأن الإنسان لا يكون عادلاً إلا إذا كان تقياً . قال تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا اعدِلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾ [المائدة : 8] .

والاستقامة مع الأعداء هي أيضاً من التقوى ، لأن الله عزَّ وجلّ أوصانا أن نكون عادلين مع جميع الناس ، الأصدقاء والأعداء على حد سواء ، قال سبحانه : ﴿ **كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين** ﴾ [التوبة : 7] .

والتقوى معناها العفو أيضاً . قال سبحانه وتعالى مخاطباً الرجال الذين وضع بيدهم عقدة النكاح : ﴿ . . . **وإن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير** ﴾ [البقرة : 237] .

والتقوى تقترن مع الجهاد بالأموال والأنفس ، قال تعالى : ﴿ **أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين** ﴾ [التوبة : 44] .

وتقترن التقوى أيضاً بالصبر . قال تعالى : ﴿ **فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ [هود : 49] .

والمتقون وليهم الله وحده وهم بعيدون كل البعد عن الظلم والبهتان . قال تعالى : ﴿ . . . **وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين** ﴾ [الجاثية : 19] .

والتقوى هي امتحان للإنسان من رب العالمين ، يمتحن بها عزَّ وجلّ قلوب الناس فتتفاوت درجاتهم بالقرب منه أو البعد عنه . قال تعالى : ﴿ **إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم** ﴾ [الحجرات : 3] .

لذلك كله أمرنا الله عزَّ وجلّ أن نتزود بالتقوى فهي خير زاد للمؤمنين . لأنها تجمع كل الأعمال الخيرة وكل الصفات النبيلة التي يجب أن يتحلى بها الفرد ، وجميع العناصر الأصيلة التي تساعد في بناء مجتمع صالح تسوده العدالة والمساواة وتقدر فيه كرامة الإنسان . قال سبحانه ناصحاً عباده : ﴿ . . . **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب** ﴾ [البقرة : 197] .

لذلك كانت التقوى الميزان الدقيق والمقياس الصحيح الذي يمتحن بها رب العالمين عباده المؤمنين . قال عزَّ وجلّ : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ [الحجرات : 13] .

ولكن ما هي فوائد التقوى وثمراتها في الدنيا والآخرة ؟

1 ـ أمن في الدنيا ونصر في الآخرة : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ [يونس : 62 ـ 64] .

2 ـ الثواب العظيم والنعيم في الآخرة : ﴿ **للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ [آل عمران : 15] .

3 ـ تفريج الأزمات وحل المشكلات : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ [الطلاق : 2 و3] ﴿ **ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً** ﴾ [الطلاق : 4] .

4 ـ نيل الرحمة : ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ [الأعراف : 156] .

5 ـ النصر والتأييد : ﴿ **إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾ [الأعراف : 128] .

6 ـ تنوير البصيرة ومعرفة الحق : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله يجعل لكم فرقاناً** ﴾ [الأنفال : 29] .

هذه هي التقوى التي أمر بها الدين الإسلامي وشرعتها الشريعة الإسلامية وتحلى بها المسلمون المؤمنون ، وهذه ثمرات التقوى في بناء الشخصية الفردية وبناء المجتمع الإنساني السعيد . لذلك كله أولاها القرآن الكريم عناية فائقة ودعا عباده الصالحين ليتحلوا بها ويعيشوا عيشة راضية .

ولو عرف العالم التقوى معرفة حقيقية وطبقها بشرطها وشروطها وقام بواجبها على أكمل وجه لانطفأت جذوة الشر في العالم وذابت الآثام من القلوب ، وولت الحماقة بغير رجعة ، واندحر الظلم على عتبة الحق ، وذلت الأنانية أمام الأثرة ، وخجلت الحماقة أمام الصبر ، وانهزم الإثم والعدوان عند ظهور التعاون والإيثار ، وساد السلام في ربوع الإسلام .

3 ـ الشخصية الإنسانية

تقاس الأمم الراقية بمقدار احترامها الشخصية الإنسانية بعد تقديم كل ما يلزمها من حاجات وتحقيق جميع ما عندها من رغبات شخصية وطموحات إنسانية . والحضارة بمفهومها الصحيح تنطلق هي أيضاً من مبدأ تقدير شخصية الإنسان الذي يعتبر الحجر الأساس في بناء المجتمع الحضاري المتطور . ذلك الإنسان القدرة الخلاقة والطاقة البناءة ، والفكر المدبر المستنير بالمعرفة ، والقلب النابض بالحركة والعامر بالإيمان . الإنسان الذي كرمه الله وجعله خليفة على الأرض يطبق شريعة الله ، ويعمل في سبيل الله ، ويحب ويكره في الله ، وينفع ما استطاع عباد الله . قال تعالى :

﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً** ﴾ [الاسراء : 70] .

وبعد التكريم الإلهي للإنسان جعله خليفة على أرضه . قال تعالى : ﴿ **. . . إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين** ﴾ [البقرة : 124] .

إن تكريم الإنسان يكمن في صلب عقيدة الإسلام مترجماً بالمساواة المطلقة بين جميع الأجناس البشرية ، فلا عرق ولا لون ، ولا تفضيل ولا امتيازات ، ولا عصبية « لا

فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » وبقدر ما يقدم من خير للآخرين .

يقول تعالى مخاطباً جميع عباده : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ [الحجرات : 13] .

والجدير بالذكر أن منطوق الآية الكريمة كان يطبق بين المسلمين أنفسهم وبين المسلمين وغير المسلمين من رعايا المجتمع الإسلامي . والتاريخ الإسلامي حافل بشواهد على ذلك ، والنبي نفسه (ص) كان المثل الأعلى في إقامة العدل والمساواة فبدأ بنفسه .

ولقد دعا الرسول الأعظم إلى المحبة والمساواة والمؤاخاة ، فزرع بذور الحب بين المسلمين عملاً بقول الله عزَّ وجلّ : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ [الحجرات : 10] .

وعن النبي (ص) : سيد الأعمال ثلاثة : إنصاف الناس من نفسك ومؤاساة الأخ في الله وذكر الله على كل حال .

« وقد سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) : أيهما أفضل ؟ العدل أو الجود ؟ فقال : العدل يضع الأمور مواضعها ، والجود يخرجها من جهتها ، العدل سائس عام ، والجود عارض خاص ، فالعدل أشرفهما وأفضلهما »[11] .

نرى من الواضح أن الدين الإسلامي هو دين المساواة ، ودين العدالة ، لم يميز بين فرد وآخر ، ولم يؤثر أحداً على أحد إلا بالتقوى .

إن فلسفة التوحيد التي جاء بها الإسلام كانت في حد ذاتها ذات أثر خطير في تحرير الإنسان تحريراً كاملاً من الخوف والجبن وظلم أصحاب النفوذ والمال والسلطان إنه تحرر في الفكر والقول والعمل ، وكل ما يحتاجه الإنسان في مجتمعه مادياً ومعنوياً . ولكن في نطاق الإلتزام بالشريعة الإسلامية . وهل هناك تحرر من الخوف ومن الظلم ومن بطش الملوك وطغيان الطغاة أروع وأمتع من هذا التحرر ؟

كما وأن الله تعالى أوجد الأخوة الشرعية بين عموم المسلمين على اختلاف أجناسهم

---

(11) عن نهج البلاغة . قصار الحكم ، رقم 211 .

وتباين مواطنهم ، وتباعد عروقهم وقبائلهم . فقال : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾[12] .

وقد أحكم الله عزَّ وجلّ الصلة الأخوية إحكاماً لا مزيد عليه ، ووثق هذه الرابطة توثيقاً لا يرقى إليه الوهن . فأكد النسب المشروع بحكم إلهي ، لا تنقطع وُصلته ، ولا تنفصم عروته . قال تعالى : ﴿ **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم** ﴾ [الأحزاب : 6] .

وقال الرسول الأعظم : « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم » وقال (ص) : « أنا جد كل تقي » وتأكيداً لذلك ما فعله النبي (ص) من إيجاب المؤاخاة حين الهجرة ، فإنه آخى بين كل اثنين من المهاجرين : بين كل غني وفقير منهم ، حتى يتعاونوا على السراء والضراء ، وكذلك أمر بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .

ولقد نهى (ص) عن التعبير عن العبد والأمة بلفظ العبد ، ونهى الموالي عن القول : بربي وربتي . فقال (ص) : « لا يقولن أحدكم : عبدي وأمتي ولا يقولن المملوك : ربي وربتي . وليقل المالك : فتاي وفتاتي . وليقل المملوك : سيدي وسيدتي ، فأنتم المملوكون والرب الله » .

وشدد كثيراً على كل مسلم من تحقير أخيه المسلم . فقال (ص) : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه[13] ، من كان في حاجة أخيه فإن الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربته فرج الله بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » قال سبحانه : ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه** ﴾ [الحجرات : 12] .

فثبت بوضوح أن الأخاء في الإسلام هو أساس متين من أسس الوحدة بين جميع المسلمين ومن وحدة المسلمين إلى وحدة الرئاسة الإسلامية ، وهي الإنضواء تحت لواء رئيس واحد ، لساناً وقلباً وعقيدة ، والاعتصام به وطاعته . قال تعالى : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾ [آل عمران : 103] .

---

(12) لقد عبر بلفظ الأخوة الذي لا يقال إلا لأخوة النسب ، دون (الأخوان) الذي يشمل أخوة الصحبة والصداقة

(13) يسلمه : يتركه للحوادث من غير مساعدة .

وهذا يعني أن الدين الإسلامي ليس دين عبادة فحسب ، إنما هو دين نظام دينوي وأخروي وتنظيم إجتماعي ، ومن يتدبر الأهداف الإسلامية الحقيقية ، يصل إلى إدراك سر الحكمة الإلهية في توحيد المسلمين جماعة متراصة واحدة ، دولتهم دولة الإسلام ودستورهم القرآن ، ونشيد دولتهم الأذان ، ومقياس تفاضلهم : تقوى الله ، وتعاملهم : العمل بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونسبهم الإسلام ، وطيب كلامهم : اللّهم صل على محمد وآل محمد ، وفواتح كلامهم : بسم الله الرحمن الرحيم ، وشريعتهم : الشريعة الإسلامية . وفي توحيد المسلمين ، توحيد الرئاسة الإسلامية ، وعلى الأخص في أيامنا هذه ، حيث أن الأعداء يحدقون بنا من كل جانب ، يترقبون لنا كل هفوة وزلة ، ويكيدون لنا المؤامرات الخطرة .

لقد اكتسب الإنسان في ظل دولة الإسلام عنصرين هامين في نطاق إنسانيته : الأول منهما : المساواة الكاملة ، وثانيهما : التحرر من الخوف والقلق وعدم الإذعان لأي قوة في الدنيا سوى خالق الخلق ، وفاطر الكون ، رب العالمين .

ولا يخفى أن هذا الاستقرار النفسي يعود إلى التوازن العاقل والتوسط العادل بين مطالب الروح ومطالب الجسد الذي أمر به الإسلام . فهو لا يأمر الآخذ به أن يحرم نفسه من متعة مادية ولا ملذة جسدية ما دام يتناولها من طريقها المشروع ، وفي حدها المعتدل . قال تعالى : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾ [القصص : 77] .

يريد الله من الأمة الإسلامية أن تعطي وتمنح في سماحة وتأخذ وتتعلم في رضى وفي غير غضاضة ، أراد لها سبحانه أن تكون أمة وسطاً . قال تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً . . .** ﴾[البقرة : 143] .

فالأمة الوسط هي خير الأمم يشهد أهلها على أنفسهم ثم يشهدون على الناس . قال الرسول الأعظم (ص) : « الحكمة ضالة المؤمن » وما دامت الحكمة كذلك فلتؤخذ نابعة من منطلقها الإسلامي أو مقتبسة من أهل العلم في جميع ميادين الحياة : في العلوم والفنون والسياسة والمعرفة بجميع أنواعها . ولا يخفى أن منبعها الأصيل الذي كان ولا

يزال مصدراً غنياً لرواد المعرفة الحقيقية هم أهل البيت الأئمة الأطهار المعصومون والأنبياء الأطهار ، منارة الهدى للناس كافة .

4 ـ الإنسان والمجتمع الإسلامي

ومن بذور الحضارة الإسلامية تنظيم العلاقة بين الفرد والمجتمع تنظيماً فريداً من نوعه لم يسبق إليه من قبل . فالفرد في الدولة الإسلامية محصن من الامتهان والرق والتحقير، أو العدوان عليه أو الذوبان في العشيرة والقبيلة الضيقة الآفاق ، أو في أي منزلق ترفضه الطبيعة الإنسانية . قال تعالى :

﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ [الاسراء : 70] .

ولكنه مع ذلك غير مسموح لأي فرد بتجاوز حدوده إلى المدى الذي يلحق فيه الضرر بالآخرين . قال سبحانه وتعالى : **﴿ . . . من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً . . . ﴾** [المائدة : 32] وقال النبي الأكرم محمد (ص) : « رحم الله امرءاً عرف حده فوقف عنده » .

من واجب المرء أن يعرف حدوده ، من جميع نواحيها ، الحدود القانونية والشرعية والأخلاقية والتربوية والعلمية والأدبية وغيرها . . . ومن واجبه أيضاً أن يقف عندها فلا يتجاوزها حتى لا يكون من الطامعين والأنانيين ، ولا يقف دونها حتى يصبح من الضعفاء والعاجزين .

هذا ، والمجتمع ملتزم بحماية حقوق الفرد والحفاظ عليه وتأمين الراحة له ، وتيسير سبل الحياة الكريمة في نطاق التعاون الجميل والتعاطف الأخوي اللذين أشاعهما الإسلام في نطاق تشريعاته العادلة الإنسانية ، حيث فرض على الأغنياء واجبات لا بد منها أصبحت حقوقاً للفقراء ، تجبى بالطريقة الحقة وتنفق في مواقعها المشروعة بالطرق الحلال ، ولا نجد الآن نظيراً لها في أي مذهب من المذاهب الحديثة : تلك هي الزكاة التي تطهر النفس . قال تعالى : **﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾** [التوبة : 103] .

فالزكاة التي فرضها الإسلام تطهر نفوس الأفراد من أرجاس البخل والدناءة والأثرة والطمع ، وتحي بينهم المحبة والتعاطف والمروءة ، وكل صلة خيرة إنسانية .

وهي ثمرة نظام اجتماعي حفظ التوازن بين طبقات الأمة مستوعباً جميع أصناف المال بقدر معقول وعادل . ولا غرابة فهو التشريع الإلّهي الكامل والثابت الدائم ، وسنة الله في خلقه : ﴿ **فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً** ﴾[14] . من هنا كان المجتمع الإسلامي مجتمعاً أصيلاً في ذاته ، سامياً بصفاته ، صافياً في جوهره ، مستغنياً عن استيراد العقائد الحديثة والأنظمة الجديدة والمتغيرة من الشرق والغرب .

هذه الأنظمة التي أدت بالعالم المعاصر إلى القلق والحيرة والاضطراب والحروب المدمرة . فتحولت بذلك السعادة إلى شقاء ، والإبداع إلى سلاح فتاك ، والحضارة إلى حقارة . إن كل بعد عن الإسلام هو بعد عن السلام وكل بعد عن الحضارة الإسلامية هو بعد عن الكرامة الإنسانية .

فالإسلام دين روحي يخاطب مشاعر الإنسان السامية ويخلق فيه شعوراً بالتقدير والاحترام لكل ما يحيط به من مخلوقات ، كما يطلب إليه أن يقارن زوال الأشياء وفراغها في هذا العالم الفاني بالطبيعة الخالدة للتقوى والاستقامة والخلود في الدار الآخرة .

ثم إن التسامح الذي فرضه الإسلام على من أراد اتباعه مع الآخرين ، يخلق في نفس المسلم شعوراً بالود والصداقة الذي من دونه لا يطمح أي امرىء في أن يدخل الجنة . ولقد أثبت المسلم بوصفه مواطناً صالحاً في هذا العالم أنه يملك الرحمة والصداقة والمحبة إلى حد كبير مع الآخرين ، هذه الصفات أكسبته الإعزاز في كل مكان سكن فيه وفي كل منطلق من منطلقات حياته .

وأما من منطق الأمن الجماعي والضمان الاجتماعي والهداية والإنسانية والسلام العالمي فإننا نرى أن المعالم الرئيسية البارزة لحضارة اليوم تؤكد مدى استطاعة الإسلام أنه قوة عالمية لهداية الإنسانية وخلاصها من الويلات المحدقة بها .

هذه بعض الزوايا المختلفة لعل أهمها الزاوية الاجتماعية التي من خلالها يمكن أن ينبعث نور يضيء العالم المعاصر وينقذه من متاهات وضلالات عديدة .

إن الثقافة الإسلامية ليس غايتها تهذيب الفرد أو الجماعة في بيئة معينة وإنما ترمي إلى تثقيف الجنس البشري بأكمله ، والدين الإسلامي غايته الإنسان في كل مكان يشجعه لتحسين ذاته ، وترقية أحواله وإعلاء شأنه في جميع مجالات الحياة الحرة الكريمة . وإن أي تطور يكون مناقضاً لتعاليم الإسلام ولما ورد في القرآن الكريم ، فإنه تطور ناقص بلا

---

(14) فاطر الآية 43 راجع الأحزاب 62 والفتح 23 .

ريب سرعان ما يفشل وينقرض ، ولا يمكن للمسلمين بأي حال ، إذا ساروا عليه ، إلا أن يعرضوا أنفسهم لكارثة .

هذه هي روح العقيدة الإسلامية التي أرادها الله عزَّ وجلّ لعباده الصالحين ، والتي جاءت رحمة للعالمين في مختلف مجالات السلوك والعلم وقيم الحياة الاجتماعية . جاءت إحتفالاً بالإنسان عزيزاً مكرماً في الدنيا والآخرة ، منعماً مهدياً إلى الصراط المستقيم . قال تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً** ﴾[15] .

5 ـ الانحراف في العقيدة يؤدي إلى انحرافات في تصورات الحياة والانسان

انحراف في السلوك :

انحرفت الجاهلية في عبادتها الله ولم تكن تتصور أن انحراف العقيدة سيؤدي إلى انحراف في السلوك ، لأنها لم تكن ترى في عملها ذلك انحرافاً عن الصواب ! .

قال تعالى : ﴿ **إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ [الأعراف : 30] وقد حسب فريق من الناس أن التصورات قد تنحرف ثم يستقيم السلوك في جميع المجالات : في السياسة والاجتماع والاقتصاد والفن والأخلاق . ذلك أن النظريات لا تنسجم مع التطبيق دائماً . فالتطبيق يعتمد التجربة ، وتقوم عليه التنظيمات التي تصحح منه ما يفسد شيئاً فشيئاً . وهذا وهم مبني على وهم . وصف هؤلاء القرآن الكريم : ﴿ **قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** ﴾ [الكهف : 104] .

وهنا أتذكر قولاً جرى مجرى الحكمة والمثل يقول : (هل يستقيم الظل والعود أعوج ؟ !) إنه وهم جاهلي يغري بعض الناس ظاهرياً حيث يصيبهم بعض العدالة الجزئية أو بعض الخير ! فيظنون أن الأمور تجري على أحسن ما يرام ! هو خير زائف لأنه لا يستمد من معين الخير الحقيقي .

هذا الخير الزائف تروج له وسائل الإعلام الجاهلية فتصوره للذين يساورهم الشك ، إنه لا يخالف الحق أو ما تقتضيه الأخلاق ، وإنه تطور ! والذي يعارضهم يتهم بالرجعية ، وأي رجعية . . !!

---

(15) الأنبياء الآية 107 وسبأ الآية 28 .

وعند ذلك يختلط الأمر على المظلومين فيحسبون أنهم يعيشون في عدالة ! فـماذا يمكن أن توصف هذه الجاهلية ؟ إنها فعلاً أخبث وأعنف جاهليات التاريخ . ولكن هل تتصور أن الأمـر يستعصي على البيـان ! أبداً . مهـما أوتيت الجاهليـة من سلطان فـلا يمكنهـا أن تحجب الخـير الحقيقي أو تخنق صـوت الحق إلى الأبـد عن النـاس . ولئن كـان تصـور الإنسان الجاهل قد شمل الكون والحياة والإنسان ، فإن السلوك الفاسد قد شمل مناحي الحياة كلها في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والفن والأخلاق لتظهر من جديـد أو لتتلاشى نهائياً أو لترث قيمها الابداعية حضارة أخرى أو تبدل فيها وتطورها . وقد كثرت نظريات المفكرين التي تعالـج هذا المـوضوع من وجهـات نظر مختلفـة منها : الـدورات التاريخيـة للفيلسوف الإيطالي فيكو : ومضمونها أن كـل أمة تمـر في تطورهـا التاريخي بـأدوار متماثلة هي :

عصر الآلهة وفيه يعتقد الناس بـأن الآلهة تـدبر وتسـير كل شيء . ثم عصر البـطولة الذي يلعب فيه الأبطال والملوك والشخصيات البارزة الدور الرئيسي في تيسير الحـوادث . ثم عصر النـاس الذي تسـود فيه المسـاواة بين النـاس ، والقوانـين التي يتساوى أمـامهـا الجميع وتقوم فيه حضارة حقيقية .

وبعد هذه الأدوار الثلاثة تصـاب الحضارة بـالانتكاس وتعـود إلى بربـرية جـديدة ، وعن هذه البربرية تنبثق حضارة جديدة تعود فتنهار وتغلق الدور وهكذا دواليك حتى فنـاء الأرض .

أمـا نظريـة شبنغلر الألمـاني فمضمـونها أن التـاريـخ يتكـون من كـائنـات حيـة هي الحضارات ، وتاريخ كل حضارة كتاريخ الكائن الحي العضوي يمر بنفس الأدوار ؛ فكما أن للكائن العضوي مولده وطفـولته وشبـابه ونضجـه وشيخوختـه ثم موتـه ، ولكل دور صفاته وخصائصه ، كذلك تمر الحضارة في مثل هذه الأدوار وأخيراً تفنى إلى غير عودة .

ونظرية أرنولد توينبي الانكليزي ترفض النظريـة العرقيـة التي تقول : إن الحضـارة من صنع عرق معين يتميز عن غيره بمواهب بيولوجيـة متفوقـة . كما تـرفض أيضاً نـظرية البيئة الجغرافية التي تقول : إن الحضارة تقوم في بيئة جغرافية ملائمة تحوي شروطاً تسهل المعيشة . ومضمون نظرية توينبي أن الأحوال الصعبة المعاكسة وليس الأحوال المؤاتية هي التي تساعد على قيام الحضـارة . أي تقوم هـذه النظريـة على الاستجـابة ورد الفعـل على التحدي ، ويعطي مثالاً على ذلك الحضارة التي قامت في وادي النيل فيقول ما معناه :

إن تبـدل المناخ في شـمال إفريقيـا من رطب إلى جاف أدى إلى عـدم كفايـة الطرائـد

والأعشاب ، بحيث تعذرت الحياة القائمة على الرعي والصيد ، فقابل المصريون القدماء تحدي الجفاف وانحدروا إلى وادي النيل الذي كثرت فيه المستنقعات في ذلك العصر فتحدوا هذه الظروف غير الملائمة للحياة أيضاً ، وكافحوا الشرائط الطبيعية الجديدة وتغلبوا عليها وأنشأوا الحضارة المصرية القديمة وما جرى في وادي النيل جرى في وادي دجلة والفرات في العصور القديمة ويسمي توينبي هذا الوضع بحسنات الأحوال المعاكسة . ولكنه يستطرد قائلاً :

إذا كانت التحديات شديدة جداً بحيث لا يمكن تحديها فمن الصعب أن تقوم حضارة ولكي تكون الاستجابة المبدعة ممكنة يجب أن لا تتعدى التحديات الطبيعية أو البشرية حداً معيناً بحيث لا يمكن التصدي له وتحديه .

الفصل الرابع

أصول الحضارة الاسلامية

1 ـ القرآن الكريم

القرآن هو كتاب الله المنزل من عند الله والموحى به إلى أفضل خلق الله محمد بن عبد الله خاتم النبيين والرسل ، والمنقول عنه نقلاً متواتراً ، وهو آخر الكتب السماوية نزولاً . كتاب هدى للمتقين ، يبلغهم ما أودعه من العقائد ، وما فرضه من العبادات ، وما نظمه من الأحكام وما رسمه من مبادىء الفكر والعلم والعمل . . وما به قوام الأمة المسلمة الفاضلة والمتكاملة ، وكل ما يتعلق بالحياة في جميع ميادينها وسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة .

الوحي

أوحى الله إلى أنبيائه ورسله ما يريد أن يعلموه من المعارف . وقد اختصره الشيخ محمد عبدة في رسالة التوحيد فقال : « إن الوحي عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة . والأول بصوت نفسه يتمثل لسمعه أو بغير صوت ، ويفرق بينه وبين الإلهام ، بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور »[1] .

يشتمل هذا التعريف على أنواع الوحي الثلاثة الواردة في قوله تعالى : ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم** ﴾ [الشورى : 51] .

---

(1) رسالة التوحيد ص 125 .

بدء نزول القرآن

بدأ نزول القرآن بمكة المكرمة ، وأول ما نزل منه هذه الآيات المباركة : ﴿ **إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ [العلق : 1 ـ 5] .

ثم توالى نزول القرآن على حسب الحوادث والأحوال فتم نزوله في ثلاث وعشرين سنة تقريباً .

كتّاب القرآن

اتخذ رسول الله (ص) كتّاباً للوحي يكتبون ما ينزل عليه من القرآن أشهرهم الخلفاء الراشدون الأربعة : أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب وغيرهم كزيد بن ثابت وأبي بن كعب ، والمغيرة بن شعبة وثابت بن قيس .

وكان الرسول (ص) يأمرهم بكتابة كل ما ينزل من القرآن فيخطونه على ما تيسر يومئذٍ من جرائد النخل ، والحجر الرقيق ، وعظام الأكتاف والأضلاع من الشياه والإبل وكل ما أصابوا من مثلها مما يصلح للغرض نفسه . وكان النبي (ص) يدلهم على موضع كل آية من سورتها .

وكان من الصحابة في العهد النبوي من جمع القرآن حفظاً عن ظهر قلب ، كعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت .

ويقول الإمام الخوئي[2] حول الأخبار التي دلت على أن أول ما جمع القرآن في عهد أبي بكر بشهادة شاهدين من الصحابة :

« كلها أخبار آحاد لا تصلح أن تكون دليلاً على ذلك (وهي) معارضة بأخبار كثيرة دلت على أن القرآن قد جمع في عهد النبي على أن النظرة العقلية البسيطة تشهد بكذب تلك الأخبار فإن القرآن هو السبب الأعظم في هداية المسلمين وفي خروجهم من ظلمات الشقاء والجهل إلى نور السعادة والعلم ، وقد بلغ المسلمون في العناية بالقرآن الدرجة القصوى ، فقد كانوا يتلون آياته آناء الليل وأطراف النهار ، وكانوا يتفاخرون في حفظه واتقانه ، ويتبركون بسوره وآياته ، والنبي يحثهم على ذلك ، فهل يحتمل عاقل بعد هذا

---

(2) البيان في تفسير القرآن (المقدمة) ص/ 106 ـ 107 ـ ط 2/ 1385 هـ .

كله أن يقع الشك عندهم فيه حتى يحتاج اثباته إلى شاهدين ؟ . . . » كما نصت عليه تلك الروايات ؟ !! .

وسور القرآن قسمان : فما نزل قبل الهجرة يقال له المكي وما نزل بعد الهجرة يقال له المدني . والسورة[5] هي قطعة من القرآن مستقلة تشتمل على ثلاث آيات فأكثر . وسور القرآن مائة وأربع عشرة سورة لكل منها اسم خاص ، وقد وقع لبعضها اسمان فأكثر ، من ذلك مثلاً : الفاتحة وتسمى أيضاً أم القرآن والسبع المثاني وبعض السور تؤخذ أسماؤها من مطالعها ، وبعضها تسمى بأسماء لم تذكر في مطالعها وإنما اختصت السورة بها ، وبعضها يسمى بما كثر تردده فيها من أحكام وقصص .

كيفية نزول القرآن

أنزل القرآن على خاتم النبيين والرسل خلال ثلاث وعشرين سنة تقريباً ، وربما نزلت آية مفردة ، وربما نزلت آيات عدة ، وذلك بحسب الحاجة التي تكون سبباً في النزول . وهذه حكمة ربانية قد يكون القصد منها القدرة على استيعابها أو الحجة البالغة على العرب في إعجاز القرآن . ولولا نزوله متفرقاً آية واحدة إلى آيات قليلة لما أعجزهم الدليل وأفحمهم الرد عليه ليأتوا بسورة واحدة مثله ، ولو نزل كله دفعة واحدة لكان لهم بعض العذر في معارضته ؛ أما وقد كانت فسحة كافية من الزمن بين الآية والآية لمن كان في نفسه نية المعارضة . ولكنهم عجزوا بلا ريب ويعجز جميع الخلق في تقليد كلام الخالق جل وعلا . وهذا دليل واضح يظهر وجهاً من وجوه إعجاز القرآن ، علماً أن أكثر ما نزل في ابتداء الوحي إلى أن هاجر النبي (ص) من مكة إنما هو من قصار السور وهو بطبيعة الحال أسهل للمعارضة أو التقليد .

والعرب في ذلك الزمن كانوا مغمورين في جاهليتهم المختلفة المناحي ، والقرآن يتضمن الكثير من الأوامر والنواهي التي جاءت لتصلح أمورهم وتهديهم إلى الخير والصلاح ، فلو نزل عليهم القرآن دفعة واحدة لثقلت عليهم التكاليف ونفرت قلوبهم من قبوله .

وحكمة إنزاله مفرقاً أيضاً أن يحفظه النبي (ص) ويعيه تماماً ، لكي يثبت الله به فؤاده كلما اشتدت معارضة المعارضين . قال تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه**

---

(3) قال الجاحظ : سمى الله كتابه اسماً مخالفاً لما سمى العرب كلامهم جملة وتفصيلاً ، فسمى جملته « قرآناً » وسموا « ديواناً » وسمى بعضه سورة ، وسموا قصيدة . وسمى بعض السورة آية وسموا بيتاً ، وسمى آخر الآية فاصلة ، وسموا قافية .

القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ [الفرقان : 32] . وكما هو معروف أن الرسول كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب كغيره من الرسل السابقين الذين كانوا كاتبين وقارئين بإمكانهم ضبط كل ما ينزل عليهم جملة واحدة وبسهولة تامة وتحدي القرآن للعرب جميعاً دليل واضح وأكيد على أنه وحي إلّهي .

كان العرب كما هو معروف عنهم مفطورين على حب الشعر والخطابة والبلاغة . وهذه الفتون اشتهرت عند العرب وكانت أسمى ميزاتهم التي افتخروا بها على غيرهم من الأمم . وقد جاء القرآن الكريم أفصح كلاماً وأبلغ أسلوباً وأعلى بياناً ومعنى ذلك ليجد السبيل إلى امتلاك قلوب العرب جميعاً والسيطرة على مشاعرهم ، فشعروا بالضعف والعجز . ولما سمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم طأطأوا لبلاغته ، وأذعنوا لفصاحته ، بهر الشعراء منهم فخرست ألسنتهم وضاع إلهامهم وسكتت شاعريتهم .

أما زعماء الشرك فأبوا الإذعان واتهموا محمداً (ص) مرة بالسحر وأخرى بالجنون وأن هناك رِئيّاً يلهمه القول ، وهو شعر ، وهو سحر ، وهو أساطير الأولين ، ولو نشاء لقلنا مثله ؟ ! !

أما الطريقة التي سلكها القرآن الكريم في هذا التحدي فقد جاءت متدرجة مقصورة في أول الأمر على أن يأتوا بمثله كله . قال تعالى :

﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لك فاعلم إنما يتبعون أهواءهم ومن أضَل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [القصص : 49 و50] طلب منهم تأليف كتاب مثل القرآن وكان قد نزل في القرآن سبع وأربعون سورة . فحارت العرب وعجزت أمام هذا التحدي . فمضى القرآن خطوة أخرى هي أهون عليهم من الأولى . طالبهم هذه المرة أن يأتوا بعشر سور فقط . قال تعالى :

﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا إنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ [هود : 13 و14] .

ثم مضى القرآن خطوة ثالثة فطالبهم أن يأتوا بسورة واحدة وهذا منتهى التحدي ، قال تعالى :

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من

دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ [البقرة : 23 و24] .

وقد سمع العرب آيات التحدي فبدا عجزهم وظهر ضعفهم عن مجاراة هذا التحدي .

ثم امتدت الأجيال وتوالت العصور والمؤلفون من بلغاء وفصحاء وكتاب وشعراء ونقاد وأدباء يعترفون بإعجازه ويقرون بقصورهم عن بلوغ منزلته .

إنه المعجزة الكبرى والدليل الواضح ، إنه لا يمكن أن يكون من عمل إنسان في أي مكان وأي زمان .

2 ـ السنة النبوية الشريفة

السنة لغة هي السيرة والطريقة ، وقد كانت تطلق على الطريقة الدينية التي سلكها النبي في سيرته . فإذا كان الحديث عاماً يشتمل على قول النبي(ص) فالسنة خاصة بأعمال النبي وعلى ضوء هذا ندرك قول المحدثين أحياناً : « هذا الحديث مخالف للقياس والسنة والإجماع[4] ولما كانت السنة النبوية هي الطريقة التي كان النبي (ص) يؤديها بأقواله الحكيمة وأحاديثه الرشيدة ، ولما كان الحديث عن أقوال النبي وأعماله المؤيدة لأقواله ، وجدت أن الحديث والسنة يدوران حول محور واحد وينتهيان أخيراً إلى النبي الكريم (ص)[5] .

السنة في اصطلاح المحدثين : هي « كل ما أثر عن النبي (ص) من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية أو سيرة سواء أكان ذلك قبل البعثة أم بعدها » .

والسنة بهذا المعنى مرادفة للحديث النبوي[6] .

السنة في اصطلاح علماء أصول الفقه : « هي كل ما صدر عن النبي (ص) غير القرآن الكريم ، من قول أو فعل ، أو تقرير مما يصلح أن يكون دليلاً لحكم شرعي »[7] .

وقد ذهب الإمامية إلى أن السنة هي قول المعصوم وفعله وتقريره ، وهي بذلك

---

(4) الفهرست لابن النديم ص 59 .

(5) راجع نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية للمؤلف ج 1 ص 189 .

(6) راجع قواعد التحديث ص 35 ـ 38 .

(7) المدخل إلى السنة وعلومها ص 7 والسنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص 61 .

تشمل أقوال وأفعال وتقريرات أئمة أهل البيت (ع) والذين هم امتداد للنبوة[8] .

أ ـ أما القول فهو أحاديثه (ص) التي قالهـا في مختلف الأغراض والمنـاسبات فـترتب على ذلك حكم شرعي ، كقوله (ص) : جُعِلَت لي الأرض مسجداً وطهوراً .

ب ـ وأما الفعل فهو الأفعال التي نقلها إلينا الصحابة ، مثل أدائه الصلوات الخمس بهيئاتها وأركانها وأدائه مناسك الحج وقضائه بالشاهد واليمين وما إلى ذلك .

ج ـ وأما التقرير فكل ما أقره الرسول (ص) مما صدر عن بعض أصحابه من أقوال وأفعال بسكوت منه وعدم إنكار ، أو بموافقته وإظهار استحسانه وتـأييده فيعتـبر ما صـدر عنهم بهذا الإقرار والموافقة عليه صادراً عن الرسول (ص)[9] .

وقد تطلق السنة عند الفقهاء في مقابلة البدعة[10] .

إن القرآن الكريم والسنة الشريفة هما الأصل الأصيل للحضـارة الإسلاميـة ، ولذا كان لا بد من الحديث في النواحي التالية :

1 ـ الناحية الدينية .

2 ـ الناحية الاجتماعية .

3 ـ الناحية الأخلاقية .

4 ـ الناحية الاقتصادية .

5 ـ الناحية العلمية .

6 ـ الناحية الأدبية .

7 ـ الناحية السياسية .

الناحية الدينية

1 ـ الإيمان بالله

الإيمان كما تعرفه كتب اللغة هو التصـديق والاطمئنان . والمؤمن بمعنـاه اللغوي هـو الذي يعتقد بعقيدة سماوية أو أرضية ، سواء أكانت هـذه العقيدة جـاء بها رسـول أو غير رسـول . وكل من آمن بمعتقـد يدعى (مؤمنـاً) ومن خلال هـذا الإيمـان يتحـدد سلوك الفرد ، ويتوجه فكره ، وتتوضح معالم شخصيته .

---

(8) انظر : الأصول العامة للفقه المقارن ، السيد محمد تقي الحكيم ، ص 121 وما بعدها .

(9) راجع سبل السلام ج 1 ص 97 .

(10) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص 61

أما المؤمن بمعناه المصطلح ، فهو المؤمن بوجود الله عز وجل ، وهـذا الإيمان ركن من أركان الشريعة الإسلامية .

وقـد ذهب كثير من العلماء إلى أن فكـرة الله أو الـدين عـلى العمـوم إنمـا هي فكـرة فـطريـة وجدت في فكر الإنسان ، والذي أوجدها فينا موجود أعلى هو الله سبحانه وتعالى ولنتأمل هذه الآيات القرآنية التي تدل على وجـود الله بظاهـر الطبيعـة . قال تعـالى : ﴿ **وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ، هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيـل والأعناب ومن كـل الثمرات إن في ذلـك لآية لقـوم يتفكـرون ، وسخـر لكم الليـل والنهـار والشمسَ والقمـرَ والنجومُ مسخـرات بأمـره إن في ذلك لآيـات لقـوم يعقلون ، ومـا ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذي سخر البحر لتـأكلوا فيه لحماً طرياً وتستخرجـوا منه حلية تلبسونها وتـرى الفلك مواخـر فيه ولتبتغـوا من فضله ولعلكم تشكـرون ، وألقى في الأرض رواسي أن تميـد بكم وأنهاراً وسبـلاً لعـلكم تهتدون ، وعلامـات وبالنجم هم يهتـدون ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تـذكرون ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم** ﴾[11] .

فالقرآن وجّه نظر الإنسان إلى الكون بكل ما فيه من دلائل تدعوه للإيمان بـالله ، ولا ريب أن طـريق الـوصـول إلى ذلـك هـو العقـل . والعلماء هم أول النـاس يخشـون الله ويؤمنون به وحين اختلط المجتمع العربي بالمجتمعات غير العـربية الأخـرى ، واندس في الـدين الجديـد أمم من كل لـون وجنس يكنون في صـدورهم الحقـد والغـدر لـلإسـلام ويظهرون الإيمان . ثم تسربت الفلسفة اليونانية والمذاهب الفارسية والهندية والبيـزنطيـة إلى الفكـر العربي ، دار حينئـذٍ الجدل حـول وجـود الله ، ووجـدت المـانيـة والمزدكيـة والإلحادية .

ليس في الشريعة الإسلامية ما يشير إلى حقيقة الله ، بل على المسلمـين أن يفكروا في صفـات الله وعظمـة مخلوقاتـه ، ودقة الصنـع في خلقـه ، وليس لهم أن يفكـروا في ذات الله . جاء عن الإمام الصادق (ع) : « فكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذات الله » أي علينا أن نفكر في المخلوقات ولا نفكر في الخـالق . ذلك لأن الله لا تحيط بـه القدرة ، وهـو أسمى وأرفع من أن يصـل إلى معرفـة كنهه العقـل المحدود . وهـذا ما حثت عليـه

(11) النحل الآية 9 إلى 18 وقصد السبيل : أي على الله بيان الطريق . وجائر : منحرف عن الحق . تسيمـون : ترعون . ذرأ : خلق .

الشريعة الإسلامية حتى لا يذهب الإنسان بوقته هباء في مثل هذا البحث . قال الشيخ محمد عبده :

« فالفكر في ذات الخالق هو ممتنع على العقل البشري لما علمت عن انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركيب في ذاته وتطاول إلى ما لا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى ، فهو عبث ومهلكة : عبث لأنه سعي إلى ما لا يدرك ومهلكة لأنه يؤدي إلى الخبط في الاعتقاد ، لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده وحصر لما لا يصح حصره »[12] .

فله في العقيدة الإسلامية صفات متعددة : هو واحد أحد [سورة الإخلاص] ، وهو رب العالمين [الشورى : 4] وليس في الأرض شيء إلا وهو صادر عنه . ﴿ **وجعل لكم الأرض مهاداً** ﴾ [الزخرف : 10] ﴿ **وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجا** ﴾ [الشورى : 11] ﴿ **وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها** ﴾ [فصلت : 10] ﴿ **وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشورا ، وهو الذي أرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا** ﴾ [الفرقان : 47 و48] .

ولقد أحاط علمه جل وعلا بكل شيء وأحاطت قدرته بكل شيء . قال تعالى : ﴿ **إن الله عليم بذات الصدور** ﴾[13] ﴿ **وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم** ﴾ [الأنعام : 101] . ﴿ **وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين** ﴾ [الأنعام : 59] وقال تعالى : ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون** ﴾ [الأنعام : 95] .

وقد حاول كثير من العلماء في القديم والحديث إثبات وجود الله ، فاعتمدوا على عنصرين أساسيين : أ ـ عنصر ديني مستمد من القرآن الكريم . ب ـ عنصر عقلي مستمد من المنطق والتحليل الفكري . وما يجدر ملاحظته أن معظم العلماء المعاصرين ، في شتى اختصاصاتهم وعلومهم وفي مختلف عقائدهم ، ومن وراء مختبراتهم ومجاهرهم ومراصدهم ، ولم يعد هذا الاستدلال بقاصر على المسلمين وحدهم ولكنه شمل العلماء في شتى أرجاء العالم .

---

(12) رسالة التوحيد ص 61 .

(13) آل عمران الآية 154 والمائدة الآية 7 .

2 ـ الإيمان بالملائكة

أكد القرآن الكريم وجوب الإيمان بالملائكة ، والغرض من ذلك التسامي بالإنسان والترقي به إلى أعلى الدرجات من الكمال . قال تعالى : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله . . .** ﴾ [البقرة : 185] .

يبدو لنا أن الملائكة من عالم غيبي لطيف غير محسوس ، وهم وإن كانوا غير مرئيين لنا فالعقل لا ينفي وجودهم . والقرآن يصفها بأنها كائنات ليس لها قوة الاختيار وهي موكلة بصفة خاصة بالقوى الطبيعية ، ومن طبيعتها الطاعة لرب العالمين . قال تعالى :

﴿ **ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ [النحل : 49 و50] .

ومن أهم أعمالهم وأبرزها النزول بالوحي الإلهي وتبليغ رسالات الرسل الكرام الذين اصطفاهم الله لتثبيت شريعته ؛ قال تعالى : ﴿ **الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير** ﴾ [فاطر : 1] . فالملائكة وسائط بين الله ورسله والأجنحة في العالم المادي تساعد على الطيران ، وفي عالم الأرواح تفيد السرعة في تنفيذ أوامر الله .

وبالإضافة إلى تأييد الملائكة للرسل فإنها تتنزل على المؤمنين لتواسيهم وتبشرهم بأنها أعوانهم في أمور دنياهم يرشدونهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم . قال تعالى : ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم إني ممدكم بألفٍ من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ [الأنفال : 9 و10] .

ومن وظيفة الملائكة أنها تتوفى المؤمنين وتقبض الأرواح عند الموت : قال تعالى : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ [النحل : 32] .

والملائكة تسجل وتحصي أعمال الإنسان ليوم الحساب ، قال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾[14] .

---

(14) ق الآية 16 و17 و18 والمتلقيان : هما الملكان اللذان يتلقيان عمل الإنسان قاعدين عن يمين وشمال

وفـوق هذا كله فـالملائكـة تشفع للمؤمنـين وتستغفر لهم : قـال تعالى : **﴿ وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يـأذن الله لمن يشاء ويـرضى ﴾** [النجم : 26] .

وفي شفـاعة المـلائكـة للمؤمنـين إيحـاء لهم للسـير بهم في الـطريق المؤدي إلى رقيهم الروحي والصراط المستقيم .

3 ـ الإيمان بالكتب السماوية

على المسلم أن يؤمن بالقـرآن وبما سبقـه من الكتب السماويـة التي أنزلت عـلى الأمم الخالية ، وهي تحتوي على ما بلغه الأنبياء المرسلون إلى أممهم عن الله جل وعلا .

قال تعالى : **﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بـالله وملائكتـه وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ﴾** [البقرة : 285] .

فـالله تعالى يـطلب إلينا أن لا نفـرق بين أحـد من رسله فهـل نسمـع نـداءه وننفـذ طلبه ؟ !

والكتب السـماويـة التي ذكـرهـا القـرآن هي : الصحف نـزلت عـلى إبـراهيم الخليل ، والزبور على داود والتوراة على موسى ، والانجيل على عيسى والقرآن عـلى خاتم النبيـين والرسـل محمد . هـذه الكتب السماويـة جميعها صـدقهـا القـرآن فجـاء الخـطاب للرسول محمد من الله في سورة المائدة : **﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عـما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهـاجـاً ولـو شـاء الله لجعلكم أمة واحـدة ولكن ليبلوكم في ما أتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾**[15] .

ولكن اختلاف الشرائع في بعض الأحكام العملية وبعض التفصيـلات الجزئيـة التي اقتضتهـا أحوال المجتمـع واستعداد النفـوس لتقبلهـا . وكـما نـلاحظ أن بعض الشرائـع خالف بعضها في بعض عقود المعامـلات وفي طريق التـوبة من الـذنب ، والنساء المحـرم الـزواج بهن وغـير ذلـك من التفصيـلات التي حـرفهـا بعض رجـال الـدين من اليهــود والنصارى لأهداف خاصة . . ولكن جميـع الأديان اتفقت كـما هو منـزل في كتبها ، عـلى

الشخص فما يلفظ من قول إلا وكل منهما يرقب عمله ، وفي الوقت نفسه كل منهـما (عتيد) أي مهيـأ لكتابـة الخير والشر .

(15) المائدة الآية 48 راجع الآيات 47 و46 و45 و44 .

تـوحيد الله والإخـلاص له ، واتبـاع أمهات الأخـلاق ، ونبذ جميـع المنكـرات . . هـذه الأسس الأصيلة والقواعد الثابتة لم تختلف الرسل والأمم فيها .

أما الاختلافات التي حدثت والتحريف الذي أحدثه بعض القائمين على الدين بعـد نزولها من عند الله الواحـد الأحد كـل ذلك أنتـج انحرافـاً بيناً في معـرفة الحقيقـة الإلهية وضلالاً عن سواء السبيـل ؛ حتى جاء القـرآن ففرق بـين الحق والباطـل وبين للنـاس ما أشكل عليهم ، ليردهم إلى حقيقة كتبهم ويجنبهم مواطن الضلال . وقد صور لنا القـرآن حال هؤلاء الذين أغواهم الشيطان . قـال تعالى : ﴿ **تـالله لقد أرسلنـا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم ، وما أنزلنا عليك الكتـاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ [النحل : 63 و64] .

4 ـ الإيمان بالرسل

على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد أن الله قد أرسل من البشر مبشرين بثوابه ، ومنذرين بعقـابه ، قـاموا بتبليـغ أممهم بما كلفهم الله تعـالى بتبليغه ، فبينـوا سلطانه عـلى عبـاده ، وفصلوا أحكـامه فـأمروا بـالمعروف ونهوا عن المنكـر وبشروا بالخـير والسعـادة في الـدنيـا والآخـرة لمن اتبع هـدى الله ، وأنذروا بـالخسران والعذاب في الـدنيـا والآخـرة لمن اتبـع شهواته وأعرض عن ذكر الله . قال تعالى : ﴿ **كـان الناس أمـة واحدة فبعث الله النبيـين مبشرين ومنـذِرين وأنزل معهم الكتـاب بالحق ليحكم بـين الناس فيـما اختلفوا فيـه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ [البقرة : 213] .

فعلى المؤمنين وجوب الإيمان بالرسل جميعاً لا تفريق بينهم قال تعـالى : ﴿ **قولـوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيـون من ربهم لا نفرق بـين أحد منهم ونحن لـه مسلمون** ﴾ [البقرة : 136] .

كما دعانا الله في كتابه العزيز (القرآن) بأن نؤمن بالرسل جميعـاً ، ومن يؤمن ببعض المرسلين ويكفر ببعض منهم لا يقبـل منه دين . قـال تعالى : ﴿ **إن الـذين يكفرون بـالله ورسله ويـريـدون أن يفـرقـوا بـين الله ورسله ويقـولـون نؤمن ببعض ونكفـر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلـك سبيلاً ، أولئـك هم الكافـرون حقاً وأعتـدنا للكـافرين عذاباً مهيناً ، والذين آمنـوا بالله ورسله ولم يفـرقوا بـين أحد منهم أولئـك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ [النساء : 150 و151 و152] .

من هذا المنطلق نرى أن الإسلام قد وضع قواعد أصيلة للاخاء والتعـارف والوحـدة

بين شعوب الأرض ، لأن الناس عندما يؤمنون بجميع المرسلين وبما جاؤوا به ، سهل تفاهمهم وزال كل ما بينهم من خلاف .

إن رسالة محمد (ص) كما صرح بها القرآن ، إلى الناس كافة وإلى جميع شعوب الأرض ، هي رسالة الإسلام ورسالة السلم ورسالة السلام . قال تعالى : ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو** ﴾ [الأعراف : 158] . وقال تعالى أيضاً : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ [سبأ : 28] .

ورسالة محمد (ص) جعلها الله جل وعلا خاتمة لجميع الرسالات السابقة وناسخة ما تقدم منها ومكملة ومتممة للأديان السابقة . قال تعالى : ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً** ﴾ [الأحزاب : 40] .

وقال عز وجل : ﴿ . . . **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ [المائدة : 3] .

5 ـ الإيمان باليوم الآخر (البعث والحساب)

جرى الحديث مفصلاً عن هذا المبدأ الذي ركز عليه الإسلام في القرآن ودعا متبعيه إلى الإيمان به مؤكداً أنه ركن من أركان الدين الإسلامي . يرجى العودة إليه في فصل سابق .

6 ـ الإيمان بالقدر

القدر لفظاً من خلال ما جاء في القرآن في مواضع متعددة يدل أن كل شيء قد خلقه الله بقياس مخصوص ووزن محدود ووجه معين ، يجري على سنة معلومة ومنهج علمي دقيق . قال تعالى : ﴿ **وخلق كل شيء فقدره تقديرا** ﴾ [الفرقان : 2] .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض** ﴾ [المؤمنون : 18] .

يتبين لنا من هذه الشواهد أن عقيدة القدر تعلم المؤمنين أن لهذا الكون نظاماً محكماً وسنناً مطردة ارتبطت فيها الأسباب بالمسببات ، وأن ليس في خلق الله مصادفات . والقدر اصطلاحاً هو الإيمان بقضاء الله وقدره . وهذا هو الفارق بين المؤمنين وغير المؤمنين . والإنسان مسؤول عن أعماله ، وضروب الشر الشائعة في شؤونه المعيشية ناتجة من سوء تصرفاته وقصر نظره في معالجة أموره . وقد وردت آيات كثيرة في هذا المجال

نذكر بعضها : قال تعالى : ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ [فصلت : 46] .

وقال تعالى : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ [الشورى : 30] .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ **ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون** ﴾ [الروم : 41] .

والقرآن يدعو الإنسان إلى التعويل على نفسه والاعتماد على قدراته ليغير من شأن أوضاعه ويرفع بنفسه ونفس جماعته إلى حياة طيبة سعيدة آمنة . قال تعالى : ﴿**له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ [الرعد : 11] . فإرادة الإنسان ونوع عمله هما مصدر مثوبته وعقابه وهذا بالطبع لا يتوافق مع ما يقوله أعداء الإسلام من أن الدين الإسلامي دين تواكل وكسل ينتظر لما يأتيه به الغيب .

وحين يؤمن الإنسان بالله الإيمان الكامل المطلق ويعتقد أنه سبحانه وتعالى هو وحده المعز والمذل والمعطي والنافع والخافض والرافع وأن كل شيء مصدره من عنده وهو من صنعه وعمله ، فإنه حينئذ يؤمن بما كتب عليه وما قدر له . هذا الإيمان بقضاء الله وقدره يعصم من استبدت به الحياة وسدت في وجهه معالم الدنيا ، لأنه يدرك أنه لا يصاب إلا ما كتب الله له ، وأن المصائب في الدنيا هي بلوى له واختبار يكسب بها أجراً ، ويرفع الله بها عنه وزراً ، والله يضاعف أجر المحسنين .

يبقى المؤمنون في حياتهم سعداء فرحين راضين مطمئنين ، ولو تنكرت لهم الدنيا ، أما غير المؤمنين فتسود الحياة في وجوههم ، ويكفرون بذاتهم ، وكثيراً ما يرتكبون الجرائم والمنكرات . ولا نريد الغوص في المناقشات الطويلة التي شغلت أئمة الفكر والفلاسفة حول الجبر والاختيار ، وحول مسألة هل الإنسان مخير أو مسير ، إنما نريد أن نصل إلى حقيقة لا بد منها وهي الإيمان الكامل بالله . فهو الذي خلق الإنسان ليخلفه على هذه الأرض ، وكرمه ، وأحبه ، وصانه ، ولم يكن إلا البر العطوف والرحمان الرحيم ، سبحان الله رب العالمين .

١ ـ الناحية الدينية

الصلاة : جاء في القرآن الكريم جميع التشريعات التي يحتاجها الإنسان في حياته

ليعيش حياة هادئة مستقرة كريمة . فشرع له الصلاة لتكون صلة حقيقية بين العبد وربه ، ولتنهاه في دنياه عن الفحشاء والمنكر ، قال رسول الله (ص) (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً)[16] .

فرض عليهم خمس مرات في اليوم . وجعل لهم في يوم الجمعة من كل أسبوع صلاة جامعة تكون سبيلاً للتعارف والتراحم ، والتواصل والتعاطف فيما بينهم . يسعون إليها عندما يسمعون النداء لها ويذرون البيع وما إليه من عرض الدنيا ليتفرغوا للعبادة . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ [الجمعة : 9] .

الزكاة : وهي إلى جانب أهميتها من الناحية الدينية لها الأثر البالغ في النواحي الاجتماعية والإنسانية ، حيث إنها توثق العرى بين الغني والفقير ، وتولد المحبة بين الأفراد وسوف نتناولها بالتفصيل بعد قليل .

الصوم : شرع الله الصوم لعباده لتقوى به الروح على كبح جماح النفس ، وتنكسر حدة الشهوات والنزعات . وله فوائد جمة من الناحية الفردية ومن الناحية الاجتماعية منها : العطف على المساكين ، لأن الصائم عندما يجوع يتذكر أحوال الجائعين ، فيحدث هذا التذكر الرحمة في قلبه . فيصبح الصيام طريقة عملية لتربية الرحمة في النفس ، ومتى تحققت رحمة الجائع الغني للجائع الفقير أصبح للكرامة الإنسانية سلطانها النافذ . ومن حكم الصوم ، المساواة العملية بين الفقراء والأغنياء ، فهو فقير إجباري يفرضه الإسلام ليتساوى الجميع في بواطنهم، ويتعاطفون بإحساس الألم الواحد . وما أحوجنا نحن اليوم لمثل هذا الشعور . ومن حكم الصوم تربية الإرادة وتقويتها لتحقيق سلطان الروح على الجسد ، فيعيش الإنسان مالكاً زمام نفسه وليس أسير ميوله المادية وشهواته الدنيوية .

الحج : شرع الله للمسلمين حج البيت الحرام ليكون موفداً عاماً يشهدون فيه منافع لهم ، ويتواصلون بالحق وبالصبر ، ويتشاورون في أمورهم العامة ، ويتعاونون على الخير . فالإسلام يرى في الحج وسيلة لا غاية لتحقيق الفوائد الروحية والأدبية والاجتماعية والاقتصادية . وتنطق بذلك الآية الكريمة : ﴿ **وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير** ﴾ [الحج : 27 ـ 28] .

---

(16) راجع تفسير الألوسي في قوله تعالى : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ .

فتأمل قوله تعالى : ﴿ **ليشهدوا منافع لهم** ﴾ وقد فسر العلماء المنافع بأنها دينية ودنيوية معاً ، والدين والدنيا في الإسلام مترابطان ترابط الروح بالجسد ، فإذا كان الدين يمد الروح بالإيمان ، فإن أمور الدنيا تمده بأسباب البقاء . فالحج مؤتمر عام لتوحيد غايات المسلمين وتوجيههم إلى مصادر الحياة الصحيحة . وفوق هذا فالحج مظهر الإخاء والمساواة الحقة بين جميع المسلمين ، لا فرق بين غني وفقير فالكل يلبس لباساً موحداً متماثلاً ، والكل يهتف بهتاف واحد . والكل يدعو رباً واحداً . ومن حكم الحج أنه يوحي بالتقشف والزهد في متع الحياة ، والسمو والارتفاع فوق المادة ، إنه رياضة روحية ترجع النفس إلى طبيعتها الأولى زكية والقلوب صافية طاهرة .

المساواة : إذا نظرنا في ما شرعه الإسلام من مبدأ المساواة ، رأينا أنه لم يصل أي تشريع سماوي أو وضعي في مبلغ الحرص على مبدأ المساواة إلى ما وصل إليه الدين الحنيف . قرر الإسلام أن الناس جميعاً متساوون أمام القانون ، في الحقوق السياسية والقضائية والحقوق العامة ، فلا فضل لعربي على عجمي ، ولا تفاخر لأبيض على أسود ، ولا لغني على فقير ، ولا لصاحب سلطان على مسكين ؛ فلا نظام طوائف وتمييز بين الطبقات إن في الحقوق أو الواجبات . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ [الحجرات : 13] .

فالدعوة لكافة الناس وليست لقبيلة معينة أو طائفة معينة أو عشيرة معينة . إنه يدعو الناس بأصلهم الأول وهو آدم وحواء ، ومن كان أبوهم واحداً وأمهم واحدة ، ويخرجون من مخرج واحد ، ويعودون إلى مكان واحد ، لا مجال للتفاخر والتعصب فيما بينهم ، ولا محل لأن يدعي بعضهم السمو على بعض وإن تفرقوا في البلاد واختلفوا في الأجناس والألوان واللغات . إن هذه الصفات لا تزيل عنهم مبدأ الأخوة الإنسانية ، بل توجب عليهم التعارف ، الذي يؤدي إلى التعاون والتآلف والتواد .

من هنا تشعر النفس الإنسانية بسمو هذا المبدأ الذي شرعه الإسلام ، ويكاد هذا الشعور يدفعها إلى الأخذ به دون أي تردد ، لولا بقايا العصبية التقليدية والطائفية البغيضة . لقد نسوا أو تناسوا الشطر الأخير من الآية : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ . أي لا تفاضل بين الناس إلا على أساس أعمالهم التي يتقنونها ، وكفاياتهم التي يحملونها ، وما يقدمه كل منهم لربه ولوطنه وللمجتمع الإنساني .

هذا هو مبدأ المساواة الذي ولد قبل ألف وأربعمائة ونيف من السنين على يد الإسلام

في بلاد العرب التي كانت من أشد الأمم عصبية وأكثرهم تباهياً بالأنساب والأحساب .

أنكر زعماء قريش على النبي (ص) مبدأ المساواة في أول الأمر ، فنزلت الآية الكريمة : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم الشاكرين . وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾ [الأنعام : 52 و54] .

فتأمل هذا السمو الذي تحلى به الإسلام فكم يزداد ظهوراً إذا قورن بما يجري بين أرقى الأمم المتمدنة اليوم والتي تدعي الديمقراطية كما في الولايات الأمريكية وبعض المناطق الإفريقية الخاضعة للاستعمار الأوروبي التي تجرد السود من أبسط حقوقهم الإنسانية .

فإذا كان العلم وما وصل إليه من الاختراعات ، لم يوصل الإنسانية إلى ما قرره الإسلام وحمل أهله على العمل به ، أفلا يكون هذا دليلاً واضحاً على أن التشريع الإسلامي صادر من رب العالمين ؟ ذلك أن العقل الإنساني مهما توهم أنه خلق في جو المبادىء الصالحة فلا يستطيع أن يتعدى حدوده ويفكر في وضع تشريع عالمي فيه الرحمة للناس كافة : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ .

العدالة : من المثل العليا في الإسلام تكليف متبعين عادلين . قال تعالى مخاطباً المؤمنين : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى إن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾ [النساء : 135] .

كما هو واضح فإن الله جل وعلا أمرنا بأن نتحرى العدل وأن نكون شهداء بالحق لوجه الله وليس لغرض دنيوي حتى ولو كانت هذه الشهادة على والديهم أو على أنفسهم ، أو يكن المشهود غنياً وصاحب جاه وسلطان يرجى خيره أو يهاب من بأسه ؛ أو كان فقيراً يستحق الشفقة والرحمة . إن الحاكم العادل مكلف من قبل الله عز وجل تطبيق شريعة الله على الأرض ، فلا هم له سوى إرضاء الله وتجنب غضب الله ولا يخشى سواه . ولا يكفي أن نكون عادلين مع أنفسنا ، بل هناك ما هو أبعد من ذلك .

لقد أمرنا الله تعالى فوق ذلك بمراعاة قواعد العدل حتى مع أعدائهم . قال تعالى :

﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾ [المائدة : 8] .

فالله يطلب إلى المؤمنين ألا تحملهم كراهتهم لقوم وعداوتهم لهم على ترك العدل فيهم ، لأن العدل أقرب إلى تقوى الله . هذا في الأعمال وحتى في الأقوال فقد أمرنا الله بالعدل . قال سبحانه : ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** ﴾ [الأنعام : 152] .
وقد بعث الله الأنبياء والرسل والمؤمنين المتقين ليقيموا العدالة الاجتماعية في العالم على أساس ما أنزل عليهم من البينات وما أنعم عليهم من الميزان ، وهو نظام الحياة الإنسانية العادل . ولا كيان لأي أمة من الأمم حكمت بغير العدل . من هنا كانت الحكمة العدل أساس الملك . هذه هي مبادىء القرآن الكريم وهذه هي مبادىء الأمة الإسلامية الوسط التي اختارها رب العالمين لتطبيق شريعته على الأرض شريعة العدل الإلهي . والتي يستبين لنا من معناها وروحها بأنها ليست من كلام بشر ، بل هي كلام الله الذي سن للناس القوانين الثابتة والدائمة ، تسعدهم وتهديهم إلى الطمأنينة في حياتهم والسلام على أرضهم .

التوبة : لقد حث القرآن المسلمين على التوبة وأشعرهم على قبولها إذا ما أنابوا إلى ربهم ، وعملوا صالحاً ، فقال لهم سبحانه وتعالى : ﴿ **وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى** ﴾ [طه : 83] . وبذلك يظل المسلم قريباً من ربه ، وثيق الصلة به ؛ مما يحمله على تقوم سلوكه ، وتحسين أعماله ، وتهذيب أخلاقه .

إلى غير ذلك من التشريعات الدينية التي سنها الإسلام لتهذيب نفوس الأفراد وسمو أخلاقهم ، وبناء مجتمع إنساني متطور هدفه الإنسان العزيز الجانب والمصون الكرامة ؛ ذلك المجتمع الصالح الذي يسعد فيه الأخوة المؤمنون جميعاً ، وينعمون بالمحبة والاخاء والأمن والرخاء .

2 ـ الناحية الاجتماعية

اهتم الإسلام ببناء مجتمع إنساني سليم ، قائم على العدل والمساواة ، فشرع لذلك التشريعات الاجتماعية الرئيسية نذكر منها ما يلي :

منها ما يتعلق بالمعاملات ، ومنا ما يتعلق بالحدود والقصاص ، ومنها ما يتعلق بمكانة المرأة المسلمة ، ومنها ما يتعلق بالآداب .

أ ـ الوفاء بالعقود : فيما يتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض جمع الله أساس

المعاملات في مواضع عدة من القرآن الكريم . فأمر عباده بالالتزام بالوفاء بالعقـود . قال جل وعلا : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . . .** ﴾ [المائدة : 1] .

والالتزام بالعقود كلمة تشمل جميع الالتزامات التي يلتزمها الإنسان مع أخيه الإنسان من بيـع وشراء ، ورهن واستئجار وغـير ذلك . لأن الإنسـان إذا تكلم بـالكلمـة ملكتـه وأصبـح مسؤولاً عنها . قـال تعالى : ﴿ **ولا تقـربوا مـال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً** ﴾ [الاسراء : 34] .

كل مسلم مؤمن مسؤول أمام الله اتجـاه العهود التي يتعهـد بها لـلآخرين وهـو ملتزم التزاماً أدبياً وشرعياً بتنفيذ ما أبرمه على نفسه من تعهدات وضروب المعاملات .

ب ـ **النهي عن أكل الربا** : نهى الله عباده عن أكل الربا نهياً مشدداً في آيات كثيرات من كتابه العزيز ، ومثّل آكليه أبشع تمثيل ، فآذنهم بحرب من الله ورسـوله إن لم يقلعـوا عن أكله . قـال تعالى : ﴿ **ولا تـأكلوا أموالكم بينكم بـالباطـل وتدلـوا بهـا إلى الحكـام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون** ﴾ [البقرة : 188] .

والربا يضيع المروءة بـين الناس ويـدب الكراهـة في نفوسهم ، فضـلاً عما يخلف من مفاسد أخـرى كثيرة تعشعش في قلوبهم وتفـرق بينهم . هؤلاء وصفهم الله تعالى فقـال : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا أفمن جـاءه موعـظة من ربه فـانتهى فله مـا سلف وأمـره إلى الله ومن عـاد فـأولئـك أصحـاب النـار هم فيهـا خـالـدون** ﴾ [البقرة : 275] . وقال سبحانه لهؤلاء : ﴿ **فإن لم تفعلوا فآذنوا بحرب من الله ورسـوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون** ﴾ [البقرة : 279] .

ففي هذا نص صريح على أن الذي يستحقه صاحب الـدين إنما هـو رأس المال فقط دون أي زيـادة . وبعـد هـذا قـال تعـالى : ﴿ **وإن كـان ذا عسرة فنـظرة إلى ميسرة وإن تصـدقوا خـير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ [البقـرة : 280] . وهذا إمهـال المعسر إلى وقت يتمكن فيه من الأداء والحث على التصدق بالعفو من المعسر .

ثم جاء التحريم القاطع ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافـاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقـوا النار التي أعـدت للكافـرين ، وأطيعوا الله والـرسول لعلكم تـرحمون** ﴾ [آل عمـران : 130 و132] . هذه الآيـات تفيد صراحـة بتحريم الربا ، وبيان ما فيه من ظلم شديد ، ذلك أنه يؤدي إلى أن يـأخذ الـدائن الدين

أضعافاً مضاعفة واليسير من الربا يتضاعف بمرور الزمن . ولا ينتهي إلا وهو عاجز عن السداد . مما يجر إلى مشاكل اجتماعية وخسائر وفقدان الثقة بين الناس . ولذلك حرمه القرآن الكريم . ومن بعض مضار الربا أيضاً : الحيلولة دون المحاباة لرأس المال على حساب الجمهور الكادح ، والسعي لتحقيق المساواة والمحبة بين أفراد الأمة فالمرابي بدل أن يعمل عملاً مجدياً له ولمجتمعه ، يصبح كالطفيلي يعيش من كد غيره وتعبه ، وهو ينتظر الفائدة آخر الشهر أو العام .

لذلك بين القرآن نوع العمل فشرف العمل وحرم الربا . جاء في قوله تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرّم الربا** ﴾ [البقرة : 275] . فالعمل الحر الشريف ، البيع المشروع ، يستلزم مهارة للفرد وفناً في اتقان عمله وازدياد ربحه الحلال فيعيش مرفوع الرأس عالي الجبين في مجتمعه ، بينما المرابي المترف المستبد يشعر بالاحتقار والامتهان من قبل الآخرين لأن عمله لا يقوم على جهد شخصي منه .

أما في حال مشاركة رب المال مع المدين في الربح والخسارة معاً فهنا تختلف المسألة ويتغير الموقف ، حيث ينتقل الموضوع من القرض بالربا إلى شركة تضامنية بين رأس المال والعمل ، وهذا ما يقره الإسلام العادل في حكمه والرحيم في معاملته .

يرى الإسلام أن تقوم شركات التأمين والمصارف وصندوق التوفير على أسس تعاونية ، تستغل أموالها في مشاريع منتجة ، قابلة للربح والخسارة ، وليس لها فائدة ثابتة . وبذلك يصبح المودعون جماعة تعاونية يدفعون من مالهم عند الخسارة وينالون الربح الحلال عند الربح فيتساوى الجميع ويأخذ كل فرد حقه المشروع . وعند هذه الحال تحل الشركات الصناعية والتجارية محل المصارف ، ويساهم فيها الناس يدخرون أموالهم فيجتمع لهم العمل الصالح والإدخار الموفور والإنتاج الحلال المبارك .

فتأمل معي كيف أن التشريع الإسلامي تشريع كامل متكامل ، دقيق في تفصيلاته عميق في أبعاده عادل في أحكامه . وضع الحدود لكل فرد ووصف له نتائج أعماله وحرم التجاوز والطغيان ، وحلل الأعمال المفيدة لجميع الأطراف ، وكانت غايته الأولى والأخيرة سعادة الإنسان وراحته واطمئنانه راضياً مرضياً .

ولا عجب فالتشريع الإسلامي تشريع إلهي ، والله رؤوف بعباده لا يكلف نفساً إلا وسعها ولا يحملنا فوق طاقتنا . جاء في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا**

واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [البقرة : 286] .

ج ـ تعظيم أمر الكيل والوزن : ومما شرعه الإسلام لنيل حق الأفراد وحفظ أموالهم ، ما دعا إليه من تنظيم المكاييل والأوزان وعدم التلاعب بها . فقد نهى عن التطفيف فيهما وحظر أتباعه من أن يبخسوا الناس حقهم المشروع . قال تعالى : **﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تبخسوا الميزان ﴾** [الرحمن : 9] .

وحذر سبحانه الذين يتلاعبون بالأوزان والمكاييل بأشد العقوبات . فقال جل وعلا : **﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾** [المطففين : 1 ـ 6] . انطلاقاً من هذا فالواجب الملقى على عاتق المسؤولين في الدولة الإسلامية تكليف جماعة مخصوصة مهمتها تنفيذ أوامر القرآن من الإشراف على المكاييل والأوزان وضبطها حسب الأصول المشروعة .

د ـ الاحسان والعفو عند المقدرة : من الأخلاق الإسلامية الرفيعة الإحسان إلى خلق الله والعفو عنهم عند المقدرة عليهم . فصنع الجميل والخلق الطيب وحسن المعاملة كل هذه الصفات وما شاكلها تكسب صاحبها رضا الله وتقدير عباده ومحبتهم . قال سبحانه وتعالى : **﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين ﴾** [المائدة : 93] . فالله يحب المحسنين أي يريد ثوابهم أو إجلالهم وإكرامهم .

والمحسن الكريم الأصيل هو الذي ينفق في السراء والضراء على جميع الناس حتى على من يسيء إليهم . قال تعالى : **﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾** [آل عمران 134] .

قال رسول الله (ص) ما عفا الله عن مظلمة قط إلا زاده الله بها عزاً ، ثم ذكر سبحانه وتعالى أنه يحب المحسنين ، المنعمين على غيرهم . روي : أن جارية لعلي بن الحسين عليهما السلام كانت تسكب له الماء ، فسقط الإبريق من يدها فشجه ، فرفع رأسه إليها فقالت الجارية : إن الله تعالى يقول : والكاظمين الغيظ فقال لها : قد كظمت غيظي . قالت : والعافين عن الناس قال : عفا الله عنك . قالت : والله يحب المحسنين ، قال : اذهبي فأنت حرة لوجه الله . إذا أحسن الإنسان إلى غيره يرى المحسن إليه أن صاحبه عليه أن يرد الجميل لصاحبه وإذا لم يستطع يخلص له على الأقل ويتقيد بجميل صنع صاحب العفو والإحسان . قال أبو الطيب المتنبي :

وقيـدت نـفسي في ذراك محـبـة «ومن وجـد الإحسـان قيـداً تقيـدا»[17]

وقال الرسول الأعظم (ص) : « ألا أخبركم بخير خلائق الدنيـا والآخرة : العفـو عمن ظلمـك ، وتصـل من قـطعـك ، والإحسـان إلى من أسـاء إليـك ، وإعـطاء من حـرمك »[18] وقيـل لذة العفـو ، أطيب من لذة التشفي ؛ لأن لـذة العفو يلحقهـا حمـد العاقبة ، ولذة التشفي يلحقها ذم الندم . قال الشاعر[19] :

لـذة العفـو إن نـظرت بعـين العـدل أشـفـى مـن لـذة الانـتـقـام
هـذه تـكـسـب المحـامـد والأجـر وهـذي تجـيء بـالآثـام

بعض من عفا عنهم النبي (ص) بعد إساءتهم إليه :

منهم الحارث بن هشام أخـو أبي جهل لأبـويه ، وزهـير بن أمية ، وصفـوان بن أمية وهؤلاء جميعاً أسلموا فعفا الله عنهم . علماً أن باستـطاعته (ص) بعـد تغلبه عـلى قريش الـذين آذوه مراراً أن يصنـع كما صنـع الفـاتحـون ، ممن عـرفهم التـاريـخ ، ولكن غـيرة رسول الله ، رسول الإسـلام والسلام على أمتـه وبلاده ، لم يغـيره زهو الانتصـار ونجاح الفتح في المعارك التي خاضها ضد مناوئيه من المشركين وعبـدة الأصنام ، لأن قلب النبـوة مملوء بالمحبة والرحمة والرفق والحنان على بني قومـه ليجعلهم في مقدمـة البلدان الحضاريـة بفضل تعاليم الإسلام الفاضلة .

دخل الرسول الأعظم (ص) مكة ظافراً ، منتصراً بإرادة الله . فتزلـزل أهلها رعبـاً وخوفاً ، لأنهم أساؤوا إليه ونال منهم أسوأ معاملة فأيقنوا أنهم هالكون لا محالة .

ولكنه كما وصفه رب العالمين ﴿ **إنه لعلى خلق عظيم** ﴾ كـان أرفع وأكـرم وأحلم من الملوك من أكاسرة وقياصرة . دخل مطأطأ الرأس للبـاري عز وجـل تواضعـاً ولم يزد عـلى قوله : ما تقولـون؟ وما تـظنون؟ فـأجابـوا بأنـك : أخ وابن عم حليم رحيم ـ قالـوا ذلك ثـلاثاً . فقال (ص) : (أقول كما قال أخي يوسف ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهـو أرحم الراحمين** ﴾[يـوسف : 92]) . فخرجوا كأنما نشروا من القبور . ثم قـال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

عفو علي بن أبي طالب وإحسانه إلى أعدائه يوم الجمل : أولئك الذين كانت الـدنيا

---

(17) راجع الديوان .

(18) عن أصول الكافي للشيخ الكليني وإحياء علوم الدين للغزالي .

(19) راجع الأخلاق الإسلامية للسيد علي فضل الله ص 180 .

همهم الوحيد ، شقوا عصا المسلمين وحاربوا الرسول الأمين (ص) وأشعلوا نار البغضاء والفتن بين صفوف الأمة المؤمنين .

قاد طلحة والزبير وأتباعهما الجيوش لحرب علي الذي قال عنه الرسول (ص) أنت ولي الله وولي كل مؤمن ومؤمنة . وهولاء لم يخلصوا للرسول نفسه ولم يخلصوا للإسلام ، بل اتخذوا من الدين الإسلامي الحنيف ذريعة لتولي المناصب والسلطة . وبعد انتهاء الحرب يوم الجمل ، أمر علي (ع) منادياً : ألا لا تتبعوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تدخلوا الدور ، ولا ترزؤوا سلاحاً ، ولا ثياباً ، ولا متاعاً ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن .

ولما سقط الجمل بعائشة ، ووقع الهودج ، جاء محمد بن أبي بكر ، فأدخل يده . فقالت : من أنت ؟ قال : أقرب الناس منك قرابة ، وأبغضهم إليك ، أنا محمد أخوك ، يقول لك أمير المؤمنين هل أصابك شيء ؟ قالت : ما أصابني إلا سهم لم يضرني . فجاء علي حتى وقف عليها ، فضرب الهودج بقضيب ، وقال : يا حميراء ، رسول الله أمرك بهذا ؟ ألم يأمرك أن تقري في بيتك ؟ والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا عقائلهم وأبرزوك ، وأمر أخاها محمداً فأنزلها في دار صفية بنت الحارث بن طلحة العبدي وهي أم طلحة الطلحات . وجهزها علي (ع) في اليوم الثاني ، ودخل عليها ومعه الحسن والحسين (ع) وباقي أولاده وإخوته وفتيان من أهله من بني هاشم فلما بصرن به النساء صحن به : يا قاتل الأحبة . فقال : لو كنت قاتل الأحبة ، لقتلت من في هذا البيت ، وأشار إلى البيت الذي اختفى فيه مروان بن الحكم ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عامر وغيرهم . فقالت له عائشة بعد خطب طويل : إني أحب أن أقيم معك فأسير إلى قتال عدوك عند سيرك ، فقال : بل ارجعي إلى البيت الذي تركك فيه رسول الله (ص) فسألته أن يؤمن ابن أختها عبد الله بن الزبير ، فأمنه . وتكلم الحسن والحسين في مروان فأمنه ، ثم أمن الوليد بن عقبة ، وولد عثمان ، وغيرهم من بني أمية ، وأمن الناس جميعاً[20] .

هذا شأن أمير المؤمنين في العفو والصفح عن أعدائه ، وهذا شأن الهاشميين الأبرار مع محاربيهم ، وخصوصاً مروان بن الحكم طريد رسول الله الذي كان يترقب الفرص دائماً للفتك بالهاشميين . ومع ذلك فقد عفا علي (ع) عن بني أمية جميعاً وبني عبد شمس . وهذا شأن الأئمة الأطهار ، يحسنون دائماً إلى من يسيء إليهم ويعفون عمن

---

(20) راجع مروج الذهب للمسعودي الجزء الثاني .

ظلمهم ، فكانوا كما قال الشاعر :

حكمنـا فكـان العفـو منـا سجيـة فلما حكمتم سـال بـالـدم أبـطح[21]

هـ ـ الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر : من التعـاليم الإسلاميـة الهامـة التي حثت عليها الشريعة الإسلامية وأوجبت على المسلمين العمـل على تـطبيقها ، الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر . وقد أمر الله رسله الكرام أن يبلغوا رسالته آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر مرشدين الناس إلى الصراط المستقيم . وعـلى هذا نـرى أن الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات التي تـترتب على المسلم وعـلى الأخص ، في أيامنـا هذه ، حيث يسود الرياء بدل الصدق في وسط الجهالة والضلالـة وانعدمت الفضـائل الإنسـانية وأصبحنا بحاجة ماسة إلى مرشـد يسعى إلى تطبيق الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر ولا تـأخذه في الله لـومة لائم ؛ لأن أكـثر الناس أصبحـوا يرون المنكـر معروفـاً ، والمعـروف منكـراً ، يؤثـرون دنيـاهم عـلى دينهم ولا هم لهم سـوى مصـالحهم الشخصيـة وإن آذوا غيرهم وانحرفوا عن سبيل الرشاد . قـال تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمـة يدعـون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ [آل عمران : 104] .

وقال سبحانـه : ﴿ **كنتم خير أمـة أخرجت للنـاس تأمـرون بالمعـروف وتنهون عن المنكر** ﴾[22] إلى غير ذلك من الآيات الكريمة .

وقال رسول الله (ص) : « لتأمرن بالمعروف ولتنهـون عن المنكر ، قبـل أن تدعـوا فـلا يستجاب لكم . ولـو طوي بسـاط الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر وأهمل النـاس العمـل على تـطبيق الشريعة الإسـلامية ، لتعـطلت بلا ريب الأحكـام وسرى الفساد في الأرض وأصبح الدين لعقاً على الألسن . قـال رسول الله (ص) : « لتـأمرن بـالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يـدعو خيـاركم فلا يستجـاب لهم » كما هو حاصل عندنا اليوم .

روى أبو أمامة الباهلي عن النبي (ص) قال : كيف أنتم إذا طغى نساؤكم ، وفسق شبابكم ، وتركتم جهادكم ؟ قالـوا : وإن ذلك لكـائن يا رسـول الله ؟ قال نعم والـذي نفسي بيده وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منـه يا رسـول الله ؟ قال : كيف أنتم إذا لم تأمروا بمعـروف ولم تنهوا عن منكـر . قالـوا : وكائن ذلـك يا رسـول الله ؟ قال : نعم

(21) الأخلاق الإسلامية للسيد علي فضل الله ص 194 .

(22) آل عمران الآية 110 راجع أيضاً التوبة 71 والحج 42

والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟ قال : كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكراً . والمنكر معروفاً ؟ قالوا : وكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟ قال : كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟ قالوا : وكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون يقول الله تعالى بي حلفت لأتيحن لهم فتنة يصير فيها الحليم حيراناً[23] .

وعن علي بن أبي طالب (ع) أول ما تغلبون عليه من الجهاد ، الجهاد بأيديكم ، ثم الجهاد بألسنتكم ، ثم الجهاد بقلوبكم ، فإذا لم يعرف القلب المعروف ولم ينكر المنكر ، نكس فجعل أعلاه أسفله .

والتاريخ يسجل لنا أبطالاً عظاماً وقفوا في وجه الظالمين وقفة بطولية وأنكروا المنكر وقاوموا الطغاة المستبدين الذين زين لهم الشيطان سوء أعمالهم ، وأخذ الجهل منهم كل مأخذ . هؤلاء قال عنهم الله في كتابه العزيز : ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ [البقرة : 7] .

وقف في وجه هؤلاء الطغاة بطل صنديد وإمام عظيم ورث البطولة عن أبيه وجده عليهما السلام ألا وهو الإمام الحسين (ع) ، وقف صارخاً في وجه الظلم وخرج مجاهداً في سبيل الله بلسانه وقلبه وسيفه ، ومضحياً بأهله وولده ودمه من أجل إنكار المنكر وتثبيت شريعة الله كما أرادها سبحانه وتعالى خرج وهو يقول لأخيه محمد بن الحنفية : « إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ، ولا مفسداً ، ولا ظالماً ، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي (ص) أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، وأسير بسيرة جدي ، وأبي علي بن أبي طالب فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق . . . »[24] .

عندما رأى سبط النبي (ع) الخلافة الإسلامية تنحرف عن خطها المستقيم الذي رسمه الرسول الأعظم (ص) وأصبحت فرعونية ، رأى من الواجب عليه إحياء دين الله وتثبيت سنة رسول الله التي أماتتها الجاهلية الكامنة في صدور المؤلفة قلوبهم كأبي سفيان ومروان وأتباعهما . . .

رفع الحسين (ع) صوت العدالة الإنسانية ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ،

---

(23) الأخلاق الإسلامية ص 205 .

(24) الأخلاق الإسلامية ص 208 عن حديث كربلاء للسيد عبد الرزاق المقرم .

داعياً الناس إلى اتباع جادة الحق ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولم يثنه عن عزمه تهديد ولا وعيد ، بل خرج بأهله وأصحابه تقودهم العقيدة ، ويحدو بهم الإيمان ، حتى استشهدوا عليهم السلام ملقنين الأجيال اللاحقة درساً فريداً في التضحية والفداء . لقد قتلوا وفنيت أجسادهم ، وبقي ذكرهم خالداً مدى الدهر تتذكره القلوب المؤمنة وتعمل بوحيه النفوس الشريفة وتسير على منهاجه الأبطال العظيمة . قال تعالى في وصف هؤلاء الشهداء : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ [آل عمران : 170] .

وكم نحن بحاجة في هذه الأيام العصيبة إلى أبطال حسينيين يحملون رايته (ع) ويذودون عن حقوق الأمة الإسلامية وعن الحقوق الإنسانية ، وتثبيت القوانين السماوية ليتسنى للأمة الوسط حياة شريفة حرة كريمة . وليس لنا إلا الرجوع إلى الله والعمل بما يرضيه سبحانه وتعالى ، وتثبيت العقيدة الإسلامية في نفوس أفراد الأمة الإسلامية (خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر) .

و ـ **وجوب تأدية الشهادة** : أوجب الله على المؤمنين تأدية الشهادة وإقامتها في شروطها المطلوبة . وقد وردت آيات عدة في هذا المجال نذكر منها : قال تعالى : ﴿ **ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه** ﴾ [البقرة : 283] .

وهل يستطيع الإنسان إخفاء الحقيقة وكتم الشهادة أمام علّام الغيوب ورب العالمين قال تعالى : ﴿ **ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ [التوبة : 105] .

والشهادة لا تقبل إلا من المؤمنين العادلين الذين يقولون الحق ولو على أنفسهم . قال سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى إن تعدلوا وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ [النساء : 135] .

إن المؤمن يؤدي شهادة الحق على أقربائه وعلى أهله وعلى نفسه وعلى جميع الخلق الأغنياء منهم والفقراء والمحكومين والحكام ولا تأخذه في الله لومة لائم .

هذه الأمة ، أمة الله وأمة إبراهيم (ع) الذي سماها أمه المسلمين ، وسماها الله خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ولا تقول إلا الحق ، ليكون المسلمون شهداء على أنفسهم ويكون الرسول عليهم شهيداً . قال تعالى : ﴿ . . . ملة

أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس . . . ﴾ [الحج : 78] .

إن الشهادة تكفل أداء الحقوق إلى مستحقيها وتنصف المظلومين وتظهر حدود الله ، وتنصف المتخاصمين ، وهي السبيل الوحيد إلى إقرار العدل وإرساء العدل الاجتماعي بلا تفريق ولا تمييز . قال تعالى : ﴿ . . . **ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ [البقرة : 140] .

من هنا كانت محاسبة النفس أمر ضروري وواجب على كل مسلم ومسلمة . قال الرسول الأعظم : « بئس العبد عبد ينزله الرغب عن الحق ، وبئس العبد عبد طمع يقوده ، وبئس العبد عبد هوى يضله »[25] .

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : « من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ومن خاف أمن ، ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم »[26] .

القصاص والحدود

إن الغاية من القصاص في الإسلام حياة للناس ورحمة لهم ، لأن المخطىء عندما يحاسب ويعاقب يكون عقابه عبرة له وللآخرين فلا يعيد الكرة خوفاً من القصاص ، وبذلك يخلص القانون الشرعي الناس من شروره ويكسبهم أمناً وحياة لهم عندما يكونون في حماية القانون وفي ظل الشرع الإسلامي . وقد بين الإسلام فائدة القصاص بالنسبة للفرد كما بالنسبة للمجتمع فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون** ﴾ [البقرة : 176] .

وقد قدر التشريع الإسلامي العادل القصاص على قدر العقوبة قال عز وجل : ﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص . . .** ﴾ [المائدة : 45] .

أما عن القصاص في القتل فالناس كلهم سواسية أمام الحق الحر والعبد والأنثى والذكر والبعيد والقريب . ولكن بعد هذا ندبنا الله جل وعلا إلى العفو واتباع المعروف بأسلوب حسن ، فمن عفا عن مذنب عفا الله عنه . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا**

---

(25) الأخلاق الإسلامية ص 56 .

(26) المرجع نفسه ص 50 .

كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى . . . ﴾ [البقرة : 178] .

أما من عفا فله الأجر والرحمة والثواب من الله إنه أحكم الحاكمين . قال تعالى : **﴿ . . فمن عفا له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾** [البقرة : 178] .

ولا يجوز قتل النفس إلا بالحق ، لأن الحق يعلو ولا يعلى عليه . قال تعالى : **﴿ . . . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾**[27] .

ومن قتل أحد المؤمنين خطأ دون سابق تصور وتصميم ، وعن غير عمد فلا يقتل به ويلزمه دفع دية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة إذا كان من قومه ، أما إذا كان القاتل من قوم عدو للإسلام وهو مؤمن ، فتحرير رقبة فقط . قال عز وجل : **﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله علياً حكيما ﴾** [النساء : 92] .

أما من قتل نفساً عمداً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً وهو من الخاسرين في الدنيا والآخرة . قال تعالى : **﴿ من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون ﴾** [المائدة : 32] .

ومما يبدو أن إسرائيل كانت وما زالت عدواً للمسلمين فقتلت وتقتل أنفساً بريئة ظلماً وبهتاناً حيث شردت الآلاف من ديارهم وهجرتهم من أرضهم وحرمتهم من أوجب حقوقهم . ولكن الله عز وجل مع الصابرين المجاهدين وسوف ينتقم لعباده المؤمنين الصالحين من كل ظالم أثيم . قال جل وعلا : **﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتَّلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو**

(27) الأنعام 151 وأنظر أيضاً الاسراء الآية 33 .

ينفــوا من الأرض ذلـك لهم خــزي في الــدنيــا ولهم في الآخــرة عــذاب عــظيم ﴾ [المائدة : 33] .

فلا تيأسوا أيها المؤمنون ولا تحزنوا إن كلمة الله هي العليا وسوف يـأتي اليوم المـوعود لإحقاق الحق وإعلاء كلمة الله وتثبيت شريعته العادلة على أرضه المبـاركة . قـال تعالى : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ [الاسراء : 81] .

أما الحدود فقد ذكر منها أربعة :

أ ـ **حد الزنـا** : وقد جعله التشريـع الإسـلامي مـائـة جلدة ؛ فقـال عـز وجـل : ﴿ **الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفـة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ويشهد عذابهما طائفة من المؤمنين** ﴾ [النور : 2] .

أما المحصن أو المحصنة فجـزاؤهما الـرجم لقولـه (ص) : (لا يحل دم امـرىء إلا بإحدى ثلاث كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق) .

وعقوبة الزنا مشروطة باعتراف الزاني فإذا لم يعترف فإنه لا يمكن إثبات البينة عليه إلا بأربعة شهود عدول يرون حقيقة الزنا بالفعل .

ب ـ **حد القذف** : وقد جعله التشريع الإسلامي ثمانين جلدة فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثـمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون** ﴾ [النور : 4] .

ج ـ حد السرقة : أما السرقة فقد جعل الكتاب عقوبتهـا قطع اليـد . قال تعـالى : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا ، نكالاً من الله** ﴾ [المائدة : 38] .

ويشترط في السرقة التي تستوجب العقوبة عدة شروط :

1 ـ أن يكون السارق بالغاً عاقلاً ، فالصغير لا عقـوبة عليـه إذا سرق بقطع يـده ، وإنما يضمن ولي أمره قيمة المسروق مع تأديبه . والمجنون لا عقوبة عليه ؛ لأن « إذا أخذ ما وهب سقط ما وجب » .

2 ـ أن يأخذ السارق من مال الغير الذي تربطه به أية عـلاقة ، أمـا إذا كان شريكـاً وسرق من مال الشركة فلا يعتبر عمله سرقة وإنما يعتـبر خيانـة ، فتبدل عقـوبة قـطع اليد بعقوبة أخرى .

3 ـ أن يأخذ السارق المسروق من محل محفـوظ فيه ، فـالمال الضـائع من صـاحبه ،

والثمر الذي في الشجر والحديقة بلا سور يحميها ، والماشية التي لا راعي لها ومثل ذلك فلا قطع فيها ولكن يعزر الآخذ .

4 ـ أن لا يقل المسروق عن ربع دينار . لقوله (ص) (تقطع اليد في ربع دينار فصاعداً) أما إذا كانت السرقة أكثر من ربع دينار فتوجب عندها القطع وتمتنع عقوبة التعزير .

5 ـ أن لا تكون السرقة عن حاجة ملحة كالجوع الشديد أو الظروف القاهرة ، ففي هذه الحالة يعدل عن حد السرقة إلى عقاب أخف .

د ـ حد شارب الخمر : عقوبة شارب الخمر كما نص عليها التشريع الإسلامي أربعون جلدة كان النبي (ص) يضرب في الخمر بالجريد والنعال أربعين . وللحاكم أن يزيد على أربعين جلدة إلى الثمانين على وجه التعزير . وتقام العقوبة على الشارب إذا شهد شاهدان عدلان ، أو أقر على نفسه .

هـ ـ عقوبة قطاع الطرق: قطاع الطرق هم العصابات المسلحة التي تتربص بالمارة ليلاً وتعمل فيهم القتل والسلب وهم الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم** ﴾ [المائدة : 33 و34] .

وحكم الشريعة في هؤلاء ينحصر فيما يلي :

أولاً : الإعدام إن ثبت أنهم ارتكبوا القتل .

ثانياً : الصلب مع القتل إن قتلوا وسلبوا الأموال .

ثالثاً : قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف « اليد اليمنى والرجل اليسرى » هذا إن اقتصروا على سلب المال دون سفك الدماء .

رابعاً : النفي ان استعملوا الإرهاب ولم يقتلوا ولم يسلبوا .

أما الذين تابوا فقد استثناهم التشريع ، هؤلاء تسقط عنهم العقوبة ، ولكن يبقى عليهم حقوق العباد . يطالبهم الحاكم بالمال ليردوه ، وإذا قتلوا تنفذ فيهم عقوبة القصاص التي مر ذكرها .

و ـ التعزير : وهو التأديب بما يراه الحاكم زاجراً لمن يفعل فعلاً محرماً ، وذلك

ليمنعه من العودة إلى هذا الفعل مجدداً . فكل فعل محرم لا عقوبة عليه في القرآن والسنة ، أو جريمة من الجرائم حددت لها عقوبة ولكن لم تتوافر فيها شروط تنفيذ هذه العقوبة ، فإن على الحاكم أن يعزره بما يراه زاجراً له ليمنعه من العودة إلى هذا الفعل المحرم . قال ابن تيمية : « ومنها عقوبات غير مقدرة وقد تسمى التعزير وتختلف مقاديرها وصفاتها بحسب كبر الذنوب وصغرها ، وبحسب حال المذنب في قلته وكثرته . والتعزير أجناس :

فمنه ما يكون بالتوبيخ والزجر بالكلام ومنه ما يكون بالحبس ، ومنه ما يكون بالنفي عن الوطن ومنه ما يكون بالضرب . . . والتعزير بالعقوبات المالية مشروع أيضاً في مواضع مخصوصة في مذهب مالك . . »[28] .

ومن الأعمال الخاطئة التي يجب فيها التعزير : شهادة الزور مثلاً أو أي عمل فيه خداع إلى غير ذلك مما لا يمكن حصره . ومجال التعزير واسع أمام الحاكم الشرعي يؤدب به من يشاء ما دام رائده إصلاح المسيء .

ومما لا ريب فيه أن أحوال الناس تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، والعقوبة التي تناسب جماعة في زمن معين وظرف معين ، قد لا تناسب جماعة أخرى تخالفها في العادات والأعراف ، ولا يمكن وضع عقوبة محددة تطبق على جميع الناس . والله العليم بعباده وما تكنه صدورهم أناط أمر تقدير العقوبة بأولي الأمر لتأديب المجرمين بالعقوبات التي يرونها مناسبة .

فتأمل هذه المرونة في التشريع الإسلامي الذي يراعي ظروف الإنسان في كل زمان ومكان ، ويهتم بإصلاح المجتمع الإسلامي بصورة خاصة والمجتمع الإنساني بصورة عامة كي يعيش جميع الناس في أمن وراحة وسعادة .

من هنا نعلم كفاية التشريع الإسلامي وصلاحيته لأي مجتمع ، ومن واجب كل دولة إسلامية أن ترجع إلى أقوال المجتهدين فيما يوافق مصلحة الأمة وما يجلبه لها من خير وفائدة .

3 ـ الناحية الأخلاقية

في القرآن الكريم كثير من الآداب الإجتماعية والأخلاقية التي تدعو الناس إلى التحلي بالأخلاق العالية والصفات النبيلة التي ترفع من شأن الإنسان وتعطيه مكانته التي وضعه

---

(28) روح الدين الإسلامي ص 359 .

الله فيها فكرمه وميزه على سائر المخلوقات ، مما يدل بوضوح على سمو الدين الإسلامي وأنه دين اجتماعي يهدف إلى سعادة الإنسان في دنياه وآخرته ، وبناء مجتمع سليم تسوده العدالة وترفل في أجوائه السعادة .

من هذه الآداب نذكر على سبيل المثال :

أ ـ آداب الاستئذان بين أهل البيت الواحد : قال سبحانه وتعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلوات الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلوات العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم**﴾ [النور : 58] .

فتأمل هذه الدقة في الوصف ، وهذه الحدود الدقيقة في حسن المعاملة بين أفراد الأسرة الواحدة ! ولا غرابة أنه كلام إلهي كلام العزيز الحكيم .

أما آداب الاستئذان عند تزاور الناس بعضهم مع بعض والتي تنم عن كمال في الذوق وسمو في الشعور . قال عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم**﴾[29] .

أمر الله المؤمنين بأن يستأنسوا جيداً قبل القيام بأي زيارة لأصحابهم أو أقاربهم حتى تلقى تلك الزيارة كل ترحاب ضمني من الشخص المزار ، من ذلك مثلاً مراعاة وقت الزيارة وأسباب أخرى تعلمها الزائر مما يجعل تلك الزيارة غير مرغوب فيها وبعد ذلك أمر الله المؤمنين بالسلام على من يدخلون عليهم ، كما أرشدنا نحن الآباء لنعلم أبناءنا الاستئذان في الدخول عليهم في ثلاثة أوقات هي أوقات راحة . وعدم التقيد بالأصول الرسمية من لبس وجلوس فلا كلفة بين أفراد الأسرة الواحدة وخاصة بين الرجل وزوجته . أما الأولاد الذين لم يبلغوا الحلم فلا ينبغي أن نطلعهم على ما يجب إخفاؤه عنهم .

---

(29) النور الآية 27 و28 .

وملكت إيمانكم : يشمل العبيد والاماء . لم يبلغوا الحلم : أي دون سن البلوغ . تضعون : تخلعون . والعورات : الأوقات التي يختل فيها التستر .

أ ـ رد التحية : والإسلام الـذي استوفى جميـع مقومـات الأجساد والأرواح لم يغفـل الآداب التي يجب أن يسير عليها أتباعه فوفاها حقها من الـرعايـة ؛ وإذا شرع الاستئذان وآداب الدخول نـراه من جهة أخـرى يحض على رد التحيـة لأن عدم رد التحيـة يثير بـين الأفراد العداوة والاحتقار . ولا يكتفي الإسلام من أتبـاعه بـرد التحية بـل أمرهـم بـردها بأفضل منها ، وهذا بـلا ريب غايـة السمو الأدبي والأخـلاقي في الدين الإسـلامي . قال تعـالى : ﴿ **وإذا حييتم بتحية فحيـوا بأحسن منهـا أو ردوهـا إن الله كـان عـلى كـل شيء حسيبا** ﴾ [النساء : 86] .

ب ـ آداب تـبرج المرأة : لقـد نهى الإسـلام النسـاء أن يبـدين زينتهن إلا مـا ظهـر منها ، وهو ما كان على الأعضاء الظاهرة ، وأمرهن أن يضربن بخمورهن على جيوبهن ، وأباح لهن إبداء الزينة بمحضر أقارب ذكرهم لهن بـالتفصيل . قـال جل وعـلا : ﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبـدين زينتهن إلا ما ظهـر منها وليضربن بخمـرهن عـلى جيـوبهن ولا يبـدين زينتهن إلا لبعـولتهن أو آبـائهن أو آبــاء بعـولتهن أو أبنـائهن أو أبنـاء بعـولتهن أو إخـوانهن أو بني إخـوانهن أو بني أخـواتهن أو نسائهن أو ما ملكت إيمانهن أو التابعين غير أولي الإربـة من الرجـال أو الطفـل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مـا يخفين من زينتهن وتـوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾ [النور : 31] .

ج ـ ثواب الصبر : الصبر هو النفحة الروحية التي يعتصم بها المؤمن فتدخل إلى قلبه السكينة وتكون له بلسماً تسكن جراحاته التي يتألم منها . فالصابر العـاقل يتلقى المصـائب بالقبول لأنه يراها من عند الله والجاهل سرعان ما يضجر ويحزن ويكتئب وتضيق الدنيا في وجهه . ولولا الصبر لانهارت نفس الإنسان من الأهوال التي تحل به .

والصبر هو الفاصل بين الحياة المـادية والـروحية . وقـد مدح الله الصـابرين بثنـاء لا مزيد عليه ، لأنه يربي ملكات الخـير في النفس . ولا نرى من فضيلة إلا وللصـبر المحرك الأساسي لإثمارها .

فـالصبر هـو الشجاعـة على مكـاره الجهاد ، والصـبر هو العفـاف عـلى الشهـوات ، والصـبر هو الحلم عـلى المثيرات ، والصـبر هو الكتـمان على إذاعـة الأسرار ، والصبر هـو القدرة على كل ما تحب وكل ما تكره . قال تعالى : ﴿ **إنما يوفى الصابـرون أجرهـم بغـير حساب** ﴾ [الزمر : 10] .

والصبر الذي دعا إليه القرآن هو ملكة الثبات والاحتمال التي تهون عـلى صاحبهـا ما

يـلاقيه في سبيـل إزالة البـاطل وتـأييد الحق واحتـمال الأذى كالفقـر والمرض وفقـد الأهل والخلان . قال تعالى : ﴿ . . . **وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنـا لله وإنـا إليه راجعـون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمـة وأولئـك هم المهتـدون** ﴾ [البقرة : 157] .

فالصابرون يفوزون عند الله بثلاث درجات لا تتوفر لغيرهم وهي :

أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئـك هم المهتدون . فصلوات الله عليهم تزيدهم تكريماً وتشريفـاً . ورحمة : هي مـا يكون لهم في المصيبـة من لطف الله وإحسـانه فيكون لهم أفضل عزاء . والمهتدون : أي المهتـدون إلى الحق والصواب فيـما ينبغي عمله أثناء المصائب فلا يستحوذ عليهم الجزع ويذهب الأمل من قلوبهم .

هذا هو الصبر الذي دعا إليه التشريع الإسلامي فيه شفاء للنفوس الحزينـة ، وعزاء للقلوب المكلومة إنه من الصفات الروحية التي هي خير علاج لنفوس المؤمنين .

د ـ **العفـو والصفح** : العفـو من الصفات الحميـدة التي يتحلى بهـا الإنسـان الخلوق لأنها لا تصدر إلا من نفس أبية كريمة راجحة العقل . وكل منا قد يزل ويخطىء فيفتقر إلى العفو والغفران ، فإن لم نغفر للآخرين ونصفح عنهم فلا يغفـروا لنا ويصفحـوا عنا . إن مقابلة الإساءة بالإحسان تنزع من نفس المعتدي البغضاء ويتحول الحقد إلى مودة .

لهـذا مدح الله العفـو في كثير من آيـاتـه . قـال تعـالى : ﴿ **وإن تعفـوا وتصفـحـوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم** ﴾ [التغابن : 14] .

ووصف المؤمنين الصادقين بقوله : ﴿ **ويدرأون بالحسنة السيئة** ﴾ [الرعد : 22] .

وعنـد ذلك يتحـول العدو إلى صـديق ويذوب الحقـد في صـدره كـما تـذوب أشعـة الشمس الجليد . قال سبحانه وتعالى : ﴿ **ولا تستوي الحسنـة ولا السيئة ادفـع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾ [فصلت : 34] .

ولـما كانت بعض النفـوس قد جبلت عـلى العدوان وارتكـاب الإثم وضـع الإسـلام عـلاجاً لهـا ، وذلك لمنعهـا من التمادي في ضـلالها ، ولكن بـالرغم من هـذا فقـد رجـح العفو . قال سبحانه : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنـه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعـد ظلمه فـأولئك مـا عليهم من سبيل . إنمـا السبيل عـلى الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئـك لهم عذاب أليم . ولمن صـبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور** ﴾ [الشورى : 40 ـ : 43] .

والعفـو من مبـدأ الإسـلام يؤدي في كثـير من الأحيـان إلى صـداقـة قـويـة بـين المتخاصمين ، لأن المعتدي يؤلمه هذا العفو من قـادر على القصـاص فيعمل مـا أمكن على إرضائه ومحو أثر الاعتداء .

هـ ـ الصدق : الصدق صفـة تكفل الثقـة بين الأفـراد وتؤدي إلى استقرار المجتمـع الإنساني ، لذلك اعتبر من الفضائل الأساسية التي تبنى عليها المجتمعات الـراقية . قـال سبحانه وتعالى مخاطباً المؤمنين : ﴿ **يـا أيها الـذين آمنوا اتقـوا الله وقولـوا قولاً سـديدا** ﴾ [الأحزاب : 70] .

وقد فصلنا القول في الصدق في الفصل السابق يرجى الرجوع إليه .

و ـ الغيبـة والتجسس والظن السيىء: نهى الله في كتـابـه العـزيـز عن ظن السـوء بالمؤمنين لأنه مدعاة إلى التحقير ، وإلى إيقاع الضرر بالمظنون بـه ، كما دعـا سبحانـه إلى احترام الناس وتقديرهم لأنهم أخوة لنا في الإنسانية . جاء في القرآن الكريم : ﴿ **يا أيهـا الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم** ﴾ [الحجرات : 12] .

يشترط في حرمة الظن أن يكون المظنون به ممن شوهد منه الصلاح والأمانة ، أما من كان سيىء السمعة يتعاطى الخبائث والمنكرات فلا يحرم الظن به .

ثم إن التجسس على المؤمنين رغبة من المتجسس في معرفة أسرارهم وإذاعتها لا يثمر إلا الكراهية والضغينة .

كما نهانا الله عن الغيبة ونفرنا منها ، أيحب أحدنا أن يأكل لحم أخيه ميتاً ، فـإذا كنتم ترهبون أكل لحمه وهو ميت فاكرهوا أن تغتابوه في حياته . أما المجاهـر بالفسق فـلا تحرم غيبته . ثم ختمت الآية بالدعوة إلى تقوى الله فإنه غفار رحيم .

ز ـ الإصـلاح بـين النـاس : ليس الخـير أن يصلح الإنسـان نفسـه دون أن يهتم بـالآخرين ، بـل الخير كـل الخير أن يسعى جهـده إلى الإصلاح بـين الناس . لأن ذلـك هـدف المؤمن وصفـة من أرفـع الخصـال في النفس الإنسـانيـة لا تصـدر إلا من القلوب النبيلة . قـال تـعـالى : ﴿ **إنمـا المؤمنـون إخـوة فـأصلحـوا بـين أخـويـكم** ﴾ [الحجرات : 10] .

كما دعا تعالى إلى الإصلاح بين طوائف المؤمنـين . قال تعـالى : ﴿ **وإن طائفتـان من**

المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ [الحجرات : 9] .

وقد بيّن سبحانه وتعالى ثواب الإصلاح بين الناس : ﴿ **لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً** ﴾ [النساء : 114] . فكثير من الناس يتناجون ولا خير في مناجاتهم لأنهم يغتابون الآخرين ويطعنون بأعراضهم حسداً منهم وغيرة . ثم حدد القرآن الكريم السبيل الذي يجب أن يسلكه الناس في تناجيهم ، وهو تأمين حاجات الطبقة الفقيرة والأمر بالخير والإحسان والإصلاح بين الناس . ومن يعمل هذه الأعمال لوجه الله ومرضاته فإنه سبحانه سيؤتيه الثواب العظيم .

هذا النص القرآني يحمل أروع معاني السمو الخلقي الذي تفتقر إليه الجماعة في كل زمان ومكان . وكم نحن اليوم بحاجة إلى القيام بمثل هذا العمل النبيل والتعاليم السامية في زمن يكثر فيه النزاع والتنازع ، والقتل والتقاتل لأتفه الأسباب وأبسط الأمور . وكل ذلك لأننا ابتعدنا عن الخط الإلهي الذي رسمه الله لنا رحمة بعباده المتقين فلعلهم يهتدون .

ح ـ **السخرية واللمز** : من أجل وحدة الجماعة وتوحد المسلمين نهى القرآن الكريم عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب فقال عز وجل مخاطباً المؤمنين : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** ﴾ [الحجرات : 11] .

ورد في هذه الآية عدة مواعظ : أمرنا الله بأن يحترم بعضنا بعضاً لنحافظ على سمعتنا وكرامتنا ، فلا يستهزىء أحد منا بأحد إن بالكلمة أو بالإشارة أو نحوهما لمجرد الشكل الظاهري ، سواء أكان المستهزأ به من الرجال أو النساء ، إذ ربما يكون المذموم أفضل عند الله من الساخر المستهزىء . فيكون هذا قد ظلم نفسه لأنه حقرَّ من كرَّمه الله ﴿ **وكرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر** ﴾ [الاسراء : 70] .

فضلاً عن أن المستهزأ به قد يفتش عن عيوب من سخر منه ، وإذا لم يجد قد يختلق له عيوباً وينسبها إليه فيتناقلها الناس . وفي ذلك ما فيه الضرر والأذى لسمعة المستهزىء .

إن السخرية تورث الحقد والبغضاء وتفرق بين قلوب القوم وتقطع بينهم روابط

المودة كما نهانا جل وعلا أن نذكر معايب غيرنا ونطعن في الآخرين إن غـابوا أو حضروا ، لأن ذلك يؤدي إلى العداوة والتخـاصم بين أفـراد المجتمع . فـالمؤمنون كـما أرادهم ربهم نفس واحـدة ، وكما أرادهم الـرسول الأعـظم (المؤمن مرآة أخيـه) فمتى عاب الإنسـان أخاه فكأنما عاب نفسه . وهذا معنى قوله سبحانه ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ .

وأخيراً نهانا الله أيضاً أن نلقب غيرنا إن كان قريباً أو بعيداً بلقب يكرهه ، سواء كان اللقب له أو لأمه أو لأبيه . ثم بَيَّن لنا الله جل جلاله أن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب تسـوق الساخـر إلى الفسوق والخـروج عن طاعـة الله وبذلـك يكون الـذين سخـروا من غيرهم قد ظلموا أنفسهم وخسروا رحمة الله ورضوانه .

هؤلاء حـذرهم الله في كتابـه العـزيـز فقـال تعـالى : ﴿ **ويـل لكـل همـزة لمـزة** ﴾ [الهمزة : 1] .

ط ـ حفظ الجوار : يقول المثـل إسأل عن الجـار قبل الـدار فالجـار الأمين والصـادق والكريم يحفظ جاره حاضراً وغائباً . والجار الأمين يؤنس جـاره ويساعـده عند الضيق أو الشدة ، فينوب مناب الأخ والأهل . قال لقمان لابنه :

واعــرف لجـارك حـقــه والحـق يـعــرفـه الـكــريـم

والإنسان بطبيعته اجتماعي ألوف ، ومدني بالطبع والفطرة ، ولا خـير فيمن لا يألف ولا يؤلف لذلك نرى الدين الإسلامي الحنيف يحث على حفظ الجـوار ، بكل ما للكلمة من معنى . قال سبحانه وتعالى : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالـدين إحسانـاً وبذي القربى واليتامى والمساكـين والجار ذي القـربى والجار الجنب والصـاحب بالجنب، وابـن السـبيـل ومـا مـلكت أيمـانـكم إن الله لا يحـب من كـان مختـالاً فخـورا** ﴾ [النساء : 36] .

فللجـوار حق على كـل مؤمن ومؤمنة فقـد جعل سبحـانه وتعـالى حفظ الجار كـالـبر بالوالدين واليتامى والمساكين وابن السبيل .

قـال الرسـول الأعظم (ص) : « الجـيران ثلاثـة : جار لـه حق واحد ، وجـار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق . فالجار الذي له ثلاثة حقوق ، الجار المسلم ذو الرحم فله حـق الجوار وحق الإسلام ، وحق الـرحـم . وأما الـذي له حقـان ، فالجـار المسلم ، له حق الجوار وحق الإسلام ، وأما الذى لـه حق واحد ، فـالجار المشرك »[31] فتـأمل كيف

(31) راجع إحياء علوم الدين للغزالي .

جعل حتى للمشرك حقاً بمجرد الجوار .

وقال (ص) : أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً . وقال أيضاً (ص) : « لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه » .

وقيل لرسول الله (ص) : إن فلانة تصوم النهار ، وتقوم الليل ، وتؤذي جيرانها ، فقال (ص) : هي في النار ، وقال عبد الله : قال رجل يا رسول الله : كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت ، قال : إذا سمعت جيرانك يقولون : قد أحسنت فقد أحسنت ، وإذا سمعتهم يقولون : أسأت فقد أسأت .

وعن الإمام زين العابدين (ع) : « وأما حق جارك ، فحفظه غائباً ، وإكرامه شاهداً ، ونصرته إذا كان مظلوماً ، ولا تتبع له عورة ، فإن علمت عليه سوء سترته عليه ، وإن علمت أنه يقبل نصيحتك نصحته فيما بينك وبينه ، ولا تسلمه عند شديدة ، وتقيل عثرته ، وتغفر ذنبه ، وتعاشره معاشرة كريمة ، ولا قوة إلا بالله » .

وقد تبارى الشعراء بحفظ حقوق الجار ، لما في هذه الصفة الأخلاقية من الشيم العربية الأصيلة قال حاتم الطائي :

إذا ما صنعت الزاد فالتمس له ... أكيلاً فإني لست آكله وحدي
أخاً طارقاً أو جار بيت فإنني ... أخاف مذمات الأحاديث من بعدي
وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً ... وما فيَّ إلا تلك من شيمة العبد[32]

وقال آخر :

وعندي لصلح الجار إن شاء موضعاً ... وإن جار أو لم يبق للصلح موضعا

وقال أبو فراس الحمداني :

أنا الجار لا زادي بطيء عليهم ... ولا دون مالي في الحوادث باب
ولا أطلب العوراء فيهم أصيبها ... ولا عورتي للطالبين تصاب

ونختم الحديث عن أهمية الجوار وحث الإسلام عليه بكلمة أمير المؤمنين وأمير البلغاء علي بن أبي طالب كما جاء في نهج البلاغة : « الله الله في جيرانكم فإنها وصية نبيكم » .

هذه بعض مبادىء التشريع الإسلامي التي تعد الأصول الأصيلة في الحضارة

---

(32) عن ديوان الحماسة وحاتم الطائي يخاطب زوجته ماوية بنت عبد الله .

البشرية فهي تمس أعماق النفس الإنسانية وتسيطر عليها وتقوم اعوجاجها وتخلصها من أدران المادة والتعلق الزائد بمباهج الدنيا والابتعاد عن الأنانية البغيضة . كما أنها تدعو إلى الوحدة والاستقرار والطمأنينة في قلوب المسلمين ومن جاورهم من الناس المسالمين . لأن الأمة الإسلامية عبارة عن جسم واحد ، فإذا اضطرب بعض أطرافه أو أصيب بمرض تداعى الجسم كله . ولقد حارب الإسلام كل ما يفرق الصفوف الإسلامية ونراه باستمرار يحث على الوئام وعدم التفرقة . قال تعالى : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون** ﴾ [آل عمران : 103] .

4 ـ الناحية الاقتصادية

يبحث علم الاقتصاد في السلوك الظاهري للفرد حال سعيه لتدبير معاشه .

والقصد في المعاش يعني لا إفراط ولا تفريط ، لا إسراف ولا تقتير . وفي الحديث « ما عال مقتصد ولا يعيل » أي ما افتقر من لا يسرف في الانفاق ولا يقتر .

يهدف علم الاقتصاد إلى تحقيق الرفاهية للناس جميعاً ، والفكر الاقتصادي بصورة عامة هو جملة الآراء والمفاهيم المعنوية التي قد تؤثر في سلوك بعض الأفراد تجاه الثروة المادية . فيعيش هؤلاء الحياة الاقتصادية المادية معتبرين أن الاقتصاد هو الموجه الأساسي للحياة والإنسان والكون .

أما الاسلام الذي يهدف إلى حياة إنسانية كريمة ، تختلف نظرته إلى الحياة والانسان والكون عن هذه النظرة المادية المعاصرة .

التشريع الاسلامي هو تشريع إلهي ، وواضع الأحكام هو الله ، والله عز وجل خلق كل ما في الكون من أجل الانسان وسخره له ؛ والدعامة الأولى والأساسية في نظره هي الانسانية السعيدة ، البعيدة كل البعد عن القلق والمصير المجهول .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ [البقرة : 29] .

ولأن الله يحب الانسان سخر له كل ما في الكون ليفيد منه بفكره ووعيه . قال تعالى : ﴿ **والله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك بأمره ، ولتبتغوا من فضله وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه . .** ﴾ [الجاثية : 12 و13] .

ومـا دام الانسان في نـظر الاسلام هـو غايـة الخالق الأولى ، وعلة الحيـاة وفلسفة الكـون فالانسانية تصبح الشريان الوحيد والأمل الأوحد في نظر الاسلام .

حتى أن هـدف الله تعالى في خلق الانسـان إنما هـو الرحمـة حسب التعبير القـرآني : ﴿ **إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم** . . . ﴾ [هود : 119] .

والاسـلام حينما نـظم سياسـة العباد والبـلاد ووضع لهم النـظام الاقتصادي هـدفـه الوحيد ضمان إنسانية الانسان في كل زمان ومكان .

من هنـا كان البـون الشاسـع بين الاقتصـاد الاسـلامي والاقتصـاد المـادي ، وبـين السياسة الاسلامية والسياسة المادية ، بين التشريع الآلهي والتشريع الوضعي . ولو تأملنا بعمق وجدنا أن النـظام الاقتصادي الاسـلامي هو في الـوقت ذاته نـظام اجتماعي ونـظام تربوي ونظام أخلاقي ونظام فلسفي ونظام إنساني .

إن القرآن الكريم قد أرسى القواعـد الأساسيـة والكاملة لتنـظيم الاقتصاد ، وجـاء بقواعد متكاملة تمد الفكر العلمي بحاجته منه ، وتشتمل على الأسس الرئيسية التي تكفل للجنس البشري أوضاعاً إقتصادية مريحة تحقق له مستويات عليا من الاستقرار الاجتماعي والرفاهية السعيدة في الحياة .

تقوم النظرية الاقتصاديـة كمفهوم متكـامل عـلى دعامتـين أساسيتـين هما : الانتـاج والتوزيع ولكل منهما نظرية تكمل الأخرى .

كما يرى علماء الاقتصاد المحدثين نظرية ثالثـة وهي النقود تتفـرع على القيمـة ، وتمد الباحث في الدراسات الاقتصادية بمادة جـديرة بـالتقديـر ولكنها غـير منفصلة عن جوهـر الاقتصاد وهو : الانتاج والتوزيع فأصبـح لدينـا والحال هـذه ثلاث نـظريات متكـاملة : الانتاج ـ التوزيع ـ النقود ومنها مجتمعة تتكون النظرية الاقتصادية .

فهل جاء القرآن الكريم والسنـة النبويـة الشريفة ، وسنـة الأئمة المهـديين بعنـاصر متكاملة تمد الفكر العلمي بنظرية علمية يقوم عليها النظام الاقتصادي بعناصره الثلاثة ؟

والجـواب : نعـم . إن القرآن الكـريم قد أرسى القـواعد الكليـة الأساسيـة لتنـظيم الاقتصـاد ، وجـاء بعنـاصر متكـاملة ، تشتمـل عـلى الأسس التي تمـد الفكـر العلمي بحاجته ، وتكفل للجنس البشري أوضاعاً اقتصادية سليمة تحقق لـه مستويـات عليا من الترفه المعيشي ، قبل أن يقوم علم الاقتصاد ويصل إلى ما وصل إليه من التقدم والتطور .

أ ـ الانتاج : منذ وجد الانسان على الأرض بدأ معركته مع الحياة يصارع الطبيعة محاولاً استغلالها واستثمارها بوسائل متنوعة ومتعددة . وهذه المكاسب التي يجنيها تسمى بالانتاج . وقد تعرض هذا الانتاج للتطور عبر مراحل التاريخ وفقاً لتطور العلوم وازدياد التجارب والخبرات والتقنيات . فبينما كان الانسان يستخدم في إنتاجه المحراث أصبح فيما بعد يستخدم الطاقة الكهربائية والذرة . . .

وفي الاسلام خلافاً للمذاهب الاقتصادية الأخرى حقل الانتاج منفصل عن بقية الحقول حيث يمارس فيه الانسان عمله مع الطبيعة ، وما أشكال الانتاج إلا حصيلة ذلك العمل . والاسلام يؤمن بعدم تأثير أشكال الانتاج على العلاقات الاجتماعية ، أو في تحديدها لشكل النظام الاجتماعي ، فالانسان وحده هو القوة المحركة للتاريخ وليست وسائل الانتاج[33] .

ب ـ التوزيع : خلق الانسان مفطوراً على حب ذاته فسعى منذ البدء إلى تلبية حاجاته ، لذلك استغل كل ما حوله لإشباع رغباته وبالتالي استخدم الانسان أخاه الآخر لأنه لا يتمكن بمفرده من الحصول على كل ما يحتاج إليه دون التعاون مع سائر الأفراد فنشأت بذلك علاقات إجتماعية على أساس تلك الحاجات ، ومن ضرورة هذه العلاقات تكون النظام الاجتماعي . والذي تندرج من ضمنه علاقات التوزيع .

فإذا كان استغلال الانسان للطبيعة واستثماره لخيراتها سمي بالانتاج ، فتقسيم ذلك الانتاج يسمى بالتوزيع .

وما يؤمن به الاسلام هو فصل علاقات التوزيع عن شكل الانتاج كون هذه العلاقات نابعة من الحاجات الانسانية . وبما أنه في هذه الحاجات قسماً ثابتاً وآخر متغيراً صارت بذلك علاقات التوزيع وبالتالي النظم الاجتماعية تمتلك المرونة التي تستطيع بها مواكبة التطور في الحاجات المتغيرة . وأصبح من الممكن القول بضرورة وجود احتماعي ثابت يصلح لكل الأزمنة على عكس ما تقول به الماركسية باستحالة وجود نظام إجتماعي صالح لكل الأزمنة كونها تؤمن بضرورة تغير الأزمنة حسبما تتغير أشكال الانتاج .

وعلى هذا الأساس تتغير نظرة الاسلام إلى علاقات التوزيع التي تغيرت عبر العصور ، حيث لا يعطي أو يحجب الحق عن تلك العلاقات باستنادها إلى أشكال الانتاج التي كانت سائدة في ذلك العصر . بل إنه يستند إلى الحاجات الانسانية المتنوعة

---

(33) راجع اقتصادنا للسيد محمد باقر الصدر ص 335 .

والتي يجب على النظام تكييف الحياة تكيفاً يضمن إشباعها بوصفها الأساس لنمو الحياة الاجتماعية .

هذا الشكل من أشكال الانتاج أو ذاك ليس مبرراً لقيام نظام اجتماعي وعلاقات توزيع معينة . أما في الاسلام فلا يوجد صلة بين أشكال الانتاج وعلاقات التوزيع ، وقد أعطى الدليل العلمي على صحة ما يقول حينما انبثقت الرسالة الاسلامية فجأة في مجتمع مكة دون أن يكون هناك تحولاً مفاجئاً في أشكال الانتاج آنذاك .

ج ـ التداول : لا يقل التداول أهمية في الحياة الاقتصادية عن الإنتاج والتوزيع ، فالمبادلة على أساس المقايضة لم تستطع أن تيسر التداول في الحياة الاقتصادية حتى اخترع النقد كأداة للمبادلة ، بدلاً من السلعة نفسها . وقد أخذت وكالة النقد هذه تقوم بدور خطير في الحياة الاقتصادية حيث سمح للإنسان أن يجد له مدخلاً ليحرم الإنسانية من البركات والخيرات . مع النقد أصبح بالإمكان تأخير الشراء عن البيع وبالتالي اكتناز المال وتجميده مما جعل للنقد إمكان التوازن بين كمية العرض وكمية الطلب مختلة . وقد يخلق المحتكر طلباً كاذباً فيشتري كل كميات السلع من السوق لا لحاجته إليها بل ليرفع ثمنها أو يعرضها بأسعار دون كلفتها مما يدفع بالآخرين إلى الانسحاب من السوق ويعلنون إفلاسهم ؛ وبذلك تتخذ الأسعار وصفاً غير طبيعي . ولم يكتف النقد بهذه المشاكل فقط بل أصبح أداة لتنمية المال عبر الفائدة ، بالإضافة إلى أنه أداة اكتناز .

أما الإسلام فقد وضع لوكالة النقد خط سيرها الطبيعي عبر هذه الحلول :

1 ـ منع اكتناز المال عن طريق فرض ضريبة الزكاة على النقد المجمد في كل عام وبصورة متكررة حتى تستوعب الزكاة النقد المكتنز كله إذا طال اكتنازه عدة سنين .

2 ـ حرم الربا تحريماً قاطعاً فقضى على الفائدة وعلى نتائجها الخطيرة في مجال التوزيع وما تؤدي إليه من اختلال في التوازن الاقتصادي العام ورد للنقد دوره الطبيعي كأداة لتقدير قيمة السلع وتسهيل تداولها .

د ـ المصارف : مع نشوء عصر الرأسماليين وإطلاق يدهم حرة في ساحة الامتلاك الشخصي ، أصبح الفقير مضطراً أن يأخذ قروضاً من صاحب المال ولو تطلب سدها مع دفع الفائدة مهما بلغت نسبتها . ولهذا وجدت المصارف وتعاملت بالربا ، غير المشروع إسلامياً ، لتأمين حاجات الناس وبذلك ازداد الربا وازداد معه عجز المدين حتى أصبح في بعض الحالات ، الربا يساوي أو يزيد رأس المال . ولا ريب فقد ازدادت المشاكل بين الناس والخصومات وما إلى ذلك من التفسخ الاجتماعي بسبب جشع الرأسماليين وأنانيتهم .

حتى جاء الإسلام فأوجد الحلول المناسبة التي تمنع المحتاج أن يسلك ذلك الطريق الصعب الذي يضطره للتعامل بالربا ، فقسم المحتاجين إلى ثلاثة أصناف :

1 ـ المحتاج إلى قوت يومه يأخذ من بيت مال المسلمين رواتب محدودة يستعين بها على قضاء حاجاته .

2 ـ المحتاج إلى عمل وعنده القدرة الجسدية يكفل له النظام الإسلامي إيجاد عمل له ووضع شروطاً للعامل ولرب العمل ، عادلة للطرفين .

3 ـ المحتاج إلى الأموال الكثيرة لتوسيع تجارته أو زراعة أرضه أو زيادة حجم مشروع صناعي فتح الإسلام لهؤلاء باب القرض ، لأن من أقرض المسلمين فقد أقرض الله ، والمال مال الله والناس جميعاً نقلة لهذا المال من جيل إلى جيل . قال تعالى : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون** ﴾ [البقرة : 245] .

وقد أقر الإسلام إنشاء المصارف الإسلامية ووضع لها نظاماً مخالفاً للنظام الرأسمالي حيث سمح للذي يملك أموالاً ولا يعرف كيفية استثمارها ، والذي يملك خبرة تجارية ولا يملك مالاً أن يتعاملا تحت شعار مؤسسة اسمها المصرف ولكن حسب الشروط الإسلامية للمعاملات التجارية ، حيث يقوم صاحب المصرف بالتجارة والإستيراد بهذه الأموال مع الإذن من أربابها ، فتحصل بذلك المنفعة المشتركة للاثنين معاً . أما مصارف اليوم فإنها أوتاد الرأسمالية ، ويرفضها الإسلام رفضاً باتاً .

هـ ـ العمل : العمل هو السبيل الطبيعي لكسب العيش ، وسنة الحياة ، وهو الدعامة التي يقوم عليها المجتمع الإنساني . فالمزارع والصانع والتاجر والطبيب والمعلم ورجل الأمن والقاضي . . . كل هؤلاء الوطن بحاجة إلى سواعدهم وخبرتهم وتعاونهم معاً من أجل قيام شؤون الجماعة البشرية .

من أجل ذلك حيث الإسلام على العمل ، وحض على الكسب من طرقه المشروعة ؛ قال تعالى : ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه . وإليه النشور** ﴾ [الملك : 15] .

وقال (ص) : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وأن نبي

الله داود (ع) كان يأكل من عمل يده »[34] .

والإسلام يختلف عن بقية المذاهب الوضعية (التي تنظر إلى المجتمع باعتباره كائناً كبيراً يختفي من وراء الأفراد) والفرد أصيل فلا يذوب في المجتمع وكذلك المجتمع هو أصيل أيضاً . لذلك لم يقطع الصلة بين عمل الفرد ونتائج عمله . ومن جهة أخرى يختلف الإسلام مع بعض هذه المذاهب في تحديد قيمة المواد المنتجة بقدر العمل الذي تتطلبه . وهو لا يقر أن أساس قيمة الأشياء العمل المبذول فيها فقط كما قال (ريكاردو) . وبعده جاء ماركس الذي سار على نهجه . على عكس مبدأ الإسلام الذي جعل الرغبة الإنسانية هي المقياس الذي تقاس به قيمة الأشياء المتبادلة . ووضع لذلك قاعدة الملكية على أساس العمل . فالعمل في نظر الإسلام سبب الملكية وليس سبباً لقيمتها .

وقد قسم الإسلام المجتمع إلى ثلاث فئات رئيسية :

1 ـ الفئة الأولى تعتمد على العمل وحده .

2 ـ الفئة الثانية تعتمد على العمل والحاجة معاً .

3 ـ الفئة الثالثة تعتمد على الحاجة فقط .

وخلافاً لمختلف المذاهب الاقتصادية الوضعية أعطى الإسلام حق الحياة للفئة الثالثة لاعتباره حاجتها لوناً من ألوان الملكية . قال تعالى : ﴿ ... **وفي أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ [الذاريات : 19] .

وبما أن الأعمال تتنوع في المجتمع الواحد ، اختلفت حقوق العاملين . فعمل الإنسان في الأرض الميت وإحيائها سبب له الحق في تملكها ، كذلك عمال المناجم والعيون وما شابه . أما عمله في الأرض الميتة كزراعتها أو رعيها ، فلا يعطيه حق تملكها سوى تملك ما زرع فيها أو ما رعى منها . أما إذا ترك الأرض التي أحياها سابقاً دون أن يتابع عمله فيها ، يسقط حقه في تملكها . وبذلك ميزّ الإسلام بين نوعين من الأعمال :

الأول : الانتفاع والاستثمار .

الثاني : الاحتكار والاستئثار .

فالاستثمار صفة اقتصادية شرعية بطبيعتها ، أما الاحتكار فهو من صفات

---

(34) أخرجه البخاري من كتاب البيوع والحكمة في تخصيص داود بالذكر أن اقتصاره في أكله على ما يعمل بيده لم يكن من الحاجة ؛ فقد كان خليفة الله في الأرض ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض** ﴾ وإنما اختار الأكل من الطريق الأفضل ، وهذا دليل على أن خير الكسب عمل اليد .

الرأسماليين الذين حاربهم الإسلام منذ البداية . فإذا كان الناس كلهم عيال الله ، ومنافع الأرض مسخرة لهم ، بعد أن سخر الله سبحانه وتعالى كل شيء لهم ، فما بال المحتكرون يوصدون أبواب الرزق في وجوههم ؟

لقد كانت غضبة الإسلام على المحتكر عاصفة ، لا تسمح له بالغفران ، حتى قال النبي (ص) : « أيما رجل اشترى طعاماً فحبسه أربعين صباحاً ، يريد به الغلاء للمسلمين ، ثم باعه ، وتصدق بثمنه ، لم يكن كفارة لما صنع ! »[35] .

وقال الإمام جعفر الصادق (ع) الحكرة في الخصب أربعون يوماً ، وفي الغلاء والشدة ثلاثة أيام . . . فما زاد على الأربعين يوماً في الخصب ، فصاحبه ملعون . . ! وما زاد في العسرة على ثلاثة أيام فملعون . . ! »[36] .

هذا هو المحتكر بجشعه وقسوته على إخوانه الفقراء ، يسلط عليهم ظلماً وجوراً لا يعرف المروءة ولا الضمير . يحدثنا التاريخ عن مثل هؤلاء في الحرب العالمية الثانية ، حيث كان المحتكرون يغرقون السكر في الماء ويحرقون أطنان القمح والشعير . . . ليضخموا بذلك أموال الحرام . . ! في الوقت نفسه كان عامة الناس يشربون الشاي مع الدبس والتمر ، ويتنازعون الخبز !! لذلك أكره الإسلام المحتكرين على تعريض بضائعهم للبيع ، بالأثمان العادلة . وقد نفذ الصحابة الأبرار سنة رسول الله (ص) وأول أهل السنة الذين طبقوها كما أرادها صاحبها (ص) أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب . قال (ع) في وصيته لمالك الأشتر على مصر : « . . . فامتنع من الاحتكار ! فإن رسول الله منع منه . . . وليكن البيع بيعاً سمحاً ، لا يجحف بالفريقين : البائع والمبتاع ! فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه ، فنكل به وعاقب في غير إسراف !! »[37] .

ولهذا وضع بعد ذلك قانون الملكية العامة .

وذلك حتى لا يستأثر التجار الكبار بخيرات الأرض ، ويحتكرون منابع الثروة العامة ، ومن خلفهم أخوان لهم يقاسون الألم والحرمان . إن الموارد العامة في الإسلام ملك للجميع ومشاع للجميع . . قال الرسول الأعظم : « المسلمون شركاء في ثلاث : الماء والكلأ والنار »[38] .

---

(35) السيد حسن الشيرازي ص 262 .

(36) المرجع نفسه .

(37) راجع الخطبة في كتاب النظم الإسلامية للمؤلف .

(38) لم يختصر النبي (ص) الشركة العامة في هذه العناصر الثلاثة فقط ولكنها كانت الحاجات الرئيسية للبيئة العربية التي نشأ فيها الإسلام .

ودليلنا العملي على ذلك النبي نفسه (ص) وعلي بن أبي طالب (ع) عندما أباحا الماء ـ وقد كان في حوزتها لجيوش المخالفين .

فإذا كنا نحبها فلماذا لا يشترك المسلمون اليوم في خيرات البحار والفضاء والكهرباء والنفط والغاز . . . ؟ !

و ـ الإرث : هو من العوامل الدائبة على توزيع الملكيات الكبرى وتقسيمها أثلاثاً وأرباعاً وأسداساً وأثماناً . فتقسيم التركة في الإسلام أمر إجباري بالنسبة للوارث والمورث إذ ليس للمورث سلطان على ماله بعد وفاته . فلا يحق له أن يفضل البعض ويحرم البعض الآخر مستنداً إلى مصالحه الشخصية ، إلا في الثلث ، فللمورث السلطة على هذا القسم من أملاكه الخاصة .

أما الوارث فليس له الحق في أن يطلب الزيادة من حقه ، إنما هو ملك مقدر ، وعليه أن يقبله كرهاً أو طوعاً .

وإذا لم يوص المورث فالحاكم الشرعي يتولى توزيع التراث كله ، والثلثين ، إن أوصى ، بموجب المقررات الشرعية ، على نحو لا تخرج التركة عن الأسرة نفسها . إلا إذا لم يكن هناك وارث ، فأمواله تنتقل إلى بيت مال المسلمين .

ويولى على حصص الأطفال ، والسفهاء ، وغير الراشدين ـ من الأسرة نفسها ، أو غيرها ـ من يتولى التصرف على غبطة المتولي عليه ، بإرشاد الحاكم ، ورقابة الناظر .

ز ـ توزيع التركة : قرر الإسلام توزيع التركة بصورة دقيقة لم تعرفها الأمم الأخرى ، فبعض الدول اليوم تأخذ من ميراث المتوفى نسبة كبيرة 80٪ أو 85٪ وحتى 95٪ ثم يقسم الباقي على الورثة ، وقد يستأثر الولد البكر بالقسم الأكبر كما كان في عصر الجاهلية ! « وذلك ما أثار حزب العمال الانجليزي ، على أن يطالب في برنامجه الاشتراكي ، بتطبيق نظام الإسلام في المواريث »(39) .

تعتمد فكرة توزيع الإرث في الإسلام على ثلاث دعائم :

1 ـ تفضيل الأقرب إلى المتوفى علي غيره ، فعمود النسب أقرب من الحواشي . وهي كما يلي الأب ، فالأم ، فالزوجة ، فالأولاد ، فأولاد الأولاد ، الأقرب فالأقرب دون تفرقة بين الكبير والصغير ، هم الطبقة الأولى . فإن فقدوا جميعاً يأتي الطبقة الثانية ،

---

(39) الاقتصاد للسيد حسن الشيرازي ص 296 .

وهم الأجداد والجدات ، الأقرب فالأقرب ـ والأخوة والأخوات . فإن فقدوا ، فالطبقة الثالثة ، وهم الأعمام والعمات ، والأخوال والخالات وهكذا . .

2 ـ ملاحظة الاحتياج إلى المال ، ولعل ذلك هو السر في زيادة نصيب الأولاد على حصة الأبوين ـ فالأولاد لا يأخذون أقل من النصف ، بينما الأبوان لا يأخذان أقل من الثلث ـ فالغالب في الأبوين أن يكون لهما من فضل المال ما يتقوتانه وحاجاتها ضئيلة جداً ، على عكس ما نجد عند الصغار الذين يستقبلون الحياة بحاجاتهم الكثيرة .

وذلك ما جعل للذكر ضعف الأنثى ، لأن الذكر مسؤول عن عيشه وعيش نفر معه في الغالب ؛ بينما الأنثى مكفولة من قبل الآخرين .

3 ـ عدم الاستئثار في جانب والحرمان في جانب آخر فالجميع لهم الحق في الميراث كل حسب ما تعطيه الشريعة من حصة .

ح ـ **وظائف بيت المال** : وظائف بيت المال هي الإنفاق على العناصر الثمانية التي نصت عليها الآية في مصارف الزكاة . وهي : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل** ﴾ .

وكلمة في سبيل الله تشمل الصالح العام كبناء الثغور ، وتشييد المدارس ، واستيراد المعامل والمصانع وإرسال البعثات العلمية ، وإنشاء القواعد ، وتهيئة العتاد ومكافحة المرض والمجاعة والزلازل والطوفان وكل ما من شأنه خدمة المصلحة العامة للمسلمين .

من ذلك كله تبدو طريقة الإسلام الحكيمة في محاربة الفقر والرأسمالية صريحة صارخة لا تحتاج إلى دليل . فالموارد التي حرمها الإسلام كالربا والاحتكار والمكاسب غير المشروعة كلها آفات اجتماعية تمتص دماء الشعوب المحرومة بصمت ولولاها لما كان الفقر ولما تزايدت الرأسمالية .

ومن جهة أخرى الحقوق الشرعية التي يجبيها بيت المال من الأغنياء ليضيفها إلى الفقراء والمساكين[٤٠] ، كفيلة بتحقيق العدالة الاقتصادية في المجتمع الإسلامي .

ـ الزكاة : فصلنا في فصل سابق .
ـ الربا : تكلمنا عليها في فصل سابق .

---

(40) نذكر بموارد بيت مال المسلمين : الزكاة والخمس والجزية والأنفال ، والخراج والمقاسمة .

5 ـ الناحية العلمية

دعا الإسلام إلى العلم وحرض عليه ليقينه أن الشخصية الإنسانية لا يقومها ولا يرقيها شيء غير العلم الموجه توجيهاً أخلاقياً سلبياً . وفي القرآن الكريم آيات كثيرة[41] تدعو المسلمين لإطلاق عقولهم من عقالها وتدعوهم ليتفكروا وينظروا في ملكوت السماوات والأرض . قال تعالى : ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب** ﴾ [ق : 6 ، 7 و8] .

وقد شرف الله العلم والعلماء وميزهم عمن سواهم . قال تعالى : ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ [الزمر : 9] .

فقد حصر التذكر في أولي الألباب (أي العقول) وهل هناك من مقوم للألباب غير العلم ؟ .

ثم يصرح القرآن بأن العلماء لهم درجات عند ربهم وميزات يخصهم بها . قال تعالى : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ [المجادلة : 11] .

وقال رسول الله (ص) : « من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع »[42] .

وقال علي بن أبي طالب (ع) « العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه »[43] .

كما أمر النبي (ص) بتعلم اللغة الأجنبية ؛ فكلف زيد بن ثابت كاتب الوحي في السنة الرابعة من الهجرة بتعلم لغة اليهود العبرية . فقال له : « تعلم كتاب اليهود ؛ فإني والله ما آمن اليهود على كتابي »[44] .

ولم يمض قرنان من الزمن حتى أصبح العرب المسلمون أساتذة العالم في العلوم والفنون والمعرفة والثقافة .

---

(41) ذكر العقل ومشتقاته في القرآن أكثر من أربعين مرة .

(42) رواه الترمذي ومسلم وأبو داود .

(43) راجع العقد الفريد ونهج البلاغة .

(44) راجع الطبري في باب الأحكام .

وفضلاً من أن القرآن كتاب هداية وإرشاد للناس جميعاً في حياتهم الدينية والدنيوية فهو كتاب علم فيه إشارات خفية وتعبيرات دقيقة إلى حقائق كثيرة من المواضيع الطبيعية والجغرافية والطبية والعلمية .

قال تعالى : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً** ﴾ [نوح : 15 و16] .

عندما سمعها العرب ظنوا أن القمر نور والشمس نور ولكن اختلف اللفظان من أجل تنويع بلاغي جميل . أما علماء العصر الحديث فقد فهموا أن المراد من الآية إثبات ما كشفته هذه العلوم من أن القمر جرم مظلم وإنما يضيء بما يعكس عليه من نور الشمس التي هي سراجه ، لأن النور لا يكون من ذات نفسه ولا بد له من مصدر يبعثه . فذكر السراج بعد النور دليل على أن هذا مصدره من ذاك .

وقال تعالى : ﴿ **الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها** ﴾ [الرعد : 2] .
ثبت اليوم في علم الفلك أن الكواكب واقفة بقوة الجاذبية بغير عمد نراها .

وقال سبحانه واصفاً الأرض : ﴿ **أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها** ﴾ [الرعد : 41] .

شكل الأرض بصورة عامة مستدير كروي بيضاوي غير أنها غير كاملة الاستدارة ، وغير منتظمة التكوير ، فهي مبططة عند قطبيها ومنتفخة عند خط الاستواء . وعلى هذا فإن قطرها القطبي ينقص عن قطرها الاستوائي ، وتبطيط الأرض عند قطبيها وانتفاخها عند خط الاستواء نتيجة لتأثير فعل القوة المركزية المسببة من الحركة الدورانية حينما كانت سائلة .

وعن طبيعة السماء والأرض أيضاً قال تعالى : ﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما** ﴾[43] .

فالله عز وجل يخبرنا أن السماوات والأرض كانتا شيئاً واحداً متصل الأجزاء . وهذا ما يقوله العلم الحديث : إن العالم الشمسي كان كتلة سديمية واحدة فانفصل بعض أجزاء الكتلة تدريجياً بطريقة ما فتكونت منها السيارات والأرض وغيرها التي أخذت تدور حول أمها الشمس .

---

(43) الأنبياء الآية 30 والرتق : الضم والالتحام . والفتق : الفصل بين الشيئين . يزجي : يسوق بسهولة . ركاماً : متراكماً . الودق : المطر .

ومن أمهات الحقائق العلمية التي كشف أسرارها العلم الحديث السحاب المكهرب قال تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً ، فترى الودق يخرج من خلاله** ﴾ [النور : 43] .

مر الأدباء على هذه الكلمات فرأوا فيها مجازاً من المجازات البلاغية ، أما العلماء فقد رأوا أن فيها حقيقة من أمهات الحقائق الكونية التي كشف أسرارها العلم والتأليف بين السحاب إشارة واضحة للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية . فالسحاب مكهرب كما أثبت العلم الحديث والمعروف أن السالب والموجب يتنافران هذا التنافر من شأنه تفريق السحاب ذي النوع الواحد . لكن الله سبحانه قد يجمعه بواسطة الرياح ، وعندئذ تكبر السحابة . ثم إذا شاء الله ساق السحاب بالريح حتى يقترب السحاب الموجب من السحاب السالب قرباً كافياً ، فإذا اقتربا تجاذبا ، وهذا التقارب من شأنه أن يزيد في كهربائية مجموع السحاب بالتأثير ، ولا يزالان يتجاذبان ويتقاربان حتى يؤدي ذلك إلى اختلاطهما واتحاد كهربائيتهما . وبطبيعة الحال يكون المطر نتيجة لازمة لحدوث ذلك الاتحاد الكهربائي .

فالعوامل المسببة للأمطار محورها الرئيسي الكهربائية الجوية التي وجدنا لها إشارة واضحة في سورة الحجر . قال تعالى : ﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين** ﴾ [الحجر : 22] .

فالملاقحة هنا بين سحاب وسحاب ، وقد يشبه هذا التلقيح ، التلقيح النباتي ، لأنه في الحالين اتحاد تام بين شيئين متضادين متجاذبين ، يختفيان ويظهر مكانهما شيء آخر غيرهما .

وأما عن الذرة وجزئياتها فقد أشار سبحانه في سورة يونس قال تعالى : ﴿ . . . **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين** ﴾ [يونس : 61] .

منذ زمن ليس بعيداً وصل العلماء في أبحاثهم عن الذرة أنها الجوهر الفرد الذي تتركب منه المادة ، ولا يقبل التجزئة لتناهيه في الصغر والدقة ، ولكنهم عادوا فاكتشفوا حديثاً ، أن الذرة قابلة للتجزئة فعلاً . وكلمة (أصغر) في الآية القرآنية تصريح جلي بإمكان تجزئتها وتحطيمها . فيا ليت العلماء في الماضي قد قرأوا القرآن لكانوا قدموا العلم أشواطاً بعيدة وخدموا الانسانية خدمة جلى . ويا ليت علماء اليوم يقرأون القرآن بإمعان ليسرعوا في تقدم الانسانية شرط أن يوجهوا اختراعاتهم توجيهاً سليماً

يضمن للانسان الرفاهية والسعادة والخير .

وعن الحركة الدائمة التي لا تنقطع حتى في الجماد . قال تعالى : ﴿ **وإن من شيء لا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ [الذاريات : 49] .

فالعرب الأولون فهموا من الآية أن كل شيء في الكون يسبح بعظمة الله ويخضع لسلطانه مع أن علماء الطبيعة أثبتوا الآن أن حركة دائمة لا تنقطع في ذرات كل شيء لا تراها العين المجردة ولا تحس بها المشاعر .

وأما عن سر الزوجية في الكون قال تعالى :: ﴿ **ومن كل شيء خلقنا زوجين** ﴾ .

لقد أثبت العلم حديثاً أن الزوجية منتشرة في الممالك الثلاث : الحيوان والنبات والجماد ، حتى الكهرباء فيها قوتان سلبية وإيجابية ، وبالطبع لم يكن ذلك معروفاً في عصر محمد (ص) وما كانوا يعرفون شيئاً من المملكة الحيوانية وشيء من المملكة النباتية . بينما القرآن جعل هذا المبدأ عاماً . إذ قال : ﴿ **ومن كل شيء** ﴾ بعد أن أثبت الزوجية للحيوان ﴿ **وإنه خالق الزوجين الذكر والأنثى** ﴾ وأما عن صعوبة التنفس في الطبقات العليا من الهواء عندما تقل كمية الأوكسيجين قال تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء** ﴾ [الأنعام : 125] .

ومن الثابت علمياً أنه كلما ارتفع الانسان في السماء يشعر بعوارض الاختناق لأن أوكسيجين الهواء يتناقص كلما ارتفع الصاعد أكثر في طبقات الجو . لذلك يستعمل الطيارون الذين يصعدون إلى الأعالي آلات التنفس الاصطناعي الذي يحتوي على مادة الأوكسيجين الكافية لهم ليتفادوا الاختناق . ومن العلوم القرآنية الثابتة والدائمة والمتطورة مع كل زمان والتي يعتبرها العلم الحديث أصولاً له ، كيفية خلق الانسان .

ولنتأمل الآية الأولى التي نزلت على الرسول الأعظم الذي اختاره رب العالمين هداية لجميع خلقه وسراجاً منيراً . قال تعالى : ﴿ **إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق** ﴾ [سورة العلق] .

أثبت المختبر الطبي الحديث أن مني الانسان حيوانات صغيرة لا ترى بالعين المجردة إلا بواسطة المجهر ، وكل حيوان منها له رأس ورقبة وذيل يشبه في شكله دودة العلق . ولا ريب أن هذه الآية كغيرها من الآيات العلمية هي معجزة من معجزات القرآن لم تظهر وقت نزولها ولا بعده بمئات السنين . وكثير بعد من الآيات التي يقرأها العلماء ولم

يتوصلوا بعد إلى اكتشاف أسرارها وفك رموزها .

ونبقى في جو أسرار الخلق . قال عز وجل : ﴿ **وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا** ﴾ [الأعراف : 172] . تقول الآية الكريمة أن الله أخذ ذرية بني آدم من ظهورهم ، والمعروف أن الخصية هي في الجزء الأسفل لا في الظهر . ولكن الله سبحانه يتكلم على الجزء الخاص للنطفة في جسم الجنين ، وهذا الجزء يوجد في الظهر عند أسفل الكليتين ، ومن هذا المكان بالذات تنمو الأعضاء التي تكون الخصيتين ، وتبقى في الظهر تحت الكليتين حتى الأشهر الأخيرة من حياة الجنين في بطن أمه ، ثم تنحدر إلى أسفل وعند الولادة تكون في مركزها الطبيعي المعتاد . فالآية الكريمة تشير إلى النقطة الأصلية في جسم الجنين التي تؤخذ منها النطفة ، وهذه هي الظهر بلا ريب .

وإننا نجد في هذا الكتاب المعجزة أن كل شيء موجود على سطح هذه الأرض وفي البحر وفي الكون كله قد أوجده الخالق القدير بقدر معلوم وموزون على أكمل وجه . قال تعالى : ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون** ﴾ [الحجر : 19] .

فتأمل خلق كل شيء موزوناً . أثبت علماء الكيمياء والنبات أن العناصر التي يتكون منها النبات مؤلفة من مقادير معينة من كل نوع من أنواعه بدقة غريبة لا يمكن ضبطها إلا بأدق الموازين ، كما أن نسبة بعضها إلى بعض يختلف عند كل نبات . وهذه مسألة علمية دقيقة لم تخطر ببال أحد من علماء العصور الماضية . ومن الاشارات العلمية الدقيقة الموجودة في القرآن والتي تثبت حكمة الخالق وقدرته في أسرار الطبيعة الكونية من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، كما تظهر تلك الدقة الغريبة في تركيب الأشياء وموازينها . قال تعالى : ﴿ **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** ﴾ [الحجر : 21] .

يفيد علماء العصر الحديث أن نسبة الأوكسيجين الموجودة في الهواء لو زادت عن المقدار التي هي فيه لهلك كل كائن يتنفس ، ولو قلت لسببت الموت اختناقاً لكل حي موجود . أجل ! إنها حكمة الخالق في خلقه . كل شيء في هذا الكون خلق بمقدار بحيث لو زاد قليلاً أو نقص قليلاً لفسد نظام الكون وتعطلت الحياة وهلك كل من عليها .

فتأمل كمية الماء في الكرة الأرضية فلو زادت عما هي عليه لغرقنا في الطوفان ، ولو نقصت لمات كل حي من العطش ، وكذلك كمية الملح في البحر لو زادت أو نقصت لهلكت جميع الحيوانات البحرية . . .

ومن عظيم حكمته وعظمة تقديره وحسن تقويمه قال تعالى : ﴿ **فالق الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ [الأنعام : 96] .

حكمة الله جل وعلا في خلقه حيث جعل كل شيء في مكانه المعين فلو اقتربت الشمس من الأرض أكثر مما هي عليه لاحترق كل شيء ، وإذا ابتعدت لعم الجليد الدنيا وهلك كل مولود .

إن هذه الحقائق العلمية التي ذكرها القرآن الكريم عبرة لذوي الألباب ، وأوردنا قسماً منها على سبيل الذكر لا الحصر ، إذا استعرضها العقلاء بعيداً عن هوى النفس ، هل يكون هذا في مقدور رجل من العرب منذ أربعة عشر عاماً وقد عجز العلماء اليوم عن معرفته في عصور المدنية الاسلامية الزاهرة ؟ هذا مستحيل بكل تأكيد فمن أين لمحمد (ص) معرفة كل هذه الحقائق العلمية ؟

من الثابت تاريخياً أن محمداً (ص) فضلاً عن كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب قد نشأ في مكة حيث لم تكن هناك جامعات ولا مدارس ولا علوم كيماوية وفيزيائية وطبيعية وغيرها . . . ولا يوجد مختبرات وتقنيين تحلل فيها العلوم الكونية . كما أن محمداً كان بعيداً عن ذلك المحيط العلمي البسيط الذي كان موجوداً في الشام ومصر واليونان وروما .

وفوق هذا كله إن النظريات العلمية التي أشار إليها القرآن لم تكن معروفة في القرن السابع الميلادي ولم يكتشف العلم الحديث أسرارها إلا منذ أمد قريب . إن في ذلك لآية واضحة أن القرآن من عند الله ، فاطر السماوات والأرض وخالق كل مولود العزيز الحليم رب العالمين .

هذه العلوم التي أشار إليها القرآن الكريم أفاد منها المسلمون وأفادوا بها الناس جميعاً وعن طريق العلم الأصيل كان تطور الأمة الاسلامية العربية ، وبفضل الرسالة النبوية أشرقت أنوار العلم الساطعة فأضاءت الكون وأنارت العقول وأخرجت من اتبعها من الظلمات إلى النور . فأقبل المسلمون ينهلون من معين الرسول الأعظم ، ما جعلهم قادة المفكرين وسادة الأمم . وأول هؤلاء تلميذ النبي الأول ووزيره ومرافقه وصهره وابن عمه الامام علي بن أبي طالب أول القوم إسلاماً . علمه الرسول (ص) فأحسن تعليمه حتى أصبح سيد العلماء وكبير البلغاء وعظيم الأدباء وأهم الفقهاء . قال عنه الرسول الأعظم : (أنا مدينة العلم وعلي بابها) .

فعلي وأبناؤه الأطهار بنص القرآن المبين هم المصابيح الساطعة التي بددت الظلمات وقضت على جهل الجاهلين وبعد علي جاء الحسن والحسين عليهما السلام فنشرا لواء العلم والمعرفة خفاقاً بعد أبيهما ، وسار على طريقهما الامام زين العابدين وولده محمد الباقر الذي لقب بباقر العلوم . ثم الامام جعفر الصادق المعروف عند جميع أهل العلم والفضيلة وأستاذ جميع أئمة المسلمين المعاصرين له من تلامذته أو تلامذة تلامذته ومن أخذ عنهم في شتى العلوم والمعارف . وقد تابع المسيرة من بعده أحفاده الأطهار فنهجوا منهجه حتى آخرهم الإمام محمد بن الحسن عليهم سلام الله أجمعين .

وبفضل العلم نهضت الأمة الإسلامية من قلب الجزيرة العربية وقائدها ومعلمها الرسول الأعظم ، صارخاً بالأمم صرخة علمية حضارية ، نبهت العالم من سباته ، وأيقظت النفوس من رقادها ، وهذبت الأخلاق ، وأخرجت الأمة العربية من البداوة إلى الحضارة . ظهر النبي محمد (ص) وهدفه الرسالي نشر العلم والفضائل وتهذيب النفوس ، وتغذية الأرواح ، فكان خير مرشد وأعظم معلم ، فتجاوب العالم له من كل حدب وصوب ، وتلقن تعاليمه القيمة العلماء الأعلام الذين كانوا مفاتيح علوم الأمة الاسلامية جمعاء . « ومن البديهي أن لا كرامة إلا بالدين والعلم نظامه ، ولا سعادة إلا والعلم قوامها ، ولا سيادة إلا والعلم ذروتها ، ولا حضارة إلا والعلم سنامها » .

وقد رفع الله سبحانه وتعالى ، أقواماً من بني الانسان ، فجعلهم بفضل علومهم قادة سادة فأخرجوا الأمة بفضل تعاليم الاسلام القيمة من دياجير الجهل لتكون في مقدمة الأمم الراقية ، حتى أصبحت بلاد الاسلام ، مهوى أفئدة طلاب العلم ، حتى أنه لم يبق علم من العلوم ، أو فن من الفنون إلا كان المسلمون السباقون فيه . من هذه العلوم : علم الفقه والأصول ، وعلم الصرف والنحو ، وعلم الكلام ، وعلم التفسير ، وعلم الهندسة وعلم الحساب وعلم الكيمياء والفيزياء ، وعلم الطب ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الفلسفة إلى غير ذلك من العلوم والفنون الفكرية التي تعد قوام المجتمع البشري وأساس الحضارة الانسانية .

ولا ننكر أن هناك رجالاً من غير المسلمين تميزوا بالعلوم والحكمة وكانوا قادة في عصورهم ، سنجل لهم التاريخ على صفحاته الاعجاب والتقدير على مر العصور ، وقد تأثرت بهم الحضارة الاسلامية وأخذ عنهم العلماء المسلمون . لأن الحضارات تتلقح أفكارها كما تتلقح الزهور فتثمر وتعطي عطاءً خيراً مباركاً . من هؤلاء نذكر أفلاطون وسقراط وبزرجمهر وأرسطو وبقراط وغيرهم من الفلاسفة والحكماء .

ولذلك ظلوا مع الخالدين بآثارهم الخيرة وأفكارهم النيرة وعلومهم المفيدة فكانوا المحرضين على العلم للأجيال اللاحقة كما وصفهم الامام علي بن أبي طالب .

حرض بنيك على الآداب في الصغر	كيما تقر بهم عيناك في الكبر
وإنما مثل الآداب تجمعها	في عنفوان الصبا كالنقش في الحجر
هي الكنوز التي تنمو ذخائرها	ولا يخاف عليها حادث الغير
الناس اثنان ذو علم ومستمع	واع وسائرهم كاللغو والعكر

وكلما تقدم الانسان في ميدان الحضارة ، احتاج إلى مزيد من التفكير واقتباس العلوم ، والطموح يدفع كل فرد منا أن ينافس أهل الأرض جميعاً ويكون في الرعيل الأول .

إن الدين الاسلامي حرض على العلم واستثماره ، ولكل زمان دولة ورجال ، وتعاليم الاسلام كانت ولا تزال باقية ما بقي الدهر ؛ وكم نحن بحاجة اليوم إلى تنشئة طلابنا العلوم الصحيحة والتوجيه السليم ، وتغذية أرواحهم بالعزة الاسلامية والكرامة العربية لاستعادة المجد العريق وحفظ قواعد الدين الحنيف . لذلك ينبغي أن يكون في كل مدرسة وفي كل جامعة عالم ديني يغرس في نفوس الطلبة العقيدة الاسلامية السليمة ويجلو عن أبصارهم وأفئدتهم جهل الجاهلين وكيد الدساسين ويخرجوا عن العصبية العمياء التي زرعها أهل الأغراض والأهواء كما يحصل ويا للأسف من بعض الأساتذة الجامعيين الجاهلين الحقائق العلمية أو المتجاهلين .

6 ـ الناحية الأدبية

فطر العرب على حب البلاغة وإنشاد الشعر وقول الخطابة ، فكانوا أفصح الناس لساناً وأبينهم بياناً ، وقد خصوا بالحكمة وأتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان ، ومن فصل الخطاب ما يفيد الألباب وحسبك أنهم كانوا يقيمون في كل سنة مواسم يتبارى فيها الخطباء وينشدون فيها أشعارهم كسوق عكاظ حيث كان الشعراء الفحول يحكمون بينهم .

هذه الفنون من القول اشتهرت بين العرب وكانت أسمى ميزاتهم . وذلك أن حياتهم القبلية كانت مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستعرة ، فلا بد لهم والحالة هذه من شاعر بليغ يرفع منزلة قبيلته ويعلي من شأنها ، ويهجو القبيلة المخاصمة لها . من هنا كان اهتمامهم بالشعر فرفعوا منزلة الشاعر المبدع والخطيب المفلق ونوهوا بهما .

وسبب آخر لا يقل أهمية وهو أن حياة البادية الحالمة تدعو إلى التأمل ، ومناخها اللاهب يثير العواطف ، والحاجة إلى القول في الغزوات والسهرات تنمي الخيال وهذه الأمور كلها توحي بالقول وتلهم الشاعرية .

وجاء القرآن الكريم ، القرآن المعجزة ، أفصح كلاماً وأبلغ أسلوباً وأبين معنى وأشد تأثيراً على قلوبهم جميعاً . كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، أحكمت آياته ، وفصلت كلماته فبهرت بلاغته العقول وعلا سحره على كل مقول ؛ حتى وجد السبيل إلى امتلاك الجزيرة العربية التي كانت مسرحاً للغزوات والعصبيات القبلية . وطبيعي أنه لا يستطيع أن يستولي عليها إلا إذا كان أقوى منها ، بحيث يشعر أهلها بالضعف والعجز لأن : « من طباع النفس التي جبلت عليها أنها متى خذلت وكان خذلانها من قبل ما تعده أكبر فخرها وأجمل صنعها وأعظم همها ، وأصابها الوهن في ذلك وضربها الخذلان باليأس ، فقلما تنفعها نافعة بعد ذلك أو تجزئها قوة أخرى . . . فمن ثم لم تقم للعرب قائمة بعد أن أعجزهم القرآن من جهة الفصاحة التي كانت أكبر همهم ، ومن جهة الكلام الذي هو سيد عملهم »[44] سمعه فصحاؤهم فحفظوه وأدركوا أهدافه ومراميه ، فخروا ساجدين مذعنين لبلاغته ، بهر الشعراء منهم فخرست ألسنتهم ، وسكنت مشاعرهم ، وضاع إلهامهم فعملوا جهدهم للاستفادة من أسلوبه ، حتى شاعت ألفاظه وطرق تعبيره في قبائلهم ومنتدياتهم ، فظهر أثره في خطبهم ورسائلهم ، وانصرفوا عن الافتخار بالأنساب والتنابذ بالألقاب والغزل في النساء ، ووصف الجمل والجواد والصحراء ، وما إلى ذلك من ميادين كلامهم إلى التحريض على الحرب المشروعة للجهاد في سبيل الله ، ونشر الدعوة الاسلامية ، وهداية الناس إلى الاسلام ، إلى السلم والسلام .

أسلوبه : أسلوب القرآن نمط فريد في البلاغة رائع في البيان ، جميل في الديباجة ، مخالف لأساليب العرب ومناهج نظمها . يقول الباقلاني :

« إن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلام العرب ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد »[45] .

---

(44) إعجاز القرآن للرافعي ص 218 .

(45) إعجاز القرآن للباقلاني ص 38 .

وقال الدكتور طه حسين : « إن القرآن ليس نثراً كما أنه ليس بشعر إنما هـو قرآن ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الإسـم . ليس شعراً لأنه لم يقيد بقيود الشعر ، وليس نثراً لأنـه مقيد بقيود خاصة به لا توجد في غيره وهي هذه القيود التي يتصل بعضها بـأواخر الآيـات وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة »[46] .

الايقـاع الموسيقي : من ميـزات الأسلوب القرآني ، الايقـاع الموسيقي النـاشيء من تخير الألفاظ العـذبة ونـظمها في نسق خـاص بلغ من الفصاحـة أرقى درجاتهـا . « وهذا الايقـاع الموسيقي هـو إشعاع للنـظم الخاص في كـل موضـع ، وتابـع لقصر الفـواصـل وطولها . كما هو تابع لانسجام الحروف في الكلمة المفردة ولانسجـام الألفاظ في الفـاصلة الواحدة »[47] .

من هنا كان اتهـام العرب للنبي (ص) من المشركـين أنه شـاعر ، عنـده رئي كبقية الشعـراء المبدعـين يلهمونـه القول . جـاء في الرد عـلى هؤلاء من الله عز وجـل : ﴿ **وما علمنـاه الشعر ومـا ينبغي له إن هـو إلا ذكر وقـرآن مبين** ﴾ [يس : 69] . وجـاء أيضاً ﴿ **بـل افتراه بـل هو شـاعر** ﴾ [الأنبيـاء : 5] . وصدق القـرآن الكريم وتـوهم وكذب المشركون ، لقد سحر وجدانهم بمـا فيه من منـطق ساحـر « إن من البيان لسحـراً » وراع خيـالهم بما فيـه من تصويـر فني بارع ، وأخـذ أسماعهم بمـا فيه من إيقـاع جميل . وهـذه الخصـائص هي عند العـرب من خصـائص الشعـر الأسـاسيـة إذا هم أغفلوا التفـاعيـل والقافية . والحقيقة : « إن النسق القرآني قد جمع بين مزايا الشعر والنـثر جميعـاً آخـذاً ما يخدم أسلوبه من جمال الفنين المعروفين » .

« فقد أعفى التعبير من قيود القافيـة الموحـدة ، والتفعيلات التـامـة، فنـال بذلـك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة . وأخذ في الوقت ذاته من الشعـر الموسيقى الداخلية ، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيـل ، والتقفية المتقـاربة التي تغني عن القوافي »[48] .

وإننـا نجد أن الشـاعر المبـدع والخطيب المفلق يختلف القـول معه ويتفـاوت حسب الأحـوال التي يتصرف فيها فيـأتي بالغـايـة من الـبراعـة في معنى ، ويقصر عنـه في ضرب آخر .

---

(46) من حديث الشعر والنثر ص 25 .

(47) التصوير الفني في القرآن للسيد قطب ص 82 .

(48) التصوير الفني في القرآن للسيد قطب ص 83 .

لذلك ضرب المثل بامرىء القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ومثل ذلك في الخطب وسائر أجناس الكلام .

أما القرآن ، متى تأملت فيه ملياً وجدت أن جميع ما يتصرف فيه من الوجوه لا تفاوت فيها على هذا الطول وعلى هذا القدر ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا من البلاغة[49] وقد نتج عن تأثر العرب بالأسلوب القرآني أدب إسلامي وحضارة إسلامية تميزا تميزاً كاملاً عن تلك الألوان الأدبية المتعددة النماذج التي عرفها العرب قبل الإسلام . كالشعر بضروبه المختلفة ، والخطابة بألوانها ، والوصايا وأحكامها ، والمنافرة وما كان لها من مؤتمرات يؤمها المتحمسون لهذه القبيلة أو تلك ثم يجري التحكيم بين الخطيبين المتنافرين . ولما جاء الاسلام وسمع العرب أسلوب القرآن ، أقبل الناس على التعلم استجابة له لأنه يحض على العلم والتفكر في شؤون الدين والدنيا . فظهر لون جديد من ألوان الأدب هو فن الكتابة . فن جديد يلبس حلة قشيبة لم يلبس مثلها العرب من قبل . ولا يخفى ، والحالة هذه ، أن فن الكتابة يصبح ابناً شرعياً للحضارة الاسلامية ، لم يكن للعرب به سابق خبرة أو معرفة ليكابدوه . فهذا الضرب الجديد من الكتابة كان استجابة مباشرة لرسالة الاسلام .

وليست الخطابة بألوانها المختلفة نتاج حضاري إسلامي بمفردها ، بل هناك ألوان من الشعر بزغ نورها ، والتمعت في ظل الحضارة الجديدة ، مستجيبة لمتطلباتها الثقافية والاجتماعية والسياسية والدينية .

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن العرب في ظل رسالتهم الاسلامية الجديدة قد عرفوا فن الكتابة المبكرة . فهناك رسائل فنية الانشاء ، بليغة الصناعة كانت وما زالت منهلاً عذباً ومنهجاً مباركاً لكل من أراد تعلم الكتابة الفنية البليغة ، وذلك قبل ظهور رواد الكتابة الكبار أمثال عبد الحميد الكاتب وعبد الله بن المقفع .

من منا لم يسمع بسيد البلغاء وأول المسلمين الفقهاء وعميد الأدباء تلميذ الرسول الأعظم وابن عمه وصهره علي بن أبي طالب صاحب كتاب نهج البلاغة . عنوان كبير وبحر غزير لمن فضله المؤمنون ليكون عليهم أول أمير . أدّبه الرسول فأحسن تأديبه ، وعلمه فأحسن تعليمه ، حتى قال علي (ع) : « علمني رسول الله ألف باب ينفتح لي من كل باب ألف باب » فماذا تراني أختار من درره الحكيمة وحكمه البليغة وكلها فوج عابق وودق دافق ينهل منه البلغاء ويستشهد به الأدباء ويرجع إليه الفقهاء .

(49) راجع إعجاز القرآن للباقلاني ص 39 ـ 40 .

وهذا مما قاله (ع) لكميل النخعي في العلم: « يا كميل إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، مع كل ريح يميلون، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، يا كميل: العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الانفاق، ومنفعة المال تزول بزواله، يا كميل: محبة العلم دين يدان به، يكسب الانسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته. والعلم حاكم والمال محكوم عليه. يا كميل: مات خزان العلم وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة ».

ثم أشار إلى صدره وقال عن الماديين الذين يجمعون المال ويسيئون استعماله. قال: « ها إن ها هنا لعلماً جماً، ولو وجدت له حملة؛ بلى أجد لقناً غير مأمون يستعمل آلة الدين للدنيا، ويستظهر بنعم الله على عباده وبحججه على أوليائه أو منقاداً لحملة الحق ولا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ أو منهوماً باللذة سلس القياد للشهوة، أو مغرماً بالجمع والادخار ليسا من رعاة الدين في شيء أقرب شبهاً بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه، اللهم بلى، لا تخلوا الأرض من قائم بحجة الله، إما ظاهراً مشهوراً وإما خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناته حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الايمان حتى باشروا روح اليقين، فاستلانوا ما استخشن المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالرفيق الأعلى. يا كميل أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آه آه شوقاً إليهم، انصرف يا كميل إذا شئت »[50].

فسلام الله عليك يا أبا الحسن، فما أجمل هذا الكلام المحكم وما أحكم هذا الكلام البليغ كنت أمير المؤمنين وأمير أهل العلم والفقه والأدب. أوجزت فأحكمت، وأحكمت فأصبت، وأصبت فعدلت، وعدلت فعلوت، وعلوت فكنت باب مدينة علم رسول الله (ص).

فما كل علم وفقه وأدب جنب علمك وفقهك وأدبك إلا كما قيل: « جداول تجري غادرت عندك النبعا ».

---

(50) راجع كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، وهي مذكورة أيضاً في كتاب نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

وهنـاك أيضاً رسـائل بليغـة ومقـالات وخـطابـات تعتـبر نمـاذج أدبيـة تتسم بـاللون الحضري وتتبـع الأسلوب السهـل الممتنـع ، سـديـدة البنـاء عميقــة المعنى ، مـوفقــة الأسلوب ، طريفة السبك ، مكتملة أسباب النضوج والحياة ونضرب مثالاً برسالة كتبهـا الحسن البصري إلى الخليفة العادل عمر بن عبد العـزيز يصف فيهـا الامام العـادل وذلك بقوله :

« اعلم يا أمير المؤمنـين ، أن الله جعل الامـام العادل قـوام كل مـائل ، وقصـد كل جـائر ، وصـلاح كل فـاسد ، وقـوة كل ضعيـف ، ونصفـة كـل مـظلوم ، ومفـزع كـل ملهوف . والامام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق عـلى إبله ، الرفيق بهـا ، الذي يرتاد لها أطيب المراعي ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السبـاع ، ويكنفها من أذى الحر والقر .

والامـام العادل يـا أمير المؤمنـين كـالأب الحـاني عـلى ولـده ، يسعى لهم صغـاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد ممـاته . والامـام العادل يـا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة بولدها ، حملته كـرهاً ووضعتـه كرهـاً ، وربته طفـلاً ، تسهر بسهـره ، وتسكن بسكونـه ، تـرضعـه تـارة وتفـطمـه أخـرى ، وتفـرح بعـاقبتـه وتغتمّ بشكايته »[60] وعلى هذا النسق عرفت الكتابة على يد العرب تحت راية التربية الاسلاميـة الثقـافية . وهي تـدل دلالة واضحـة أن العرب قـد تحولـوا تحولاً حضـارياً راقيـاً مرمـوقـاً بسبب إسلامهم ، فظهرت عندهم ظاهرة الكتابة التي هي في جوهرها الثمرة الأولى لما يمكن أن تؤديه العقيدة الجديدة لهم من تقدم عقلي ، وتطور ثقافي ، وتميز حضاري . فتأمل مواطناً كـالحسن البصري يكتب لأمير المؤمنين ناصحـاً في غـير خـوف ، معلماً في غـير خشيـة ، وموجهاً من غير حرج ، رأى ذلك واجباً عليـه فخط بفكره إلى أكـبر مسؤول في الدولـة ، إلى الخليفة نفسه . وهذا دليل واضح على الحـرية ، حـرية الفكـر والقول ، التي منحهـا الإسلام لجميع متبعيه . والحرية عنصر هام من عناصر الحضارة .

وليس فـن الكتابة حكراً على الرجال فقط ، فالنساء أيضاً شـاركن في الخطابـة نذكـر منهن الزرقاء بنت عدي حين وفدت على معاوية بعد موقعة صفين . قال لها معاوية بعدما وصلت إلى مجلسه : أتدرين فيم بعثت إليـك ؟ قالت : أنّى لي بعلم مـا لم أعلم ؛ قال : ألست الـراكبة الجمـل الأحمر ، والـواقفة يـوم صفـين تحضـين عـلى القتـال ، وتـوقـدين

---

(60) معالم الحضارة الاسلامية مصطفى الشكعة ص 224 وقد كتب رسالته تلك في حدود (100) هـ

الحرب ، فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير مات الرأس وبتر الذنب ، ولم يعد ما ذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر والأمر يحدث بعد الأمر ؛ قال معاوية : أتحفظين كلامك يوم صفين ؟

قالت : لا والله لا أحفظه ، قال : لكني أحفظه ، لله أبوك حين تقولين : أيها الناس ، ارعووا وارجعوا ، إنكم قد أصبحتم في فتنة عمياء ، صماء ، بكماء ، لا تسمع لناعقها ، ولا تنساق لقائدها . إن المصباح لا يضيء في الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه .

أيها الناس إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار على الغصص ، فكأن قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة العدل ، ودفع الحق باطله ، فلا يجهلن أحد ، فيقول : كيف العدل وأنّى ، ليقض الله أمراً كان مفعولاً . ألا وإن خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء ، ولهذا اليوم ما بعده . (والصبر خير في الأمور عواقبه) .

تبدو لنا الزرقاء واقفة أمام معاوية تجيب على أسئلته ، غير آبهة بشيء ، لا ترجو إلا رضى الله وحسن المآب . . . متمسكة بحبل الوفاء المتين ، حتى أدهشت عقول الحاضرين ببلاغتها وجرأتها ووفائها .

ويا ليت شعري لو تمثلت نساؤنا اليوم بالزرقاء وغيرها من النساء المسلمات المجاهدات وسرن على منهجها في الصدق والاخلاص والعقيدة والتضحية في سبيل نصرة الحق . فكما أوجب الله على الرجل الجهاد في سبيل الله ، كذلك أوجب على المرأة لتكون المساعد الأكبر للرجل في جميع ميادين الحياة .

مما يبدو أن هذه الكتابة الناضجة المكتملة البليغة بقوتها وموضوعاتها كانت استجابة مباشرة لرسالة الاسلام ونتيجة دالة على الحضارة الاسلامية المتقدمة[61] .

7 ـ الناحية السياسية

بدأ الاسلام منذ أول عهده في تنظيمه لحياة العرب تنظيماً كاملاً شاملاً في جميع نواحيها . وهذه النظم الجديدة كانت نتيجة للوحي القرآني ولوقائع السيرة النبوية ؛ كانت وما زالت مصدراً كريماً لأصول الحياة الانسانية المتحضرة .

---

(61) راجع البيان والتبيين ج 2 ص 331 وج 3 ص 386 .

إن كل ما نلمسه في حياتنا العامة والخاصة من مواضيع نتوهم أنها جديدة على الحياة الانسانية المعاصرة ، له أصل بشكل أو بآخر في القرآن الكريم ، الدستور الانساني الكامل ، والسنة الشريفة المفصلة لأحكامه .

فعصر النبي (ص) كان منطلقاً خيراً لكل ما عرف في الاسلام من نظم وقوانين . قال عز وجل : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما أنزل إليهم** ﴾ [النحل : 44] .

لقد وضعت في المدينة أسس المجتمع الجديد من توحيد الله إلى المجاهرة بالحق ، إلى العمل الصالح ، إلى المكارم الأخلاقية إلى التضامن والبناء في كل شؤون الحياة . ولقد أصبحت المدينة بفضل الرسول ومن ناصره موطن الاسلام ، والمستقر الصالح للدعوة الاسلامية ، ومركز التحول والتغيير في تنظيم المجتمع السياسي ، فلا عصبية جاهلة ولا قبيلة متعصبة وإنما مساواة إنسانية وعدالة اجتماعية . كانت الهجرة تجسيداً لهذه التنظيمات بمعناها الشامل الواسع الذي زادته ممارسة الوقائع تفصيلاً وتوضيحاً . ولقد تمكن المسلمون الأولون من تحويل المرحلة النظرية إلى مرحلة عملية تطبيقية . وفي سبيل ذلك ، ساس النبي (ص) أمته سياسة حكيمة رشيدة ، فاحتمل أذاهم وصبر على جفوتهم ، وصفح عن هفواتهم . ثم وصل من قطعه وأعطى من منعه ، يزور الضعفاء ويعود المرضى حتى انقاد الجميع إليه واجتمعوا عليه ، فتركوا في سبيل دعوته الحقة أوطانهم وأموالهم ، وآثروه على أولادهم وأنفسهم حتى كان الواحد منهم لا يرى بأساً أن يقاتل أباه أو أخاه دونه . ولا يخفى ما كانت عليه الجزيرة العربية من فوضى وعدم استقرار وحروب تسود معظم النواحي حتى ملت القبائل تلك الحياة المشحونة بالمنازعات والغزوات .

حتى جاء الاسلام بدعوته الانسانية الكريمة وطلب من الناس جميعاً الدخول بالرضى والطواعية بعد أن وضع منذ هجرته إلى يثرب النواة الأولى للحكومة الاسلامية وحصنها بالمبادىء العادلة السامية التي كفلت لها الاستمرار والبقاء وأعلن نشيد دولة الله على الأرض : الله أكبر ، الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . وبدأ عليه الصلاة والسلام يقوم بمهمات الرئاسة فيؤم المسلمين في الصلاة ، ويقودهم في الحرب ، ويصلح بين المتنازعين منهم ، ويقسم الغنائم والفيء والأنفال . واتخذ كتّاباً يملي عليهم ما ينزل من الوحي . ثم أخذت رقعة الاسلام بالتوسع في أطراف الجزيرة النائية ، فأمر الرسول (ص) صحبه العلماء بتعليم الناس مبادىء الدين الحنيف . كما عهد إلى البعض الآخر ممن يرى فيهم الكفاءة في الحسابات المالية بجمع المترتبات المالية من البلاد التي دخل أهلها في الاسلام .

وكلنا يعلم ما كان للعصبية القبلية من تأصل في نفوس العرب آنذاك ، لذلك عمل (ص) في زرع الاخاء الاسلامي ليشد به أزر المسلمين ، ويلفهم بثوب يجمع كلمتهم ، ويعلي شأنهم ، أمة واحدة لا تمييز ولا تفريق بين جميع أفرادها . وقد أعطاهم المثل الناطق فجعل من سلمان الفارسي أخاً حميماً ، ومن بلال الحبشي مؤذناً صالحاً ، ووصى وهو على فراش الموت بالتآخي بين المسلمين والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

هذه المؤاخاة كان لها أطيب الثمرات بين المسلمين وبصورة خاصة بين المهاجرين والأنصار ، إخاء كان له أطيب الثمرات ، حتى أنهم كانوا يتوارثون به إرثاً مقدماً على إرث القرابة . ثم أكمل سياسته الحكيمة التي تجلت في العهد الذي عقده بين المسلمين واليهود ، والذي وادعهم فيه ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وأن بينهم وبين المسلمين النُصر على من دهم (يثرب) « وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فمرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله (ص) »[62] .

أفكاره الصائبة وسياسته الحكيمة عقد صلح الحديبية ، لقد قبل من شروط قريش ما ظنه الصحابة المخلصون إجحافاً بالمسلمين ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى كان الفتح المبين .

وأما عن حلمه الذي ما بعده حلم فتأمل صفحه عن قريش بعدما تمكن منهم وكانوا قد آذوه مراراً وكادوا له المكايد ، مما جعل الناس تتوقع أن ينزل بهم العقاب جزاء ما فعلوه معه ومع أصحابه ، ولكنه رسول كريم وابن أخٍ كريم ، عفا عنهم وصفح لهم زلاتهم وقال لهم : « لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

فماذا ترانا نقول بعد هذا ، إنه العفو عنّد المقدرة ، ولو شاء الرسول الأعظم أن ينتقم لنفسه ولأصحابه لفعل ، ولكن غايته الاسلام (وروحه روح إسلامية) وأدبه ربه فأحسن تأديبه وقال عنه سبحانه وتعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ [القلم : 4] .

كان صلوات الله عليه إذا عاهد عهداً التزم به ووفى عهده ، متمثلاً بقوله تعالى : ﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا** ﴾ [الاسراء : 34] . وإذا حاكم حكم بالعدل حتى مع أعدائه ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ـ اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾ [المائدة : 8) .

---

(62) راجع سيرة ابن هشام ج 2 ص 16 ـ 17 وهو أول معاهدة بين المسلمين واليهود .

هذه السياسة الرشيدة ، والتشريع الإلهي الحكيم ، والأخلاق السامية النبيلة ، والمعاملة الصادقة الحسنة عرفت بمحمد (ص) من لم يكن قد عرفه من قبل ، واستجاب له كل من عانده ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

من هذا المنطلق تميز المجتمع العربي الإسلامي بسمات فريدة نبيلة ، وصفات حميدة كريمة ، ومظاهر أخلاقية إنسانية أوجدها الإسلام هداية ورحمة للعالمين منها :

1 ـ الإيمان برب واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد .

2 ـ الاستقرار الاجتماعي والقضاء على المنازعات والمشاحنات التي كانت بين العرب ، فلا عصبيات ولا حروب داخلية وقبلية ، ولا غارات تنغص عليهم عيشهم وتحرمهم لذة الحياة الهادئة المستقرة .

3 ـ زرع في نفوسهم بذور الأخلاق الكريمة ، وقضى على العادات السيئة عندهم التي كانت متأصلة في نفوسهم كالأخذ بالثأر وشرب الخمر ولعب الميسر ووأد البنات .

4 ـ أصّل في نفوسهم الوحدة الدينية بدل الوحدة القبلية ، والأخوة الإسلامية بدل العصبية الجاهلية ، بعد أن بعث فيهم روح المحبة ، وألف بين قلوبهم .

5 ـ نادى بالاخاء والمساواة والعدالة الاجتماعية ، وجعل ميزان التفاضل بينهم العمل الصالح وتقوى الله . وبذلك قضى على الحمية الجاهلية فيهم . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ ردد على أسماعهم هذه الآية المباركة وقال (ص) أيضاً قوله المشهور : « الناس في الإسلام سواسية كأسنان المشط ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى » .

6 ـ دفعهم إلى الجهاد في سبيل الله ، والقتال في سبيل الدعوة الإسلامية وضد عدو الإسلام وليس التقاتل فيما بينهم . وبذلك تمت الفتوحات الإسلامية المباركة . قال تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلموهم الله يعلمهم** ﴾ [الأنفال : 60] .

7 ـ أوجد لهم تشريعاً كافياً وافياً متميزاً عن كل التشريعات السابقة يشمل كل مطالب الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية والأدبية والتربوية والصحية ، ويحقق لهم حياة إنسانية حرة كريمة .

8 ـ جعل العرب يشعرون بالاستقرار وينعمون بالهدوء والطمأنينة ، ولأول مرة في تاريخهم أحسوا أنهم ينضوون تحت لواء حكومة واحدة ، لها دستور واحد يحتكمون إليه

جميعاً ، ولها رئيس مطاع من الجميع يحبهم ويحبونه . يعطف عليهم كأب عطوف وأم حنون . وهذا هو سبب رئيسي في احترامهم له وتعلقهم به .

هذه جملة من النظم التي أرسى قواعدها الاسلام دون أن يغفل عنصراً من عناصر الحضارة ، ودون أن يهمل عنصراً من مقومات الحياة الأساسية ، إنه دين الانسان في كل زمان ومكان يهدف إلى سعادة البشر جميعاً . قال الرسول الأعظم : « الخلق كلهم عيال الله وأقربهم إليه أنفعهم لعياله » والحقيقة تقال أن من ينظر إلى أحوال العرب قبل الاسلام وبعده ويوازن بين الحالين يدرك بسهولة ويسر أن الدين الذي جاءهم به محمد (ص) من عند ربه هو الشيء الوحيد الذي قوم أخلاقهم ، وهذب نفوسهم وأصلح مجتمعهم ، وعلمهم قيم الحياة الصحيحة ، ووحد كلمتهم ، وأعز جانبهم ، فأصبحوا بفضل هذا الدين أمة عالمة بعد جهالة ، ورشيدة بعد غواية أمة الله التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

وقد اعترف بذلك كثير من العلماء المستشرقين المنصفين . يقول « جوستاف لوبون » : « والاسلام من أكثر الديانات ملاءمة لمناحي العلم واكتشافاته ، ومن أعظمها تهذيب النفوس والدعوة إلى العدل والاحسان والتسامح [63] .

ويقول أيضاً المؤرخ هـ. ج. ويلز : « إن الاسلام ساد لأنه خير نظام اجتماعي وسياسي كان الاسلام أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية اتخذت سمة النشاط العقلي في العالم حتى اليوم »[64] .

ويقول ديورانت : « لقد ظل الاسلام خمسة قرون على الأقل من عام 700 م - 1200 م يتزعم العالم كله ، في القوة والنظام ، وبسطة الملك ، وجميل الطباع والأخلاق ، وفي ارتفاع مستوى الحياة ، وفي التشريع الانساني الرحيم ، والتسامح الديني ، والآداب ، والبحث العلمي ، والعلوم والطب والفلسفة »[65] .

ويزيد (لوبون) فيقول : « إن العرب أنشأوا بسرعة حضارة جديدة ، كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها »[66] .

---

(63) حضارة العرب ص 143 .

(64) حضارة العرب ص 143 .

(65) راجع اشتراكية الاسلام للدكتور مصطفى السباعي ص 173 وما بعدها .

(66) حضارة العرب ص 153 .

وما درى لوبون وغيره من العلماء أن العرب كسبوا هـذه الحضارة الجـديدة والعـريقة بسرعة بفضل إسلامهم ، الدين الانساني العادل . وما درى أن هذا الـدين هو من عنـد الله والـرسول الأعـظم منفذ شريعـة الله على عبـاد الله ، وأن أسس الحضارة الاسـلامية وأصولها مستمدة من كتاب الله وسنة رسول الله .

ونختصر القول : إن هذه القواعد الأصيلة والأسس العـظيمة ، المستمـدة من وحي السماء قد أوجدت المجتمع المثالي الفاضل الذي لم تر له الانسانية عدلاً ولا نصيراً .

الفصل الخامس

أركان الاسلام وفروعه

شجرة الاسلام لها أصول وفروع وثمار .

زرع هذه الشجرة الله في أرض الاسلام وأرسل لها رسولاً يتعهدها ويعمل من أجل نموها واستمرارها طوال حياته . هو الرسول الأمين محمد بن عبد الله (ص) .

أصول الاسلام خمسة : التوحيد والعدل والنبوة والامامة والمعاد .

وفروع الاسلام خمسة : الصلاة والصوم والحج والزكاة والجهاد في سبيل الله .

وسوف نتحدث عن كل أصل وكل فرع بالتفصيل .

1 ـ التوحيد

هو الركن الأول الذي يستجمع أصول العقيدة الاسلامية وهي : وحدانية الله وصدق رسالة رسول الله محمد بن عبد الله (ص) .

جاء الاسلام بأمر من الله وأبطل ما كان عليه العرب من عبادة الأصنام ، وأمر بالتوحيد المطلق في الذات والصفات ، والتوجه بالعبادة إلى الله وحده . ومن أجل ذلك نشب الصراع بين أهل مكة الذين يؤمنون بأصنام وأوثان ، يتوهمون أنها تعطي وتمنع وتضر وتنفع ، وتفرق وتجمع ، وبين محمد النبي الأمي الذي يدعو إلى عبادة إله واحد قال تعالى : ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ [البقرة : 163] .

وقال سبحانه أيضاً : ﴿ **قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحداً** ﴾ [سورة الإخلاص] .

وشهادة المؤمن (لا إله إلا الله) هي اعترافه بلسانه عن اعتقاده بقلبه عن علم

ويقين ، أن لا معبود إلا الله ، وهذه هي الشهادة والإقرار بوجود الله وبوحدانيته .

وكلمة الله : هو العلم الذي يطلق على الخالق ، وكلمة تدل على المعبود أياً كان . فتصبح لا إله : نفياً لكل معبود في الوجود وإبطالاً لعبادته ، وإلا الله : إثباتاً لعبادة المعبود بحق وهو الله سبحانه وتعالى ، رب العالمين الخالق والرازق ، والمحيي والمميت ولا ريب أن للعقائد سلطاناً على الأعمال البدنية ، وما يكون في الأعمال من صلاح أو فساد فإنما مرجعه في صلاح العقيدة أو فسادها . فالتوحيد في الإسلام ، الخالص من كل شائبة ، والصادر من القلب تتبعه جميع الفضائل الإنسانية النبيلة .

والمؤمن يتحصن حصانة قوية بكلمة التوحيد ، فهو لا يخضع إلا الله ، ولا يقبل سلطان أحد عليه ، هو حر في تفكيره ، مستقل في تصرفاته ، وكل ما يحصل في العالم من الخضوع والذل للملوك والسلاطين والزعماء الميسورين هو جهل مكشوف بالمؤثر الأعلى عز وجل الذي كرم بني آدم ، خليفته على الأرض ، ولا يرضى الخضوع إلا له فقط قال تعالى : ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين** ﴾ [الأنفال : 194] .

والمؤمن يتحلى بالعفة والأنفة الناتجة من اعتقاده أن لا رازق إلا الله ، ومن عنده كل الخير وهو العزيز الحكيم . قال تعالى : ﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم** ﴾ [العنكبوت : 62] .

والمؤمن يتصف بالشجاعة فلا يهاب الموت ، لأن الذي يملكه هو الله وحده ، وبذلك ترتفع نفسه إلى العزة والاستشهاد في سبيل الحق ، ليكسب رضوان الله وسعادة الآخرة . قال تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين** ﴾ [العنكبوت : 58] . ولماذا الخوف ما دام يؤمن أن الله وحده يجزي الشاكرين وإليه المصير . قال تعالى : ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين** ﴾ [آل عمران : 145] .

وفضلاً من أن التوحيد يحقق السعادة للمؤمنين الأفراد ، فإن له الأثر الاجتماعي الكبير ، إذ نراه يوحد البشر تحت لواء واحد بدل أن يفرقهم أحزاباً متعصبين . قال تعالى : ﴿ **أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾ [يوسف : 29] .

فتفرق الآلهة يفرق بين الناس ، ويبعدهم عن توحيد قلوبهم نحو إله واحد جبار ، يخضع الجميع لحكمه . ولو تعددت الآلهة لفسدت السماوات والأرض . قال تعالى :

﴿ لــو كـان فيهمـا آلهـة إلا الله لفســدتـا فسبحــان الله رب العـرش عـما يصفــون ﴾ [الأنبياء : 22] .

فالإسلام يقرر توحيد الله توحيداً مطلقاً في ذاته وصفـاته والتـوجه إليـه توجهـاً كليـاً يحرره من عبادة الأفـراد والخضوع لهم ، ويخلق في نفسـه قوة عـظيمة في مجـابهة أحـداث الحياة في هذه الدنيا الزائلة ، ليكون فرداً صالحاً في مجتمع إنساني صالح .

والمؤمن لا يجوز له شرعـاً الخضوع والـذل للمستكبرين الـظالمين ، لأن كـرامته التي منحهـا إياه الله جـل وعلا ليست ملكـه وحده حتى يضعهـا في غير مكـانها ويرضى بـظلم الـظالمين . قـال تعالى : **﴿ الـذين آمنوا ولم يلبسـوا إيمانهم بـظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾** [الأنعام : 82] .

2 ـ العدل

إذا أردنـا الوقـوف على تـاريخ مسـألة العـدل علمياً وعمليـاً نجد البـذور في القرآن الكريم فهو الذي بذر فكرة العدل في قلوب وأرواح البشر بمظاهرها المختلفة :

العدل التكويني ، العدل التشريعي ، العدل الأخلاقي ، العدل الاجتماعي .

يصرح القرآن أن التدبير الالهي ونظام الوجود والفاعلية الالهية قائمة هي على أساس العدل . قال تعالى : **﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بـالقسط ﴾** [آل عمران : 18] .

والعـدل هو المعيـار الأساسي لله سبحـانه وتعـالى في موضـوع الخلقة . قـال تعالى : **﴿ والسـماء رفعهـا ووضـع الميـزان ، وأقيمــوا الـوزن بــالقسط ولا تخسروا الميـزان ﴾** [الرحمن : 7 و9) .

ونجد في القرآن الاهتـمام بالعـدل التشريعي ، أي مراعـاة أصل العـدل في التشريع القانوني ولقد صرح الله في كتابه العزيز الهدف من إرسـال الرسـل والأنبياء ، وهـو إرساء النظام البشري على أساس العدل والقسط . قال تعالى : **﴿ ولقد أرسلنا رسلنا بالبينـات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾** [الرحمن : 7 و9) .

وقال سبحانه في هذا المعنى : **﴿ وقـل آمنت بما أنـزل الله من كتاب وأمـرت لأعدل بينكـم ﴾** [الشورى : 15] .

وما من شك أن تأسيس الأنظمة الاجتماعية على أساس العدل يتوقف على أن يكـون،

النظام التشريعي عادلاً . ومن ثم يعمل الحكام على تنفيذه في محاكمهم . وإن الأصل التشريعي الذي نسبه القرآن إلى جميع الأنبياء قبل النبي محمد (ص) ، ثم له بالذات (ص) هو العدل قال تعالى : ﴿ **قل أمر ربي بالقسط** ﴾[1] .

والقرآن يعتبر الامامة والقيادة عهداً إلهياً ينتج عنه النضال ضد الظلم والتلاؤم مع العدل . يصف القرآن إبراهيم الخليل (ع) مقدرته في الامامة والقيادة : ﴿ **وإذا ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمهنَّ قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين** ﴾ [البقرة : 124] .

فالله سبحانه وتعالى يشترط في صفات الخليفة أن يكون عادلاً ، ولذلك اختار أول ما اختار إبراهيم (ع) فسأل إبراهيم مستفهماً ! هل تشمل هذه الموهبة الالهية نسله من بعده ؟ فأجيب الجواب القاطع بأن الامامة عهد إلهي والظالمون لا نصيب لهم فيه .

وفي العهد الأخلاقي يطلق القرآن على الانسان الأخلاقي بأنه (صاحب عدل) ، ويقصد به من كان من حيث التربية الأخلاقية والروحية صالحاً للاعتماد عليه . قال تعالى : ﴿ **واشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة** ﴾ [الطلاق : 2] .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ [النساء : 58] .

وكثير من الآيات التي تقرب من ستة عشر آية تذكر العدل الاجتماعي ، ولكن إذا دققنا في القرآن وجدناه يدور حول محور واحد هو العدل الشامل : من التوحيد إلى المعاد ، ومن النبوة إلى الامامة ، ومن الآمال الفردية إلى الأهداف الاجتماعية .

والعدل في القرآن قرين التوحيد وقرين المعاد وغاية تشريع النبوة ، وفسلفة القيادة والامامة ، ومقياس كمال الفرد وسلامة الأمة .

« والعدل القرآني عندما يتعلق بالتوحيد أو المعاد فإنه يعطي معنى خاصاً لنظرة الانسان إلى الوجود والعالم ، وبعبارة أخرى نقول : إنه نوع من « النظرة الكونية » .

ونختصر القول : إنه في المسائل التي يتعلق فيها العدل بالنبوة أو التشريع فإنه يعتبر مقياساً لمعرفة القانون . أما في المسائل التي يتعلق فيها بالامامة والقيادة فإنه يعد نوعاً من

---

(1) الأعراف الآية 29 وأنظر البقرة الآية 282 .

الحكمة واللياقة في حسن سير الادارة . وفي المسائل الأخلاقية يعتبر أملاً إنسانياً ، وفي المجالات الاجتماعية يعد مسؤولية .

وبعد ! فهل يمكن أن تكون مسألة قد أوليت كل هذا الاهتمام في القرآن حيث عدها نظرة كونية ومقياساً للمعرفة القانونية ، ومعياراً للقيادة الحكيمة ، وأملاً إنسانياً ومسؤولية اجتماعية ، وتبقى مع ذلك دون أن يهتم بها المسلمون ، مع ما عرفنا عنهم من العناية الفائقة بالأمور الدينية ؟ !

إذا أردنا أن نعرف سبب هذه العناية الفائقة والحساسية الشديدة لاهتمام المسلمين بالعدل منذ بدء الدعوة الاسلامية ، علمنا أنه القرآن ، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أما عن سبب انقسام المسلمين حول هذه المسألة ، حيث اعتبر فئة منهم أن العدل أصل من أصول الدين واعتبرها الفئة الثانية صفة عادية من صفات الله تعالى ، فالعدل أن نقول إن الأسباب الجوهرية هي نفسية أو سياسية أو اجتماعية . وهنا انقسم المتكلمون المسلمون إلى فئتين ، فالمعتزلة يناصرون العدل والاختيار والأشاعرة وأهل الحديث يناصرون الجبر والاضطرار . وكل منهما فسر العدل على مزاجه وحسب ميوله[2] ! .

العدل البشري والعدل الآلهي

في حياتنا هذه إذا رأينا إنساناً يناصر المظلوم ويقف في وجه الظالمين ، أو أنه ينظر إلى الناس بعين واحدة لا يميز أحداً على آخر إلا بالحق ، أو إذا كان مسؤولاً في الدولة ويعطي كل ذي حق حقه نطلق على هذا الرجل اسم (العادل) .

وعلى العكس من هذا نسميه ظالماً ، هذا بالنسبة إلى الانسان ، أما بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى فكيف يكون ذلك ؟

لما كان العدل هو رعاية حق الغير ، والظلم تجاوز على حق الغير ، فلا نستطيع عملياً أن نجد مصداقاً للظلم بالنسبة إلى الله جل وعلا .

ومن الواضح أن كل ما يملك الانسان من مال ومتاع وغيره هو من عند الله ، خالق الخلق ، وملكية المخلوق تكون بلا ريب في طول ملكية الخالق . وبصورة أوضح يشبهون ملكية الخالق وملكية المخلوق من قبيل ملكية الأب وملكية ولده الصغير ، فهل

---

(2) راجع الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة للسيد هاشم معروف الحسني .

نستطيع ملكية الطفل أن تنفي ملكية أبيه ؟ أم هي ملكية في طول ملكية الوالد ولا يوجد تضارب بينهما ؟ وإذا تصرف الوالد في لعب ولده فهل يكون قد تصرف في ملكه وماله ؟ الله سبحانه وتعالى مالك الملك على الاطلاق ، وليس له شريك فيه ، وما من شك عند كل المسلمين المؤمنين أنه مالك الملك وله الحمد وإليه مرجع كل الأمور . قال تعالى : **﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾**[3] .

وعلى هذا الأساس يعتبر أي تصرف لله في العالم إنما هو تصرف المالك في ملكه ، لأن الشيء منه وله . وإذن فالظلم في حق الله غير وارد على الاطلاق .

أما إذا عددنا العدل والظلم مفهومين خاصين بالعمليات الاجتماعية البشرية ، فهل يوجد لهما مفهوم أرقى وأكمل من المفهوم السائد بحيث يدخلان ضمن دائرة الحكمة النظرية ؟ أو على الأقل يصبح العدل نظير الخالقية والرازقية . وانطلاقاً من هذه النقطة بالذات هل تكون مظاهر العالم من ناحية العدل والظلم قابلة للتفسير والتوجيه ؟ أم أننا ملزمون (تعبدياً) بقبول هذا الأصل ؟ وبعد هذا كله ، القرآن الكريم اعتمد بكل تأكيد على مفهومي العدل والظلم ، وأوردهما كثيراً في آيات متعددات ، فما هو المقصود منهما بالضبط ؟

من المسلم به أن معرفة الله أنه الآمر بالعدل ، أو القائم بالعدل أمر أساسي أقامت عليه الأديان السماوية جميعها رابطة البشر مع الله جل شأنه .

فإذا كان إله أرسطو وإله الفلاسفة يتعلق بالمجال العقلي البشري فقط ، والذي يقول عنه « إنه المحرك الأول » وليست له أية علاقة بالعواطف والمشاعر ، فلا معنى ، والحالة هذه من بحث موضوع العدل والظلم !

أما إله الأنبياء والمرسلين وإله المسلمين المؤمنين فله ارتباط محكم بالضمير والشعور بالاضافة إلى الجانب المنطقي والعقلي ، مما يجعل علاقة المخلوق بالخالق علاقة محبة وشوق وعلاقة ضعيف إلى قوي وعلاقة محتاج إلى غير محتاج وعلاقة معطوف عليه من عاطف كريم قادر حكيم ، عالم عظيم ، الخالق الرازق ، والمحيي والمميت، وله وحده الدعاء وبه الاستعانة وله التوكل والرجاء والمحبة ، والخشية والرغبة والرهبة ، والركوع والسجود

---

(3) آل عمران الآية 26 راجع البقرة الآية 107 وآل عمران الآية 189 والمائدة 17 و18 والأعراف 158 والتوبة 116 وهذا على سبيل المثال .

والخشوع والطاعة والتعظيم . فمن صفاته القطعية « العدالة » . فكيف نعبر عن تلك العدالة ؟

الجواب من الله في كتابه العزيز حين يبين لنا هدف (النبوة) فيقول سبحانه : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ [الحديد : 25] . ويبين لنا أيضاً موضوع المعاد ومحاسبة النفس عند المعاد وجزاء الأعمال . فيقول تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ [الأنبياء : 47] .

وبهذا يكون العدل بمفهومه الاجتماعي هدفاً (للنبوة) وبمفهومه الفلسفي أساساً للمعاد . أما الذين يتوهمون وينسبون العدل والظلم إلى الله فيرد عليهم سبحانه منزهاً عن الظلم والحيف في آيات كثيرات نعطي مثلاً منها . قال تعالى : ﴿ **ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمودَ وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ [التوبة : 70] .

والقرآن لم يكتف بتنزيه الله عن الظلم بل ذكر أنه قائم بالعدل على أساس أن العدل صفة إيجابية لذات الله سبحانه وتعالى فجاء قوله : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط** ﴾ [آل عمران : 18] .

نستنتج من كل ما سبق أن العدل الآلهي حقيقة بذاتها من وجهة نظر الاسلام ، وأن العدالة هي من الصفات التي تتصف بها الذات الآلهية ، فالله مالك الملك وهو العلي القدير . من هنا كان لا بد من اعتبار العدل ركناً أساسياً من أركان الاسلام .

3 ـ النبوة

هي الأصل الثالث في الاسلام وقوامها الايمان أن محمداً رسول الله (ص) وهاك البراهين القاطعة على صدق نبوته وإثبات رسالته .

أ ـ عرف عن النبي محمد (ص) قبل النبؤة كثير من الخصال الحميدة والصفات الكريمة ، حتى سماه قومه بالأمين . لم يجرب عليه أحد لا زلة ولا هفوة ، لذلك وقع من نفوسهم الموقع الحسن والاحترام اللائق والمكانة العالية . فوجدناه يسفه أحلامهم ويسب آلهتهم غير خائف ولا وجل . والذين عاشروه وشاهدوه عن قرب ملأ قلوبهم يقيناً بأنه صادق جاء يخبر عن ربه بوحيه . حتى أن بعض الأعراب أسلم حين رآه ، فقال : « والله ما هذا الوجه بوجه كذاب » .

وما عرف في السنن الآلهية أن الله لا يؤيد في دعوى النبوة مبطلاً ، وما نصر إلا أصحاب الحق الصادقين . أضف إلى ذلك وجود الأعداء الذين كانوا يحصون هفواته ، ويتقصون أسراره ، كاليهود مثلاً ، فقد خاطبهم ، والتوراة بين أيديهم ، بقوله على لسان القرآن : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبيث . . .** ﴾ [الأعراف : 157] .

ومن الواضح أن الصدق في الأمور يصاحب البر والخير ، وقد كانت تعلم ذلك خديجة (ع) من النبي أنه الصادق البار . قالت له ، حين جاءه الوحي : والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق . ومعنى هذا ، أن من تجمعت فيه هذه الخلال المحمودة ، والصفات الفاضلة الكريمة ، لا يخزيه الله أبداً وهو نبي حقاً .

« ألم تر إلى ما قاله هرقل لأبي سفيان وصحبه وكان كافراً إذ ذاك : هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقالوا : لا ما جربنا عليه كذباً . فقال لهم هرقل : إنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يكذب على الله . ولم يعرف عنه إلا الصدق ، وهو يتورع أن يكذب على الناس ، فإن تورعه عن أن يكذب على الله أولى وأحق »[4] . إن المتأمل بما جاء به النبي (ص) يتوضح له أن مثل هذا لا يصدر من أعلم الناس وأصدقهم وأبرهم ، جاء لإرشاد أمته وإرشاد الناس كافة ، فكان عند أهل الفطرة السليمة أنصح الخلق وأبر الناس وأرحم البشر وأصدقهم فيما يقول وأقومهم فيما يفعل .

ب ـ النبي المصطفى (ص) كان طوال حياته يراقب الله ويخشاه في جميع أموره ، كان يحب في الله ويكره في الله ويعتمد على الله ويعمل في سبيل الله ويجاهد من أجل رفع كلمة الله ولا يستمد المعونة إلا من الله ، ولا يخضع إلا لله . وإذا أصابه هم قال : حسبي الخالق من المخلوقين ، حسبي الله ونعم الوكيل .

ج ـ في أقل من قرن عم نور الاسلام الأرجاء حتى وصل إلى الشرق والغرب وأصبح لدولة العرب قدم في الأندلس ، وأخرى في الهند . كل ذلك في الاسلام من الحق والرشد والبأس والهدى والحضارة الانسانية الأصيلة ، حتى نعته الغربيون بأنه أستاذ

---

(4) محمد المثل الكامل ص 91 .

الحضـارة في أوروبة وهـذا الانتشار السريـع آيـة كـبرى عـلى صـدق نبـوة محمـد (ص) وصحتها ، وقوام الاسلام وصلاحه لجميع خلق الله على الأرض .

د ـ الدعوة الاسلامية ملكت عليه قلبه وحواسه فهان معها كل ما لاقـاه من الأذى ، من كفـار قريش ، وعنـد عرضـه نفسه عـلى القبـائـل ، وحينـما ذهب إلى أهـل الـطائف يدعوهم إلى الله ، وقد أغروا به سفهاءهم . كـل ذلك لم يضعف من عـزيمته ، لأن ثقتـه بالله كبيرة جـداً . وكل همـه أن لا يغضب الله عز وجـل ، الذي يـدعوه في الليـل والنهار قائلاً : اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني عـلى الناس . . . فـإن لم تكن غضبان عليّ فلا أبالي[5] .

هـ ـ كان همه الأكبر وهدفه الأعلى الذي يعمل جهده لتحقيقه هو إسعاد الناس كافـة في دينهم ودنيـاهـم ، وحرصـه عـلى هـدايتهم إلى مكـارم الأخـلاق ، وتعليمهم قـوانـين الشريعـة الفاضلة التي رفعت كـل من آمن بها واتبعهـا إلى الرفعـة والعزة في الحيـاة الحرة الكريمة .

إن مثل هذه النفس التي سخرها صاحبها لخدمة خلق الله وسعادتهم لهي نفس لا بد أن تكون متعلقة بالملأ الأعلى ، مثقلة بصفات الكمال والجلال . فلنتأمل إلى تصرفه عندما شج وجهه في يوم أحد ، وكسرت رباعيته ، وحل به ما حل من أذى القوم . كل ذلك لم يزد على أن اعتذر لهم وقال : (اللهم إغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) ؟ وبهذا استحق أن يقول الباري في حقه : ﴿ **لقد جـاءكم رسول من أنفسكم عـزيز عليـه ما عنتّم حـريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ [التوبة : 128] .

و ـ أخبر النبي (ص) على لسان القرآن الكريم بالأمور الغيبية وبما أخبرت بـه الأنبياء من الأمـور الغيبيـة ، وهـو الأمي لم يتعلم من بشر . قـال تعـالى : ﴿ **وعـد الله الـذين آمنـوا منكم وعملوا الصـالحات ليستخلفنهم في الأرض كـما استخلف الـذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركـون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ [النور : 55] .

وجاء في القرآن الكريم عن أنباء الغيب التي أوحـاها الله جـل وعلا إليـه (ص) : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فـاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ [هود : 49] .

---

(5) راجع محمد المثل الكامل ص 93 .

و ـ أعطي محمد من المعرفة بأحوال الانسان وشؤونه معرفة جلى ، فعلم الانسان كيف يحصِّن نفسه ، وعلمه كيف يتعامل مع الآخرين بمحبة وصدق وإخلاص ، وعلمه كيف يتعامل مع الله معاملة يرقى بها إحساسه ، ويصفو بها قلبه ، وينعم بها عيشه . فيعيش عيشة راضية مرضية .

ز ـ تأييده من الله تعالى : أيد الله محمداً (ص) وعصمه من أعدائه . من ذلك تصميم قريش على قتله ، فخرج من بيته وحثا التراب على رؤوسهم ، وخلص منهم وهم له منتظرون ، صم بكم عمي فهم لا يبصرون .

وجاء أبو جهل بصخرة ليطرحها عليه وهو يصلي ، وقريش تنظر إليه ، فيبست يداه إلى عنقه ، ورجع خائباً فاشلاً هو « وهبل » معه .

وأما اليهود وكهانهم فقد أنذروا به وحضوا على قتله ، فعصمه الله تعالى منهم بنصره ، وحرسه بعينه التي لا تنام ، وكلأه بعنايته ، ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾ .

وبذلك أتم الله التأييد لرسوله محمد (ص) النبي الأمي ومكنه من توحيد أمته التي كانت منقسمة قبائل متعادية ، فجاءها بقانون من عند الله كفل لها السلطان على جميع الأمم وكانت خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

لقد تمت له كل هذه الأمور ، وخرج من نصر إلى نصر ، بهمة عالية ، ونفس طاهرة ، وروح سامية دون أن تفتتن نفسه بهذه الانتصارات الكبيرة والانجازات الهامة والتغييرات الحضارية الشاملة ، كما كانت الحال عند الأكاسرة والقياصرة .

وبعد أن تكامل الفضل فيه عن طريق العناية الآلهية كانت معجزة نبؤته لكل ذي بصر وبصيرة شخصية إنسانية كاملة الصفات عقلاً وعلماً وأخلاقاً وجاذبية خاصة تؤثر في كل من رآه . فالمعجزة العقلية المعنوية : القرآن الكريم ، والمعجزة الحسية : كفلق البحر ، ومعجزاته (ص) لا يحيط بها إحصاء . قال تعالى : ﴿ **قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتَّبع إلا ما يوحى إلي** ﴾ [الأنعام : 50] .

وقد انفرد من بين الرسل بدلائل نبوته فبشر به الأنبياء في كتب الله المنزلة قبل بعثه (ص) . قال تعالى : ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد . . .** ﴾ [الصف : 6] . فلم يصدقوه فقالوا : هذا سحر مبين . فأجابهم الله تعالى : ﴿ **ومن**

أظلمُ ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الاسلام والله لا يهدي القوم الظالمين ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله مُتِمُّ نوره ولو كره الكافرون ، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [الصف : 7 و8 و9] .

4 ـ الامامة

يقول الشيعة أن الامام منصب إلهي كالنبوة فكما أن الله سبحانه وتعالى يختار من يشاء من عباده للنبوة ، ويؤيده بالمعجزة ، كنص من الله عليه : ﴿ **وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة** ﴾ [القصص : 68] . فكذلك يختار للامامة من يشاء ، ويأمر نبيه بالنص عليه ، لينصبه إماماً للناس من بعده ، يقوم بالمهمات التي كان يقوم بها النبي ، سوى أن الامام لا يوحى إليه كالنبي ، وإنما يتلقى الأحكام منه . فالنبي مبلغ عن الله ، والامام مبلغ عن النبي .

وقد أوجب الله نصب الامام في كل زمان بالأدلة العقلية والأدلة النقلية .

الأدلة العقلية :

أ ـ إن ما ذكر في بيان الاضطرار إلى الرسل هو بعينه جار في الاضطرار إلى أوصيائهم وخلفائهم ، لأن الاحتياج إليهم غير مختص بوقت دون آخر وبحالة دون أخرى .

ب ـ اللطف واجب على الله تعالى ، ولا ريب أن وجود الامام الذي يجمع الشمل وينصف الضعيف من القوي والفقير من الغني ، ويردع الجاهل ويوقظ الغافل ، هو لطف من الله العلي القدير ؛ الذي يريد الأصلح لعباده . وهل يتم أمر معاشهم ودينهم ودنياهم إلا بنصب إمام لهم ، معلم ورئيس يرشدهم إلى الحق عند اختلافهم ، ويرد الناس إليه عند اختصامهم ومنازعتهم ؟

ج ـ إن العقل السليم يحيل على العزيز الحكيم والرسول الأمين أن يهمل أمته مع غاية رأفته ونهاية شفقته بأمته ، مع كونه مبعوثاً للناس كافة وشريعته الموكول بتنفيذها باقية إلى يوم القيامة ، دون أن يعين رئيساً يوكل إليه الأمور من أجل تنفيذ الرسالة وإكمال المهمة العظيمة جداً . إن هذا مما ينفيه العقل عن رب العالمين وسيد المرسلين .

ثم كيف يوجب الله على الانسان الوصية عند الموت ، لئلا يموت ميتة جاهلية ، ولئلا يدع أطفاله وعيالته ومتروكاته بغير ولي قائم وأمين حافظ ، ولا يوجب على النبي (ص) الايصاء والوصية مع يقين الجميع أن رأفة الله في خلقه (وهو أرحم

الراحمين) ورأفة النبي (ص) بأمته لا مثيل لها في التاريخ ! ؟

د ـ باعتراف جميع الخلق من آدم إلى خاتم النبيين والرسل ، أنه لم يقبض نبياً حتى عين له خليفة ووصياً . والنبي محمد (ص) جرت العادة أنه متى سافر وترك المدينة كان يعين خليفة مكانه حتى يعود . لأنه كان حريصاً جداً أن يترك الأمة بدون خليفة أو إمام حتى ولو عدة أيام . هكذا كانت سنته (ص) وهكذا كانت سنة الولاة والحكام .

فهل اختلفت هذه السنة التي لن نجد لها تبديلاً ؟ وهل تغيرت هذه العادة التي لم يكن عنها تحويلاً بالنسبة للرسول الأعظم خاتم الأنبياء المرسل إلى هذه الأمة فيهملها ويتركها بلا راع يرعى أمورها ويسوس شؤونها مع تأكيد بقاء التكليف إلى يوم القيامة ؟

الأدلة النقلية

أ ـ قال تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً . . .** ﴾[6] :

ومما لا شك فيه أن نصب الامام من أركان الدين الرئيسة ومن أهم مصالح المسلمين لذلك وجب أن يكون واقعاً قبل نزول الآية الكريمة .

ب ـ وقوله تعالى : ﴿ . . . **وأطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم** . . . ﴾ [النساء : 59] .

تدل الآية على وجوب إطاعة أولي الأمر كإطاعة الرسول وكإطاعة الله . لأن النبي (ص) ينفذ كلام الله ، والولي ينفذ كلام النبي (ص) . ولهذا لم يفصل الله بين النبي وأولي الأمر . ومن المعلوم أن الله جل وعلا لا يأمر المؤمنين لا سيما العلماء والفضلاء والصلحاء بإطاعة كل ذي أمر وحكم . لأنهم مثل النبي فيما يعود لأمر الدين ، وفي عدم صدور الخطأ والنسيان والكذب والمعاصي ؛ ومثل هذا لا يكون منصوباً إلا من قبل الله تعالى العالم بالسرائر وما تخفيه الصدور .

ج ـ وقوله عز وجل : ﴿ . . . **وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾ [يس : 12] .

في هذه الآية دلالة صريحة على ضرورة وجود الامام العالم بجميع الأمور وتفسير الآيات وتوضيح الأحاديث وتطبيق الأحكام تطبيقاً صحيحاً عادلاً .

---

(6) المائدة الآية 3 استفاضت الأخبار من طرق العامة والخاصة أن هذه الآية نزلت بعد أن نصب النبي (ص) علياً (ع) للامامة في غدير خم بعد حجة الوداع .

د ـ وقوله جل وعلا : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء** ﴾ [النحل : 89] و ﴿ **كل شيء فصلناه تفصيلا** ﴾ [الاسراء : 12] و ﴿ **ما فرطنا في الكتاب من شيء** ﴾ [الأنعام : 38] .

فلا بد والحالة هذه من أن يكون الله تعالى قد جعل أحداً يعلم جميع ذلك ، ويرجع إليه الخلق لتنتشر الرسالة الاسلامية على كل الأرض ويفصل بين الناس في منازعاتهم وخصوماتهم . فهل يجوز إهمال الامامة التي تعد تكملة لأعمال النبوة ؟

هـ ـ وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾[1] .

معرفة الامام :

لمعرفة الامام في الاسلام طرق ثلاث :

أولاً : النص من النبي (ص) على الامام الذي بعده ، ونص السابق على اللاحق كما حصل في الأئمة الاثني عشر . وهذا الطريق هو أسهل وأنسب بلطف الله بعباده .

ثانياً : المعجز الخارق المقرون بدعوى الامامة .

ثالثاً : أفضليته على جميع أفراد الأمة ، لأن لزوم متابعة الأفضل على المفضول والأرجح على المرجوح والأعلم والأفقه والأتقى على غيره من العلماء والفقهاء والأتقياء أمر واجب .

مواصفات الامام :

1 ـ العصمة لأنه حافظ للشرع قائم به فحاله كحال النبي (ص) يحمل الناس على فعل الخير واجتناب المحارم وإقامة الحدود والفرائض .

2 ـ أن يكون أفضل من جميع أمته من كل جهة . عقلاً : فلقبح تقديم المفضول على الفاضل . ونقلاً : فلقوله تعالى : ﴿ **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ [الزمر : 9] وقال تعالى : ﴿ . . . **أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا**

---

(7) راجع الحاكم في المستدرك ج 3 ص 109 وكنز العمال ج 6 ص 390 وص 397 وص 403 وص 407 ومسند أحمد ج 1 ص 119 وج 4 ص 370 و372 و381 والسيرة الحلبية ج 3 ص 302 والدر المنثور ج2 ص 259 وتاريخ الخلفاء ص 65 والعقد الفريد ج 2 ص 194 والاستيعاب ج 2 ص 473 والمحاضرات للراغب ج 2 ص 213 والصواعق لابن حجر ص 25 وحق اليقين في معرفة أصول الدين ج 1 ص 274 والنظم الاسلامية لحسين الحاج حسن ص 194 وأصول الكافي للكليني ج 1 ص 198 وما بعدها .

يهدي إلا أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون ؟ ﴾ [يونس : 35] .

3 ـ أن يكون منصوصاً عليه لأن العصمة من الأمور الباطنية كما أسلفنا قبل قليل وقد اختصر علماء الإسلام ونصراء الدين والحق شرائط الإمام في ثمانية وهي : العصمة ، العلم ، الشجاعة ، أفضل جميع رعاياه ، مبرءاً من العيوب في الخلق والخُلق ، أزهد الناس ، تظهر منه بعض المعاجز ، أن تكون إمامته عامة غير منحصرة فيه[4] .

5 ـ المعاد

إن الله تبارك وتعالى ، يعيد الأجسام إلى الحياة بعد فنائها . وليس الأمر غريباً البتة لأن الذي خلق السماوات والأرض ، ودب الروح في الجماد ، ونفخ في التراب فكان الانسان ، قادر على أن يحيي الموتى . قال تعالى : **﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعيا بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بل إنه على كل شيء قدير ﴾** [الأحقاف : 33] .

وهذه حكمة إلهية اقتضت وجود دار وراء هذه الدار يرى المرء فيها جزاء أعماله إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وقد اهتم القرآن الكريم بشأن البعث والدار الآخرة اهتماماً عظيماً فقلما نجد سورة من سوره إلا وتذكر البعث . وهذه العناية الفائقة هي أن البعث أصل من أصول الاسلام وركن من أركانها الخمسة . فعندما تستقر هذه العقيدة في نفوس الناس ، ويؤمنون بها إيماناً لا يخامره شك ، من المؤكد أن أمورهم تستقيم على أحسن حال ، ويكثر فيهم الخير والاحسان ، ويقل بينهم الشر والفساد .

ولكن البشر في كل عصر ، ماضياً وحاضراً يخدعون بزخارف الدنيا ومتاعها ، وتخلبهم مباهجها فتعتريهم الشكوك في أمر البعث والحساب ، فيستبعدونه ويستعظمون أمره . قال تعالى : **﴿ أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وإنكم إلينا لا ترجعون ﴾** [المؤمنون : 115] .

ثم ضرب الأمثال لمثل هؤلاء المخدوعين ليبسط لهم الأمور ويوضح لهم إشكالاتهم التي أرست على عيونهم وقلوبهم غشاوة كثيفة حجبت عنهم الرؤيا الواضحة . قال تعالى : **﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي**

---

(8) راجع نظم إسلامية للمؤلف ص 189 وما بعدها .

أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فسبحانه الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾[9] .

وفي عصر النبي وفي كل عصر نجد أناساً يحسبون البعث مخالفاً للسنن المألوفة ، ومنهم جماعة المادية في عصرنا الحاضر الذين يتوهمون أن حياة الانسان تنتهي بموته ودفنه في القبر . وتبريرهم لاعتقادهم هذا الواهي والفاسد ، أنهم لم يروا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم إنساناً مات ثم عاد فأخبرهم ماذا رأى وماذا سمع ! !

لهؤلاء وأمثالهم خاطبهم الله ، وهو خير القائلين وأحكم الحاكمين في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه ، قال تعالى : **﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾**[10] .

وبعد إحياء الخلائق بعد موتها ، يوم القيامة يأتي دور الحساب والجزاء ، ومعاد

---

(9) يس الآية 78 و79 و80 و81 و82 و83 .

(10) ـ خلقناكم من تراب : وهذا ما يؤيده العلم ويقره الواقع ، فبعد التحاليل الكيماوية وجد العلماء أن العناصر التي يتركب منها التراب هي نفسها يتركب منها جسم الانسان ، وتنتقل هذه العناصر إلى جسم الانسان بما يتناوله هذا من المأكولات المختلفة الأنواع والتركيب .

ـ والعلقة : قيل في تفسيرها بأنها الدم المتجمد الغليظ ، وإنما سميت بهذا الطور بالعلقة للشبه الكبير بينها وبين علق الماء ، أو لأنها تعلق بجدار الرحم .

ـ المضغة : طور العلقة في حياة الجنين بعد مضي أربعة أسابيع . وسمي الجنين في هذا الطور مضغة للشبه الكبير بينه وبين قطعة اللحم الممضوغة .

ـ مخلقة وغير مخلقة : أي قد تكون المضغة منتظمة الشكل وقد تكون غير منتظمة الشكل وهذا ما أثبته الطب اليوم .

ـ نقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى : المراد الوقت منذ تلقيح البويضة إلى حد الولادة .

ـ وأن الساعة آتية لا ريب فيها : أي الساعة التي وعد الله بها إحياء الموتى آتية ولا شك في حدوثها .

الانسان هو إعادة الشخص بعينه وجسده وروحه بحيث لو رآه الرائي لقال هذا فلان نفسه . إن الاعتقاد بعدالة الله جل وعلا يستتبع حتماً جزاء على الخير والشر ، والقرآن كثرت فيه الآيات الدالة أن الانسان محاسب هو على أعماله المنفذة ونياته التي لم تنفذ بعد ، بألوان من الطرق المعروضة بشتى الصور .

فتأمل هذه الصورة المعروضة بأسلوب رائع دقيق للأرض المزلزلة والجثث المدفونة والكنوز المكنونة تبهت الانسان وتهز في صدره الجنان . قال تعالى : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الانسان ما لها ، يومئذٍ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها ، يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾[11] .

يا له من مشهد! الأرض تزلزل زلزالها وتخرج أثقالها فتخرج ما فيها من دفائن بعد أن انقلبت شخصية حية تسأل فتجيب . عندها ينبعث الأموات أفراداً ، يبعثرهم الهول الهائل ، خرجوا ليروا أعمالهم حيث لا مجال لإخفاء أدنى خفية . ثم تبدأ عملية الوزن في الميزان الدقيق الذي ترجحه الذرة إن خيراً فخير وإن شراً فشر . كما نرى بعض الآيات الأخرى تقتصر على عرض مواقف الحساب دون أن تقترن بأهوال يوم القيامة . جاء في سورة (المؤمنون) : ﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : رب ارجعون ، لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ، فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون** ﴾[12] .

فعند قدوم الموت ومشهد الاحتضار يعلن الانسان اللاهي في الدنيا التوبة ، ويطلب الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما فاته ، فإذا بالرد الواضح إلى عامة الناس ، كلا !

فينفخ في الصور فيستيقظ الأموات وقد تقطعت بينهم الروابط ، فلا أنساب ولا قبيلة ولا عشيرة ، بل الهول الذي يلف الجميع ، والسكون المسيطر على القلوب . ثم يعرض الميزان فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة ، وهو ينظر ، فإن ثقلت كفة الخير نجا ، وإن ثقلت كفة الشر هلك . (ليحيا من يحيا عن بينة ويهلك من يهلك عن

---

(11) الزلزلة الآية 1 ـ 2 ـ 3 ـ 4 ـ 5 ـ 6 ـ 7 ـ 8 . ويصدر الناس أشتاتاً : ينبعثون أفراداً .

(12) المؤمنون الآية 99 ـ 100 ـ 101 ـ 102 ـ 103 .

بينة) كل شيء يجري بوضوح وبميزان دقيق ولا تخفى خافية مهما كانت صغيرة ، حتى النيات التي لم تترجم إلى أعمال يحاسب أصحابها عليها . قال تعالى : ﴿ **لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير** ﴾ [البقرة : 284] .

6 ـ الجهاد في سبيل الله

الجهاد في اللغة يعني بذل الجهد والسعي الحثيث في جميع أبعاد ومجالات الحياة وبصورة مستمرة ومتكاملة . والجهاد في الاصطلاح هو الكفاح والنضال من أجل عيشة حرة كريمة ، كالكفاح الاقتصادي والعسكري والسياسي والروحي والعلمي . . . على المستويين الداخلي والخارجي .

واصطلاح « في سبيل الله » يوضح بأن الجهاد في الاسلام خالص من النفعية والشهوات الفردية وحب التسلط ، لتكون نية المجاهدين خالصة لله أبداً ، يعملون من أجل الهدف الجهادي المقدس فيضحون بأنفسهم لإسعاد الآخرين من إخوانهم في الانسانية . إن التركيز على ضرورة ملازمة الهدف المقدس للجهاد في الاسلام يميزه عن الحروب المتعارف عليها واحتلال البلدان واغتصاب الأراضي التي يلجأ إليها الملوك المستبدين والمتعصبين الظالمين . الجهاد الاسلامي كفاح ضد الظلم والظالمين في كل بقاع الأرض ، الجهاد الاسلامي كفاح ضد المستكبرين لنصرة المستضعفين والمحرومين . وبذلك يكون الجهاد الاسلامي : 1 ـ دفاعياً و2 ـ تحريرياً و3 ـ داخلياً .

والغاية من الأنواع الثلاثة هو رفع الظلم عن كل الناس وإحقاق الحق لكل الناس .

فالجهاد الدفاعي هو ضد المعتدي الأجنبي وقد أمرنا به الله تعالى وحدد لنا الهدف منه بقول سبحانه : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلوكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ [البقرة : 195] . ومن تسامح الاسلام وعدالته أمرنا الله بقبول الصلح بمجرد أن يظهر العدو الرغبة في عدم القتال ، فقال تعالى : ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم** ﴾ [الأنفال : 61] . ﴿ **فإن انتهوا فإن الله** غفور رحيم ، **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** ﴾ [البقرة : 192 و193] .

وفوق هذا ، فقد طلب إلينا الله جل وعلا إلى الذين اعتزلوا القتال وألقوا السلم إلى المسلمين ، أن يبروهم ويقسطوا إليهم . قال تعالى : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب**

المقسطين ، **إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولاهم فأولئك هم الظالمون** ﴾ [الممتحنة : 8 و9] .

ثم يوضح لنا الله تعالى صفات العدو المراد صده والهدف من الجهاد : ﴿ **ألا تقاتلون قوماً نكثوا إيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة ، أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين** ﴾ [التوبة : 13] .

يتوضح من هذه الآيات بأن الله سبحانه وتعالى يوجب الدفاع الذي له صفة الدفاع من أجل إزالة الظلم ووضع الحق في نصابه ضد المعتدين الخارجيين والناكثين للعهد ، الظالمين ، فحماية الأرواح وصيانة الحقوق والحريات والأموال من واجب المظلومين أن يهبوا إلى ساحات الجهاد ، والنصر حليفهم بإذن الله . قال تعالى : ﴿ **أُذِن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وأن الله على نصرهم لقدير الذي أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُنا الله** . . . ﴾ [الحج : 39] .

أما الجهاد التحريري في الاسلام فهدفه نجدة المظلومين الذين يرزحون تحت نير الحكومات المستبدة الظالمة ، والذين يستعينون بالمسلمين على حكامهم الطغاة للخلاص من شرورهم . ذلك أن واجب المسلمين لا يقتصر على الدفاع عن وطنهم وأرواحهم ودينهم فقط ، بل هم مكلفون أيضاً بالدفاع عن المظلومين في كل بقاع الأرض لرفع ظلم المعتدين عنهم . ولا فرق إن كان المظلومون المستنجدون من الأقلية المسلمة التي تسكن في غير بلاد الاسلام ، أو الأكثرية غير المسلمة ، فإن الجهاد في مثل هذه الحالة واجب أيضاً . قال تعالى مخاطباً هؤلاء : ﴿ **وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا** ﴾ [النساء : 75] .

إن المبادرة إلى الجهاد الدفاعي أو الجهاد التحريري في الاسلام تتوقف على الطرف الظالم المراد جهاده . فهو من وجهة نظر المظلومين المستنجدين جهاد دفاعي ، أما من وجهة نظر المسلمين الذين بادروا لنجدتهم فله طابع التجرير .

والنوع الثالث من الجهاد هو الجهاد الداخلي ، وهو جهاد ضد الظلم والاستبداد أيضاً ، ولهذا سمي بجهاد (أهل البغي) ومن هم أهل البغي هؤلاء ؟ إنهم الذين يبغون تحقيق رغباتهم الخاصة بصورة عدوانية وبطرق غير شرعية . وهم فئة من المسلمين انحرفوا عن تعاليم القرآن وسنة النبي لتحصيل مناصب اجتماعية وتحقيق مكاسب شخصية .

وعندما رفضوا الاستجابة إلى دعاة الخير من إخوانهم المؤمنين ، والرجوع إلى جادة الحق مستمرين في عنادهم وانحرافهم ؛ وجب عند ذلك جهادهم ومكافحتهم من أجل إعادة الحق إلى نصابه وإعلاء كلمة الله على الأرض ، وصد الخارجين عن الدين الحنيف .

إن انتصار الجهاد الدفاعي هو السبب في بقاء الأمة الاسلامية ودوام المجتمع الاسلامي الذي جسم حكم الله العادل وتعاليمه الصائبة ومبادئه الصالحة ، من خلال الممارسة والسلوك وتنظيم الروابط الاجتماعية .

وإن انتصار الجهاد التحريري المتلازم دائماً مع التوعية العقائدية قد ساهم في انتشار الاسلام كمنقذ الجماهير المظلومة من ظلم الطغاة المستكبرين في العالم . حتى أصبح الاسلام دين كل مظلوم ومحروم في جميع بقاع الأرض ، يتسلح به ضد الأنظمة الرجعية المستبدة التي تتغير وتتلون بتغير الحكام وأمزجتهم وأطماعهم .

فبالجهاد الداخلي يصان المعتقد وتثبت الشريعة الاسلامية ، وهذا يعني انتصار دين الله وإعلاء كلمة الله ؛ والجهاد في جميع الأحوال هو في سبيل الله .

من هنا نرى اختلاف الجهاد الاسلامي بشروطه الدقيقة وأهدافه المحدودة عن الحروب التي يقوم بها القادة السياسيون الذين يؤدون واجبات وظيفية ، وأوامر أرضية وفتح بلدان لأطماع شخصية . فالفرق شاسع بين هؤلاء العسكريين وبين القوة الجهادية المكافحة من حيث الدوافع والوسائل ومن حيث الغاية والأهداف . الجهاد في الاسلام غايته السعي المتواصل من أجل الهدف السامي الذي هو مرضاة الله تعالى عن طريق تحقيق حكم الله على الأرض من أجل سعادة كل الناس ورحمة جميع عباد الله على أرض الاسلام ، أرض السلم والسلام . قال الله تعالى مخاطباً النبي محمد (ص) : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ [الأنبياء : 107] ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا** ﴾ [سبأ : 28] .

إن الاختلاف كبير جداً بين بناء الأمة الاسلامية وبناء بقية الشعوب والأمم الأخرى ، فالأمة الاسلامية تضم تحت جناحيها كل الناس المؤمنين والعباد الصالحين من كل عرق ولون ، فهي ليست عرقية ولا طبقية ولا إقليمية المنشأ . وبعبارة أوضح نقول : إن الانتماء إلى الأمة الاسلامية هو وليد الارادة الحرة الواعية لأفراد تلك الأمة وعن طريق هذه الارادة توحد المسلمون فيما بينهم وكونوا الأمة الاسلامية والدولة الاسلامية .

والاسلام عقيدة متلازمة دوما مع مبادىء السلوك الفردي والتنظيم الاجتماعي بصورة محكمة ، وهذا الترابط المثمر والجدي بين المسلمين ، وكفاحهم المشترك المتعدد الجوانب هو الذي جعل منهم وحدة متراصة وأمة متماسكة يتعاطف أعضاؤها ويتوادون ويتراحمون ، يتسلح كل فرد منها بقوة واعية مسؤولة مجاهدة بحيث أنه يعرف المطالب الحالية والمستقبلية للأمة فينسق مع إخوانه المسلمين المؤمنين تنسيقاً دقيقاً على أساس صمود الأمة وبقائها ورقيها . يقول الامام الصادق عن تماسك الأمة الاسلامية وعلاقة أفرادها بعضهم ببعض : « المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد ، إذا اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده ، وأرواحهما من روح واحد »[13] .

وقال رسول الله (ص) : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[14] .

والجسم الاجتماعي يشبه الجسم البشري في توحيد مواقفه ضد ما يهدد كيانه من الخارج والداخل . يقول الدكتور الكسيس كاريل : « يتكون التنسيق العضوي الخارجي من تعديل الحالة الداخلية للجسم تبعاً لما يطرأ على البيئة من اختلافات . ويتم هذا التعديل بواسطة عمليات آلية مسؤولة عن توطيد النشاط الفيزيولوجي والعقلي واكتساب الجسم وحدته . . وتعد المواقف التنسيقية إجابة مناسبة لكل تغيير في الوسط المحيط بالانسان . ومن ثم يستطيع الانسان أن يتحمل التعديلات التي تطرأ على العالم الخارجي »[15] . ثم يزيد واصفاً الجسم أثناء المرض : « ويواجه الجسم في أثناء المرض مواقف لم يسبق له مكابدتها مطلقاً ، ومع ذلك فإنه يميل إلى تنسيق نفسه تبعاً للأحوال الجديدة بالقضاء على العوامل المولدة للمرض وإصلاح الأضرار التي أحدثتها . . فلو لم تكن هذه القوة التنسيقية موحدة لما استطاعت الكائنات الحية أن تحتمل وطأة الأمراض لأنها معرضة أبداً لهجمات الفيروسات والبكتيريا وللفشل التركيبي في العناصر التي لا عداد لها للأجهزة العضوية »[16] .

فالفيروسات والبكتيريا التي تهاجم الجسم البشري يوجد ما يماثلها تماماً في الجسم

---

(13) أصول الكافي ج 2 ص 166 .

(14) رواه مسلم وأحمد بن حنبل الجامع الصغير للسيوطي ص 373 .

(15) الانسان ذلك المجهول ص 243 .

(16) الانسان ذلك المجهول ص 242 .

الاجتماعي ، عناصر تحاول الفساد والتخريب والشرذمة . لـذلك كله كـانت الشهادة في الاسلام وهي أعظم وأعلى درجة من درجات الجهاد الدفاعي والتحريري .

إن الذي يعيش المفاهيم الاسلامية ينظر إلى هذه الكلمة وكأنها محاطة بهالة من نور . كلمة شهيد في الاسلام لها قدسيتها ، وهل أقدس وأنبل من إنسان يبذل نفسه على طريق الأهـداف الاسلاميـة الساميـة من أجل تحقيق القيم الانسـانية الحقـة . والله تعـالى كـرم الشهيد وهو وإن مات جسده ، فذكره خالد أبداً في ضمير الأمـة في هذه الـدنيا ، وخـالد أيضاً في الآخرة . قال تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمـواتـاً بـل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ [آل عمران : 169] .

إن العملية التي تؤدي إلى الشهادة عـلى طريق الهـدف المقدس ، قـد اتخذت شكـل مبـدأ أساسي وركن أصيـل هو الجهـاد . ولكن هل انحصر في إطـار الدفـاع عن الحقوق القومية أم اتسع ليشمل الحقوق الانسانية كالحرية والعـدالة . الانسـان المؤمن بالاسـلام مرتبط ارتباطاً وثيقاً بعقيدته ومتحرر من كل شيء آخـر ، يجاهـد بكل مـا عنده من طـاقة لإنقاذ المجتمع من براثن الكفر والشرك والانحراف . وأفضل ما يمكن ذكره عن الجهاد ما قاله الامام علي بن أبي طالب في جمل معدودات من إحدى خطبه في نهج البلاغة فقـال في خطبة مشهورة مخاطباً بعض من تخلف عن الجهاد :

أمـا بعد فـإن الجهاد بـاب من أبواب الجنـة فتحه الله لخـاصة أوليـائه ، وهـو لبـاس التقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجنته الوثيقة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثـوب الذل وشمله البلاء ، ودُيِّث[18] بالصَّغـار والقماءة ، وضرب عـلى قلبه بـالاسداد[19] ، وأديـل الحق منه بتضييع الجهاد ، وسيم الخسف ، ومنع[20] النصف » .

للجنة أبواب عدة ، وباب منها فتحه الله لخاصة أوليائه ، يـدخلون منه لينـالوا فـوز القرب الآلهي . والجهاد كما يصفه الامام لباس التقـوى ، لباس الـطهر الحقيقي من كـل الآثام . لأن المجاهد في سبيل الله أطهـر الطاهـرين ، فقد ضحى بكـل وجوده ، ضحى بنفسـه : (والجـود بـالنفس أسمى غـايـة الجـود) ولمـا قسم علماء الاسـلام التقـوى إلى درجات :

---

(18) ديث : ذل . والقماءة . الصغار والذل

(19) الاسداد : الحجب .

(20) الخسف : الذل والمشقة . النصف : العدل .

العامة ، والخاصة ، وخاصة الخاصة . كانت درجة المجاهدين أعلاها[21] .

ثم يكمل وصفه للجهاد بأنه : درع الله الحصينة وجنته الوثيقة . الدرع لباس من حلقات حديدية يرتديه المقاتل ليرد مفعول الضربة عن الجسم ، والجنة كل ما وقى الجسم من السلاح وقاية للبدن أثناء المعركة . فالأول عمله المناعة ، والثاني الدفاع . وربما كان يشير إلى نوعي الجهاد : الوقائي والدفاعي .

ثم يستعرض أمير المؤمنين الآثار السلبية لترك الجهاد . لأن الأمة التي تترك الجهاد طلباً لرغد العيش ، تلبس ثوب الذل والمسكنة ، وتتوالى عليها الضربات والهزائم من كل جهة ، وتشعر بالحقارة النفسية والهوان الاجتماعي الذليل . والجهاد كما يراه الامام علي طريق لتفتح البصيرة الواعية والرؤية الصحيحة لأن الأمة التي تترك الجهاد تسدل الحجب على قلوب أهلها ويسيطر عليها الخوف ولن تعود قادرة على حمل راية الاسلام والدعوة إلى الحق .

وعندما تربي الأمة الاسلامية على روح الجهاد في سبيل الله ، وتتسلح بهذا الدرع الآلهي فلن تنثني أمام أقسى الضربات . وتعيش بكرامتها وعزتها ، خير أمة أخرجت للناس . قال الرسول الأعظم (ص) : « إن الله أعز أمتي بسنابك خيلها ومراكز رماحها » .

وقال الامام علي (ع) : « إن أكرم الموت القتل ! والذي نفس ابن أبي طالب بيده ، لألف ضربة بالسيف أهون علي من ميتة على الفراش في غير طاعة الله » .

إن روح الجهاد في سبيل الله تجسدت بأجلى معانيها في نفوس أئمة آل البيت وأتباعهم من المجاهدين الأتقياء ؛ وبصورة خاصة في نفس سيد الشهداء ورائد المجاهدين الأبرار في سبيل الله .

فالجهاد في سبيل الله يكتسب قداسته من صفات التضحية الواعية على طريق الهدف المقدس .

---

(21) يوضحها القرآن بالآية الكريمة : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح في ما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين ﴾[المائدة : الآية 93] .

الفصل السادس

نظم الحكم في الإسلام

نشأة النظم الإسلامية :

بدأ الإسلام في تنظيم الحياة الاجتماعية منذ أول عهده ، وهذه النظم كانت نتيجة الوحي القرآني ووقائع السيرة النبوية ، فنظريات الفقهاء في الأحوال الشخصية وتنظيم الأسرة ، والتنظيمات السياسية ، والعسكرية ، والمعاهدات الدولية ، وكل ما يتعلق بالأمور المالية والاقتصادية ، ليست إلّا امتداداً لبعض الوقائع التي حدثت في عهد الرسول (ص) وكان له فيها قول ، أو تنبيه ، أو إرشاد ، أو تقرير .

فعصر النبي (ص) كان منطلقاً خيراً لكل ما عرف في الإسلام من نظم وقوانين . قال عزَّ وجلّ : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾ [النحل : 44] . إن كل ما نلمسه في حياتنا العامة والخاصة من مواضيع نتوهم أنها جديدة على الحياة الإنسانية المعاصرة ، له أصل بشكل أو بآخر في القرآن الكريم أو في السنة الشريفة .

لقد وضعت في المدينة أسس المجتمع الجديد من توحيد الله ، إلى المجاهرة بالحق ، إلى العمل الصالح ، إلى المكارم الأخلاقية ، إلى البناء العلمي في كل شؤون الحياة .

أصبحت المدينة بفضل الرسول (ص) ومن ناصره في موطن الإسلام ، المقر الصالح للدعوة الإسلامية ومركز التحول والتغيير في تنظيم المجتمع السياسي ، والاجتماعي ، والاقتصادي ، والتربوي ، والعلمي .

كانت الهجرة تجسيداً لهذه التنظيمات بمعناها الشامل الواسع الذي زادته ممارسة الوقائع تفصيلاً وتوضيحاً . وبذلك تمكن المسلمون الأولون من تحويل المرحلة النظرية إلى

مرحلة علمية تطبيقية . من هنا نعلم أن الحياة الجديدة والتنظيم الجديد ، بكل ما ورد فيه من تشريع لم يكن إلا امتداداً لما بدأ به الرسول وجماعته في مكة المكرمة .

ومما يبدو أن جو المدينة المنورة كان أكثر ملاءمة للتشريع ، وأكثر مناسبة لإظهار الحركة السياسية ، والاجتماعية ، والعسكرية والتنظيمية بشكل جديد . فلقد قام في يثرب مجتمع جديد من حيث الشكل والمضمون ، مبني على قواعد أساسية مستمدة من العناية الإلهية ، تحت قيادة رئيس واحد ، هو رسول الله ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ [الأنبياء : 107] من المدينة المنورة بدأ عهد جديد يرسم للإنسان منهجاً جديداً سليماً في الحياة ، ينير له الطريق من غبار الجهل وأذران الجاهلية ، بدأ منهج في التغيير نحو الأفضل والأكمل والأسلم . قال تعالى : ﴿ **يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً** ﴾ [الأحزاب : 45 و 46] .

حكومة الرسول في المدينة :

ترتب على قيام الحكومة النبوية في المدينة المنورة آثار بعيدة المدى في جميع الحقول والميادين .

أ ـ الأثر الديني : قضى الإسلام على الوثنية والشرك بالله ، ودعا إلى عبادة إله واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد ، هو رب العالمين ، فأنكر العصبية القبلية ورفض مبدأ الشعوب المختارة ، وبنى أركانه على أعمال إنسانية نبيلة تشعر الإنسان بعاطفة صادقة مخلصة .

فرض بأمر من الله جلَّ وعلا الصلاة في تدبر وخشوع ، وإيتاء الزكاة لرعاية التكافل الاجتماعي والحج إلى بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً ، والصوم بمعناه الروحي والاجتماعي . وإقامة الصلاة دعت إلى بناء المساجد ، فكان « مسجد قباء » بناه الرسول في طريقه إلى المدينة ، وفي المدينة بنى مسجداً جديداً آخر[٦] .

ولم يعرف الأذان إلا بعد انتقال النبي إلى المدينة حيث وجد المسلمون متنفساً لأداء الشعائر الدينية ، وكان قد أمر بلالاً صاحب الصوت الندي الجميل ليؤذن بالناس للصلاة .

والإسلام كالأديان السماوية التي سبقته يدعو إلى مكارم الأخلاق ، ولا يفرق بين

---

(٦) المقدمة لابن خلدون ص 283 .

أحـد من الأنبياء ، لأنهم جميعهم يبلغـون رسالات الله ولا يخشـون أحـداً إلا هـو ، وإن أتباعهم يؤلفون أمة واحدة تعبد الله وحده ، ولا تشرك به أحداً . أمـا ما أصـاب الأديان من تحـريف لا بد أن يكـون من شروح الأتباع من العلماء والأحبـار ولا يد فيـه لـلأنبيـاء والمرسلين[2] .

ب ـ **الأثر السياسي** : كانت الحروب والغزوات تسود معظم الجزيرة العربيـة طوال فترة بعيدة من الزمن ، حتى ملت القبائل تلك الحياة المشحونة بالمنازعات كل هذا الوضع المتأزم جعل النـاس يتوقون إلى نظام سياسي جديد .

جـاء الإسلام بـدعوتـه الكريمـة الإنسانيـة وطلب من النـاس الـدخـول بـالـرضى والطواعية في دين الله أفواجاً . حتى عم السلام جميع أنحـاء الجزيـرة العربيـة فقد وضـع الرسول (ص) منذ هجرته إلى يثرب النواة الأولى للحكومة الإسلامية ، بعد أن حصنهـا بالمبادىء العادلة السامية التي كفلت لها الاستقرار والبقاء .

وكان النـبي يرأس هذه الحكومة التي بدأت شورية ديمقـراطية منـذ يومهـا الأول[3] عملاً بقوله تعـالى : ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾ و﴿ **أمـرهم شورى بينهم** ﴾ « قـال الحسن البصري : أمره تعالى بمشاورتهم ليستن به المسلمون ، ويتبعه فيها المؤمنون ، وليستخرج منهم الـرأي فيما لهم ينـزل فيه وحي من أمـر الحروب ، والأمـور الجزئيـة ، وإن كان عن مشورتهم غنياً »[4] .

وبدأ عليه الصلاة والسلام بمهمات الرئاسة فيؤم المسلمين ، ويقودهم في الحـرب ، ويصلح بين المتنازعين منهم ، ويقسم الغنائم والفـيء والأنفال . واتخذ كتّـاباً يمـلي عليهم ما ينزل من الـوحي . أما الجنـد فلم تكن الحاجـة ماسـة بعد إلى اتخـاذ سجلات وإقـامة الدواوين وأخذت رقعـة الإسلام بـالتوسـع في أطراف الجـزيرة ، فـأمر الـرسول (ص) بعض صحبه العلماء بتعليم الناس مبـادىء الدين الحنيف ، كـما عهد إلى البعض الآخـر ممن يرى فيهم الكفاءة في الحسابات المالية والدينية بجمـع المترتبـات الماليـة من البلاد التي دخل أهلها في الإسلام .

وكلنا يعلم ما كـان للعصبية القبليـة من تأصـل في نفوس العـرب آنذاك ، لـذلك

---

(2) راجع النظم الإسلامية للمؤلف ص 154 .

(3) المرجع السابق ص 155 .

(4) السياسة الشرعية لابن تيمية 169 .

عمـل (ص) في زرع الآخاء الإسـلامي ليشد بـه أزر المسلمين ، ويلفهم بثـوب يجمـع كلمتهم ، ويعلي شأنهم ، أمة واحدة لا تمييز ولا تفريق بين جميع أفرادها . وقـد أعطاهم المثـل الناطق ، فجعـل من سلمان الفارسي أخـاً حمياً ، ومن بـلال الحبشي مؤذناً صـالحـاً ووصى وهـو على فـراش الموت بـالتآخي بـين المسلمين ، والتـواصي بـالحق ، والتـواصي بالصبر .

ج ـ **الأثر الاجتماعي** : لا شك أن كل مـا جاء بـه النبي والمؤمنون من بعـده ، من معطيات فكـرية بنـاءة هو في سبيـل المجتمع ، ومن أجـل نموه وتـطوره ، والمجتمعات في شتى أنحاء العالم ، والإسلام الذي نسق بين الروح والمادة ، فأعار لفتة كريمة إلى التنـظيم الاجتماعي في دنيا الإنسان الحاضرة ، دون أن يفته التذكـير في اليوم الآخـر يوم الحسـاب الأكبر .

ومن أبرز الآثار الاجتماعية التي ترتبت على قيام الحكومة النبوية في المدينة ، تحطيم الطبقية وما بينها من فروق ، والعصبية القبلية الجاهلية ، ومحاربـة الرق والعبـودية ورفـع مستوى المرأة في الأسرة وفي المجتمع ، وإلغاء كل ما يؤذي الإنسان صحياً ومعنوياً . كـل ذلك حدث بأسلوب نبوي فريـد ، فمنذ أن حـل الرسـول (ص) بمدينـة الأنصار طفق بأقواله وأعماله يقضي على التمييـز العنصري ، ويهدم قـواعد الكـبرياء ، ويلغي الفـروق الاجتـماعية القبليـة[5] ، واضعاً المـوازين العادلـة لأسس المسـاواة الحقيقيـة بـين النـاس أجمعين ، فأعلن (ع) : الناس سواسية كأسنـان المشط لا فضل لعـربي على أعجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى . فالتقوى هي الميزان الحقيقي والمعيار الصحيح في المفـاضلة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، ولا وزن في نـظر الإسلام العـادل بعد للعـرق أو الجنس أو اللون .

من هنا انطلق (ص) يتدرج بتحرير الرقيق ، فكل إنسان له الحق في الحياة الحـرة الكـريمـة ، وليس لأحـد من سلطة عليـه في حجـز حـريتـه . هـذا مـا جـاهـد من أجله رسول الله ، من أجل عباد الله ، محرماً استرقاق الحر واستغلال العبد .

ومن وحي تصرف الإسـلام في هذا الشـأن بدأ الضمـير البشري يسير عـلى خـطاه المبـاركة . وانسجـاماً مـع هذه التعـاليم الإنسانيـة التي تكرم الإنسـان ، ولا تفـرق بـين عنـاصره إلا بقدر مـا يقدم الفـرد في مجتمعه من التقى والعمـل الصالـح ، أقـر الإسـلام

---

(5) راجـع تجهيز جيش أسـامة بن زيـد الذي أمـر به الـرسول بعـد عودتـه من حجة الـوداع معتمداً عـلى الكفاءة الشخصية وتقوى الله . (النظم الإسلامية للمؤلف ص 110) .

للمرأة بأهليتها في الحقوق المدنية والمالية والاجتماعية ، وجعلها مساوية للرجل في المجال الديني والاجتماعي والإنساني . وقد بلغ من تكريمها وإنصافها ما لم يبلغه تشريع اجتماعي في القديم والحديث .

الخلافة

الخلافة لغة : مصدر من خلف . يقال خلفه خلافة ، كان خليفته وبقي بعده . ومنها خلفت المرأة : أي تركت وراءها من يخلفها . فالخلافة موضوعة في الأصل لكون الشخص خلفاً لأحد . من هنا كان من يخلف الرسول في إجراء الأحكام الشرعية خليفة .

الخلافة اصطلاحاً : هي رئاسة عامة في أمر الدين والدنيا نيابة عن النبي (ص) . وفي ذلك يقول ابن خلدون : « والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا »[6] .

ومنزلة الخليفة من الأمة كمنزلة النبي من المؤمنين ، له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة ، وله حق القيام على دينهم ، فيقيم فيه حدوده ، وينفذ شرائعه ، وله بالأولى حق القيام على شؤون دنياهم أيضاً ، بيده وحده زمام الأمة ، وكل ولاية مستمدة منه ، وكل خطة دينية أو دنيوية متفرعة عن منصبه . فهو الحاكم الزمني والروحي . ولا تتعدى وظيفته الدينية المحافظة على الدين . وباعتباره حامي الدين والمدافع عنه يستطيع أن يعلن الحرب على الكفار ويعاقب الخارجين على الدين ، ويؤم الناس في الصلاة ، ويلقي خطبة الجمعة .

والله سبحانه وتعالى أمر بخلافة الإنسان على الأرض وارتضى الصالحين من عباده أن يكونوا خلائف الأرض لتثبيت شريعته وإعلاء كلمته . قال تعالى : ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ [البقرة : 30] وقوله : ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض** ﴾ [الأنعام : 165] .

شروط الخلافة : تكون الخلافة نتيجة انتخاب الأمة وبيعتها برضاها ، ويشترط في

(6) المقدمة ص 159 .

الشخص المرشح لها أن يكون جامعاً لصفات وشروط الأُمة لها ، عينها العارفون بالدين ، ووردت على لسان أكثر المؤرخين . وهي :

1 ـ العلم . 2 ـ والعدالة ، على شروطها الجامعة . 3 ـ والكفاية . 4 ـ وسلامة الحواس والأعضاء ومما يؤثر في الرأي والعمل . 5 ـ الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح . 6 ـ الشجاعة والنجدة . 7 ـ النسب الشريف .

ويراد بالعلم ، المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام الفقهية . وبالعدالة : على شروطها الجامعة أن يكون الخليفة صاحب استقامة في السيرة والسلوك متجنباً المعاصي . والكفاية : يقصد منها : أن يكون قادراً على إقامة الحدود ، بصيراً بالحروب ، كفيلاً بحمل الناس عليها ، صاحب رأي وتدبير . والرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير مصالح الناس بحكمة وحسن تدبير . والنسب : أن يكون من سلالة طاهرة لا طعن فيها يتحلى بالأخلاق الفاضلة ويتسلح بالإيمان . والشجاعة والنجدة : المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو لصيانة حقوق المسلمين ورفع كلمتهم .

نظرية الخوارج في الخلافة : الخلافة في نظرهم أنها حق لكل عربي حر ، وإذا اختير الخليفة فلا يحق له أن ينزل عنها وإذا جاز استحلوا عزله أو قتله إذا اقتضت الضرورة ذلك[7] . ثم أدخلوا شرطاً آخر ، الإسلام والعدالة ، بدل العروبة والحرية .

نظرية المرجئة : كان المرجئة يتحرجون من إدانة أي مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها . فالعقيدة الأساسية عندهم هي عدم تكفير أي إنسان اعتنق الإسلام ونطق بالشهادتين . وقد قالوا بالخلافة لبني أُمية ، لأن أفكارهم تتفق تماماً مع أفكار رجال البلاط الأموي ومن يلوذ به من أصحاب المصالح الشخصية .

وبزوال الدولة الأموية أفل نجم طائفة المرجئة ولم تصبح بعد حزباً مستقلاً ، وقد ظهر من بينهم أبو حنيفة صاحب الرأي والقياس[8] .

نظرية المعتزلة في الخلافة : ابتدأت الخلافة فرقة دينية في أول أمرها ، إلا أنها لم تلبث أن خاضت غمار السياسة ، فتكلمت في الإمامة وشرط الإمام . يقول المسعودي : « يذهب المعتزلة إلى أن الإمامة اختيار من الأُمة ، وذلك أن الله عزَّ وجلّ لم ينص على

---

(7) راجع مروج الذهب ج 2 ص 110 ـ 111 .

(8) راجع تاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم حسن ج 1 ص 418 .

ـــرجل بعينه ، وأن اختيار ذلك مفوض إلى الأُمة تختار رجلاً منها ينفذ فيهـا أحكامـه سواء كان قرشيـاً أو غيره من أهـل ملة الإسلام وأهـل العدالـة والإيمان ، ولم يـراعوا في ذلـك النسب ولا غيره . وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك[9] .

نـظرية الشيعـة في الخلافـة : اعتمد الشيعـة في إثبات الخـلافة أنها حق لهم ، وفي نظرهم أن علياً هو أحق الخلفاء بها لأنه يتمتع بأجمع الصفات المنصوص عليها . والأدلـة الشرعية تفرض مذهب أهل البيت الذين طهرهم الله عزَّ وجلّ . قال تعالى : **﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهـل البيت ويطهـركم تطهيـراً ﴾** [الأحزاب : 33] وتخـريج هذه الآية ، آية التطهير ، على أيـدي الحفاظ ، أخـرجها مسلم في صحيحـه عن طريق عائشة : « خرج النبي (ص) وعليه مرط مرجل من شعر أسـود ، فجاء الحسن بن عـلي فأدخله ، ثم جاء الحسين فدخل معه ، ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قـال : **﴿ إنما يـريد الله ليـذهب عنكم الرجس أهـل البيت ويطهـركم تطهيـراً ﴾**[10] . وأخرج الحديث الترمذي[11] . وأخـرجه النسـائي عن طريق سعـد بن أبي وقاص[12] . وأخرجه الخطيب عن طريق أبي سعيد عن أُم سلمة[13] .

وعن أنس بن مـالـك أنها نـزلت في رسـول الله (ص) وعـلي وفـاطمـة والحسن والحسين (عليهم السلام)[14] . كما أخرج الحديث الطبري في ذخائر العقبى ، والحاكم في المستـدرك ، وابن كثير في تفسـيره ، وابن عسـاكـر في تـاريخـه ، والشـافعي في كفاية الطالب ، وابن عبد ربـه في العقد الفـريد ، والمعتمـد الثاني للشيعـة هو حـديث الثقلين وخطبة النبي في عيد الغدير . أخرجه مسلم في صحيحه عن طـريق زيد بن أرقم قـال : « لمـا نزل النبي بغـدير خم في رجـوعـه من حجـة الـوداع وكـان في وقت الضحى والحـر الشديد فنادى بالصلاة ، فتجمعنا فخطب خطبة بالغة ثم قال : إن الله تعـالى أنزل إليّ : **﴿بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعـل فما بلغت رسـالته والله يعصمـك من الناس﴾** وقد أمرني جبريل عن ربي أن أقوم في هذا المشهد وأعلم كل أبيض وأسـود أن علي بن أبي طالب : أخي ووصيي ، وخليفتي ، والإمام بعـدي ، فسألت جـبريل أن يستعفي لي ربي

---

(9) تاريخ الإسلام السياسي ج 1 ص 421 ومروج الذهب ج 2 ص 191 .

(10) صحيح مسلم ج 4 ص 127 .

(11) الترمذي ج 4 ص 304 .

(12) الخصائص ص 4 .

(13) أسد الغابة ج 5 ص 521 .

(14) تفسير ابن جرير ج 7 ص 22 .

لعلمي بقلة المتقين وكثرة المؤذين لي والـلائمين لكـثرة ملازمتي لعـلي ، وشدة إقبـالي عليه حتى سموني أُذُناً ، فقال تعالى : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولـون هو أُذُنٌ قـل أذن خير لكم ﴾ [التوبة : 61] ولو شئت أن أسميهم وأدل عليهم لفعلت ولكني بسـترهم قد تكرمت ، معاشر الناس فإن الله قد نصبه ولياً وإماماً ، وفرض طاعته على كلّ أحد ماض حكمه جائز قوله ، ملعون من خـالفه ، مـرحوم من صـدقه ، اسمعـوا وأطيعوا فـإن الله مولاكم وعلي إمامكم .

ثم يقول في الخطبة :

« افهموا كتاب الله ، ولا تتبعوا متشابهه ولن يفسر ذلك لكم إلا من أنا آخذ بيـده شائل بعضده ومعلمكم : أن من كنت مولاه فعلي مولاه ، وموالاته من الله عـزَّ وجلّ أنـزلها علي . ألا وقد أديت ، ألا وقد أسمعت ، ألا وقد أوضحت ، إلى آخر خطبته التي رواها الثقاة من أبناء الأمة . ومما جاء في خطبة عيد الغدير حديث الثقلين . يقول الحديث :

إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي : كتـاب الله الممدود من السـماء إلى الأرض وعـترتي أهـل بيتي أذكـركم الله في أهـل بيتي فـانـظروا كيف تخلفـوني فيهما »[15] .

علامات الخلافة :

الخلافة الحقة هي تطبيق السنة النبوية تطبيقاً صحيحاً كـاملاً ، وهي تـرجمة أقـوال النبي أعمـالاً . وكم هو جميـل في كل عصر ومصر أن نـوحِّد بـين القول الحكيم والعمـل العظيم[16] . والعلامات الخارجية التي تشبهوا بها الخلفاء بالنبي هي :

أ ـ البردة : وهي لباسه الخارجي يلبسها النبي فـي استقبالاته الرسميـة . يروى أن

---

(15) راجع صحيح مسلم ج 7 ص 122 ومسند أحمد ج 2 ص 14 وتاريخ البغـدادي ج 8 ص 443 وتفسير ابن كثـيرج 2 ص 486 وسنن الـترمـذي ج 2 ص 308 ومصـابيـح السنـة ج 2 ص 204 المستـدرك ج 4 ص 119 . هذا ويطول بنا الشرح عن هذا الحديث . قال ابن حجر في الصواعق المحرقة : ولهـذا الحديث طـرق كثيرة عن بضـع وعشرين صحابيـاً . كما روى عن الإمـام الشافعي وجـوب الصلاة عـلى آل محمد في التشهد الأخير ، وروى له قوله :

يـا آل بـيـت رسـول الله حـبـكـم ... فـرض مـن الله في الـقـرآن أنـزلـه
كـفـاكـم مـن عـظـيـم الـقـدر أنـكـم ... مـن لم يـصـل عـليـكـم لا صـلاة لـه

(16) لأنه عندما يتحد القول بالعمل يولـدان صبياً يسميـانه الصـدق ، وعنـدمـا يتحد القـول بالعمـل يولـدان بنتاً يسميانها الوفاء . ويلعب الجميع لعبة أظنها الحرية .

الرسول أعطاها إلى كعب بن زهير بن أبي سلمى الشاعر المعروف ، بعد أن مدحه كعب بقصيدته (بانت سعاد) وكان قبلاً قد هجاه وفر هارباً من وجه المسلمين . ولما تم فتح مكة ، كتب بجير بن زهير ليعود إلى حضرة النبي تائباً مؤمناً ، والنبي يصفح عنه ويسامحه قال بجير : « وإن من بقي من شعراء قريش قد هربوا في كل وجه فإن كانت في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً »[17] فما كان من كعب إلا أن لبى نداء أخيه وجاء المدينة وسلم نفسه النبي ومدحه بقصيدة رائعة مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم إثرها لم يفد مكبول

فأكرمه النبي ومنع القوم أن يأذوه وخلع عليه بردته . وظلت البردة عند أهل كعب حتى اشتراها منهم معاوية بن أبي سفيان . ظناً منه أنه يوهم الناس بحقه بالخلافة ، وقد دفع ثمنها أربعين ألف درهم أي ما يعادل نصف مليون ليرة لبنانية . ثم توارث البردة بعد معاوية الخلفاء الأمويون ومن بعدهم العباسيون . وهي الآن من جملة المخلفات النبوية الموجودة في السراي القديمة في الأستانة .

ب ـ الخاتم : اتخذه الخلفاء بعد النبي تشبهاً به ، فقد كان يكتب إلى كسرى وإلى قيصر يدعوهما إلى الإسلام ، فقيل له أن العجم لا يقبلون كتاباً إلا أن يكون مختوماً . فاتخذ خاتماً من نفسه نقش عليه « محمد رسول الله » .

ومما يروى أن هذا الخاتم انتقل إلى أبي بكر ، ثم إلى عمر ، ثم إلى عثمان ، وقد وقع من يد عثمان في بئر « أريس » ولم يعثر عليه بعد ذلك . فاصطنع عثمان خاتماً مثله ، وكان كل من ولي الخلافة بعده يصطنع له خاتماً يختم به الكتب في آخر الكتابة وفي أعلاها بالطين أو الشمع أو المداد . وبقي هذا الخاتم يستعمل حتى العصور العباسية .

يذكر البلاذري أن زياداً أول من اتخذ من العرب ديوان الخاتم مقلداً الملوك الفرس . فجعل عدة خواتم منها خاتم السر ، وخاتم الرسل وخاتم الإقطاعات وخاتم الخراج[18] وبقي ديوان الخاتم معمولاً به حتى أواسط العصور العباسية ، ولما أراد الرشيد أن يستوزر جعفر بن يحيى البرمكي بدل الفضل أخيه قال لأبيهما :

« يا أبت إني أردت أن أحول الخاتم من يميني إلى شمالي » وهو يعني الوزارة ولما

---

(17) تأريخ التمدن الإسلامي ج 1 ص 139 .

(18) راجع فتوح البلدان للبلاذري .

نشأت السلطات جعل السلاطين علامة السلطة مثل علامة الخلافة وسموها « الطغـراء » ، وهي نقشة تكتب بخط عريض وفيهـا ألقاب الملك . والشـاعر الـطغرائي المعـروف كان وزيراً للسلطان السلجوقي وكان خطه جميلاً ، وكان يكتب تلك الطغراء[19] .

ومما يروى أن الخلفاء نقشوا على خواتمهم (طغراء) فيها حكم ومواعظ . نقش أبو بكر على خاتمه : « نعم القادر الله ».ونقش عمر : « كفى بالموت واعـظاً يا عمـر » ونقش عثمان : « لتصبرن أو لتندمن » ونقش علي : « الملك لله » .

وجرى على ذلك خلفاء بني أمية وبني العباس . ولكـل منهم عبارة خـاصة نقشهـا على خاتمه . من هذه العبارات : نقش على خاتم المأمون : « عبد الله يؤمن بالله مخلصاً » وعلى خاتم الواثق : « الله ثقة الـواثق » والمتوكـل كتب : « على الله تـوكلت » والمعتمد : « اعتمادي على الله وهو حسبي »[20] .

ج ـ **القضيب** : القضيب أو العصا من علامات الخلافة ، فإذا تولى الخليفة جاؤوه بـالبردة والخـاتم والقضيب ، وظل الأمـر على ذلـك في بني أمية وبني العبـاس ، هذه هي العلامات الخارجية التي كانت سائدة للخلافة في ذلك العصر .

أما عن شارات الخلافة فكانت ثلاث أيضاً :

أ ـ **الخـطبة** : كـان يدعى للخلفـاء على المنـابر ، وقـد كانـوا هم أنفسهم يتولـون الصلاة بعد اختتامهم فروض الصلاة فيدعـون للنبي (ص) والصحابـة . ولما تـوسعت الفتوحات الإسلامية ، وعينوا عليها العمال صار الولاة يتولون إمامـة الصلاة في ولايـاتهم ويختمونها بالدعاء للخلفاء .

ب ـ **السكة** : ومن شارات الخلافة الختم على النقود بطابع من حـديد ينقش عليـه اسم الخليفة ، ويقال لها السكة ولا بد منها للدولة .

ج ـ **الطراز** : وذلك أن يرسم على ثوب الخليفة أو السلطان علامات تختص بهم ، بخيوط من حرير أو ذهب ، وهو أمر معروف في قديم الدول من عهـد الفرس والـروم . وهـذه الألبسة الملوكيـة تدل عـلى لابسيها من أهـل الدولـة ، وتعطيهم هيبـة خاصـة بهم

(19) انظر تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان .

(20) المقـدمة لابن خلدون . وتـاريخ التمـدن الإسلامي لجـرجي زيدان . ونـظم الحكم في الشريعـة والتـاريـخ الإسلامي لظافر القاسمي .

ومهابة شخصية . وقد اكتسبت هذه المظاهر الخارجية التي لا تمت بصلة إلى الجوهر من عادات الفرس والروم وهذا ما يرفضه الإسلام ولا يعطيه أية قيمة وتقدير ، لأنه دين التواضع والتقشف ، والحاكم المؤمن يستلهم مهابته من الله ، فهو يحكم بكتاب الله ، وينفذ شريعة الله . ويعلم علم اليقين أن الحياة الدنيا قصيرة وأيامها معدودة ولا تغريه ببهارجها وزينتها . ويعلم أيضاً أن مهابة المرء يكسبها من نفسه ومن صفاته الشخصية من علمه ، وعدله ، وحزمه ، وشجاعته ، وتفانيه ، وتقاه ، وتفقهه بأمور الدين ، وتبصره بشؤون البلاد والعباد .

إن قيادة الأمة بما لها من أهمية بالغة وما يترتب عليها من سعادة الناس وشقائهم ، تقتضي وجود عدة شروط وصفات في الخليفة . ولقد فطن الإسلام إلى هذا الأمر الخطير فاشترط في الحاكم الإسلامي صفات معينة أكد على ضرورتها عند انتخاب الخليفة أو الحاكم[21] .

الإدارة

تأسست الدولة الإسلامية بعد هجرة النبي (ص) إلى المدينة واستقراره فيها . وقد اتخذها مقراً للدولة الناشئة بعد أن وضع لها أسساً واضحة مستقيمة محددة ثابتة .

من أهم هذه الأسس :

1 ـ عمل على تبليغ الرسالة التي اختاره الله تعالى لنشرها بكل الوسائل بين العرب خاصة والناس عامة ، فأرسل إلى القبائل في النواحي من يفقهها في الدين ويعلمها أحكام القرآن .

2 ـ عقد المعاهدات بين المسلمين والذميين ، فشرط لهم واشترط عليهم ما فيه خير للجميع بالعدل والمساواة ، ونظم شؤون هذه الجماعات المختلطة من جميع النواحي وحسب الأصول التي تحفظ لهم حياة حرة كريمة .

3 ـ اتخذ من المسجد في المدينة ، الذي بناه لإقامة الصلاة ، مكاناً يجتمع فيه المسلمون للتشاور في مهامهم ، وغرفة عمليات لتنظيم الدعوة الإسلامية ، ومقراً لاستقبال الوفود الآتية من كل حدب وصوب للاستفسار والمحاورة حول الدين الجديد .

4 ـ كان يستشير أصحابه من العلماء المخلصين للدعوة فيما كان يجد من أمور طارئة

---

(21) راجع نظم إسلامية للمؤلف ص 230 .

ليس فيها نص من القرآن الكريم فوجدناه بعد أن انتصر على قريش استشار أصحابه على قبول الفداء منها في أسراها . كما شاورهم يوم أحد في المقام والخروج ، فرأوا له الخروج فخرج . كما نزل على مشورة سلمان الفارسي في حفر الخندق حول المدينة في غزوة الخندق .

واستشار أيضاً (ع) أهل بيته ، وخاصته في حديث الإفك . وقد ظل (ص) هكذا يستشير من يثق بهم من المسلمين في كل ما ليس فيه وحي من السماء ، ويعمل بمشورتهم عندما يرى فيها الخير والصلاح والرأي الصواب .

5 ـ دستور الحكومة الإسلامية القرآن الكريم ، وهو تنزيل من حكيم عليم . فيه من النظم والتشريعات والأحكام الخير كل الخير للناس كافة ، وما كان أصلاً لكل النظم التي استلزمها تطور الدولة فيما بعد ، واتساع رقعتها ، وتعدد ديانات المنضوين تحت لوائها ، وما عندهم من عادات وتقاليد وأعراف . فأحكام هذا القرآن كما توضح منها عامة لجميع خلق الله . وصالحة لكل زمان ومكان في كل عصر ومصر . وبذلك وضعت الأسس والأصول لنشأة الدولة الإسلامية وتطورها ، التي يهمها سعادة الناس أجمعين ، وتكريمهم كما أراد رب العالمين .

ولما اتسعت الدولة الإسلامية بعد الفتوح الكثيرة ، وعظم عمرانها ، وازداد عدد سكانها واختلفت عاداتها وأعرافها ، فكان لا بد من وجود أمور وأحداث لم تكن من قبل ، فاحتاج الأمر والحالة هذه إلى نظم تساير هذا التوسع السريع والتطور الجديد . مما دعا الفقهاء إلى تفصيل الأحكام وتوضيح الأصول التي وضعها النبي (ص) وتتوافق مع المبادىء الأساسية التي قام عليها الإسلام ، وجعلت منها أداة حكومية منظمة تنظيماً راقياً ودقيقاً مما كفل للدولة الإسلامية الزاهرة من الثبات والإستقرار ، والقوة والحياة ، والتقدم .

حكومة الأقاليم

بعد استقرار حكومة الرسول في المدينة ، وانتشار الإسلام في جزيرة العرب ، بعث صلوات الله عليه عماله ، إلى كل البلاد التي دخلت في حكم الإسلام . وكانت مهمة هؤلاء العمال ، إمامة الناس في الصلاة ، وجمع الصدقات ، وإقامة الحدود والفصل في القضايا . وقد عرفوا عماله (ص) بالعلم والتقوى والفقه في الدين .

أجمع المؤرخون وكتاب السير أن أهم عماله (ص) هم :

1 ـ عامل الطائف : عثمان بن أبي العاص . 2 ـ عامل البحرين : العلاء بن الحضرمي . 3 ـ عامل حضرموت : زياد بن لبيد . 4 ـ عامل صنعاء : المهاجر بن أبي أمية . 5 ـ عامل مكة : عتاب بن أسيد الأموي(22) .

وأول راتب فرضه النبي (ص) للعمال هو راتب عتاب بن أسيد(23) ، وكان درهمان كل يوم .

وفي عهد أبي بكر قسمت البلاد التي كانت تحت الإدارة الإسلامية إلى عشر ولايات ، على كل ولاية منها أمير ، من واجباته : إقامة الصلاة ، وجمع الصدقات ، والفصل في القضايا ، وإقامة الحدود ، كما كانت أيام الرسول (ص) فالأمير قاض ومنفذ يقوم بعمل الشرطة اليوم .

هذه الولايات الخمس المذكورة أقر عليها أبو بكر ولاتها السابقين . ثم استحدث خمس ولايات أخرى هي :

6 ـ خولان وعليها يعلى بن أمية . 7 ـ زبيد ورمع وعليهما معاً أبو موسى الأشعري . 8 ـ الجند وعليها معاذ بن جبل . 9 ـ نجران وعليها جرير بن عبد الله البجلي . 10 ـ جرش وعليها عبد الله بن ثور .

وفي عهد عمر اتسعت رقعة البلاد الإسلامية ، فقسمها إلى أقسام إدارية كبيرة ، وجعل على كل قسم منها والياً يتولى شؤونها ، وذلك حتى يسهل حكمها والإشراف عليها وعلى مواردها . وحكام الولايات كانوا من أفاضل القوم وأرفعهم علماً وهدياً ، وقبل إرسالهم إلى الحكم كان يتعهدهم بالنصح والإرشاد . من ذلك نذكر بعض نصائحه لعماله قال :

« إني لم أبعثكم جبابرة ولكن بعثتكم أئمة ، فلا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم فتظلموهم وادرأوا لقحة المسلمين »(24)

---

(22) سيرة ابن هشام ج 2 ص 349 وتاريخ الطبري ج 2 ص 455 .

(23) وعتاب هو من مسلمي الفتح استعمله النبي على مكة لما خرج إلى حنين وكان عمره 20 سنة .

(24) الخراج لأبي يوسف ص 66 .

والتقسيمات الإدارية في عهد عمر هي عشر أيضاً :

1 ـ مكة وأميرها نافع بن عبد الحارث الخزاعي . 2 ـ الطائف وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفي . 3 ـ صنعاء وأميرها يعلى بن منبه . 4 ـ البحرين وأميرها عثمان بن أبي العاص . 5 ـ الجند وأميرها عبد الله بن أبي ربيعة . 6 ـ الكوفة وأميرها المغيرة بن شعبة . 7 ـ البصرة وأميرها أبو موسى الأشعري . 8 ـ دمشق وأميرها معاوية بن أبي سفيان . 9 ـ حمص وأميرها عمير بن سعد . 10 ـ مصر وأميرها عمرو بن العاص .

وهكذا أصبح للدولة الإسلامية نظام إداري يكفل للخليفة حسن الإشراف عليها .

وفي عهد عثمان بقيت الأقاليم على ما هي عليه من حيث التقسيم والتأمر ، والشيء المميز في هذا العهد أن بعض الولاة المقربين من الخليفة أثروا ثراء فاحشاً فملكوا الضياع والمزارع ، وآلاف المواشي والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة ، حتى أنهم بنوا دورهم بالجص والعقيق .

جاء في تاريخ التمدن الإسلامي :

« وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس ، غير الضياع والأموال بمائة ألف دينار ، وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى أيضاً بمصر والكوفة والإسكندرية . وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج . وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات . . . »[25] هذا كله جرى في عهد عثمان . أما في عهد علي المعروف بزهده وتقشفه وعدله وسعة فقهه حدثت الحروب المريرة التي قادتها عائشة وطلحة والزبير . فقد انسلخ عن الأقاليم المذكورة إقليم الشام وكان واليه معاوية بن أبي سفيان الذي تولاه طوال العهد الراشدي ، حتى كان عهد علي ، حيث أمر بعزله حين تسلمه الخلافة ، لما رأى انحرافه عن الخط الإسلامي من بذخ وإسراف ومجون وتهتك . لكن معاوية الوالي لم يذعن لأمر الخليفة ودارت بينهما الحروب والمعارك وكان أبرزها معركة الجمل المعروفة .

---

(25) تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ج 1 ص 80 .

وكذلك كـان أمر مصر التي كـان أميرهـا عمرو بن العـاص الذي استقـل بولايتـه وعصى أمر أمير المؤمنـين وتصرف كما يتصرف ملوك القيـاصرة وملوك الأكاسرة بعيـداً كل البعد عن شريعة الإسلام العادلة . فبقي تحت أمرة علي الولايـات الثماني البـاقي وهي : مكة والطائف وصنعاء والجند والبحرين وما والاها والكوفة والبصرة وحمص .

ولما كان العهد الأموي بلغت الدولة الإسلامية حداً بعيداً من الاتساع وقد قسمت إلى خمس إمارات كبرى .

الدواوين

ذكرنا من قبل أن عمر هو أول من وضع التنظيم الإداري بإدخـاله نـظام الدواوين الذي أشار به عليه أحد مرازبة الفرس وذلك بعد أن احرزت الدولة الإسلامية فتوحـات واسعة النطاق[26] .

وأصل الديـوان : الدفـتر أو السجل بـالفارسيـة . وقد أطلقـوا اسم الديـوان على المكان أو الدائرة التي يحفظ فيها من باب المجاز . ولكن عمـر أخذ هـذا النظام الفـارسي وعدله ، لأن كل دولة ولها شأنها وخصوصياتها ، فجعل منه عدة فروع وأبواب وذلك تبعاً لحاجات الدولة الجديدة الواسعة .

1 ـ فـأنشأ ديـوان الجنود لينـظر فيما يخص الجنـود من العـطاء ومصـاريف الحـرب والدفاع .

2 ـ وديوان الخراج لينـظر فيمـا يـرد إلى بيت مال المسلمـين من جبايـة وما يفـرض لكل مسلم من عطاء .

والدواوين في الدولة الإسلامية الحديثة منها المركزية التي انشأهـا العرب فكـان كل ما فيها عربياً خالصاً غير مستورد .

ومنهـا المحلية الإقليميـة التي وجدهـا العرب في البلدان المفتـوحـة . فـوجـدوا من الحكمة إبقاء أهلها عليها حتى لا يفاجئوهم بجديد ولا يضطرب عليهم الأمر . كما كانت الحـال في العراق وإيـران . التي كانت دواوينهـا على النـظام الفـارسي حسب تقـاليـدهـا ومحيطها .

---

(26) الأحكام السلطانية لأبي يعلى ص 221 .

أما الشام فقد كانت دواوينها على النمط الرومي أي البيزنطي ، وفي مصر كانت قبطية وفي عهد عبد الملك بن مروان والوليد وهشام من الخلفاء الأمويين عربت هذه الدواوين . وقد كان عمر بن الخطاب يميل في تنظيمه الإداري إلى المركزية بصورة عامة ، ولذلك ربط الجند بالمركز حين أنشأ ديوان الجند . وصاروا يطلقون اسم الديوان عليه دون قيد أو شرط ، لأنه كان في زمن عمر ، الديوان الوحيد ذا الصفة الواضحة المستقلة .

وقد آثر عمر أن يسوي في العطاء والهبات بين العرب الخلص والموالي ، وكتب بذلك إلى الأجناد في الأمصار(27) .

وبعد تدوين الدواوين ، بنيت الأمصار ، ونظمت الجيوش ، ووجد العسس(28) ، وعين الولاة والقضاة والجباة ، ونظمت مصارف الدولة ومواردها عن طريق بيت المال ، وغير ذلك من الأمور الإدارية الأساسية لتنظيم إدارة الدولة الإسلامية وإصلاح شؤونها في جميع المجالات الحياتية . وهذا دليل ازدهارها وتقدمها ورقيها حتى أصبحت من أقوى دول العالم في تلك العصور .

الوزارة

معنى الوزارة :

الوزارة لغة مشتقة من الوَزَر (بفتح الواو) وهو الملجأ والمعتصم ، أو من الوزر : وهو الثقل والعبء . قال تعالى : ﴿ **كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر** ﴾ [القيامة : 11] وقوله تعالى أيضاً : ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ أي أثقالها . أو أنها من الأزر وهو الظهر ، لأن الخليفة يقوى بوزيره ، كقوة البدن بالظهر . ومنه قوله تعالى : ﴿ **واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري . . .** ﴾ [طه : 29] .

وقد سمي الوزير حبأ الملك ، لأنه يحمل ثقله ، ويعينه برأيه وتدبيره ، وكيفما تقلب المعنى يدل على مطلق المساعدة والإعانة(29) .

---

(27) فتوح البلدان للبلاذري .

(28) عسس الليل : حراسة البلاد أثناء الليل . راجع الآية الكريمة : ﴿ **والليل إذا عسعس . . .** ﴾ .

(29) الأحكام السلطانية للماوردي ولسان العرب والحبأ : جليس الملك وخاصته .

تاريخ الوزارة :

سلك الرسول الطريق السليم والمنهج القويم في سياسة الرعية ، فكان يشاور أصحابه المؤمنين العارفين في المشكلات الإصلاحية التي تعترضه عملاً بقوله تعالى : ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾ . ومن المعلوم أن عمر بن الخطاب كان وزيراً لأبي بكر ، يوزع الزكاة ويقضي بين الناس بأمر من الخليفة .

وعثمان بن عفان كان وزيراً للخليفة عمر ، فقد كان من أصحاب المعرفة بالأنساب وأحوال القبائل . وعلي بن أبي طالب كان وزيراً للنبي[30] ومستشاراً في عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة ، وبصورة خاصة في عهد الخليفة عمر ، لأن علياً معروف بفقهه في الدين وبلاغته وذكائه في أحوال الناس وشؤونهم .

والفرس عرفوا مثل هذا اللقب وربما أخذه العرب عنهم . لكن الفرق كبير بين أبهة الملك للأكاسرة وتقشف الخلفاء والوزراء في الإسلام . فقد امتازت حياة هؤلاء بالبساطة في جميع مظاهرهم ، والتقى والورع والزهد في الحياة الدنيا . يظهر ذلك من سلوكهم ومن صفاتهم في أقوالهم وأعمالهم .

كان للخليفة مجلس شيوخ يستعين به في تنظيم أمور الدولة ، وفي تخطيط مشاريعها الإصلاحية والتنظيمية في جميع الميادين . هذا المجلس يتألف من أعيان القوم ورؤساء القبائل وكبار الصحابة ، لا سيما الذين رافقوا الرسول في حله وترحاله ، وقد كانوا يتحلون بالنظرة الصائبة والعقل الراجح . وبهذا كان الحكم في صدر الإسلام قريباً جداً من النظام الديمقراطي ، الذي يتحول في العهد الأموي إلى ضرب من الملكية الوراثية[31] .

وفي نهاية العصر الأموي اتجهت الإدارة نحو التمركز فقد أصبح الخليفة يتخذ لنفسه كتاباً حتى أصبح الوزير خلفاً للكاتب[32] .

أما في العصر العباسي فقد استحدث منصب الوزير ، ومما يظهر أن أبا العباس حين أقرّ نظام الوزارة راعى تطور الدولة واتجاهها نحو التمركز وتوزيع السلطات ، وربما

(30) شرح النهج لابن أبي الحديد ج 1 ص 49 .

(31) راجع تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 259 والكامل ج 3 ص 244 .

(32) الحضارة العربية لمصطفى الرافعي ص 26 .

تم ذلك بتحريض من الفرس وتأثير الخراسانيين ، لأنهم كانوا أنصاراً طبيعيين للعباسيين إذ أنهم دعوا أبا سلمة الخلال « وزير آل محمد » وقد أقره العباس على منصبه وتسميته وظل العباسيون يطبقون نظام الوزارة بأبسط صورها طوال العصر العباسي الأول .

وصلاحيات الوزير لم تكن محددة ، ولذلك كثيراً ما كان يقع التصادم بين سلطة الخليفة من ناحية وسلطة الوزير من ناحية أخرى ، وطبيعي أن سلطة الخليفة هي التي تثبت في النهاية بعد وقوع الصدام ، وإذا ما استعرضنا تاريخ الوزارة في العصر العباسي كالمنصور مثلاً فإننا لا نجد وزيراً دائماً ، بل مرة نجد وزيراً ، وأخرى نجد كاتباً . وأكثر الذين شغلوا هذا المنصب كانوا من الموالي ، وقد آثرهم على العرب لحذقهم في الكتابة ومهارتهم في الإدارة . يقول المورياني : « ليس من شيء إلا نظرت فيه إلا الفقه ، فقد نظرت في الكيمياء والطب والنجوم والحساب وحتى السحر »[33] .

صفة الوزير :

كان لهذه الوظيفة مرتبة عالية ومكانة رفيعة في المجتمع ، والخلفاء كانوا لا يستوزرون « إلا الكامل من كتابهم ، والأمين من خاصتهم ، والناصح الصدوق من رجالها ومن تأمنه على أسرارها وأموالها ، وتثق بحزمه وفضل رأيه ، وصحة تدبيره في أمورها »[34] وقد بين الخليفة المأمون صفات الوزير الذي يريده فقال : « إني التمست لأموري رجلاً قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، إن ائتمن على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها ، يسكته الحلم ، وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة ، له صولة الأمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء »[35] وقد جمع أحد الشعراء هذه الأوصاف فأوجزها ، واصفاً بعض وزراء الدولة العباسية :

بديهته وفكرته سواء ... إذا أشبهت على الناس الأمور
وأحزم ما يكون الدهر يوماً ... إذا أعيا المشاور والمشير
وصدر فيه للهم اتساع ... إذا ضاقت من الهم الصدور[36]

---

(33) الحضارة العربية ص 27 والمورياني كان وزيراً من هؤلاء الذين أشرنا إليهم .

(34) التنبيه والإشراف للمسعودي ص 294 .

(35) الأحكام السلطانية ص 18 .

(36) المصدر السابق .

وفي عصر البويهيين اكتسبت الوزارة صفة عسكرية حربية ، فكان للوزير سلطة قيادة الجيش وتوجيهه إلى المواقع الحربية ، ووضع الخطط أثناء الحرب .

وقد قسمت الوزارة إلى نوعين :

أ ـ وزارة تنفيذ ؛ ب ـ وزارة تفويض .

وزارة التنفيذ :

يكون فيها الوزير « وسيطاً بين الملك ورعيته ، ويجب أن يكون في طبعه شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ؛ ليعامل كلاً من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة والأمانة ، والصدق رأس ماله .

قيل إذا خان الوزير بطل التدبير . وقيل ليس لمكذوب رأي . والكفاءة والشهامة من مهماته . والفطنة والتيقظ والدعاء والحزم من ضرورياته ولا يستغني أن يكون مفضالاً مطعاماً ، ليستميل بذلك الأعناق ، وليكون مشكوراً بكل لسان »[37] .

وإذا لاحظنا التعريف الذي أورده العلماء لوزير التنفيذ ، لوجدنا أن عمله دائم حيناً ، ومؤقت حيناً آخر ، فهو أشبه بصاحب البريد . ومن ناحية أخرى كان يتمتع باختصاصات عملية . قال الماوردي في أحكامه :

« وأما وزارة التنفيذ فحكمها أضعف ، وشروطها أقل ، لأن النظر فيها مقصور على رأي الإمام وتدبيره . وهذا الوزير وسيط ، يؤدي عنه ما أمر ، وينفذ عنه ما ذكر ، ويمضي ما حكم . فهو معين لتنفيذ الأمور ، وليس بوال عليها ، ولا متقلداً لها . فإن شورك في الرأي كان باسم الوزارة أخص ، وإن لم يشارك فيه كان باسم الوساطة والسفارة أشبه »[38] ولا يشترط لتعينه تقليد ، أو عقد ، أو صيغة معينة ، وإنما يكفي مجرد الإذن .

وقد حرموا وزارة التنفيذ على المرأة ، وأجازوها لأهل الذمة . جاء عن النبي (ص) : « ما أفلح قوم اسندوا أمرهم إلى امرأة » لأن في أمر الولايات من ثبات الرأي والعزم ما تضعف عنه النساء .

---

(37) الفخري في الآداب السلطانية لابن طباطبا ص 121 .

(38) الأحكام السلطانية للماوردي ص 25 .

وزارة التفويض :

هي أن يفوض الإمام من يلقي إليه تدبير الأمور برأيه ، وإمضاءها على اجتهاده دون الرجوع إليه ؛ فالوزير هنا ذو ولاية عامة ، وليس مجرد وسيط . ويشترط في تقليد هذه الوزارة عدة شروط . وهي أن يكون من أهل الكفاية فيما وكل إليه من أمر الحرب والخراج خبيراً بهما ، فإنه مباشر لهما تارة بنفسه ، وتارة يستنيب فيهما وعليه أن يكون جامعاً لخصال الخير ، ذا عفة في خلائقه ، واستقامة في طرائقه ، إن أحسن إليه شكر ، وإن ابتلي بالإساءة صبر . لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده . يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه »[39] .

هذه الشروط الجامعة لوزير التفويض أو نائب الخليفة وإن كملت فيه ، تبقيه بعيداً عن الإمام ويبقى فروق بلا ريب بين الوزير والإمام دل عليها الماوردي فقال : الفرق الأول يختص بالوزير : وهو مطالعة الإمام لما أمضاه من تدبير وأنفذ من ولاية[40] .

والفرق الثاني : مختص بالإمام ، وهو أن يتصفح أفعال الوزير ، ليقر منها ما وافق الصواب ، ويستدرك ما خالفه ، لأن تدبير الأمة إليه موكول وعلى اجتهاده محمول .

ومما يبدو أن هذا الافتراض الذي تدعو إليه السياسة وحسن العلاقات بين الإمام والوزير لم يكن مرعياً دوماً ، وربما استبد الوزير فعلاً بكل شؤون الدولة حتى أنه قد يحجز الخليفة أو يحبسه في قصره ويمنع الناس من الدخول إليه . من ذلك ما رواه السيوطي قال :

« . . . انحدر المعتمد على الله إلى سامراء ، فتلقاه صاعد بن مخلد كاتب الموفق (شقيق المعتمد) فأنزله في دار أحمد بن الخطيب ، ومنعه من نزول دار الخلافة ، ووكل به خمسمائة رجل يمنعون من الدخول إليه . . . وأقام صاعد في خدمة المعتمد ، ولكن ليس للخليفة من حل أو ربط . وفي ذلك قال المعتمد :

أليس من العجائب أن مثلي ... يرى ما قلّ ممتنعاً عليه؟
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء في يديه؟
إليه تحمل الأموال طراً ... ويمنع بعض ما يجبى إليه!

وهو أول خليفة قهر ، وحجر عليه ، ووكل به »[41] وأمثال ذلك كثير .

---

(39) المرجع السابق ص 23 .
(40) المرجع السابق ص 24 .

تعدد الوزراء :

يجوز للخليفة أن يقلد وزيري تنفيذ على اجتماع وانفراد ، ولا يجوز له أن يقلد وزيري تفويض على اجتماع . كما لا يجوز تقليد إمامين ، لأنه ربما يتعارضان في الحل والعقد . قال تعالى : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ .

تفويض الخليفة لولاة الأقاليم :

إذا فوض الخليفة تدبير الأمور في الأقاليم إلى ولاتها ، ووكل النظر فيها إلى المسؤولين عليها ، جاز لمالك كل إقليم أن يستوزر ، وكان حكم وزيره معه كحكم وزير الخليفة مع الخليفة في اعتبار الوزارتين وأحكام النظرين[42] .

الحجابة

الحاجب هو الذي يتولى الإذن للناس في الدخول على السلطان . والحجابة أحدثتها ظروف معينة . ففي صدر الإسلام كان الخلفاء الراشدون لا يحتاجون إلى حاجب قط ، لأنهم بحسن عشرتهم للرعية ، ومحبتهم في تلبية حاجات الناس ، وسلوكهم العادل مع الجميع ، وبساطتهم في حياتهم كل ذلك جعلهم مقربين من الجمهور فلم يمنعوا أحداً من الدخول عليهم ليلاً أو نهاراً ، بعيداً أو قريباً . وبالتالي لم يعد هناك من حاجة لوجود حجاب على أبوابهم .

ولما كان العهد الأموي ، اتخذ معاوية ، ومن جاء بعده من الخلفاء الحجاب ، ومنعوا الناس من الدخول عليهم إلا بإذن . وقد حدث ذلك بعد حادثة الخوارج التي قتل فيها الإمام علي (ع) ، فاضطر معاوية عندها إلى وجود حجاب خوفاً من ازدحام الناس على بابه الذي قد يذهب بحياته[43] .

يقول ابن خلدون : . . . فلما انقلبت الخلافة إلى ملك ، وجاءت رسوم السلطان وألقابه كان أول شيء بدىء به في الدولة شأن الباب ، وسده دون الجمهور ، بما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم ، مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم ، وشغلهم بهم عن المهمات ؛ فاتخذوا من يقوم لهم بذلك ، وسموه

---

(41) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 365 .

(42) الأحكام السلطانية للماوردي ص 18 وما بعدها .

(43) راجع تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 271 .

الحاجب »[44] ويختلف معنى الحجابة بين بلد وآخر ، ففي العراق مثلاً كان الحاجب يقوم بعمل مدير التشريفات اليوم ، بينما كان الحاجب في الأندلس يتمتع بسلطات رئيس الحكومة وهو أقرب الوزراء إلى الخليفة الأندلسي حتى ليقدر على تمثيله في جميع سلطاته الفعلية[45] .

ومما يلاحظ أن العباسيين اقتدوا بالأمويين في مسألة الحجابة ، بل ربما أسرفوا في منع الناس من المقابلات الرسمية . وهذا ما دعا ابن خلدون إلى تسميته بالحاجب الثاني فكان بين الرعية والخليفة حاجبان أو حاجزان . ففي الدار الأولى الدار الخاصة ، وفي الثانية الدار العامة ، فكان الخليفة يقابل كل طائفة بحسب حالاتها وظروفها وتبعاً لإرادة الحاجب على الباب .

وعندما زاد انهيار الدولة زادوا حاجباً ثالثاً لكي يحجب السلطان عن الخاصة والعامة حجاباً تاماً . وهنا برز دور الحاجب الثالث وقوي نفوذه وتوسع سلطانه حتى أصبح مستشار الخليفة في جميع الشؤون المهمة وفي مختلف مرافق الدولة الحيوية . وبعض الحجاب الأقوياء استطاعوا أن يضعفوا من قوة الوزراء على الخلفاء[46] . إذ أنهم كانوا يؤخرون تنفيذ أي قرار لا يرغبون فيه . قال ابن مسكويه : « غلب محمد بن ياقوت على تدبير الأمور بنظره في جباية الأموال ، وحضور أصحاب الدواوين مجلسه ، وتفرده بكل ما يعمل الوزراء .

يبدو مما سبق أن الوزارة قد تطور مدلولها بتطور الظروف وتنوع الأحوال وقد غلبت عليها صفة الكتابة ، ففي أغلب الأحيان كان الوزير كاتباً ، وفي أحيان أخرى غلبت عليها الحجابة فأصبح الوزير حاجباً . وقد نال كل من هؤلاء من الحظوة والنفوذ حسبما كان له من الذكاء والدهاء وقوة الشخصية[47] .

واسم الحاجب في الدولة دليل رقيها وحضارتها فكان أعظم الملوك شأناً لا بد له من ذكر الحاجب ، وذي الوزارتين[48] . يوضح هذا ابن خلدون فيقول : « لم يكن في دول

(44) المقدمة ج 2 ص 605 .

(45) المدخل في تاريخ الحضارة العربية ص 30 .

(46) راجع النظم الإسلامية لحسن إبراهيم حسن ص 130 .

(47) المصدر السابق ص 130 .

(48) يدلون بالحجابة على صحابة السلطان عن العامة والخاصة وبذي الوزارتين عن الجمع لخطتي السيف والقلم .

المغرب وافريقية ذكر لهذا الاسم ، للبداوة التي كانت فيهم وربما يوجد في دولة العبيديين بمصر عند استعظامها وحضارتها إلا أنه قليل »[49] .

ودولة الموحدين التي لم تستكمن فيها الحضارة لم يكن اسم الحاجب معروفاً عندهم يومئذٍ .

وأما دولة زناتة بالمغرب فلا أثر أيضاً عندهم لاسم الحاجب ، وباب السلطان وحجبه عن العامة . يسمى عندهم الحاجب بالمزوار ومعناه المقدم على المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته .

وأما دولة الأندلس فالمخصوص عندهم بالحسبان وتنفيذ حال السلطان وسائر الأمور المالية يسمونه بالوكيل . ودولة الترك بمصر فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من أهل الشوكة ، ينفذ الأحكام وكأنه يقوم بدور النيابة التي لها الحكم في أهل الدولة وفي العامة على الاطلاق . وللحجاب في هذه الدولة الحكم فقط في طبقات العامة والجند عند الترافع إليهم وإجبار من أبى الانقياد للحكم[50] .

الكتابة

العرب في أكثريتهم أمة أمية عند ظهور الإسلام ، لا يعرف الكتابة والقراءة منهم إلا القليل ولا يتجاوز عددهم بضعة عشر رجلاً ، من بينهم علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وعمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، والمغيرة بن شعبة . . . ولما كان السواد الأعظم من الناس في ذلك العصر لا يعرفون الكتابة عرفوا هؤلاء بالكتاب أو الخطاط[51] .

والنبي (ص) أول من اتخذ كتاباً يكتبون له الوحي مثل عثمان وعلي وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وكان بعضهم يكتب له الرسائل إلى الملوك والأمراء والبعض الآخر يكتب له حوائجه[52] ولما تولى أبو بكر الخلافة اتخذ عثمان كاتباً له ، يكتب إلى العمال والقواد .

---

(49) المقدمة ص 241 .

(50) المرجع السابق ص 242 .

(51) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص 477 وقصة الحضارة لديورانت ج 2 ص 21 المجلد الرابع .

(52) راجع التنبيه والإشراف للبلاذري ص 245 فيه بيان لكتاب النبي وما كان يقوم كل واحد منهم .

وهو الذي كتب عهد عمر بالخلافة عن أبي بكر[53] . وغدت الكتابة منصباً هاماً في الدولة .

أما عمر فقد اتخذ زيد بن ثابت كاتباً له ، ولما اتسعت الفتوحات الإسلامية ودونت الدواوين ، ظهرت الحاجة ماسة للكتاب ، فعين « كاتباً لكل ولاية يكتب في ديوانها ، وكان الكاتب يكتب في أول الأمر لديوان الجند ، وبيت المال ؛ وانقضت دولة الخلفاء والكتابة منحصرة في واحد يضبط حساب الديوان من أعطيات الجند وأسمائهم ويكتب المراسلات ، وربما كانا اثنين ، يتولى الثاني كتابة بيت المال »[54] .

وهذه وصية علي بن أبي طالب لعبد الله بن أبي رافع ، قال : « يا عبد الله ، ألقِ دواتك وأطل شياة قلمك ، وفرِّج بين السطور ، وقمط بين الحروف » ولما انتقلت الخلافة إلى بني أمية تعددت مصالح الدولة ، وتنوعت وظيفة الكتاب وتخصص كل منهم في مجال معين . فكانوا خمسة أصناف :

1 ـ كاتب الرسائل يخاطب الملوك والأمراء والعمال وغيرهم .
2 ـ كاتب الخراج يدون حساب الخراج بجميع أنواعه .
3 ـ كاتب الجند يسجل أسماء الجنود ، وطبقاتهم ، وأعطياتهم ونفقات الأسلحة واللباس وغير ذلك من المصاريف الخاصة بهم .
4 ـ كاتب الشرطة : يدون التقارير عما يقع من أحوال القِواد والديات وغيرها[55] .
5 ـ كاتب القضاء يسجل الشروط والاحكام .

وأعظم هؤلاء الكتاب وأعلاهم رتبة هو كاتب الرسائل لأن بيده جميع أسرار الدولة ومودع سر الخليفة ، ولخطورة هذا المنصب كان الخلفاء لا يولونه إلا أقرباءهم وخاصتهم وظلوا على هذه الحال إلى أيام العباسيين .

وقد كان الكاتب في العهد الأموي ينفرد بالأمر دون الخليفة ، فيصدر السجلات ويكتب في آخرها اسمه ، ويختم عليها بخاتم السلطان ، ثم صارت الكتابة إلى وزرائهم ، فكان الوزير يجلس بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ، ويوقع على

---

(53) صبح الأعشى ج 1 ص 92 .
(54) تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان .
(55) القواد : جمع قود وهو القصاص .

القضايا والشكاوى المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه[56] .

أما في العصور العباسية فقد حرص الخلفاء على أن يتولى كتابة الرسائل الذين ينتمون إلى نسب رفيع ، ويتمتعون بسعة العلم وعمق الثقافة . وقد يعادل مركز الكاتب مركز الوزير فهو الذي يحرر الرسائل الداخلية والخارجية الرسمية ، وهو الذي ينشر المراسيم والقرارات والبلاغات ، وقد يجلس مع الخليفة على منصة القضاء لينظر في الدعاوى ويختمها أخيراً بخاتم الخليفة[57] .

وفي ذلك ألف الجهشياري كتاباً قيماً في موضوع الكتابة والوزارة يقول فيه :

« وكانت ملوك فارس تسمي كتاب الرسائل تراجمة الملوك وكانوا يقولون لهم : لا تحملنكم الرغبة في تخفيف الكلام والإيجاز فيه على حذف معانيه وترك ترتيبه وتوهين حجمه »[58] . فالكتاب تراجمة الملوك على حد قول الجهشياري في العصر العباسي كما كانوا قبل في عصر الاكاسرة . وفي آخر العصر العباسي استقلت الكتابة ، وعهد فيها إلى غير الوزراء ، فأطلقوا على كبير الكتاب : رئيس ديوان الانشاء أو كاتب السر وكل أمور هذا الديوان إلى الوزير . وكانوا يسمونه أيضاً : الديوان العزيز ، وهو الذي يخاطبه الملوك في المكاتبات للخلفاء يشبه ديوان الرياسة أو وزارة الخارجية في هذه الأيام[59] .

من هؤلاء الذين اشتهروا في هذا الحقل يحيى بن خالد البرمكي ، والفضل والحسن ابنا سهل ، وأحمد بن يوسف في عهد المأمون ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، والحسن بن وهب ، وأحمد بن المدبر في عهد المعتصم والواثق . وقد رسم لنا ابن خلدون صورة واضحة عن الأعمال التي كان يقوم بها الكاتب فقال : « إن أصول السلطان وتصرفاته لا تعدو أربعة ، لأنها إما أن تكون في أمور الحماية والمطالبة ، وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالمشرق ، ولهذا العصر بالمغرب ، إما أن تكون في أمور مخاطباته لمن بعد عنه في المكان أو الزمان ، وتنفيذه الأوامر فيمن هو محجوب عنه ، وصاحب هذا هو الكاتب ، وإما أن تكون في جباية المال وانفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه أن يكون بمطيعة ، وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية ، وإما أن تكون في

---

(56) المقدمة ص 619 .

(57) النظم السياسية لحسن إبراهيم حسن ص 125

(58) الوزراء والكتاب للجهشياري .

(59) تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان .

مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن مهمته ، وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه وهو الحاجب »[60] .

القضاء

عرف القضاء ابن خلدون فقال :
القضاء هو الفصل بين الناس في خصوماتهم حسماً للتداعي ، وقطعاً للتنازع[61] .

كان رسول الله هو الحكم الفصل بين سكان المدينة الأصليين والقادمين إليها من المهاجرين ، فإليه وحده مرجع كل نزاع ، وهو وحده القاضي في كل أمور الناس وشؤونهم .

ولما استقر به المقام في المدينة عقد عهداً بين المهاجرين وأهل المدينة من المسلمين واليهود ، مما جاء فبه : « وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله (ص) »[62] .

إن بساطة الحياة في ذلك المجتمع الناشيء لم تكن تستدعي في المدينة كثيراً من القضاة ، وفي بعض الأحيان كان الرسول (ص) ينيب عنه أحد أصحابه لفض خلاف أو يرسل بعضهم والياً على ناحية أعلنت خضوعها للحكومة الإسلامية .

من ذلك أنه قلد علياً القضاء في اليمن ، ولم يختبره لعلمه به ، ولكن زوده ببعض آداب القضاء[63] وقد اشتهر غيره في الفتيا والقضاء من الصحابة فبلغوا على عهد الرسول مائة وواحداً وثلاثين رجلاً وامرأة[64] .

ومن عادته عليه السلام أنه كان لا يقلد القضاءَ لأحد يطلبه ، ولا لضعيف لا يقدر على إقامة الحق بين الناس ، وإن كان تقياً ورعاً . قال (ص) لأبي بردة بن أبي موسى الأشعري ورجلين من بني عمه : « إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله »[65] .

---

(60) المقدمة ص 90 .

(61) المقدمة ج 2 ص 567 .

(62) السيرة لابن هشام ج2 ص16 .

(63) الاحكام السلطانية لأبي يعلى ص 46 .

(64) النظم الإسلامية لحسن إبراهيم حسن ص 249 .

(65) مسند الامام أحمد ج 4 ص 409

وقال لأبي ذر الغفاري : « يا أبا ذر ، إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها »[66] .

وكان رسول الله (ص) يفصل بين المتنازعين ببساطة تامة بعيدة عن أبهة القضاء وكبرياء الحكام ، فهو يحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ، ويصرح للناس أنه لم يؤت علم الغيب ، فقد يختصم إليه رجلان منهم ، فلعل أحدهما ألحن بحجته من أخيه ، فمن قضى له بشيء ليس حقاً له فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو يراجع ضميره فيدعها .

وقد علَّم أصحابه أصول الدعوى ، وأساليب النظام والشكوى ، فعلى من ادعى أن يبين الحق بالدليل ، وعلى خصمه إن أنكر أن يقسم اليمين « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » ، أما الحكم الصادر عنه فمقترن بالتنفيذ الفوري فلا استئناف ولا تمييز ولا تأجيل بواسطة المحامين . قال الله تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾[النساء : 75] .

والإسلام إنما قرر السجن لبعض الجرائم وقد كانت قليلة كالمديون المماطل يحبس حتى يعطي الدين ، أو يعطيه الحاكم من أمواله ، وكالمرأة المرتدة تحبس حتى ترجع إلى الإسلام ، وكالذي أخذ إنساناً ، فقتله شخص آخر ظلماً وجوراً . . . وما أشبه ذلك مما هو مقرر في فقه الإسلام .

وقد أصاب الإسلام في إلغاء السجون التي كانت معروفة عند الفرس وعند الروم ، وأخطأت سائر الدول المهتمة في بناء السجون وهدر الطاقات الكبيرة في سبيلها .

وإذا ما سألنا ماذا يصنع الحاكم بالمجرم نقول : السجناء أعضاء عاملون في الحياة فإذا سجنوا جمدت هذه الطاقة تجميداً تاماً . وإن من يتوهم من أن بعض السجون تضع الأعمال للسجناء داخل السجن وتوجه لهم المرشدين ينصحونهم ويرشدونهم إلى سواء السبيل ، فذلك أمر صحيح ، لكنه ليس على وجه العموم والشمول ، وبصورة عامة يعتبر السجن تجميداً لطاقات الإنسان الفاعلة .

ومن جهة أخرى هناك هدر لطاقة إدارة السجن ، من مدير ومساعد وخدام وبناء السجن كل هذه الطاقات الإنسانية إذا وجهت نحو العمل الايجابي كانت جديرة بأن

---

(66) صحيح مسلم وقال النووي : هذا أصل عظيم في اجتناب الولاية .

تـدفع الحيـاة إلى التقدم والعـطاء والخير الجميـل والسجن لم يكن بأي حـال من الأحـوال رادعـاً للجـرائم ، والكثـير من العـاطلين عن العمـل يجـرمـون فيلقى بهم في السجن ويستريحوا من عبء الحياة ومصاريفها .

وقـد يسأل أحـدهم إذا ألغى الإسلام السجـون وفك الأغـلال ، تدب الفـوضى في أوسـاط المجتمع ، وإذا أجـرى حدوده المقـررة على المسجـونين فقـد يسبب سمعة سيئـة بالنسبة للدولة الإسلاميـة ؟ يجيب الحاكم المسلم بقـوله : لا يحـدث من إطلاق السجنـاء فوضى أبداً ، لأن المجرم إذا عرف العقاب الصارم تجنب الآثام وبذلك يمتنع الإجـرام في الدولة الإسلامية . لأن المؤمن يحاسب نفسه ولا يحتاج الى حاكم يحـاسبه . ومما يروى ان الإسلام بعدله وحزمه لم يقطع سوى ستة أيدي من السارقين مدة قرنين من الزمن .

فما رأيك لو أعلنت الدولة اللبنانية اليوم : أن كـل قاتـل يقتل ، وكـل سارق تقـطع يـده . إني على يقـين أن القتل يـزول بسرعة والسرقـة تمتنـع بتـاتـاً . نعم . . . إذا كـان العقاب السجن ، ويخفف الجريمة المحامي بحذلقته وطلاوة لسانـه والرشـوة والعفو ؛ إلى جانب تزويد السجن بالغذاء والكساء وكل لوازم الإنسان الحياتية ؛ من الطبيعي والحـالة هذه أن تزداد حوادث القتل والسرقة وكل أنـواع الإجرام . وبعـد : إن تحصين الإسـلام الناس بإلقاء الإيمان في قلوبهم ، ومعرفتهم الشريعة الإسـلامية الحقـة باقتنـاعهم التام ، يبعدهم بلا ريب عن الجريمة ، وينفرهم من ارتكاب الآثام . ولننظر في حياتنا اليـومية . فهـل نرى من يحضر الصلوات الخمس ، ويقـوم بالعبـادات الإسـلاميـة ، يقتـل النفس المحـرمـة ؟ أو يعـاقـر ؟ أو يخـون أعـراض النـاس ، أو يبيـع شعبـه للوصـول إلى المنصب . . . ؟ .

فالإسلام بإشاعة روح التقوى والفضيلة في نفوس الناس ، وبصرامة العقاب بحـزم وشدة تمكن من إزالة الجريمة ولا ترى في المجتمع الإسلامي الصحيح أثراً لها إلا نادراً عند بعض المتفرنجين .

إن إجراء الحدود في الشريعة الإسلامية ، وتطبيق النـظام دون أي واسطة أو مـواربة أو تحيز ، والحكم العادل الصارم ، البعيد عن الرشوة والمحاماة ، يمنع حدوث الجريمة بلا ريب . من هنـا كـانت الآيـة الكـريمـة : ﴿ **ولكـم في القـصـاص حيـاة يـا أولي الألبـاب** ﴾[البقرة : 179] أمـا فيما يعـود إلى البينة واليمـين يقول الـطوسي : « وإن قال المدعي : ليس معي بينة ، وطلب من خصمـه اليمين فحلّفـه الحاكم ثم أقـام بعد ذلـك البينة على صحة ما كان يدعيه ، لم يلتفت إلى بينته ، وأبطلت .

وإن اعترف المنكر بعد يمينه بالله بدعوى خصمه عليه ، وندم على إنكاره لـزمه الحق والخروج منه إلى خصمه . فإن لم يخـرج إليه منـه ، كان لـه حبسه ، فـإن ذكر إعسـاراً ، كشف عن حـاله : فـإن كان عـلى ما قـال : أُنظر ولم يُحْبَس ، وإن لم يكن ذلـك ، ألـزم الخروج إلى خصمه من حقه .

ومتى بـدأ الخصم باليمـين من غير أن يحلفـه الحاكم ، لم يـبرئه ذلك من الـدعوى ، وكان متكلفاً »[67] . وإن أصاب المتهم حداً من حدود الله أقيم عليه فـوراً دون ريث ولا إبطاء .

في عهـد أبي بكر أسنـد القضاء إلى عمـر بن الخطاب فـظل عامـين كاملين لا يـأتيـه خصمان ، لما عرف الناس عنه من الشدة والحزم . ولما تولى عمر الخلافة وجد أنه بحـاجة إلى تعيين بعض القضاة في الولايات والأمصار ، ليفصلوا بين النـاس فيما يحصـل لهم من مشاكل وقضايا ، وربمـا ازدادت الحاجـة إلى القضاة تبعـاً لازدياد الاختـلاط بين العـرب وسكان البلاد المفتـوحة . فـولى شريحاً الكنـدي قضاء الكـوفة ، وعثمان بن قيس بن أبي العاص قضاء مصر ، وأبا موسى الأشعري قضاء البصرة .

وقـد كتب رسـالـة لأبي مـوسى الأشعـري مشهـورة ، تتضمن كـل شروط القضـاء وأحكامه قال : « واس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلـك حتى لا يطمـع شريـف في حَيْفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكـر ، والصلح جـائز بـين المسلمين إلا صلحـاً أحل حـراماً أو حـرم حلالاً ، ولا يمنعـك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فـإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل »[68] .

قال ابن قيم الجوزيـة معلقاً عـلى هذه الـرسالـة : « وهذا كتـاب جليل القـدر تلقاه العلماء بالقبول ، وبنوا عليه أصول الحكم والشهادة والحاكم »[69] .

وأخيراً إليك هذا النص الدستـوري الذي أمـلاه علي بن أبي طـالب أمير المؤمنـين ، وربيب الرسول المفضـل وتلميذ القـرآن الأول ، كرم الله وجهـه ، على عـامله على مصر مـالك الأشـتر . يحتوي هـذا النص على قـواعد عـامـة وأصـول هـامـة تتعلق بـالقضـاء

---

(67) النهاية للطوسي ص 340 .

(68) البيان والتبيين ج 2 ص 23 وأحكام الماوردي ص 68 .

(69) أعلام الموقعين ج 1 ص 98 .

والقضاة ، ولا ريب أنه يطابق القواعد القانونية والحقوقية الحديثة حسب رأي جهابذة التشريع وأساطين علم الحقوق من أبناء عصرنا اليوم .

يقول الكتاب : « ثم اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك . ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم ، وإنما يستدل على الصالحين بما يُجري الله على ألسن عباده ، فليكن أحبَّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح ، فأملك هواك ، وشُحَّ بنفسك عما لا يحل لك ، فإن الشح بالنفس الانصاف منها ، فيما أحببت أو كرهت . وأَشْعِر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم واللطف بهم ، ولا تكونَنَّ سَبُعاً ضارياً تغتنم أُكُلَهم ؛ فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق ! تفرط[70] منهم الزلل ، وتعرُضْ لهم العلل ، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه فإنك فوقهم ، وولي الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولّاك ! وقد استكفاك أمرهم ، وابتلاك بهم ، ولا تنصبنَّ نفسك لحرب الله ، فإنه لا يد لك في نقمته ، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته . ولا تندمنَّ على عفو ، ولا تبجحنَّ[71] بعقوبة ، ولا تسرعنَّ إلى بادرة[72] وجدت منها مندوحة[73] ولا تقولن إني مؤمر آمر فأطاع ، فإن ذلك إدغال[74] في القلب ، وفكهة للدين[75] ، وتقرب من الغِيَرة[76] وإذا حدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة[77] أو مخيلة[78] ، فانظر إلى عظم ملك الله فوقك ، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك ، فإن ذلك يطامن إليك[79] من إطماحك[80] ، ويكف عنك من غربك[81] وبقي إليك بما عزب[82] عنك من عقلك ! » .

---

(70) يسبق منهم الخطأ .

(71) بجح بالشيء : فرح به .

(72) البادرة : ما ظهر من حدة الغضب .

(73) مندوحة : متسعاً ومخرجاً .

(74) إدغال : افساد .

(75) افكهه : أتعبه وأضعفه .

(76) الغير : صروف الزمان .

(77) أبهة : كبرياء .

(78) مخيلة : العجب والخيلاء .

(79) طامن : خفض .

(80) الطماح : النشوز .

(81) الغرب : الحدة .

فتأمل هذه الأحكام الجامعة والشمول الذي وضع فيه شخصية الحاكم وما يجب أن يكون عليه من العدالة النفسية ، والثقافة الحقوقية حتى يتمكن من إقامة العدل في المجتمعات السعيدة . إنه تقنين يسير مع كل عصر ويجب أن يطلع به أي حاكم في أي عصر ، نوجز أبرز قواعده باختصار .

ـ لا مخرج للحاكم ، لاستظهار الحق ليعمل له ويقف عنده ، من لزوم وقوفه على تطورات التاريخ في إقليمه ، وما كان يجري عليه من تشريعات وتقاليد وأعراف ، وذلك ليمكنه الافادة منها ، في تيسير أموره وتنفيذ أوامره ، وليستبين من خلالها من تسرب منه الجور فيعمل على منعه ، وما يصلح منها العباد فيرسخه ويشيد عليه .

ـ العدالة في التشريع الإسلامي هي الهدف والغاية . فالإسلام أوجب على الحاكم الإسلامي انتهاج سبيلها ، لإيصال كل ذي حق حقه ، دون أي التفات إلى الامتيازات العرقية ، أو الفروق الاجتماعية . لأن إيقاف الفرد عند حدوده المشروعة ، وإيصاله إلى حقوقه ، من أهم العوامل الرئيسة لبقاء تماسك الهيكل الاجتماعي . لذلك ركز عليه الإمام (ع) فطلب إلى عامله لأن يملك هواه ويشح بنفسه ، وأوقفه على أن الانتصاف للنفس ميزان العدل .

وأراد من عامله : الأشتر ، أن يحيط عدله بعوامل اللطف والرحمة والمحبة فعليه إذن أن يقضي عن بوادر الزلل التي تملك الإنسان أحياناً فتزل به القدم ويصعب عليه الانفلات من أسارها . قال رسول الله (ص) : لا يكون المسلم مسلماً حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ، ويكره منها ما يكره منه . ولعمري ! هذا هو المعنى الدقيق للعدالة النفسية ، وتلك هي القواعد المتينة للعدالة الاجتماعية في المجتمعات الراقية .

ـ حماية الفرد من عسف الحاكم ولا تكونن سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق .

ولا غرابة إن أوصى بهذه الحكمة البليغة الأسلوب ، البعيدة المعنى ، وهو تلميذ القرآن الأول حكمة بالغة في اعتدال السياسة مرتشفة من قوله تعالى : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين** ﴾[الممتحنة الآية : 8] .

---

(82) عزب : غرب وضاع .

هـذه هي أولى الوثـائق الدستـورية لحـماية الفـرد والمجتمع دونها الإسـلام وأهملتهـا المجتمعـات المعاصرة ، وعـلى الأخص المجتمعـات الغـربيـة . حتى وقعت أبشـع أنـواع الجـرائم ضد الجنس البشري إشبـاعاً للنـزوات العنصرية ، بعـد انتهـائهـا قـام المجلس الاقتصادي الاجتماعي للأمم المتحدة بتشكيل لجنة خـاصة ، بـاسم لجنة حقـوق الإنسان وعهـد إليها بمهمـة دراسة مـوضوع تـدوين حقوق الإنسـان عام 1946 م وكـانت ثمـرة جهودها إعلاناً عالمياً أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة لحقوق الإنسان ، كحق الحياة ، وحق الحرية ، وحق المساواة ، وحق التمليك . . . إلخ غير ذلك من الحقوق[84] .

وليس ما ذكرنا من العهد الدستوري لعلي (ع) هو الوحيد في التشريع الإسلامي ، بـل تلك الحقوق يـزخر بهـا الشرع الإسـلامي وهي من الأوليـات التي يجب عـلى المسلم المؤمن تطبيقها ، وهي قرارات ملزمة يقـع كل من تجـاوزها تحت طـائلة المسؤولية . عـلى عكس ما نشاهد ونسمع في عصرنـا الحاضر من قـرارات وتشريعات تفتقـد صفة الالـزام والعقاب ، وبالتالي فهي عديمة الجدوى .

من هنـا تميز التشريـع الإسلامي بتلك الخـاصة عن جميـع الانظمـة الأرضيـة ، بـل والسماوية ، لأنه سوى بين الروح والجسد مساواة دقيقة وعادلة ، تسائم كل عصر وتساير جميع الحضارات الإنسانية . فـدفع النـاس للتنافس عـلى الفضيلة ـ إن أكرمكم عنـد الله أتقاكم ـ هذا الشعار يحمل للناس عامة شعلة من النور لا تخمد ولا تنطفىء عـبر الأجيال والعصور ، والإسلام ألغى جميع الامتيازات الشخصية بين جميع أفراد الأسرة البشرية أياً كانت صفتهم واعتبر الخلق جميعاً كأسنان المشط ، وهـم قسمان : إما أخ في الدين أو نـظير في الخلق .

ـ المساواة بين الحاكم والمحكوم الجميع أمام الشريعة الإسلاميـة متساوون ، الحـاكـم والمحكوم ، أمام القضاء . فلا فرق بين رئيس أو مـرؤوس ، ولا بين جنس وجنس ، أو لون ولون ، أو غني أو فقير . ولا يختلف الحكم بالنسبة للجاني أياً كانت صفته ، كما على الحاكم أن يمنح الناس من عفوه وصفحه ، فلا يشعـر أنه فـوقهم أو آمرهـم ، لأن الله قـد ولّاه عليهم وهو فوق الجميع ، فوق الراعي والرعية .

كـل ذلك حتى لا يشعـر الحاكم من إفسـاد في قلبه وضعف في دينـه وزوال لحكمه . وإذا غرب هذا عن باله فلينظر إلى عظم ملك الله فوقه وقدرته منـه على مـا لا يقدر عليـه

(84) كان ذلك في 1948/12/10 وقع الاعلان بثلاثين مادة .

من نفسه . عندها لا ريب أنه يخفف من حدته ويفيء إلى نفسه ما عزب عنه من عقله .

وإذا نظرنا إلى النظام الوضعي لا نجد من سبيل للمقارنة بينه وبين التشريع الإسلامي ، التشريع السماوي ؛ وإن وجدنا فيه ما يقبله العقل السليم ، فقد اقتبس منه كل ما قاله من الحرية الفردية والمساواة الاجتماعية ، والعدالة الإنسانية .

فقبل الثورة الفرنسية كان القانون الجنائي في فرنسا يميز بين الحاكم والمحكوم ، فللنبلاء امتياز وللشرفاء امتياز ، إلى غير ذلك من التفاوت الطبقي ؛ حيث كان يختلف الحكم حسب منزلة الجاني الاجتماعية ، والتاريخ اليوم يعيد نفسه ، حتى جاءت الثورة الفرنسية وجعلت المساواة نظرياً ، أساساً للحكم ، وبعد الجهود المضنية التي بذلتها لم تتمكن من التخلص من أداء الامتيازات القديمة ، كما هي حالنا نحن اليوم ، في نظامنا الديمقراطي الاسمي ، لأنها : ظلت تقر بامتيازات خاصة لرئيس الدولة أو الملك . فالرئيس هو السلطة العليا ، ويجب أن لا يخضع لسلطة أدنى منه . فلا يصح إدانته إلا بالخيانة العظمى .

ثم إن كل ما ذكر من قوانين يطبق عليه ضمن دولته وإقليمه فقط وليس في دولة أخرى وإقليم آخر ، فالقوانين الوضعية تمنع محاكمته وتجريمه فيها ، على افتراض ارتكابه جريمة . إلى الكثير من الامتيازات الأخرى . كإعفاء حاشيته من الخضوع للمحاكمة في إقليم أجنبي وما يحملونه من أموال منقولة ، وكإعفائه هو من الرسوم والضرائب . كل ذلك في ظل الحصانة التي تحميه وتحصنه .

هذا هو التقنين الوضعي أمام المنجزات التي حققها الفكر الإنساني على صعيد الحضارة .

وهذا هو الإسلام الذي ألغى جميع الامتيازات ، بين جميع أفراد الأسرة البشرية ، أيا كانت صفتهم معتبراً الخلق كلهم كأسنان المشط ، ولا فضل لإنسان على إنسان إلا بالتقوى .

وهذا القدر يكفي للتدليل على ما حققه التشريع الإسلامي من السبق في مضمار التقنين الحضاري المتطور .

في العهد الراشدي لم يكن هناك بناء مخصص للحاكم ، فقد كان القاضي يحكم في بيته ، ثم أضحى يعقد جلساته في المسجد ، وكان يقوم بنفسه بتنفيذ الأحكام على الفور أسوة بالرسول الكريم . ومما يبدو أنه لم يكن هناك أيضاً سجل لتدوين الأحكام ولا كاتب يسجل الأحكام .

وظل القضاء مستقلاً لا يتأثر بالأحزاب ولا بميول الدولة الحاكمة حتى كان العصر الأموي ثم العصر العباسي ، حيث أصبح العلماء يتورعون عن استلام منصب القضاء لئلا يغضبوا الله برضى الخلفاء . وهل من السهل أن يبيع الحاكم آخرته بدنياه ! .

وما استحدثه العباسيون منصب (قاضي القضاة) ، وهو بمثابة وزير العدل اليوم ، يقيم في حاضرة الخليفة ، أما الأقاليم المجاورة فكان يعين من ينوب عنه .

كان أول قاض للقضاة أبا يوسف ، مؤلف كتاب الخراج ، وصاحب الإمام أبي حنيفة ، وقاضي الرشيد المشهور . ويعزى إليه أنه أول من استحدث زياً خاصاً للعلماء ، وزياً آخر للقضاة . وقد أحاطهم بكثير من مظاهر الاجلال والتكريم ، أما رواتب هؤلاء القضاة فكانت تختلف باختلاف الزمان والبيئة .

وفي العصر العباسي كان القضاء على نوعين : قضاء خاص ، وقضاء عام . فالخاص يقتصر على النظر فيها تضمنه ، كالحكم بالاقرار دون البينة . وأما القضاء العام فمن يتولاه كان يفصل في المنازعات ، ويستوفي الحقوق ، ويثبت الولاية لمن كان ممنوعاً من التصرف ، وينظر في الأوقاف ، وينفذ الوصايا على شروط الموصي فيما أباحه الشرع ، ويقيم الحدود على مستحقيها ، وينظر في مصالح عمله ، من الكف عن التعدي في الطرقات ، ويتصفح شهوده وأمناءه ، ويختار النائبين عنه من خلفائه[85] .

ومما يلاحظ أن معظم كتب الفقه تعقد باباً « آداب القضاء وما يجب أن يكون عليه القاضي من أحوال » .

وخلاصة القول في القاضي وصفاته : أن القاضي لا يقضي وهو غضبان ، أو جائع ، أو عطشان ؛ كما لا يقضي إذا غلب عليه النعاس ، أو أقلقه المرض ، ولا يكون مشغول القلب بتجارة ولا خوف ولا حزن ولا قلق فكر في شيء من الأشياء ، « لأنه يحتاج إلى الفكر ، وهذه الأعراض تمنع صحة الفكر ، فتخل بالقضاء »[86] .

صفات الحاكم في الإسلام

إن قيادة الأمة بما لها من أهمية بالغة وما يترتب عليها من سعادة الناس وشقائهم تقتضي وجود سلسلة من الشروط والصفات في الحاكم الإسلامي . وهذه الشروط لها

(85) احكام أبي يعلى ص 49 ـ 50 .

(86) راجع النهاية للطوسي ص 338 وما بعدها .

ضرورة حتمية ، إذ لولاها لانحرفت القيادة عن طريق الحق والمنهج السليم .

ولقد فطن الإسلام إلى هذا الأمر الخطير ، فاشترط وجود صفات معينة في الحاكم الإسلامي وأكد على ضرورتها ، من أهم تلك الصفات نوجزها فيما يلي :

1 ـ **الايمان بالله** : على الحاكم في الإسلام أن يعتقد العقيدة الإسلامية عقيدة ونظاماً وخلقاً واعتقاداً قلبياً كما في القرآن الكريم والسنة الشريفة . قال تعالى : ﴿ **ولن يجعل الله على المؤمنين سبيلا** ﴾[النساء : 141] .

2 ـ **الكفاءة وحسن الولاية** : إن صلاحية الحاكم للحكم والإدارة منوطة بقدرته على القيام بلوازم الخلافة وأعباء الولاية ، والتاريخ يفيدنا بأن من تسلم الخلافة من غير القادرين على الإدارة وغير الأكفاء لها ، جر على الأمة الإسلامية المآسي المحزنة والويلات المدمرة . قال رسول الله (ص) : « لا تصلح الامامة إلا لرجل فيه ثلاث خصال : ورع يحجزه عن معاصي الله ، وحلم يملك به غضبه ، وحسن الولاية على من يلي حتى يكون كالوالد الرحيم »(87) .

وفي هذا المجال قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) : « أيها الناس إن أحق الناس بهذا الأمر أقومهم وأعلمهم بأمر الله فإن شغب شاغب استعتب وإن أبى قوتل »(88) .

ولا يخفى أن هذه الصفة إذا ما تمثلت في الحاكم والرئيس استطاع أن يلم شعث المسلمين ، ويجمع شملهم ويدفعهم إلى مدارج حضارة الأمم الراقية التي ترفل بسعادة الهدوء والاستقرار وتنعم بالمدنية والازدهار . ولا ريب أن هذا لا يتأتى إلا بالسياسة الرشيدة والعقل الراجح .

3 ـ **العدالة** : من أهم المبادىء الأساسية في الإسلام إقامة العدل والقضاء على الظلم والجور ، وقد ارتبطت جميع مناحي التشريع الإسلامي بالعدل ، فلا يوجد ثمة حكم إلا ارتبط به ، فهو الأصل في التشريع الإسلامي . لذلك نرى أن أهم ما يجب أن يتصف به الحاكم الإسلامي هو أن يكون عادلاً منصفاً بعيداً عن كل جور أو ظلم ، مخلصاً لواجباته وفياً لمصالح الأمة . ولعل أوضح ما يدل على لزوم وجود مثل هذه الصفة

---

(87) الكافي ج 1 ص 407 وفي رواية كالاب الرحيم .

(88) نهج البلاغة الخطبة 172 .

في الحـاكم وحث الناس عـلى اعتبارهـا فيه عنـد اختياره وانتخـابه قـول الله عز وجـل : ﴿ **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ [النساء : 58] .

كما أمرنا سبحانه وتعالى أن نعدل مع جميع الناس ولا نتأثر بالقرابة والصحابـة . قال تعالى : ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** ﴾ [الانعام : 152] .

وجاء أمره جل وعلا بعـدم الركـون للظالمين فـلا نقبل بـولاية الفـاسقين ولا نـرضى بالانصياع لأوامرهم وتسليم مقدرات الأمة إليهم . قال تعالى : ﴿ **ولا تركنـوا إلى الذين ظـلـمـوا فتـمـسـكـم الـنـار ، ومـا لـكـم مـن دون الله مـن أولـيـاء ثـم لا تنصـرون** ﴾ [هود : 113] .

وقـال تعالى أيضـاً : ﴿ **ولا تطع من أغفلنـا قلبه عن ذكـرنا واتبـع هواه وكـان أمره فُرُطاً** ﴾[الكهف : 28] .

وفي هذا المجال قـال رسول الله (ص) : « لا تصلح الإمـامة إلا لـرجل فيـه ثلاث خصال : ورع يحجزه عن معاصي الله ، وحلم يملك به غضبه ، وحسن الولايـة على من يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم » .

وقـال علي بن أبي طـالب (ع) : « وقد علمتم أنـه لا ينبغي أن يكـون الـوالي عـلى الفروج والدماء والمغانم والاحكام وإمامة المسلمين :

1 ـ البخيل ، فتكون في أموالهم نهمته .
2 ـ ولا الجاهل : فيضلهم بجهله .
3 ـ ولا الجافي فيقطعهم بجفائه .
4 ـ ولا الحائف للدول : فيتخذ قوماً دون قوم .
5 ـ ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويذهب بها دون المقاطع .
6 ـ ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة »[89] .

فالعدالـة في الحاكم المسلم شرط لازم وأسـاسي ، لأن الإسلام ، وهـو دين الإنسان يرى أن الحاكم المتربع على مسند القيادة العـامة ، والآخـذ بمقدرات الأمـة الإسلاميـة ، والمتصرف في عامة شؤونها ، والمدبر لشتى أمورها في جميع مجالات الحياة لا بد له أن يكون

(89) نهج البلاغة الخطبة 127 والمقاطع : يعني الحدود التي عينها له الله .

عادلاً في إدارته منصفاً في حكمه ، فلا يغضب الله ليرضى الأصحاب والأقرباء .

4 ـ **التفوق في الادارة والدراية السياسية** : علمنا منطق الإسلام أن حسن الولاية والعدالة لا تكفي وحدها ، بل اشترط إلى جانبها أن يكون الحاكم الإسلامي متفوقاً على غيره في الدراية السياسية فيتحلى ببصيرة فذة وصدر رحب يساعده في الاطلاع على مصالح الأمة والتعرف على أمور أفرادها وحاجاتهم كل ذلك لكي ينجح في إدارته فلا يغلب في رأيه ولا يخدع في حل أمور رعيته .

وعلى الحاكم في الإسلام أن يكون ملماً بالاوضاع السياسية ، عارفاً بكل ما يجري على الساحة الدولية من تطورات ، صاحب مراس ودرية ، بحيث تبلغ رؤيته السياسية والاجتماعية درجة عليا ، يستطيع معها أن يقود الأمة قيادة حكيمة فيدفع بالرعية في طريق التقدم والسعادة ، ويدفع عنها عثرات الزمن ومحنه العديدة .

قال الإمام جعفر الصادق (ع) المتفوق في شتى العلوم والمعارف : « العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس والعلم جُنَّة ، والصدق عز ، والجهل ذل ، الجود نُجْح وبين المرء والحكمة نعمة العالم ، والجاهل شقي بينهما والله ولي من عرفه وعدو من تكلفه »[90] .

أما سائس الأمة دون بصيرة بالأحوال والأوضاع المحيطة بها ، فإنه يجر إليها الويلات والمصائب كما حدث ويحدث في شتى الأزمان » . قال الإمام الصادق أيضاً : « العامل على غير بصيرة كالسائر على غير طريق ، لا تزيده سرعة السير من الطريق إلا بعداً »[91] .

لقد حث الإسلام على هذا الشرط وأكد عليه بدرجة كبيرة ، لأنه يبغي من وراء ذلك صيانة الأمة الإسلامية من التورط في المشاكل التي تضعف القادة والحكام وبالتالي تضعف الرعية وبسبب هذا الضعف يمكن أن تقع الأمة فريسة للمؤامرات الأجنبية الشرسة وتصبح آلة طيعة بأيدي الأعداء الذين ينفذون أغراضهم ومقاصدهم . وهذا أعظم وباء تصاب به الأمم والشعوب في تاريخ حياتها الاجتماعية والسياسية والحضارية .

5 ـ **معرفة القانون والعمل به اجتهاداً أو تقليداً** : القرآن الكريم هو كتاب الله الصامت ، والحكومة الإسلامية هي حكومة هذا الكتاب الناطق ، والحاكم الإسلامي يلزمه المعرفة الشاملة والعميقة للقانون الإلّهي في جميع مجالات الحكم والادارة وإذا لم

---

(90) راجع الكافي ج 1 ص 27 .

(91) المرجع السابق ص 42 .

يحصل هذا اصبحت الحكومة دكتاتورية استبدادية متقلبة ، ينبع القانون فيها من إرادة الحاكم الشخصية . وعلى الحاكم أن يكون فقيهاً ، عادلاً ، عارفاً بالقانون عن طريق الاجتهاد أو التقليد . قال الامام الحسين بن علي عليهما السلام : « مجاري الأمور والأحكام على أيدي العلماء بالله والأمناء على حلاله وحرامه »[92] .

وقال أيضاً : « والله ما الامام إلا القائم بالقسط ، والحاكم بالكتاب ، الحابس نفسه على ذات الله »[93] .

ومما لا ريب فيه أن القيام بالقسط والحكم على تطبيق الكتاب (القرآن) لا يحصل إلا عن العلم بالقانون الإسلامي اجتهاداً ، أو تقليداً .

6 ـ **الأخلاق الإنسانية العالية** : حث الإسلام كدين إنساني ، على التحلي بالأخلاق العالية الكريمة ، ودعا إلى السلوك الحسن والمعاملة الطيبة مع جميع الناس . الزوج مع زوجته ، والأخ مع أخيه ، والابن مع والديه ، والرجل مع أهله وأقاربه ، والجار مع جاره ، والمسلم مع غيره من الاخوان والأصحاب . وإن افضل صفة وصف بها الله عز وجل نبيه المصطفى (ص) بالخلق العظيم . قال تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ [القلم : 4] .

وقال رسول الله (ص) واصفاً المؤمنين : « إن أكمل المؤمنين ايماناً أحسنهم خلقاً »[94] .

فالمؤمن هو صاحب الأخلاق الحسنة ، والخلق الحسن يساوي الايمان من حيث أهميته في الدين والدنيا . وقال (ع) : « إن الخلق الحسن يميت الخطيئة كما تميت الشمس الجليد »[95] .

فالمؤمن لين الجانب يستوعب غيره من الناس بصدر رحب ووجه بشوش فلا يتأفف ولا يتذمر ، وقد وصفه علي بن أبي طالب فقال : « المؤمن مؤلوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف »[96] .

---

(92) معالم الحكومة الإسلامية ج 2 ص 283 .

(93) المصدر السابق ج 2 ص 283 .

(94) الكافي ج 2 ص 99 .

(95) المجازات النبوية للشريف الرضي . ويميت : يذيب .

(96) الكافي ج 2 ص 102 .

وعلى الحاكم الإسلامي أن يكون عطوفاً مع الضعفاء والأيتام يشعر معهم ويلبي حاجاتهم ويعيش مشاكلهم . قال الامام الصادق في التعريف بالامام : « يحقن الله به الدماء ، ويصلح به ذات البين ، ويلم بهٔ الشعث ، ويشعب به الصدع ، ويكسو به العاري ، ويشبع به الجائع ويؤمن به الخائف »[97] .

7 ـ **الحرية** : دعا الإسلام إلى الحرية ، وعمل على إلغاء الرق ، وقام بعمل جليل لم تعرفه النظم البشرية قبله ، تلك الأمم التي كانت ترى استعباد الإنسان واسترقاقه لأخيه الإنسان ؛ بحجة ثقافته الضعيفة ، أو لأنه يعيش في بيئة فقيرة ، أو أنه لا ينتسب لحزب معين ! .

قال تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله** ﴾ [آل عمران : 64] .

ديوان المظالم

عرف الماوردي ديوان المظالم وصاحبه وهدفه فقال : « ونظر المظالم هو قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة ، فكان من شروط الناظر فيها أن يكون جليل القدر ، نافذ الأمر ، عظيم الهيبة ، ظاهر العفة ، قليل الطمع ، كثير الورع ، لأنه يحتاج في نظره إلى سطوة الحماة وثبت القضاة ، فيحتاج إلى الجمع بين الفريقين وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر في الجهتين »[98] .

يبدو لنا من خلال هذا التعريف أن ديوان المظالم هذا شبيه بمحاكم الاستئناف أو محاكم التمييز في بلادنا ، ولكنه يزيد على هذه المحاكم بقوة التنفيذ . فهو يصدر الأحكام ويقوم على تنفيذها . على أن مهمة ديوان المظالم لم تقف عند سلطان محاكم الاستئناف والنقض والتمييز ، كما أسلفنا ، وإنما يقوم أيضاً بمهمة مجلس شورى الدولة الذي يفصل في المنازعات الناشبة بين الأفراد والحكومة ، فينصف المظلوم من الظالم ويعطي كل ذي حق حقه مهما سما قدر المعتدي ولو كان من كبار رجال الدولة أو من أقارب الخليفة .

كان القضاء في الدولة الإسلامية يؤدي عمله في نطاق الكفاءة والعدالة على أفضل الوجوه وأتمها فتسير الحياة سوية في المجتمع سيراً سليماً بعيداً عن الغش والجشع والظلم . ولكن لا يخلو الأمر في بعض الأحيان من مشاكل كانت تستعصي أمام القضاء العادي مما

---

(97) المرجع السابق ج 1 ص 314 .

(98) الاحكام السلطانية ص 74

يصعب التعامل معها بمقتضى سلطات المحتسب ، كأن يكون الخصم صاحب مركز سام ومقام رفيع ، أو أن تكون الظلامة مرتبطة بالدولة ، من وال أو عامل أو بيت مال . عند ذلك لا بد من وجود هيئة لها هيبتها ورهبتها لكي تبت في الأمر المستعصي على الحل ، وتقضي في الخلاف الذي يحتاج إلى حزم قوي وسلطة قادرة ، قوامها العدل ونظامها الحسم والشدة . ولا ريب أن ديواناً هذه صفاته لا بد وأن يحتاج إلى رئيس عادل حازم ، مهيب القدر ، نافذ البصيرة بالأمور .

وبعد أن اتسعت الدولة الإسلامية ، وتشعبت أمورها ، وضعف وازع الضمير فيها ، وانحرفت بعض النفوس عن مسيرة الخير ، نشأت ظلامات تعدت طبيعة خطرها حدود القاضي . فكان والحالة هذه لا بد من أصحاب الاختصاصات ، من ذوي الهيبة والنظر في المظالم ، حتى ولو كان الخليفة نفسه هو الذي ينظر للنظر فيها . كان أول من جلس مجلساً رسمياً للنظر في شكاوى المتظلمين عبد الملك بن مروان ، فكان إذا وقف منها على مشكل ، أو احتاج فيها إلى حكم منفذ رده إلى قاضيه أبي ادريس الأودي[99] .

وبعد أن زاد جور الولاة ، كان لهم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الذي رد مظالم بني أمية[100] على أهلها وندب نفسه لإنصاف المظلوم وإحقاق الحق .

ثم وضح لنا الماوردي الأسباب التي دعته إلى إقامة ديوان المظالم والتشدد في دفع ظلم الظالمين فقال : « كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله أول من ندب نفسه للنظر في المظالم فردها وراعى السنن العادلة وأعادها ، ورد مظالم بني أمية على أهلها حتى قيل له وقد شدد عليهم فيها وأغلظ : إنا نخاف عليك من ردها العواقب ، فقال : كل يوم أتقيه وأخافه دون يوم القيامة لا وُقيتُه . . » . ثم تابع : ثم جلس لها من خلفاء بني العباس جماعة ، فكان أول من جلس لها المهدي ثم الهادي ثم الرشيد ثم المأمون ، وآخر من جلس لها المهتدي حتى عادت الأملاك إلى مستحقيها »[1] .

وقد روي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، أنه خرج ذات يوم إلى الصلاة ، فصادفه رجل من اليمن متظلماً فقال :

تدعون حيران مظلوماً ببابكم   فقد أتاك بعيد الدار مظلوم

---

(99) أوْدي : نسبة إلى اود بن صعب ابن العشيرة من مذحج . انظر اللباب في تهذيب الانساب لابن الأثير ج 1 ص 74 .

(100) الاحكام السلطانية لأبي يعلى ص 59 .

(1) الاحكام السلطانية للماوردي ص 74 .

فقال : ما ظلامتك ؟ فقال غصبني الوليد بن عبد الملك ضيعتي ، فقال يا مراجم ائتني بدفتر الصوافي ؛ فوجد فيه أصفى عبد الله الوليد بن عبد الملك ضيعة فلان فقال : أخرجها من الدفتر وليكتب برد ضيعته إليه ، ويطلق له ضعف نفقته »[2] .

صفات صاحب المظالم : يتميز صاحب ديوان المظالم عن القاضي بفروق عديدة هي :

1 ـ جلال هيبته وقوة تنفيذه وبعد نظره حتى يكف الخصوم عن التجاحد والتغالب والتجاذب .

2 ـ لا يتقيد ناظر المظالم بصيغ الوجوب وإنما يخرج الى سعة الجواز بعيداً عن القيود التي يلتزم بها القاضي فتكون حركته أسرع وحكمه أنفذ .

3 ـ إذا وجد بأن أمامه عقدة مستحكمة الحل ، لمراوغة الباغي ومخادعته ، فقد يلجأ إلى الارهاب . وغايته من ذلك إظهار الحق وانصاف المظلوم ، وهو أمر لا يتأتى للقضاة بحكم طبيعة مناصبهم .

4 ـ لصاحب المظالم الحق بأن يأخذ فرصة من الوقت يقدرها بنفسه فيتأنى في النظر إلى القضايا التي تعرض عليه ملماً ومستقصياً جميع أطراف الدعوى . ولا يحق لأي من الخصمين الطلب إليه لإصدار حكم سريع .

5 ـ يحق لصاحب المظالم رد الخصمين إلى وسطاء لفض الخصومات والفصل في أي تنازع عن طريق الصلح بالتراضي مهما تمادى طرف واعتدل الآخر ، وهذا أمر ليس من صلاحيات القاضي إلا إذا رضي الخصمين بهذا التصرف .

6 ـ له الحق إذا ما اشتد التجاذب بين الخصمين ، بأن يلزم من يشاء منهما بالكفالة فيما يسوغ فيه ذلك ، حتى ينقاد طرفا النزاع إلى التناصف ويرتدا عن التكاذب .

7 ـ كما له الحق في سماع شهود مستورين ، أي الذين لا يقفون أمام القضاء ، ومن جميع الطبقات وذلك حتى يستبين له الحق من الباطل ، وهو ما يخرج عن عرف القضاة .

8 ـ يجوز لصاحب المظالم أن يستكثر من الشهود ما شاء له ، ليتبدد كل ارتياب ، ويزول كل شك في شأن القضايا التي ينظرها ، كما يحق له أن يتصرف مع الشهود الذين يرتاب في شهاداتهم حسبما يراه مناسباً .

---

(2) المرجع السابق ص 69 .

9 ـ يحق له أن يستدعي الشهود قبل أن يدلي المدعي ببينته ، وأن يسألهم عما لديهم من معلومات عن تنازع الخصوم ، بينما يبدأ القضاء بأن يكون المدعي صاحب القول الأول في ادعائه ، يقول ببينته إذا كانت لديه ثم يأتي دور الشهود .

وبذلك يستطيع صاحب المظالم أن يحقق عدالة القانون ويمكن المجتمع من العيش الهادىء المطمئن في ظل الدولة الإسلامية بعيداً عن جور الظالمين وظلم الحاكمين وطغيان الولاة والنافذين .

هيئة ديوان المظالم : لمجلس المظالم هيئة حاكمة وهيكل ثابت ويوم معروف ، ولا يتم انعقاده ويستكمل أسباب شرعيته إلا بحضور أعضائه وهم خمسة أصناف من الحكم والرعية .

أولاً : الحماة والأعوان الذين لديهم القدرة للقبض على المذنب إذا ثبتت إدانته وحاول الفرار من وجه القضاء ، أو إذا حاول العبث واللجوء إلى القوة .

ثانياً : القضاة والحكام وهم بمثابة مستشارين لصاحب المظالم يجتمعون إليه قبل أن ينظر أمام المجلس من قضايا لمعرفتهم بأحوال الخصوم ولاستلام ما يثبت عندهم من الحقوق .

ثالثاً : الفقهاء ليرجع إليهم فيما أشكل عليه ويسألهم عما اشتبه لديه من أمور عالقة .

رابعاً : الكتاب الذين يسجلون ما يجري بين الخصوم ويدونون ما لهم من الحقوق وما عليهم .

خامساً : الشهود الذين يشهدهم صاحب المظالم على ما أوجبه من حق وما أصدره من أحكام .

أعمال والي المظالم : قسم الفقهاء ورجال الأحكام اختصاص ديوان المظالم إلى قسمين : منها ما يقوم بها تلقائياً دون أن يلجأ إليه متظلم وهذه : تعدي الولاة على الرعية ، وجباية العمال ، ومراقبة كتاب الدواوين ومنها ما ينظر فيها بناء على طلب من المتظلم وهي :

ـ تظلم المسترزقة من نقص أرزاقهم ، أو تأخرها عنهم وإجحاف النظر بهم .

ـ رد الغصوب إلى أصحابها سواء كان المغتصب الدولة أو الأفراد ، وذلك بعد ثبوت كافة القرائن .

- الإشراف على الأوقاف العامة .
- تنفيذ ما عجز عنه القضاة أو غيرهم من امضائه لعلو قدر المحكوم عليه وعظم خطره .
- النظر فيما عجز عنه عمال الحسبة في المصالح العامة .
- مراعاة العبادات الظاهرة كالحج والجهاد والأعياد ، من إخلال بشروطها .
- النظر بين المتخاصمين ، والحكم بين المتنازعين .

هذا ونشير هنا إلى انتقاد بعض المستشرقين الظالم لديوان المظالم ، كالمستشرق « جرون باوم » الذي وجه انتقاداً عاجلاً وخاطئاً إلى الشريعة الإسلامية ، حيث عزى إليها القصور ، لأن قاضي المظالم ملتزم بأن يحكم في القضية فوراً ودون روية[3] .

إننا نعجب لرأي هذا المستشرق المسكين الذي لم يفهم من العربية إلا القليل ، ولا من أحكام الشريعة الإسلامية إلا الأقل .

نذكر هذا المستشرق وأمثاله أن الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة الذين تبعوهم بصدق وأمانة ، أنهم دققوا كثيراً في أحكامهم ، واستشاروا الفقهاء قبل إصدار الحكم ، واستكملوا كل ما يجب استكماله من قرائن ووثائق دالة .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قضية رفعت إليه :
« ادعوا لي علياً ، وادعوا لي زيداً ، ليستشيرهما ثم ينفذ ما اتفقوا عليه . كما كانت القضية ترفع إليه فربما تأمل في ذلك شهراً ، يستشير فيها أصحابه[4] .

إن القضاء والمظالم والحسبة ثلاثة عناوين هيأت للمسلمين في فترات حكم المصلحين من الخلفاء حياة سعيدة مترعة بالطمأنينة والأمان ، وإن الإصلاح في أي مجتمع من المجتمعات تطبيق وتنفيذ بعد أن يكون حبراً على ورق ، في نصوص وأحكام ، قد توصل إليها الفكر المتحضر . وذلك فيما يعود إلى الحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة . كلها وجدناها مدونة في الدستور . ولكن ! بقيت منذ وضعت تنتظر من يتبنى تنفيذها ويقوم على تطبيقها بكل تجرد وإخلاص .

وبعد أن عالجنا موضوع القضاء والمظالم نأتي إلى معالجة الحسبة .

---

(3) راجع الحضارة الإسلامية لجوستاف جرون باوم ص 212 وما بعدها .
(4) المقدمة لابن خلدون ج 2 ص 536 .

الحسبة

الحسبة : صورة من صور القضاء في الإسلام وهي « أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله » ، يقوم المحتسب بهذه المهمة فرضاً متعيناً عليه لا نافلة يتطوع بها متى شاء ، فليس له أن يتشاغل عن هذه الوظيفة بغيرها ، وذلك « بحكم الولاية ، وإن كان على غيره من فروض الكفاية »(*) .

ولما لهذه الوظيفة من جليل الأثر وصف الله بها الأمة الإسلامية وفضلها على سائر الأمم . قال تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ [آل عمران : 110] وسلطة المحتسب - على ما هو معروف اليوم عن القضاء - موزعة بينه وبين القاضي وقاضي المظالم . فوظيفة القاضي هي فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام ، ووظيفة المحتسب هي النظر فيما يتعلق بالنظام العام ، وفي الجنايات أحياناً ، وواجبات قاضي المظالم ، كما أسلفنا ، الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضي والمحتسب[5] .

نشأة الحسبة : نشأت الحسبة في عهد الرسول (ص) استجابة لحكم الآية الكريمة : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون** ﴾ [آل عمران : 104] وقد تولى رسول الله (ص) الحسبة بنفسه ، ثم قلدها غيره ، واتبعها من بعده الخلفاء ، ولما توسعت الفتوحات الإسلامية أصبحت ولاية من ولايات الإسلام ، ونظاماً من أنظمة الحكم جرى عليها الولاة والحكام .

روى رجال الاحكام أنه في عهد عمر بن الخطاب رُئي مرة يضرب جمالاً ويقول له : « حملت جملك ما لا يطيق » كما أنه حرق بيت رجل يدعى رويشد الثقفي لأنه كان يبيع الخمر فقال له : « أنت فويسق ولست برويشد »[6] .

شروط المحتسب : من شروط ولي الحسبة أن يكون حراً ، عدلاً ، ذا رأي ، وصرامة وخشونة في الدين ، وعلم بالمنكرات الظاهرة »[7] .

(*) المقدمة لابن خلدون ج 2 ص 536 .

(5) راجع النظم الإسلامية للمؤلف ص 242 .

(6) تاريخ الحضارة الإسلامية ، أبو زيد شلبي ، عن الطرق الحكمية لابن قيم الجوزية ص 247 .

(7) الاحكام السلطانية ص 209 .

وكان للحسبة دار خاصة بها ، يطلب المحتسب الباعة إليها في أوقات معينة ومعهم موازينهم ومكاييلهم ؛ فيعايرها ، فإن وجد فيها خللاً صادرها ، وألزم صاحبها شراء غيرها ، أو إصلاحها .

مهام المحتسب : من مهام المحتسب : الأمر بأداء الصلاة في مواقيتها ، فيعاقب تارك الصلاة بالحبس أو الضرب . كما يتعهد المؤذنين فمن فرط منهم في تأديته الحقوق وقصر في واجباته يلزمه السير على الطريق الصحيح . ويقوم المحتسب على إتلاف المغشوش من الطعام والشراب والثياب ويراقب الباعة في الأسواق .

كما له الحق في التدخل لضبط الاسعار ومنع التجار من الاستغلال والغلو في رفع الأسعار وجني الأرباح غير المشروعة . وكم نحن اليوم في لبنان بحاجة ماسة لمثل هذا المحتسب .

وللمحتسب أن يتدخل في شؤون السفن والتجارة ، فإذا ما حملوها ما لا تسعه ، منعهم من ذلك خوفاً عليهم من الغرق . وعند اشتداد الريح لا يسمح بالمسير في أسفار البحر الطويلة . كما يهيىء للنساء أمكنة خاصة تحفظ لهن كل أسباب الراحة والحشمة عند قضاء حوائجهن .

وللمحتسب الحق في التدخل لصالح المستأجر إذا رفع المالك الأجرة بغير حق ، أو إذا بنى أحد أفراد الرعية داراً مرتفعاً يضايق جاره ، أو غير ذلك مما يضر الناس .

وللمحتسب أن تعطى تعليماته الصحيحة والقويمة للخبازين والتجار والجزارين ، والقصابين ، والصيادين ، والمعلمين ، والولاة ، والقضاة .

ونختصر فنقول : إن المحتسب مخول في تولي كل أمر يتصل بالنظام العام وحماية الناس وصلاحياته غير محدودة طالما تصب كلها في سبيل المصلحة العامة .

وإذا دققنا ملياً في صلاحيات المحتسب نراها تطال الولاة والقضاة ، حتى قاضي القضاة يخضع لرقابة المحتسب ويأتمر بأمره في بعض الشؤون .

ومما يروى في هذا المجال أن إبراهيم بن بطحاء والي حسبة بغداد مر بدار أبي عمر بن حماد قاضي القضاة يومئذٍ ، فرأى الخصوم جلوساً على بابه ينتظرونه وقد أصبح الوقت ضحى واشتدت حرارة الشمس ، فقوي واستدعى حاجبه وقال له : قل لقاضي القضاة : الخصوم جلوس على بابه ، وقد بلغتهم الشمس وتأذوا بالانتظار فإما جلست لهم أو عرفتهم عذرك فينصرفوا ويعودوا .

إذن لقد كانت سلطة المحتسب واسعة وصلاحياته كبيرة ولكنها سلطة حصينة تستثمر دائماً للنفع العام تحت أية ظروف . لذلك وجب على المحتسب أن يتحلى بثقافة عامة ، وعلوم واسعة ، وإرادة قوية ، وهيبة جليلة حتى يتمكن من رفع الضرر عن الناس مهما كانت مراتبهم الاجتماعية .

والحق يقال إن نظام الحسبة في الإسلام ، هو نتيجة خبرة إلى آخر ما توصل إليه الحكم الحصيف وغايته الحرص على راحة الناس وأمنهم ودعتهم ، والحفاظ على رفاهيتهم وتجنبهم كل أسباب القلق والضيق . فهو يحمي المجتمع مادياً وأخلاقياً وأدبياً حماية غير محدودة بحدود ولا مقيدة بقيود ، إلا حدود الأمن وقيود الذوق . ونكاد لا نجد حكماً معاصراً يعتمد مثل هذا الأسلوب في حماية المواطنين مثل وظيفة الحسبة .

من هنا نعلم أن الحكم الإسلامي صالح دائماً وأبداً لكل إنسان في أي مكان وزمان ، لأنه يراعي مصلحة الجماعة وكل ما يعود على الأمة بالخير العام ، والعدالة الاجتماعية ، والمساواة بين جميع أفراد الرعية ، واعطاء كل ذي حق حقه فيمنع الظالم ويردعه عن ظلمه ، ويرجع حق المظلوم ويحميه من ظلامة المعتدين .

ومن توابع القضاء في أول الأمر كانت الشرطة .

الشرطة

رجال الشرطة هم الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة في حفظ الأمن ؛ والقبض على الجناة والمفسدين فهم أمناء على المصلحة العامة وكل ما يبعث على الطمأنينة في نفوس الناس . وقد كانت من الوظائف الهامة في الدولة الإسلامية .

وفي عهد عمر بن الخطاب عرف نظام العس[8] ، أو حراس الليل . كان يعس بالمدينة ليحرس الناس ويكشف أهل الريبة والمخربين . وفي عهد علي بن أبي طالب سمي رئيسها : صاحب الشرطة[9] .

كان الغرض من الشرطة أول الأمر تنفيذ أحكام القضاء ، وفرض العقوبات الزاجرة وإقامة التعزير والتأديب في حق من لم يرتدع عن الجريمة . ثم على الشرطة مساعدة القاضي في إثبات الذنب على مرتكبه وإقامة الحدود : كحد الزنا ، وشرب الخمر ، وغير

(8) عس : يعس ، عساً ، وعسا أي طاف بالليل ـ القاموس ، لسان العرب .

(9) المقدمة لابن خلدون ص 251 .

ذلك من الأمور الشرعية . وبعدها انفصلت عن القضاء وأصبحت وظيفة مستقلة .

يقول ابن خلدون : « . . . وكان أيضاً النظر في الجرائم وإقامة الحدود في الدولة العباسية والأموية بالأندلس ، والعبيدين بمصر والمغرب ، راجعاً إلى صاحب الشرطة ، وهي وظيفة دينية أخرى ، كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول ، توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلاً ، فيجعل للتهمة في الحكم مجالاً ، ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، ويقيم الحدود الثابتة في محالها ، ويحكم في القود والقصاص ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة »[10] .

ولم تكن مهمة الشرطة عامة التنفيذ في طبقات الناس في الدولة العباسية ، ولكن كان حكمها على أهل الريب ، والضرب على أيدي الرعاع والفجرة .

ولم تنفرد الشرطة عن القضاء إلا في عهد هشام بن عبد الملك 105 هـ - 125 هـ . فقد استقلت بالنظر في الجرائم حيث أنشأ هشام نظاماً وسطاً بين شرطة الأمن وشرطة الجيش سماه (نظام الأحداث) .

وقد أعطوا للشرطة مكانة رفيعة ونزيهة ، فقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم . وفي عهد بني أمية عظم شأنها فقسموها إلى قسمين : شرطة كبرى ، وشرطة صغرى فالكبرى كانت تنظر وتحكم على الزعماء وكبار القوم . والصغرى تحكم في رعاع القوم وعامة الناس .

أما ولاية الشرطة فلم تكن تعطى إلا لأكابر رجالات الدولة من وزراء وصحابة . وصاحب الشرطة لقبوه « بصاحب الليل » أو « صاحب المدينة » لأنه يحفظ النظام ويساعد الوالي على استتباب الأمن في المدينة فيمنع السرقة ويضرب على أيدي الجناة العابثين .

الجيش

جاء الإسلام برسالته الإنسانية ليوحد بين قلوب العرب ويهديهم إلى الخير والحياة الكريمة التي أرادها الله لهم . وكلف تعالى رسله الكرام ليصلحوا الأرض ومن عليها ، وكان خاتمهم النبي محمد (ص) أرسله بالهدى ودين الحق على الناس جميعاً ولو كره

---

(10) المرجع السابق .

المشركون . أرسله سراجاً منيراً لجميع عباد الله من كل عرق ولون .

ولما جهر رسول الله (ص) بالدعوة الإسلامية أنـزل به المشركـون وبأصحـابه وأهله أشـد الأذى وأمر الاضـطهاد . فـطلب أعوانـه من يرد العـدوان على هؤلاء الجنـاة ، فلم يرخص لهم الرسول في بادىء الأمر ، بل أجابهم : « كفوا أيديكم وأقيموا الصـلاة وآتوا الزكاة » . وعندما اشتد أذى المشركين وزاد ، جاء الإذن من الله بالقتـال : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا ، وإن الله على نصرهم لقـدير ، الـذين أخرجـوا من ديارهم بغـير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفـع الله الناس بعضهم ببعض لهـدمت صوامـع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا** ﴾ [الحج : 39ـ40] ولما كـان الأمر كـذلك شعـر النبي (ص) بالحـاجة إلى تـأليف جيش يحمي الـدعـوة المبـاركـة ويـرد عنهـا كيـد المعتدين . فكان **التطوع الاختياري** .

فكل مسلم جندي وله من حبه لدينه ما يدفعه إلى المبادرة إلى الجهـاد في سبيل الله ، والإستشهاد من أجل الحفاظ على شريعة الله .

وكـما عرف من سيرته الـطاهرة أنـه لم يلزم نفراً من أصحـابه بـالتجنيد ، وجـل مـا فعله (ص) حض المسلمين المؤمنين عـلى القتال ، وعـلى الأخص القادرين منهم . وقـد وصف القرآن بعضهم : ﴿ **لو كان غرضاً قريبـاً وسفراً قـاصداً لاتبعـوك ، ولكن بعدت عليهم الشقـة** ﴾ [التوبـة : 42] وتابـع في وصف البعض الآخر فشبههم بـالنساء الخـوالف : ﴿ **رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يعلمون** ﴾ [التوبة : 93] .

لقد جهر بدعوتـه العادلـة دون أن يلزم أحداً عـلى القتال ، فـالمقاتـل المؤمن بعدالـة قضيته يطير إلى الحرب عن رضى وطواعية ، أما المتثاقل والمتباطىء فلا حاجة إليه ولا نفع للمسلمـين منه . قـال رسول الله : « لا يخـرجن معنا إلا راغب في الجهـاد »[11] . وقال أيضاً : « لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس »[12] ويقصد بالأمس غزوة أحد .

وبإرادة الله تم فتح مكة فتحاً مبينـاً ، ودخل النـاس في دين الله أفواجـاً ، وزاد عدد المؤمنين وأصبح من الممكن إعداد جيش يعنى بأمر القتال . فألف عليه صلوات الله جماعة لتكون على استعداد للحرب يـوم النفير . ومـع ذلك لم تـأخذ هـذه الجماعـة صفة جنـدية

---

(11) طبقات ابن سعد ج 2 ص 27 .

(12) تاريخ الطبري ج 2 ص 28 .

إلزامية ، بل بقيت فيها ملامح التطوع غالبة في أكثر الحالات .

وفي عهد أبي بكر بقي الدخول في الجيش تطوعاً وليس إلزامياً ، وحددت رواتب للجنود النظاميين تدفع لهم من بيت المال .

وعندما أفضي الأمر إلى معاوية اختل نظام التجنيد ، وأخذ يدفق المال على الجنود والقواد ، لنيل رضاهم . فأصبح هدف القتال كسب المال ، وإلا فهم مع الخوالف قاعدون[13] .

وقد وضح هذا الأمر ابن الأثير فقال : « وازداد الأمر سوءاً في دولة بني أمية ، حتى أضحى الخلفاء يدفعون إلى الجنود العطايا والأموال قبل اشتراكهم في القتال ، ولما وجدوا الإغراء لا يجدي ، صلبوا المتخلفين على الجدران ودقوا في أطرافهم المسامير »[14] . ولا يخفى أن الأمويين تركوا إنسانية الإسلام وعملوا لمصالحهم الشخصية .

وأما عن فرق الجيش التي كانت معروفة ، فقد كان المحاربون فئتين : فئة المشاة ، وفئة الفرسان والفارس أهم من الراجل . يقول الطبري : « في عهد عمر بلغ عدد الفرسان في الكوفة أربعة آلاف فارساً ، وكان في كل مصر من الأمصار الباقية كما في الكوفة »[15] .

نستدل ان دور الخيالة في القتال كان أهم من دور المشاة . من هنا كان اهتمام العرب في اختيار الجواد الأصيل ، حتى انهم ألفوا كتباً في أنساب الخيل .

وتم تنظيم الجيش فجعل لكل عشرة جنود عريفاً ، ولكل عشرة عرفاء نقيباً ، والرسول نفسه هو الذي اختار ليلة « العقبة الثانية » اثني عشر (نقيباً)ممن وفد إلى مكة من أهل المدينة ، وجعلهم مشرفين على العرفاء ، وهو الذي قسم أصحابه عرافات ، وجعل على كل عشرة منهم عريفاً[16] .

أما الرتب الباقية فنستقي بعضها من كتب التاريخ . فالخليفة يأمر خمسين جندياً ، والقائد مئة وأمير الكردوس ألفاً وأمير الجيش عشرة آلاف أو يزيد[17] .

---

(13) مروج الذهب ج 3 ص 95 .

(14) الكامل ج 3 ص 159 .

(15) تاريخ الطبري ح 4 ص 196 .

(16) المرجع السابق ص 158 .

(17) الكامل ج 2 ص 200 .

وكان يتم تدريب الفرسان في (الحمى) القريب من مكة ، فيقومون بمناورات وتدريبات . وكان يصحب هؤلاء بعض العارفين بأمراض الخيل ومعالجاتها ، فيشرفون على بيطرتها وسياستها . من هؤلاء كان سلمان بن ربيعة الباهلي . أطلق عليه لقب (سلمان الخيل) لخدمته أمر الخيل وخبرته بها[18] .

شروط التعيين في الجيش :

في عهد الرسول (ص) كان التعيين يتم بنظرة دقيقة منه (ص) قبل المعركة ، فمن أعجبته لياقته في القتال أجازه ، ومن وجده غير لائق رده[19] . لم يكن يشترط سناً معيناً للانخراط في سلك الجندية . بعد العهد النبوي وضعوا بعض الشروط : أن يكون مسلماً ، عاقلاً ، بالغاً ، سليماً من الأمراض ، شجاعاً غير هياب في القتال . ودرج الامويون على هذه الشروط وكذلك العباسيون .

أما القائد فكان يختاره الرسول (ص) ويعقد له اللواء على رمح طويل ينشره أثناء مسيرته إلى المعركة . وغالباً ما كان القائد يستلم اللواء من يد الرسول ثم يركزه في المسجد النبوي ، لينضوي حوله الراغبون في الجهاد ، وقد اعتبر الخلفاء الراشدون أن عقد اللواء للقائد هو بمثابة تعيينه لامرة فرقة معينة من الجنود ، وعلى ذلك مضت سنة الأمويين إلى أن كان العهد العباسي حيث تغيرت القاعدة المألوفة فأصبحوا يرسلون اللواء إلى القواد حيث يكونون ، ومع اللواء خلعة يلبسونها بمناسبة تعيينهم ، وقد يبعثون إليهم أوامرهم بالبريد[20] .

وكانت الطاعة لهؤلاء القواد واجبة كطاعة الخليفة نفسه ؛ فهو الذي ينوب عنه في إقامة الصلاة وهي أهم وظيفة للخليفة يومئذ ، وكان القواد يستعرضون الجند قبل لقاء العدو حتى يطمئنوا عليهم ، وعلى اسلحتهم وعدتهم ؛ وذلك اقتداء بالنبي (ص) . وبعد المعركة ينصرف القائد إلى النظر في أمر الجند وتدريبهم وتحسين معداتهم وتحضيرها للوقت المناسب .

قيادة الجيش :

كان النبي (ص) هو القائد الأعلى للجيش ، وبعده تغيرت الأحوال وتطورت ، وكثرت ميادين القتال ، فأصبح من العسير على الخليفة أن يقوم منفرداً بمهمة القيادة ،

---

(18) عيون الأخبار لابن قتيبة ج 1 ص 155 وتاريخ الطبري ج 4 ص 182 .

(19) الكامل لابن الأثير ج 2 ص 62 .

(20) المرجع السابق ج 5 ص 144 .

لذلك نراه قد اسندها إلى من يتأكد أنه أهل لها ، ممن عرف بالشجاعة والنجدة والاقدام والحزم وحسن التدبير ، والخبرة بفنون القتال ، « وإعمال الخدعة ، وانتهاز الفرصة ، والتماس الغرة ، وإذكاء العيون ، وإفشاء الطلائع ، واجتناب المضايق »[21] .

عناصر الجيش :

كان الجيش يتكون في بادىء الأمر من العنصر العربي فقط ، واستمر الوضع هكذا طوال أيام النبي (ص) ، إلى أن توسع الأمويون في فتوحاتهم ، وضموا مناطق جديدة مثل افريقيا وبلاد الأندلس ، فاستعانوا بالبربر في المعارك التي خاضوها .

وفي العهد العباسي دخل العنصر الفارسي في الجيش العربي ، ولما ولي المعتصم الخلافة 218 هـ استكثر من الأتراك[22] حتى أنه ولاهم حراسة قصره ، وأسند إليهم أعلى مناصب في الجيش والادارة العامة ، وآثرهم على الفرس والعرب . وهذا ما سبب الغيرة والحسد عند القواد العرب .

وكانت النهاية أن استأثروا بالأمر وأصبح الخليفة لا سلطان له ولا حول ولا طول .

رواتب القادة والجند :

كانت الفتوح تدر على القادة والجنود خيرات عميمة لا تقدر ، وذلك بما يخصهم به أمير المؤمنين من العطايا والأرزاق . ذكر ابن خلدون فقال : « حتى كان الفارس الواحد يقسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب أو نحوها »[23] .

وفي عهد عثمان أثرت الدولة ثراءً كبيراً ، فازدادت رواتب الجنود وبلغت أموال بعض القادة أرقاماً خيالية لا تصدق . قال ابن خلدون : « كان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائتا ألف دينار وخلف إبلاً وخيلاً كثيرة . . . وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم . وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ، صهر عثمان ، ألف فرس ، وألف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ الريع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً . . . »[24] .

---

(21) العقد الفريد ج 1 ص 118 .

(22) لان أمه تركية .

(23) المقدمة ص 204 .

(24) المرجع السابق .

ولا ندرك مدى ارتفاع تلك الرواتب إلا إذا عرفنا أن الخليفة عمر تقاضى 6000 درهماً راتباً للخلافة وكذلك كان أبو بكر[25] . أما علي المعروف بزهده وتقواه لم يكترث للدنيا التي وصفها بدار الفناء ، والتي قال لها : (أيتها الدنيا غري غيري) بل اهتم بالآخرة التي وصفها بدار البقاء وقد انتقل إلى رحمة ربه وهو يقول : « أأقنع من نفسي أن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر وخشونة العيش » ، وقال في خطبة له : « والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت ، وإن دنياكم لأهون عندي من ورقة في فم جرادة »[26] ، وجاء عن أبي طفيل أن علياً أوقف جميع ما يملكه في الحجاز على الفقراء . روى الرازي في تفسيره الآية : ﴿ **والذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية** ﴾ من سورة البقرة نزلت في علي بن أبي طالب . نقل ذلك المظفري في دلائل الصدق عن الواحدي في كتابه : أسباب النزول[27] .

وفي العصر العباسي كثرت الجيوش ولم تعد الحاجة ماسة إلى إغراء الناس بالتجنيد ، فتضاءلت رواتب الجنود إلا أن يكونوا مرابطين على الثغور ، فيبذل لهم حينئذ ضعف الرواتب الأخرى تعويضاً لهم عن مشقات الاغتراب »[28] .

التجنيد الالزامي :

بدأ الناس في عهد عمر بن الخطاب يتشاغلون بكسب المال عن القتال ، بعد أن امطرتهم الفتوح بالغنائم الوفيرة . ولما تمكنت جيوش المسلمين من فتح العراق والشام ، واطمأنوا إلى النصر الذي حققوه ، أقام الجند في هذه الأمصار معسكرات خاصة بهم ، وانصرفوا إلى الزراعة وتكوين الثروة وامتلاك العقار الثابت ، وبذلك انصرفوا عن الجندية ، وفترت الروح العسكرية فيهم ، ففطن عمر إلى هذا الخطر وأمرهم أن ينصرفوا إلى الجهاد وضمن لهم أرزاقهم وأرزاق أسرهم »[29] .

هذا ما دعا الخليفة إلى أن يفكر في التجنيد الإلزامي ، ويعيد النظر في بناء الجيش

---

(45) تاريخ الطبري ج 4 ص 164 .

(26) سيرة الأئمة الاثني عشر ص 328 .

(27) المرجع السابق 334 .

(28) الكامل لابن الأثيرج 6 ص 162 .

(29) تاريخ الاسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم حسن ج 1 ص 478 .

ليكون قوياً مرهوب الجانب فأمر عماله على الاقاليم بإحضار كل فارس ذي نجدة أو رأي أو فرس أو سلاح ، فإن جاء طائعاً ، وإلا حشروه حشراً وقادوه مقاداً »[30] .

إلى جانب الترهيب والشدة عمد عمر إلى الترغيب والاغراء ، فذكر القوم بما ينتظرهم من الفيء في اتمام فتوح العراق ، وإنما يرث الأرض العامرة عباد الله الصالحون . هذا وقد أقام لهم الحصون والمعسكرات الدائمة لراحة الجنود أثناء الطريق ، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل ، ولا يرتاحون إلا في أكواخ مصنوعة من سعف النخيل ، ومن ثم بنيت العواصم وأقيمت الحاميات لصد هجمات الأعداء المفاجئة »[31] .

الطابور الخامس :

هناك قلوب مريضة في بعض أفراد الجيش ، تعمل على تثبيط الهمم وخذلان بعض العناصر ، والاتصال بالعدو لإعطائه بعض المعلومات السرية عن جيشهم . والإسلام لم يغفل عن هؤلاء الخائنين ، بل عرفهم جميعاً وكان لهم بالمرصاد ، وحذرهم وأبعدهم عن كل ما له صلة بسلامة الدولة وأمنها . قال تعالى : ﴿ **ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيَّت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً** ﴾[32] .

أولئك كانوا جرثومة الوهن في الجيش ، وأساس التخاذل في صفوف الأمة . من هنا نرى الأمم الواعية المدركة ، تحتاط منهم وتحذرهم ، وتباعد بينهم وبين كل وسيلة قد يصلون بها إلى تحقيق غرضهم . والتاريخ يعيد نفسه ، ففي كل عصر نجد من هؤلاء الجراثيم الاجتماعية التي هي أخطر بكثير من الجراثيم الجسدية التي تهاجم جسم الإنسان . وكما أن الكريات البيض في الجسم تهاجم أي جرثوم يريد الفتك به كذلك هناك عيون ساهرة ترصد هؤلاء المتخاذلين الخائنين وتقضي عليهم .

دور المرأة في الجيش :

كان للمرأة في الجيش دور كبير أثناء القتال ، فقد كانت تسقي الجند وتقوم بتضميد الجرحى ، وتذمير الجيش وتحميسه للقتال ، وقد كانت تشارك في المعركة إذا حمي

---

(30) تاريخ الطبري ج 4 ص 63 .

(31) تاريخ الإسلام السياسي ج 1 ص 478 .

(32) النساء : الآية 81 . وبرزوا : خرجوا . بيّت طائفة : دبرت بالليل .

الـوطيس ، وطاب الجهـاد . قال المقـريزي : « وكن في غـزوة أحد قـد جئن أربع عشرة امـرأة منهن فاطمـة عليها السـلام يحملن الـطعـام والشراب عـلى ظهـورهن ، ويسقـين الجرحى ، ويداوينهم ، ومنهن أم سليم بنت ملحان ، وعائشة أم المؤمنين . . . »[33] .

ولا يخفى أن الرجال عندما يرون النساء يخجلون من الفـرار ، ويستهينون بـالموت ، فيتم النصر عـلى الأعداء بـإذن الله . وقد قـاتـل النسـاء في بعض غـزوات النبي (ص) والتاريخ يفخـر بهن كمثل نسيبـة بنت كعب المازنيـة التي دافعت عن رسول الله في غـزوة أحـد . حتى قـال فيهـا (ص) : « مـا التفت يمينـاً أو شمـالاً إلا وأنـا أراهـا تقـاتـل دوني »[34] .

وفي غزوة الخندق شاركت صفية بنت عبد المطلب فقتلت اليهودي الذي كان يطيف بالحصن حتى لا يدل على عورة المسلمين[35] .

وبعض المتسلمات ركبن البحـر وغزون فيـه كمثل بنت ملحـان التي صحبت زوجهـا عبادة بن الصامت مع بنت قرظة امرأة معاوية بن أبي سفيان في أول غزوة بحرية يقوم بها المسلمون[36] .

وفي غـزو عموريـة حمل مسلمـة بن عبد الملك نسـاءه معـه ، وحمـل نـاس آخـرون نسـاءهم معهم وفي سنة 139 هـ اسـترد المسلمون « ملطيـة » وكان في الحملة اثنتـان من عمات المنصور .

الجاسوسية :

اعتمد المسلمون في حروبهم على رجال أذكياء ومدربين ، مهمتهم التعرف على أخبار العدو واستطلاع أحواله . عرف هؤلاء بالعيون . وقد كـان النبي (ص) يذكي العيـون ليأتوه بأخبار الأعداء . من ذلك أنـه أرسل عبـد الله بن جحش في اثني عشر مهاجـراً إلى « نخلة » بين مكة والطائف ليترصد بها قريشاً ، ويتعرف عن كثب أخبارهم ، كـما أرسل إلى بدر رجلان يستقيان ويتنطسان[37] .

---

(33) امتاع الاسماع ج 1 ص 138 .

(34) الاصابة ج 8 ص 261 وقد جرحت يومئذ وقطعت يدها .

(35) المرجع السابق ص 128 .

(36) راجع فتوح البلدان للبلاندري ص 159 .

(37) المتنطس : الذي يحسن النظر في الأمور ويستقصي أدقها .

وفي موقعة أحد بعث بابني فضالة : أنس ومؤنس ، يتلمسان خبر قريش ؛ فاخبراه الخبر اليقين واستفاد من أخبارهما لإنجاح المعركة[38] .

وهكذا لقد كان يهتم بأخبار عدوه ليأخذ حذره وليعد لكل أمر عدته . وهذا التدبير تأخذ به معظم الدول الكبرى المتطورة في عصرنا الحاضر .

كلمة السر عند المحاربين :

كان الجيش في صدر الإسلام إذا تهيأ للقتال نادى بكل قواه بهذه العبارة : النفير النفير. وتعني عندهم : الهجوم . وإذا أرادوا الرجعة والانسحاب قالوا : الرجعة الرجعة ! وإذا أرادوا أن يركب الفرسان للمشاركة في القتال قالوا : الخيل الخيل ! وإذا أراد الخيالة الترجل قالوا : الأرض الأرض .

ولما تقدم المسلمون في حروبهم واتسعت فتوحاتهم وكثر عدد الجند عندهم ، تغيرت هذه العبارات وجعلوا لكل حركة نداء خاصاً يدل لفظه على المراد به . فإذا ما أراد قائد الجند مثلاً أن يميل جنده من جهة إلى جهة ، أو أن يتخذ الجند شكلاً معيناً ناداهم بكلمة خاصة تناسب الوضع الذي يريد . وأبرز ما استعمله القواد في حروبهم كلمتين هما : « هوجوا » و « هوبرا » . واستعانوا على الخطة العسكرية في القتال بالاشارات بدل الكلمات . لذلك كان على الجند أن يراعوا بانتباه القائد بأعينهم حتى إذا مال إلى جهة مالوا معه . وهوجوا : تعني أن تقبل الوجوه تجاه بعضها بعضاً . وهوبرا : تعني عكس الحركة الأولى ، أي أن تتدابر الوجوه ويتفرق الجند .

وكلمة السر المتعارف عليها أثناء الحرب كانوا يسمونها الشعار . وهي كلمة يصطلحون عليها حسب مقتضى الأحوال . ففي غزوة أحد كان شعارهم : يا للعزى ، يا لهبل . وكان شعار تنوخ في الحيرة : يا آل عباد الله .

وجعل النبي (ص) لكل من المهاجرين والانصار شعاراً ، فكان شعار المهاجرين « يا بني عبد الرحمن » وشعار الأوس « يا بني عبيد الله » وشعار الخزرج « يا بني عبد الله » وهكذا كان الحال لسائر القبائل الأخرى كل واحدة منها لها شعار خاص بها يتعاف أفرادها عليه »[59]

---

(38) سيرة المصطفى ص 131 وص 393 .

(39) تاريخ التمدن الإسلامي ج 1 ص 201 ـ 202 .

الفدائيون :

كان في الجيش الإسلامي نفر من الفدائيين الذين استشهدوا أمام الرسول (ص) وأمام الصحابة في معارك مشهورة خاضها المؤمنون مع أعداء الإسلام وفازوا في الدنيا والآخرة . حاربوا بعقيدة ثابتة ، وإرادة صلبة ، وقلب كبير معمور بالإيمان ، يدفعه حب الاستشهاد للدخول إلى الجنة . وعلى الحالين المؤمن في حالة يسر وسعادة ، فأما النصر ، وأما الدخول إلى الجنة . قال تعالى : ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون** ﴾ [البقرة : 25] .

وآيات كثيرات تبشر المجاهدين في سبيل الله بجنات النعيم .

ففي موقعة أحد تقدم خيثمة أبو سعد وفدى نفسه برسول الله (ص) فقال : « يا رسول الله إن قريشاً مكثت حولاً تجمع الجموع وتستجلب العرب حتى يشنوا الغارات علينا ويصيبوا أطلالنا ويضعوا العيون والأرصاد علينا ، فيجترىء علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فينا ، إذا رأونا لم نخرج إليهم فنذبهم عن حريمنا وعسى الله أن يظفرنا بهم فتلك عادة الله عندنا ، أو تكون الأخرى فهي الشهادة » . وتابع قائلاً : لقد أخطأتني وقعة بدر وكنت عليها حريصاً ولقد بلغ من حرصي أن ساهم ابني في الخروج فرزق الشهادة ، وقد كنت حريصاً على الشهادة ، وقد رأيت ابني البارحة في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها وهو يقول : إلحق بنا ترافقنا في الجنة فقد وجدت ما وعدني به ربي حقاً وقد والله أصبحت يا رسول الله مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة ، وقد كبرت سني ودق عظمي واحببت لقاء ربي فادع الله يا رسول الله أن يرزقني مرافقة سعد في الجنة . فدعا له رسول الله (ص) بذلك فقتل مع من قتل في تلك المعركة[40] .

وكثير غيره من الشهداء الفدائيين قدموا أنفسهم رخيصة في سبيل نصرة الحق ذكرتهم كتب السير والتاريخ على صفحاتها الناصعة ونذكرهم نحن اليوم في كل مناسبة شريفة .

وهاك علم آخر من الفدائيين الحق استشهد في معركة صفين التي دارت بين علي أمير المؤمنين ومعاوية والي الشام لما بلغ القتال أقصى حدود العنف والضراوة ، تقدم أمير المؤمنين ومن بقي حياً من المهاجرين والأنصار يتقدمهم عمار بن ياسر ، البطل الجبار ، وصحابة الرسول الأبرار نحو أهل الشام ، وعمار ينادي بأعلى صوته : والله لو ضربونا

(40) سيرة المصطفى ص 395 .

حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أننا على الحق وأنهم على الباطل ، ومضى يستقبل الطعنات والضربات بصدره المؤمن ونحره الطاهر ويقول رافعاً يديه : اللهم لا أعلم عملاً أرضى إليك من جهاد هؤلاء القوم ، ولو كنت أعلم عملاً أحب إلي من جهادهم لفعلته .

وتضعضع الكثيرون من أتباع معاوية لموقف عمار البطل وعزيمته الجبارة الصادقة على مواصلة الكفاح حتى النصر أو الشهادة ؛ لأن مقالة الرسول فيه لم تعد خافية على أحد من وجوه المسلمين ، وقد تداولها الناس فيما بينهم وكأنها آية منزلة : طوبى لعمّار تقتله الفئة الباغية ، عمار مع الحق يدور معه كيفما دار . وبقي عمار يجاهد في سبيل الحق إلى جانب علي حتى استشهد في سبيل الله ضد معاوية الظالم المنحرف عن الخط الإسلامي الصحيح الذي رسمه رسول الله (ص) وذلك عملاً بحكم القرآن الكريم الذي يأمر المسلمين بقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله كما جاء في الآية الكريمة : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله** ﴾ [الحجرات : 9] .

وفدائي ثالث فدى نفسه برسول الله يوم أحد هو أنس بن النضر ، ظل يقاتل حتى قتل . وكان كثير من الصحابة قد كفوا عن القتال ظناً منهم أن الرسول قد قتل ، فمر بهم أنس المؤمن بعقيدته حق الإيمان وقال لهم متعجباً : « فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه » . ثم اندفع أمامهم بطلاً صنديداً يقاتل حتى قتل ، فوجدوا فيه سبعين ضربة وطعنة من الكفار الآثمين ، وما عرفته أخته إلا بحسن بنانه »[41] .

الحرب في الشريعة الإسلامية

عرف ابن عبد ربه الحرب فقال : « الحرب رحى ثقالها الصبر ، وقطبها المكر ، ومدارها الاجتهاد ، وثقافها الأناة وزمارها الحذر »[42] .

والحرب في تاريخ البشر أمر طبيعي لا تخلو عنه أمة ولا جيل ، وهي ضرورة اجتماعية طالما كانت هناك أطماع ومظالم بشرية ، وسببها في « الأكثر إما غيرة ومنافسة ، وإما عدوان ، وإما غضب لله ودينه ، وإما غضب للملك وسعي في تمهيده »[43] .

---

(41) الكامل ج 2 ص 64 .

(42) العقد الفريد ج 1 ص 108 .

(43) المقدمة ج 2 ص 653 .

أمـا الحرب في الإسـلام السمـوح ، فهي حـرب دفـاعيـة عن النفس وعن الـدعـوة الإسلامية ، ولم تكن حرب هجوم واعتداء كما كـانت الحال عنـد سائـر الأمم . وهذا مـا يميز شريعة الله عن الشرائع الوضعية الملكية . وقد وصفوا الخـلافة بتـواضعها وانسـانيتها بغـير ما وصفـوا القيصرية والكسرويـة في التسلط والتحكم في رقاب العبـاد . وقـد بـين الإسـلام في مواضـع كثيرة منـه السبب الذي من أجله شرع القتـال ، وأذن للمؤمنـين في حـرب أعداء الإسـلام ، والجهاد فـي سبيـل الله . قال تعـالى : ﴿ **أذن للذين يقـاتلون بـأنهم ظلموا وإن الله عـلى نصرهم لقديـر الذين أخـرجوا من ديـارهم بغـير حق إلا أن يقـولوا ربنـا الله ولولا دفـع الله الناس بعضهم ببعض لهـدمت صـوامـع وبيـع وصلوات ومسـاجـد يـذكـر فيهـا اسم الله كـثيـراً ولـينصرن الله مـن ينصره إن الله لـقـوي عزيز** ﴾ [الحج : 39 و40] .

لقد أذن الله للمؤمنين في القتال دون فرضـه عليهم ، قال عـز وجل : ﴿ **وقـاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلوكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيثما ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حـتى يـقـاتـلوكـم فـيـه فـإن قـاتـلوكـم فـاقـتـلوهـم كـذلـك جـزاء الكافرين** ﴾ [البقرة : 190 ـ 191] .

فهـل يسمع اليـوم العرب المؤمنـون نداء الله وحـالـة المسجـد الأقصى مـع إسرائيـل المعتـدية الـظالمة ؟ ! وفي السـورة نفسها قـال تعـالى : ﴿ **وقـاتلوهم حتى لا تكـون فتنـة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** ﴾[44] .

فالقتال في الشريعة الإسلامية للمعتدين على الدعـوة المباركـة حتى لا تكون هنـاك فتنـة بين عبـاد الله ، لأن الدين كله لله ، والقتـال كله في سبيل الله ، وليس كـما يحصـل اليوم لمآرب شخصية ومنافع مادية .

وفي سورة النساء يحثنا رب العالمين على القتال في سبيله فيقول سبحانه : ﴿ **وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والـولدان الـذين يقولـون ربنا أخرجنا من هـذه القريـة الظالم أهلهـا واجعل لنـا من لدنـك وليا واجعـل لنا من لـدنك نصيراً** ﴾ [النساء : 75] .

---

(44) البقرة الآية 193 وقد كررت الآية نفسها بإضافة التأكيـد ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكـون فتنة ويكـون الدين كله لله** ﴾ سورة الانفال .

أما إذا ألقى أعداء الإسلام سلاحهم ، فلا سبيل للمؤمنين عليهم ، لأن المسلمين يطبقون شريعة الله ، والله ينهى عن الظلم والاعتداء . قال تعالى : ﴿ ... فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السَّلَمَ فما جعل الله عليهم سبيلا ﴾ [النساء : 90] ونجد أيضاً في سورة الأنفال ما يشبه هذا القول : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ [الانفال : 61] .

وأما الذين ينقضون العهد ولا يلتزمون بأقوالهم ومواعيدهم في كل مرة ، كاليهود مثلاً ، فقد أمر الله بقتالهم . قال سبحانه وتعالى مخاطباً الكفار : ﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ، فأما تثقفنَّهم في الحرب فشرد بهم مَنْ خلفهم لعلهم يتذكرون فأما تخافنَّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ [الانفال : 56 ـ 57 ـ 58] .

فهل يقرأ المسلمون المؤمنون هذه الآيات المباركة في هذا الشهر المبارك ، شهر الله ، ونحن في ضيافة الله ؟ وهل يخافون الله ليتقوا الفتنة ؟ إن العدو الخائن خارج الدار أهون شراً وأخف وطأة من العدو داخل الدار . اللهم يهدي الجميع سواء السبيل .

قال جل وعلا عندما مالأ اليهود قريشاً والمنافقين ، وحاولوا إخافة المسلمين في غزوة الاحزاب ونقضوا ما بينهم وبين المسلمين من عهود ، كما كانت عاداتهم باستمرار المراوغة ونقض العهود ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾[45] .

وقوله سبحانه وتعالى مخاطباً المشركين حينما اتحدت قريش وقبائل العرب مع اليهود ضد المسلمين ووقفوا جميعاً ضد الدعوة الإسلامية : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلوكم كافة ﴾ [التوبة : 36] . من هذه الآيات وما ماثلها يتبين لنا بوضوح أن الحرب في الإسلام لم تكن معتدية وأن الإذن فيها كان متدرجاً ، وطبقاً للأحوال تماماً ، وقد بين هذا التدرج ابن قيم الجوزية في زاد المعاد وأوضح تصنيف الناس وموقف الإسلام بالنسبة لقتال كل صنف منهم ، أو الكف عن قتالهم[46] . بعد هذا يتبين للجميع إن الإسلام

---

(45) التوبة الآية 29 راجع في هذا الشان السورة نفسها الآية 12ـ36ـ123 والبقرة الآية 244 ـ وآل عمران الآية 167 والنساء الآية 76 والحجرات الآية 9 .

(46) زاد الميعاد ج 2 ص 86 وص 114 .

هو دين السلم والسلام ، ولا يريد القتال إلا لغرض الدفاع عن النفس ، أو الدفاع عن الدعوة الإسلامية .

سمو الإسلام في حروبه

لقد نهج الإسلام في حروبه طريقاً خاصاً به لم يكن معهوداً من قبل عند الأمم الأخرى ، ولم تعرفه أي شريعة من الشرائع السابقة . وفي الآيات التي أوردناها دليل واضح لنظام الحروب التي لم تصل إليه تلكم الأمم والتي تدعي لنفسها أنها وصلت إلى مستوى رفيع من الحضارة الإنسانية . وورد في تاريخ الحضارة الإسلامية : « إن الإسلام هذب أمور الحرب ، ورفع مستوى الإنسانية وبث الرحمة والعدل في قلوب متبعيه »[47] .

قال تعالى : ﴿ **اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا اتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ [المائدة : 5] . فإذا تأملنا هذه الآية وغيرها من الآيات المماثلة لها علمنا روح السمو التي يحملها الإسلام في علاقته مع غير معتنقيه ، فالإسلام بر وتقوى ، والإسلام سلم وسلام ، والإسلام محبة وتعاون ، والإسلام خير ورحمة للناس أجمعين . جاء في الحديث الشريف : « الناس كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله » .

جاء في كتاب الشيخ شلتوت ؛ الإسلام والعلاقات الدولية : « وهي علاقة يتضاءل أمام روعتها أحدث مبدأ عرفه العقل البشري في علاقاته الدولية » .

اين حرب الإسلام من هذه الحروب التي تشن اليوم ، والتي تحتقر القيم الإنسانية ، ولا تقيم وزناً لأية علاقة أو عهد أو كرامة . حرب القرن العشرين ، قرن الكهرباء والالكترون حرب دنيئة الاساليب ، ودنيئة الغايات ، وجاهلية هذا القرن لم تتوصل إليها جاهلية القرون الوسطى . وبالله عليكم ما فائدة الاختراعات الحديثة ، والاكتشافات التي انتجتها عقول المخترعين العظام في جميع ميادين الحياة ، إذا لم يسخرها الإنسان لصالح الإنسان ورفاهية الإنسان ، وتلبية حاجات الإنسان بأهون طريقة وأجودها ! .

اخترع الإنسان الكهرباء والصواريخ والبارود وكل مشتقاته ليفجر بها الصخور

---

(47) تاريخ الحضارة الإسلامية لابي زيد شلبي ص 155 .

الصلبة ويبني الدور وليس أبداً ، كما هي الحال اليوم ، يهدم بها القصور ويؤذي عباد الله .

جاء في تاريخ الإسلام لعبد الوهاب النجار[48] : « نحن الآن في القرن العشرين ، ومع هذا فالحرب لا توجد شريفة الأسباب والوحشية تتجلى فيها في أفظع مجاليها ، ومعاملة الغالب للمغلوب أخشن ما يمكن أن تكون ، مهما تزينت الحروب باسمى أسماء العواطف الخادعة ، فما الحرب العامة عنا ببعيدة ، وما الصلح فيها إلا استرقاق الأمم والشعوب البريئة لمن أوتي الظفر ، وإن لم يكونوا من جناتها ولا من مورثي نارها » .

وصايا أمراء الجيوش الإسلامية

الدين الإسلامي دين إنساني ، ورسول الإسلام رسول السلام والرحمة لجميع بني البشر ، من أي عرق وأي لون . قال تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ [الأنبياء : 107] .

وقد تعهد النبي (ص) وخلفاؤه من بعده ، القواد والجند بالنصيحة والتوجيه قبل توجههم للحرب وذلك ليؤدوا واجبهم على أكمل وجه من حيث تسيير الجنود وحسن معاملة الأسرى عند الظفر باعتبارهم دعاة الإسلام . من هذه الوصايا لملمنا بعض القطوف الدانية منها :

وصايا لرسول الله (ص) : « اغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، تقاتلون من كفر بالله ، لا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً »[49] .

وكان عليه الصلاة والسلام ينهى في مغازيه عن النهبة ، ويقول : « من انتهب نهبة فليس منا » ، وكان يمنع التفريق في السبي بين الوالدة وولدها . قال : « من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة »[50] .

وصية الإمام علي (ع) لمالك الأشتر في رؤساء الجند : « . . . ثم الصق بذوي المروءات والاحساب ، وأهل البيوتات الصالحة ، والسوابق الحسنة ، ثم أهل النجدة والشجاعة ، والسخاء والسماحة فإنهم جماع من الكرم ، وشعب من العرف ، ثم تفقد

---

(48) تاريخ الإسلام لعبد الوهاب النجار .

(49) زاد الميعاد لابن قيم الجوزية ج 2 ص 90 وما بعدها .

(50) المرجع السابق والعقد الفريد ج 1 ص 151 .

من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما ، ولا يتفاقمنَّ في نفسك شيء قويتهم بـه ، ولا تحقرنَّ لطفاً تعاهدتهم به وإن قلَّ ، فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لـك ، وحسن الظن بك .

ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها ، فإن لليسـير من لطفـك موضعـاً ينتفعون به ، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه . ثم قال أيضاً في رؤساء الجند :

. . . ثم اعرف لكل امـرىء منهم ما أبـلى ، ولا تضمَّنَّ بلاء امـرىء إلى غيره ، ولا تقصرنَّ به دون غاية بلائه ، ولا يدعونـك شرف امرىء إلى أن تعـظم من بلائـه ما كـان صغيراً ، ولا ضعة امرىء إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً . واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك[51] من الخطوب ، ويشتبه عليـك من الأمور فقـد قال الله تعـالى لقوم أحب إرشادهم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسـول وأولي الأمر منكم ، فـإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾[52] .

وصية أبي بكر الصديق لاسامة بن زيد : أسامة بن زيد هو أول قائد غـزا بعد وفـاة الرسول (ص) وقد كان يحبه النبي كما أحب أباه من قبله لحسن بلائه في الإسلام . قـال أبو بكر رضي الله عنه : « أيها الناس قفوا أوصيكم ؛ فـاحفظوهـا عني : لا تخونـوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولاتقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شـاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعـوهم وما فـرغوا أنفسهم له . . »[53] .

وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقـاص : كان سعد كبير قواد الجبهـة الشرقية في زمانه ، ومما جاء في هذه الوصية :

« وتـرفق بالمسلمـين في مسيرهم ، ولا تجشمهم مسيـراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر ينقص قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم ،

---

(51) ضلع في سيره إذا سار على احد جانبيه ، وهو يريد ثقل الحق الذي يلتبس عليه مما يجعله يسير بـه سير الأضلع لثقله .

(52) النساء الآية 59 والرد إلى الله : الأخذ بمحكم كتابه والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة

(53) الطبري ج 2 /ص 463 .

حـامي الأنفس والكراع[54] ، وأقم بمن معـك في كل جمعـة وليلة حتى تكـون لهم راحـة يحيـون فيها أنفسهم ، ويـرمّون[55] اسلحتهم وامتعتهم ، ونـخ منـازلهم عن قـرى أهـل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينـه ، ولا يرزأ أحـداً من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتليتهم بالـوفاء، كـما ابتلوا بالصـبر عليها، فـما صبروا لكم فـتولوهم خيراً ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بـظلم أهل الصلح ، وإذا وطئت أرض العـدو ، فأذك العيـون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم . . . ثم أذك أحراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك »[56] .

كان هدف القواد المحافظة على سلوك الجنود ، سلوكاً إسلامياً صحيحـاً ، وكل فـرد يخالف التعاليم المعطاة له من قبل قائـده يعاقب عـلى خطئـه ، وبصورة خـاصة في البـلاد المفتـوحة ، وذلـك امتثالاً لأوامـر نبيهم ونصائـح الخلفاء من بعـده . وهم كـونهم دعـاة الإسلام ينفذون تعـاليمه ويـطبقون شريعتـه يحتم عليهم هذا النهـج القويم . فهـل يعي المسلمون اليوم هذه التعاليم وهل يمتثلوا لأوامر نبيهم ؟ ! .

أمـا عن جهادهم وحسن بـلائهم في القتـال ، فـالسبب في ذلـك يعـود إلى تمسكهم بعقيدتهم مما جعلهم يستهينـون بالمخـاطر ، ويستسهلون الصعـاب ، فلا بـأس عليهم ، فإن من عاش منهم عاش سعيداً ، ومن مات مات شهيداً . لذلك نراهم يدقون الـطبول أثناء المعركة ، ويرتجزون الاراجيز لبث الحماس في النفوس ، ويصيحـون بصوت عـال : الله أكبر ! الله أكبر لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده .

منهج الإسلام في الحروب

كان النبي محمد (ص) رسول سلام يؤثر اعتناق القوم للإسلام بالرضى والاقتناع ، وليس بالسبي والقتل والإكراه . فأوصى بالدعـوة إلى الله ، وأعلن أن الدين لله والحـرب في سبيل الله ، قبل إعلان الحرب عـلى الأعداء . وذلـك عملاً بقـوله جـل وعلا : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي . . .** ﴾ [البقرة : 256] .

وقـال رسـول الله (ص) : « ألا أخـبركم بـأحبكم إلي وأقـربكم مني مجـالس يـوم

---

(54) الكراع : الخيل .

(55) يرمون : يصلحون .

(56) العقد الفريد ج 1 ص 154 .

القيامة ؟ أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون »[57] .

إن من يطالع سيرة الرسول الاعظم يتضح له أنه لم يقاتل قوماً قبل أن يقنعهم بالحجة والبرهان . فهذه قريش التي قال عنها (ص) في ذكر الخوارج : « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » رغم اضطهادها له ولأصحابه صفح عنها وسامحها مصغياً لقوله تعالى : ﴿ **وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل** ﴾ [الحجر : 85] .

الدعوة الإسلامية قامت بالحكمة والموعظة والبرهان والحجة قبل شن الحرب واعلان القتال قال سبحانه وتعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ [النحل : 125] . إن سبيل الإسلام في دعوته تحمل روح السمو في علاقته بغير معتنقيه ، وتوضح العلاقة بينه وبينهم آيات كريمات نذكر بعضها على سبيل الذكر .

يقول تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله** ﴾ [الانفال : 61] .

وقد أمرنا سبحانه أن نقاتل في سبيل الله وليس لاغراض شخصية وأرباح مادية كما يحصل اليوم . يقول جل وعلا : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ [البقرة : 190] .

وفوق هذا كله أمرنا أن نقسط إلى الاعداء ونعاملهم بالرحمة والإنسانية فقال سبحانه : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أنْ تَبَرُّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تَوَلَّوْهُم ومن يتولاهم فأولئك هم الظالمون** ﴾[58] .

فتأمل معي هذه الآية الكريمة التي هي بمثابة دستور إسلامي في معاملة الإسلام لغيرهم ، وتصرف المسلمين مع أنفسهم . وما احوجنا اليوم في هذه الظروف الصعبة أن نطبقها على أنفسنا ولا نكون كما سمى البعض من المسلمين المنحرفين عن الخط

---

(57) المجازات النبوية ص 167 الموطئون : الذين يدوس الناس ناحيتهم فلا يزعجون ولا يؤذون .

(58) الممتحنة الآية 8

وتبروهم : تحسنوا اليهم .

تولوهم : تتخذوهم أولياء . وظاهروا : عاونوا الذين قاتلوكم .

الإسلامي بالظالمين الذين يتولون الأعداء ، أعداء الإسلام ، وأعداء المسلمين وأعداء الله . فقد انزلقوا إلى المتاع الرخيص الزائل وفضلوا « الدولار » وعانوا الاستكبار ونسوا أو تناسوا كلام الله ، وغضوا أبصارهم عن المجاهدين الابطال ، في سبيل الله .

إذا قرأنا هذه الآيات وأمثالها ، وتأملنا في مضامينها علمنا روح السمو التي يحملها الإسلام في علاقته مع غير معتنقيه ، وأنه بر ، وعدل ، وتعاون ، وصلاح .

ومن المعلوم أن النبي (ص) عندما دخل المدينة وجد فيها طوائف من أهل الكتاب ، وكان قد جمع جيشاً كبيراً يأتمر بأمره ، فلم يكره أحداً على اعتناق الإسلام ، بل كتب بينه وبينهم عهداً وميثاقاً ، جاعلاً شعاره في ذلك قول الله عز وجل : **﴿ لا إكراه في الدين . . . ﴾** فالقتال كان حماية للدعوة الإسلامية ، لتبقى كلمة الله هي العليا ، ودفعاً للعدوان عن عباد الله المسلمين المؤمنين ، أهل الله في أرضه : **﴿ولله ملك السماوات والأرض ﴾** [آل عمران : 189] .

وقد حذرنا الله من غدر العدو ومكره فأمرنا أن نعد له العدة ما استطعنا من قوة لنحفظ حقنا ونحافظ على كرامتنا . قال تعالى : **﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم . . . ﴾** [الانفال : 60] . والرهبة هنا كما هو معلوم هي إظهار القوة القوية للعدو حتى يخاف أن يتورط قبل خوض المعركة فيلقي سلاحه ويحجب الدماء .

والآن يحسن بنا أن نعلم كيف استعمل الإسلام هذه القوة ؟ .

لما كانت هذه القوة من أجل رفع كلمة الله فلا يجوز أن تستعمل إلا حيث يأذن الله ، أي في سبيل الله . وقد وضع لنا سبحانه في كتابه العزيز ، الدستور الإنساني الخالد ، الحدود التي يجب أن نتصرف من خلالها . وهذه الحدود هي :

1 ـ **القضاء على الحروب الداخلية بين المسلمين** : فإذا ما حدث خلاف بين قطرين إسلاميين ، أو قبيلتين ، أو فئتين من المسلمين ، فعلى القوى الإسلامية الأخرى ، التدخل السريع للصلح بينهما ، فمن رضخ للأمر الشرعي ولحكم الله كان خيراً ، وإلا وجب قتاله من الجميع حتى يرضخ للحق ويعود عن انحرافه :

قال تعالى : **﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل**

واقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾[59] .

2 ـ **حرب المنحرفين عن الإسلام** : قال الفقهاء في بلد تركت سُنَّة من سنن الشريعة الإسلامية ، كالأذان مثلاً ، يجب قتالها حتى تعود . أو أن قوما امتنعوا عن دفع الزكاة ، أو تعطيل حدود الله وأحكامه ، فقد وجب على المسلمين أيضاً قتالها حتى ترجع لأمر الله ، خاضعة لأحكامه ، تاركة الحرام ، مقيمة الفرائض الواجبة والسنن المفروضة .

3 ـ **حرب المرتدين** : إذا ما ارتد أناس عن الإسلام وشكلوا قوة تمرد أرادت أن تقوم بانقلاب على الحكم ، أو أعلنت عدم اعترافها بنظام الحكم ، وخرجت على طاعة الإمام الحق بغير حق ، وجب على المسلمين إرجاعها إلى خط الإسلام ولو أدى ذلك إلى قتلهم .

4 ـ **حرب العصابات المخربة وقطاع الطرق** : أوجب الإسلام حرب هؤلاء المخربين الذين يهددون الأمن في البلاد ، وقد قال فيهم الله عز وجل : **﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو أن يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ﴾** [المائدة : 33] .

5 ـ **حرب المعاهدين إذا نقضوا عهدهم** : إذا سيطر المسلمون على بلد ما وتعاهدوا مع أهلها أن يكونوا ذمة للمسلمين ، ثم نكث هؤلاء العهد ، فإن على المسلمين تأديبهم . **﴿ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾** [التوبة : 29] .

6 ـ **الحرب الدفاعية** : عند الاعتداء على أي جزء من أرض الإسلام فقد وجب على المسلمين الحرب لصد الهجوم وإجلاء العدو ، ويطلب من البلاد المجاورة للعدو المهاجم المبادرة في القتال أول الأمر ، فإذا عجزت عن قهره وإجلائه فعلى المسلمين كافة فريضة الدفاع عن الأرض الإسلامية ، كفلسطين التي احتلها اليهود اغتصاباً ، وشردوا أهلها في البلدان العربية المختلفة ، يفرض الإسلام فرض عين على كل مسلم في البلاد المجاورة أولاً أن يدخلوا المعركة في الحرب لطرد الصهاينة الغزاة المعتدين ، وعندما يعجز سكان البلاد المجاورة وجب فرض عين على البلدان الإسلامية البعيدة المشاركة في حرب الجهاد

---

(59) الحجرات الآية 9 وبغت : اعتدت واستطالت . وتفيء : ترجع . اقسطوا : اعدلوا في أموركم . والمقسطين : العادلين في أحكامهم .

المقدس ، الواجب على كل مسلم على الأرض الإسلامية . جاء في الكتاب الكريم : **﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾** [البقرة : 190] .

7 ـ **الحرب الجهادية** : أوجب الإسلام في شريعته العادلة الحرب الجهادية ضد أعداء الله ، وأعداء الإنسانية في كل مكان لتبقى كلمة الله هي العليا ، والله مع المجاهدين الأبطال الذين ضحوا بأنفسهم رخيصة من أجل عزة الإسلام وكرامة المسلمين . قال تعالى في شأن هذه الحرب :

﴿ وقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ [التوبة : 29] .

وقال سبحانه مخاطباً المؤمنين : **﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾** [التوبة : 123] .

وقال عز وجل : **﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴾** [البقرة : 193] ، بهذه الآيات وغيرها فرض الله على المسلمين أن يكونوا في حالة حرب دائمة مع دار الحرب ما داموا يستطيعون ، حتى يخضعوا جميع أعدائهم بلداً بلداً لسلطان الله فلا تبقى أية فتنة يفتن بها المسلم عن دينه .

هذه القوة نحتاجها في كل وقت من أجل فرض هيبة الحكم الإسلامي ليسهل تنفيذ الشريعة الإسلامية وتحترم حدود البلاد الإسلامية دون خوف ولا مراعاة سياسية ولا مكاسب شخصية .

والآن ما هو الوطن الإسلامي ؟ وما هي دارُ الإسلام ودار الحرب ؟ .

قبل خضوع العالم لسلطان الله ينقسم العالم إلى دارين : دار إسلام ودار حرب :

أ ـ دار الإسلام :

هي التي يكون فيها السلطان للإسلام وللمسلمين ، وتطبق فيها النظم الإسلامية جميعها ، وهي وطن المسلم من أي جنس كان ، إذ لا يرتبط المسلم بطين الأرض ، بل بالعقيدة التي آمن بها . فالعقيدة فوق الأرض ، ولا حياة بلا عقيدة . وقد عاب الله على من كانت أرضه فوق العقيدة . فقال سبحانه : **﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً ﴾** [النساء : 66] .

وإذا كان الإسلام دار المسلم فهل تجب عليه الهجرة إليها ؟ .

يقول الفقهاء : إذا عجز المسلم عن إظهار دينه بمكان يغلب فيه حكم الكفر والبدع المضللة بحيث يمنع من واجباته الدينية ، ففي هذه الحالة يفترض عليه أن يهاجر إلى دار السلام . قال تعالى : ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عَفُوّاً غفورا** ﴾ [النساء : 97 ـ 98 ـ 99] .

قال الماوردي في أحكامه : « إذا قدر المسلم على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار إسلام فالاقامة فيها أفضل من الرحلة منها لما يترجى من دخول غيره في الإسلام »(60) .

وهذا ما حصل في فلسطين المحتلة حيث أن المسلمين الفلسطينيين رفضوا الخروج من بلادهم وتشبثوا بأرضهم ولم يهاجروا . ونراهم اليوم ينتفضون أسوداً ضارية ، ويحاربون عدوهم المغتصب بالحجارة والعصي بجرأة بالغة وحماس نادر ليسترجعوا أرضهم السليبة ، أرضهم المقدسة ، وعاصمتهم القدس ، ومسجدهم الأقصى الذي عرج إليه رسول الله ، رسول الإسلام والسلام ، في ليلة الإسراء والمعراج .

هؤلاء الأبطال يطلبون من إخوانهم المؤمنين في جميع بلاد الإسلام نصرتهم في الدين ، والواجب الشرعي يقضي على جميع المسلمين نصرتهم ومساعدتهم بكل ما يستطيعون من طاقة وامكانات مادية وبشرية . أما الذين بينهم وبين المسلمين عهود فلا يجوز قتالهم ماداموا يحترمون هذه العهود . قال تعالى : ﴿ **وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر ، إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير** ﴾ [الانفال : 72] .

فهل يسمع العرب اليوم استغاثة المسلمين الفلسطينيين في فلسطين المحتلة لينصروهم ؟ ، ودار الإسلام ، كما قال الفقهاء ، على أقسام :

1 ـ **دار العدل** : وهي الدار التي تقيم شعائر الإسلام وتحمي السنة ، وعلى رأسها الخليفة الشرعي للمسلمين .

---

(60) راجع الإسلام لسعيد حوى ص 411 .

2 ـ دار البغي : وهي التي سيطر عليها الخارجون على الإمام الحق ولو حكموا بالإسلام .

3 ـ دار البدعة : هي التي سيطر عليها المبتدعون وأظهروا فيها بدعتهم :

4 ـ دار الردة : وهي التي ارتد أهلها أو سيطر المرتدون عليها أو كان أهلها كافرين وخضعوا لحكم المسلمين ثم نقضوا العهد وسيطروا عليها .

5 ـ الدار المسلوبة : وهي الدار التي استولى عليها كافرون من خارج أرض الإسلام وكانت في الأصل دار إسلام . كفلسطين المحتلة من اليهود المغتصبين .

هذه الأقسام الخمسة كلها داخلة في دار الإسلام ، ولكن الدار التي يعطيها المسلم ولاءه ويعتبرها وطنه هي دار العدل(61) .

والخلاصة : إن وطن المسلمين هو دار السلام شرط أن تكون دار عدل . ولا تكون دار عدل إلا بخلافة شرعية تقيم أحكام الإسلام بموجب كتاب الله وسنة رسول الله (ص) . وإذا لم تكن دار الإسلام كذلك كلها ، فالمنطقة التي تتوفر فيها هذه الشروط هي التي تكون دار عدل ، وهي التي يتمثل فيها وطن المسلم الذي يرتبط فيه بالعاطفة والولاء وتجب الهجرة إليه .

ومتى وجدت دار العدل فقد وجب على حكام المسلمين جميعاً أن يخضعوا لها ، وإذا رفضوا الخضوع يكونون من البغاة الظالمين ، ويجوز عندها حربهم وقتالهم . ومثلهم مثل المسلمين المعتدين ؛ إذ أن وحدة الأرض الإسلامية كوحدة الأمة الإسلامية ، ولا يجوز وقوف أي حاجز أو مانع ، ومن خالف أو حال دون ذلك فقد أهدر الإسلام دمه شرعاً ولو كان يحمل اسماً مسلماً .

وقد قاتل الإمام علي (ع) معاوية من أجل هذا المعنى ، وتابع بعده ولده الحسين أبو الشهداء ، وبطل الإسلام محاربة يزيد بن معاوية ، الظالم الباغي ، والخارج على الشريعة الإسلامية ، للهدف عينه .

أما إذا لاحظ إمام المسلمين أن قوة دار العدل ضعيفة وغير كافية لمجابهة الأعداء ، فعليه أن يلجأ إلى العمل السياسي . وقد أجاز فقهاء المسلمين في حالات ضعفنا أن نرضي عدونا بأموالنا ريثما نعد العدة الكافية .

---

(61) قارن بالاحكام السلطانية للماوردي ص 7 .

ولعل أهم واجب تقوم به دار العدل هو تطهير ذاتها من أعـدائها المرتدين والمنـافقين وأصحاب البدع ، حيث يجوز شرعاً قتل هؤلاء الزنـادقة والمجـاهرين بـالمعصية ، الـذي ثبتت إدانتهم وأذاهم للمسلمين عامة(62) . وبدون هذا الاستئصال للمرتدين وأمثالهم لا يمكن أن تقـوم قائمـة الإسلام ، وقـد يستطيـع أعداء الله أن يؤلبـوا المسلمين عـلى أولياء الله . جـاء في القـرآن الكـريم بهـذ الشـأن : ﴿ **وفيكم سـماعـون لهم والله عـليم بالظالمين** ﴾ [التوبة : 47] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مـرض والمرجفـون في المدينة لنغرينَّكَ بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ، ملعونين أينما ثُقِفُوا أُخذُوا وقُتِلُوا تقتيلا ، سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾(63) .

إن مثـل هؤلاء هم أخـطر مـا يكـون عـلى دار الإسـلام . فيجب البـطش بهم واستئصالهم تماماً لتخليص المؤمنين من أذاهم ومؤامراتهم .

ب ـ دار الحرب :

وأما دار الحرب فهي دار غير إسلامية ، لا تسود فيها شريعة الإسـلام ولا تنفذ فيهـا أحكامه ، كيفما كانت نظمها السياسية والقانونية . ويطلق على رعاياها « حربيين » إلا أن يعقدوا ميثاقاً أو عهداً مع المسلمين ، فيدعون « معاهدين » .

والإسلام كما هو معروف عنه لا يبغي الحرب ولا يقر الخصومـة مع الغـير ، لأن هذا خارج عن هدفه الإنساني العظيم ، إنما يريد تحقيق الأمن والسـلام ، وإبعاد الشر والأذى عن المسلمين الآمنين .

من هنا كان عقد الأمان للمستـأمنين الـذي أقره جمهـور الفقهاء فقـالوا : متى يبـذل المسلمون عقد أمان للمستأمنين لم يكن له نبذه إلا لتهمة أو مخالفة فـإن وجدت التهمـة أو المخالفة كان نبذ العهد للإمام(64) .

---

(62) أجاز كثير من الفقهاء قتل المسلم العاصي الذي ثبتت إدانته إذا ترتب على هذا القتل مصلحة عامة أو دفع شر عام . راجع باب التعزيز من كتب الفقه .

(63) الاحزاب الآية 60ـ 61ـ 62

والمرجفون : المشيعون للاخبار الكاذبة . نغرينك : نسلطنك. ثقفوا : وجدوا.

(64) راجع المغني لابن قدامة الحنبلي ج 8 ص 401 .

وتعريف المستأمن كما ورد في درر الأحكام : « هو الذي يدخل دار غيره طالباً الأمان مسلماً كان أو حربياً ، وإن غلب إطلاقه على من دخل دار الإسلام بعقد أمان[65] . وهذا التعريف يستند إلى قول الله عز وجل : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون** ﴾ [التوبة : 6] .

والمعروف أن احترام العهود والمواثيق أصل عام مشروع في الإسلام ، حتى مع المشركين وقد دعا القرآن الكريم إلى الوفاء بها وأكد على ذلك بآيات عديدة .

قال سبحانه : ﴿ **واوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا** ﴾ [الإسراء : 34] .

وقال عز وجل : ﴿ **واوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها** ﴾ [النحل : 91] .

والمعاهدون هؤلاء يلتزم معهم المسلمون إذا استقاموا والتزموا في معاهداتهم ، وإلا عاملوهم كالمشركين المعتدين . قال سبحانه وتعالى : ﴿ **كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين** ﴾ [التوبة : 7] .

إن الحلال في دار الإسلام حلال في دار الحرب وفي بلاد الكفر ، والحرام في دار الإسلام حرام في بلاد الكفر ، فمن أصاب حراماً فقد حده الله على ما شاء منه .

وهنا ينبغي أن نلاحظ ملاحظة هامة . وهي أن الحاكم الإسلامي عليه أن يحتاط حيطة كاملة لتكون القوة العملية تحت سلطانه دائماً ، بحيث لا تستطيع ولاية الاستقلال أو أية فئة خارجة عن طاعة الشريعة الإسلامية ، شق عصا الطاعة وإحداث فتنة أو أذى للمسلمين .

لذلك وجب على المسلمين عامة وعلى مسلمي كل قطر خاصة أن يجعلوا قطرهم دار عدل وإن على هذه الأقطار أن تتحد لتشكل وطناً إسلامياً واحداً يقسم إدارياً ، ويكون لكل ولاية دستورها الإسلامي ونظامها الداخلي . على أن تكون تفصيلات ذلك كله مستمدة من الكتاب والسنة .

وعلينا أن نتذكر أن العمل لهذا فريضة :

أ ـ أن يكون في كل قطر إسلامي حكومة إسلامية فريضة .

---

(65) درر الحكام في شرح غرر الأحكام ج 1 ص 292 .

ب ـ أن تتحد هذه الأقطار لتشكل دار العدل فريضة .
ج ـ أن تسعى دار العدل لإنهاء الأوضاع الشاذة من دار الإسلام فريضة .
د ـ أن تسعى دار الإسلام لتعميم الإسلام في العالم فريضة(66) .

ومن دار السلام ودار الحرب إلى دار ثالثة إسمها : **دار العهد** .

ويـراد بها ، البـلاد التي لم يظهـر عليها المسلمـون ، وعقد أهلهـا الصلح معهم على خـراج يؤدونه عن أرْضِهم ، وليس عن جـزية تؤخـذ عن روؤسهم . لأنهم ليسوا في دار الإسلام(67) .

أما الماوردي والآخذون بالتقسيم الثنائي يفضلون إلحاق دار العهـد بدار الإسـلام ، لأن أهل العهد صاروا بعقد الصلح من أهل الذمـة ، ولهم إذن ما للمسلمـين وعليهم ما على المسلمين(68) .

---

(66) راجع الإسلام لسعيد حوا ص 408 ـ 409 .
(67) انظر كتاب الام للشافعي ج 4 ص 103 .
(68) قارن بالاحكام السلطانية ص 133 .

النظام المالي

الخراج

ضريبة تفرض على الأرض التي صالح عليها المشركون بمقدار معين من حاصلاتهم الزراعية أو من أموالهم ، وهذا المقدار المفروض يسمى خراجاً .

وقد فرق الإسلام بين الأرض العشرية وبين الأرض الخراجية . كل أرض أسلم أهلها عليها ، أو فتحت عنوة وقسمت بين الغانمين ، فهي عشرية ، وما فتح عنوة وأقر الإمام أهلها عليها أو صالحهم فهي خراجية ، سوى مكة شرفها الله تعالى .

وقد وردت كلمة خراج في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ **فخراج ربك خير وهو خير الرازقين** ﴾ [المؤمنون الآية : 72] . فهنا يعني الخراج الأجر والثواب والرزق . كما يفرض الخراج عن الأراضي التي أفاء الله بها على المسلمين فملكوها صلحاً ، واستحوذوا على مقدراتها دون قتال . كان أهل هذه الأراضي يؤدون خراجاً معلوماً يدخل بيت مال المسلمين . والخراج مقدار معلوم من حاصلات زراعية . ورد في كتاب الأموال : « . . . إن عمر بعث ابن حنيف إلى السواد ، فطرّز الخراج ، فوضع على جريب الشعير درهمين وعلى جريب الحنطة أربعة دراهم ، وعلى جريب القصب ستة دراهم ، وعلى جريب النخل ثمانية وعلى جريب الكرم عشرة ، وعلى جريب الزيتون إثنا عشر ، ووضع

على الرجل الدرهم في الشهر والدرهمين في الشهر »[1] .

وكان الخلفاء يشرفون بأنفسهم على الخراج عندما يظنون سوءاً في أمر الولاة أو الجباة . هذا النظام أطلق عليه نظام المقاسمة . ونظام آخر هو نظام الالتزام أو نظام الاقطاع . ومما يدخل في ضريبة الخراج ويعتبر من موارد بيت المال في الإسلام أعشار التجارة ، وأخماس المعادن ، والمراعي والضياع ، وأثمان المياه ، وما يوضع على الملاحات وغيرها كل ذلك يعد من قبيل الخراج .

الجزية

هي مبلغ معين من المال يوضع على رؤوس أهل الذمة[2] . وتختلف عن ضريبة الخراج إذ أنها تسقط بالإسلام . وقد فرضت على أهل الذمة كما فرضت الزكاة على المسلمين ، والجميع بنظر الإسلام رعية لدولة واحدة ، يتمتعون بحقوق واحدة ، وينتفعون بمصالح الدولة بنسبة واحدة . فالمسلم وجب عليه الجهاد في سبيل الله ، والذمي وجبت عليه الجزية وذلك بغية التكافؤ العادل بين المسلمين والذميين .

تؤخذ الجزية من الناس بأشكال مختلفة :

1 ـ من الاغنياء فرض عليهم قيمة 48 درهماً .

2 ـ المتوسطون فرض عليهم قيمة 24 درهماً .

3 ـ الفقراء فرض عليهم 22 درهماً وقد أعفى من هؤلاء المرضى والعجز وغير المتكسبين من حرفة .

ولا جزية على مسكين ، ولا على مقعد ، ولا على مجنون ، ولا على ذي عاهة ، ولا على الرهبان في الأديرة ، ولا على المرأة ، ولا على الصبي ، ولا على العبد المملوك . وبذلك توجب على الحر القادر .

والجزية موجودة قبل الإسلام ، فرضها اليونان قبل الميلاد بقرون ، وكذلك الرومان والفرس وقد كانت سبعة أضعاف الجزية التي وضعها الإسلام على الذميين . وقد أوصى

---

(1) الأموال ص 98 وطرز الخراج : فصل مقاديره . وفرض على الرجل الدرهم وعلى الآخر الدرهمين تبعاً لحال كل منهما .

(2) احكام أهل الذمة ص 22 .

المسلمون بالتلطف عند أخذها . وقد أظهر المسلمون تسامحاً كبيراً مع أهل الذمة حتى غير بعضهم دينهم واعتنق الإسلام .

ومما ذكر من مواطن الشدة في الشرع الإسلامي ينصرف إلى اليهود وليس النصارى مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون** ﴾ [المائدة : 82] . فالنصارى لا يستكبرون عن اتباع الحق كما يستكبر اليهود وأهل مكة . قال المفسرون إن هذه الآية نزلت في وفد النجاشي القادمين على النبي (ص) من الحبشة فقرأ عليهم سورة يس فبكوا وأسلموا ، وقالوا : ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى (ع) .

وحقوق أهل الذمة على الدولة الإسلامية في أمر الجزية هي :

ـ الكف عنهم ليعيشوا آمنين ، والحماية لهم ليكونوا محروسين .

روى نافع عن ابن عمر قال : آخر ما تكلّم به النبيّ قال : « احفظوني في ذمتي »[3] .

وتسقط الجزية عن أهل الذمة إذا عجز المسلمون عن الدفاع عنهم وعن حمايتهم .

ونذكر في النهاية أنه في ظل نظام إسلامي لا يقبل من المسلم مال ، مقابل سقوط القتال والأصل أن يؤخذ من كل غير مسلم بدل عسكري هو الجزية ، إلا إذا ارتضى أن يقاتل مع المسلمين ، وهذا الأمر متروك للمسلمين إذا وثقوا به .

الغنيمة

معناها اللغوي مأخوذ من الفوز بالشيء ، ومعناها الاصطلاحي مشتق من المعنى اللغوي وهي : مال من أموال الكفار ظفر به المؤمنون على وجه الغلبة والقهر[4] .

وبعد أن تجمع الغنائم يقسمها الإمام خمسة أقسام ، ثم يتناول خمساً منها ، خمسة أسهم بين أهل الخمس المذكورين في قوله تعالى : ﴿ **واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل** ﴾ [الانفال : 41] .

والأسهم الخمسة في هذا الخمس أحدها سهم للرسول ينفقه في مصالحه ومصالح

---

(3) الاحكام السلطانية للماوردي ص 127 .

(4) القاموس المحيط باب الميم فصل الغين وكتاب الأم للشافعي ج 4 ص 64 .

بيته وما يراه بعد ذلك من مصالح المؤمنين ، وقد سقط هذا السهم بعد موته .

والسهم الثاني لذوي قربى النبي من بني هاشم وبني عبد المطلب . والسهم الثالث لليتامى ، والسهم الرابع للمساكين ذوي الحاجة من المسلمين ، والسهم الخامس لابن السبيل المسافر المنقطع عن بلده ، والأخماس الأربعة الباقية للغانمين .

الفيىء

الفيىء اصطلاحاً هو المال الذي أصابه المسلمون عفواً دون قتال ، وهو كالغنيمة من حيث قسمته يقسم إلى خمسة أخماس ، فالسهم الأول منها لرسول الله والاسهم الأربعة الباقية لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل عملاً بقوله تعالى : ﴿ **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ [الحشر : 6 ـ 7] .

أما أربعة أخماس الفيىء الباقية فكانت تصرف في المصالح العامة للدولة والجند والأسلحة الحربية وغير ذلك . وعن فرض الأعطية من الفيىء ورد في كتاب الأموال قال : « . . . من أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني . ثم قال : فمن أسرع إلى الهجرة أسرع به العطاء . ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء ، فلا يلومن رجل إلا مناخ راحلته »[5] .

فالذين لم يهاجروا لا يحق لهم نصيب من مال الفيىء قال : « فأما السنة فليس لهم في الغنيمة والفيىء شيء » وأما التزيل فقوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيىء حتى يهاجروا** ﴾ [الانفال : 72] . .

والفيىء جعله الله للمحرومين في وطنهم ليرفع من شأنهم ويبلغ بهم مستوى الميسورين وقد اختص بهذا السهم اليتامى والمساكين وابن السبيل ، كل ذلك ليعوض لهم عما لحق بهم من حرمان ، فمن أعطاه فقد أعطى الله ، ومن منعه فقد منع الله ، ولا ترتفع مكانتهم إلا بارتفاع مسكنتهم والرسول (ص) ممثل المساكين واليتامى وابن السبيل وبه (ص) احسوا بوجودهم الفاعل في مجتمعهم وحازوا رفعة وفخارا . لذلك نالوا سهمه ورفعهم الله إلى صفه (ص) .

---

(5) الأموال ص 319 ويعني بالمناخ عن القعود عن السفر إلى الهجرة .

إن الإسلام العادل سوى بين الطبقات فلا أغنياء يملكون الضياع ، ولا فقراء ليس لديهم الكفاية لقضاء حوائجهم الضرورية لحياتهم . والمال ابتلاء وامتحان للإنسان وكذلك الحرمان والفقر . فالأول ابتلاء الاداء والشكر « وبالشكر تدوم النعم » والثاني ابتلاء التحمل والصبر .

ولكن لو قام الغني بتأدية ما أوجبه عليه الله نحو إخوانه الفقراء لزادت نعمه ودامت . قال تعالى : ﴿ **وألّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا** ﴾ [الجن : 16] .

أما الغني الذي لا يقدر نعمة الله عليه ، ولا يعترف أن المال مال الله والإنسان ميسر له ليس إلا ، تقسو نفسه ويزداد اختيالاً وفخراً ، ويزداد نهمه للمال إكثاراً وجمعاً هذا المفتخر بماله وغناه تناسى موضع الامتحان دون التفات إلى ما يطلب منه لكي يحافظ على ابتلائه الحسن ، وقد حذر الله هؤلاء فخاطبهم جل وعلا : ﴿ **كلا بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلاً لما ، وتحبون المال حباً جماً** ﴾ [الفجر الآيات : 16 ـ 17 ـ 18 ـ 19 ـ 20] .

الزكاة

الزكاة أو الصدقة أول ضريبة اجتماعية فرضت في الإسلام ، وهي وإن كانت من واردات الدولة الإسلامية إلا أنها تعد مظهراً من مظاهر التضامن الاجتماعي والأخوة في العقيدة لأنها تؤخذ من الذي يملك لتعطى إلى الذي لا يملك .

وقد ازدادت وتنوعت بتنوع الحاجات الاجتماعية ، وجرى العمل بها في العهد النبوي في مكة أولاً ، دفعها المسلمون دون تقدير ودون جباية ليصلحوا حال الفقراء ، ثم في المدينة عندما انتقل النبي (ص) وأسس فيها حكومته أقام نظام الزكاة على أسلوب محكم ومنظم . قال تعالى : ﴿ **والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم** ﴾ [المعارج : 24 ـ 25] .

هذه الزكاة جعلها الإسلام أحد فروعه الخمسة ، كما جعلها ضريبة حكومية واجبة التحصيل . والزكاة واجب اخراجها على كل مسلم عن كل ما يملكه من أموال منقولة وتجارة وزراعة وصناعة وما إلى ذلك ، شرط أن تكون زائدة عن حوائجه وأن يمر عليها سنة كاملة .

الزكاة اقتصادياً : أمر الله رسوله الاعظم أن يأخذ الزكاة من أموال الأغنياء ليردها

على الفقراء . قال تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم** ﴾ [التوبة : 103] . ومعنى قوله تطهرهم وتزكيهم بها أي تطهر ذنوبهم وتزكي أعمالهم .

ليس في القرآن الكريم ما يحدد مقادير الزكاة ، ولكن السنة النبوية التي جاءت لتفصل القول وتوضح معاني الكلام عرفت الزكاة فقالت إنها على عدة أنواع :

أنواعها :

أ ـ زكاة على أموال التجارة والصناعة .

ب ـ زكاة على الذهب والفضة .

ج ـ زكاة على الزروع والثمار .

د ـ زكاة على المواشي والانعام .

هـ ـ زكاة المعدن والركاز[6] .

مقادير زكاة أموال التجارة : $2\frac{1}{2}$ بالمائة على ما يقول الفقهاء وهي كل شيء اشتراه الإنسان ونواه للتجارة . فإنه يقوم وتدفع زكاته .

زكاة النقود : ذهب ، فضة ، أوراق مالية متداولة ، سواء كانت نحاسية أو ورقية فكلها مال تجب فيه الزكاة . فما ملكه الإنسان وحال عليه الحول القمري عليه أن يدفع $2\frac{1}{2}$ بالمائة مما ملكه أو ربحه خلال العام ، يضاف إلى رأس المال ، لأن الزكاة مستحقة على المال ونموه معاً .

زكاة الزروع والثمار : تقتصر على الحبوب التي تكال أو تدخر ، وعلى الخضر والبقول ، وهي على قسمين : (1 ـ) فيما سقت السماء أو سقي سيحاً (2 ـ) فيما سقي بالضرب[7] نصف العشر $\frac{1}{2}$.

زكاة الماشية : كالابل والبقر والغنم شرط بلوغها الحد الأدنى أو النصاب القانوني . ففي الإبل كل خمس منها يؤخذ شاتان ، وفي البقر إذا بلغ الثلاثين وفي الغنم إذا بلغ الأربعين . وكل هذه المواشي يجب أن تكون سائمة في المواشي وغير مشتغلة في شيء . ففي زكاة البقر يلاحظ التفرقة بين تبيعها ومسنها ، فالتبيع هو الذي أوفى سنة من العمر ،

---

(6) راجع نظم إسلامية للمؤلف ص 263 .

(7) الضرب : أي بعمل الإنسان .

فما زال يتبع أمه ، ومسنها هو الذي استكمل سنتين ، ففي كل ثلاثين ثوراً تبيع ، وفي كل أربعين مسن الضعف . وكذلك البقر .

وزكاة الغنم : في كل أربعين شاة ، وفي كل مئة واحدى وعشرين شاتان ، وفي كل مئتين وواحدة ثلاث شياه ، وفي كل أربع مئة أربع شياه ، وما زاد على ذلك ففي كل مئة شاة .

أما الحيوانات الأخرى كالخيل والبغال والحمير وغيرها فلا تجرى عليها ضريبة الزكاة إلا إذا دخلت في أموال التجارة ، فعندها يلزم دفع الزكاة عنها قدر بربع العشر أي $\frac{1}{40}$.

زكاة المعدن والركاز : المعدن هو كل ما كان في الأرض من ذهب أو فضة أو الماس أو نحاس أو رصاص أو كبريت أو غيره . والركاز هو كل ما ركزه الله في الأرض ولم يضعه أحد من البشر ، أو كان كنزاً تركه بعض الناس .

وتجب الزكاة في المعادن المستخرجة من الأرض إذا بلغت الكمية المستخرجة والصافية النصاب . سواء كان المستخرج مسلماً أو غير مسلم في أرض الإسلام ، ولا يشترط في الوجوب حولان الحول . وقال الحنابلة : المعدن هو كل ما تولد الأرض ، سواء كان جامداً كالذهب والفضة أو مائعاً كالزرنيخ أو النفط . وعند ذلك توجب الزكاة ما يعادل ربع العشر $\frac{1}{40}$.

أصناف الزكاة : قال تعالى : **﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾**(8) .

فالفقراء الذين لا يجدون ما يقي موقعاً من كفايتهم . والمساكين : السوّال الذين لا تكفيهم حرفتهم . العاملون عليها : الموظفون الذين يعملون في تحصيل الزكاة . المؤلفة قلوبهم : حديثو العهد بالإسلام ، كان النبي يرى تألفهم ليجدوا في التبشير بالدين الجديد ويتبعهم قومهم . وفي الرقاب: العبيد الذين تعاقدوا مع سادتهم على تحرير رقابهم لقاء مبلغ من المال . هؤلاء تحمل عنهم بيت مال المسلمين لتحريرهم من الرق . الغارمون : أي المدينون الذين استدانوا لغير معصية أو تابوا وليس لهم وفاء ، سواء أكان ذلك لأنفسهم أو في سبيل مصالح المسلمين . وفي سبيل الله : القائمون بالجهاد ممن لا

(8) التوبة الآية 60 وراجع مقادير الزكاة في كتاب الأموال ص 41 .

فيىء لهم ولو كانوا أغنياء ، فإنهم يعطون ما يكفيهم حسب المألوف . وابن السبيل : أي المسافر المنقطع في بلد ما ، يعطى ما يعينه على العودة إلى أهله وبلده .

الزكاة اجتماعياً :

لقد شدد الإسلام على الزكاة فجعلها القرآن الكريم مع التوبة من الشرك ، واقامة الصلاة عنوان الدخول في الدين الإسلامي . قال تعالى في شأن المحاربين المشركين : ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين** ﴾ [التوبة : ١١] .

وذلك لأنه يرى أن للزكاة أثراً جليلاً على المجتمع ، فمن مظاهرها التكافل الاجتماعي والأخوة الإنسانية بين الأفراد ، فعدم استئثار الإنسان على أخيه بما يكون أحوج إليه منه ، يشيع عدالة اجتماعية رفيعة المستوى ، ويولد روح المحبة بينهم ، محبة تنبع من داخل الفرد ولا تفرض عليه ، فهو يشعر أن ما في يده يجب أن يسخره بدافع شخصي لقضاء حاجة المحتاجين ، أخوته في الإيمان ، لأن الاخوة هي الرباط الوثيق التي تجمع أفراد المجتمع ، وتجعل منهم جسماً واحداً ، إذا أصيبت أحد اعضائه تداعت له سائر الاطراف بالحمى والسهر . والأخوة أرفع شأناً من المال ، وأنبل غاية ، وما جعل المال إلا صوناً لها ، وعندما يشعر الطرف الآخر ، الذي يُعطي أن ما في يد أخيه لقضاء حوائجه ، يكون بلا ريب أدعى في نفسه للحفاظ عليه ، ويجب عندها ازدياده بين يديه بلا طمع أو حسد أو غيرة[9] .

وعندما يكون ما يكون المال للجميع ولخدمة الجميع دون مفاضلة ولا تمييز ، يتحقق عند ذلك التوازن الاجتماعي ، وتزول الفوارق بين الأفراد ، وتذوب الأنانية من قلوبهم كما يذوب الجليد من وهج الشمس ، ويولي الفقر بلا رجعة . وفي ذهاب الفقر تثبيت الإيمان في القلوب وترسيخه في النفوس . قال الإمام علي (ع) في هذا المجال : « ما ذهب الفقر إلى مكان إلا وقال للكفر خذني معك » .

فالزكاة بمفهوم الشرع الإسلامي تقوم باداء دور المساواة ، وتحقيق العدالة الاجتماعية حتى يكون الناس جميعاً طبقة واحدة ، في مستوى المعيشة ، لا يفضل أحدهم على الآخر ، إلا بصفاته الشخصية الموهوبة له تكوينياً لا تشريعياً .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل**

---

(9) النظم الإسلامية للمؤلف ص 266 .

لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات : 13] . التقى هو ميزان التفاضل في الإسلام وليس المال ولا البنون ولا المذهب ولا الوظيفة ، فالمؤمنون الصادقون هم أخوة في الإيمان وقد وصفهم الله في كتابه العزيز : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ [الحجرات : 15] .

« أما روح الزكاة ، فهي الفريضة التي يجبر على تأديتها المستَخْلف في الأرض ، عند تخلفه عن تأدية مهمة الاستخلاف وتحقيق غايتها ، وهي عدم الاستئثار على الأخ بما هو أحوج إليه » ، فتقوم الفريضة بتأدية هذا الدور في الحدود الممكنة ، لأن المال مال الله جعله خواتيمه في الأرض لصالح عباده ، فلا فضل لمجتنيه إلا فضل الوسيط في إيصال ما أؤتمن عليه[10] . ولعل في وصية النبي (ص) لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن جماع لخصائص الزكاة . قال له (ص) : « إنك ستأتي قوماً أهل كتاب ؛ فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسوله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ؛ فاخبرهم أنّ الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ؛ فأخبرهم أنّ الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ؛ فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم . . . »[11] .

نستخلص من هذه عدة أمور :

أولاً : وجوب فرضها على الاغنياء .

ثانياً : تؤخذ من الأغنياء لترد على الفقراء .

ثالثاً : تؤخذ في انصاف ؛ فلا تؤخذ من كرائم الأموال وخيارها .

المال في الإسلام ملك لله

يوجه القرآن نظر الإنسان إلى أن المال هو ملك لله ، وأن الإنسان ، خليفة الله على الأرض نائب في الإشراف عنه سبحانه وتعالى ، وعلى الإنسان أن يطيع ربه ولا يعصيه فيما استودعه إياه . قال تعالى : ﴿ ولله ملك السماوات والأرض ﴾ [آل عمران : 189] فالذي يملك السماوات والأرض يملك بلا ريب كل ما عليها ومن عليها وهو الرزاق الكريم وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير

---

(10) نظم إسلامية للدكتور الشيخ صبحي الصالح ص 357 .

(11) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة .

الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ [فاطر : 3] .

ولما كان الله هو رازق الإنسان ، فالناس اصبحوا مكلفين بالانفاق مما رزقهم ربهم ثم استخلفهم عليه . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خُلّة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون** ﴾ [البقرة : 254] .

فلا حجة لأحد ولا فرصة لأحد ليبرر نفسه ويطلب التأخير أو التأجيل . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون** ﴾ [المنافقون : 10] .

ومن هذا المنطلق لا يحسن بعباد الله الصالحين أن يتأخروا عن تنفيذ أمر الله في ماله الذي استودعهم إياه ، فكلفوا بنقله من مكان إلى مكان ، وبدلوه وغيروه أشكالاً وأنواعاً وألواناً ، ثم تركوه لابنائهم وورثتهم ، وهؤلاء أيضاً كرروا العمل نفسه وتوالت الأجيال وتوالت الدورات وبقي المال لله فاطر السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم .

والانفاق في الإسلام هو في سبيل الله

في الإسلام ناحية اجتماعية سامية لإزالة الفوارق الطبقية ، والقضاء على الامتيازات المذهبية والتمايز العنصري ، ألا وهي الانفاق في سبيل الله وعلى المصالح العامة التي يفيد منها كل الناس . وهو يشمل كل ما ينفق لاعلاء كلمة الإسلام والدفاع عنه وإقامة أحكامه وكل ما يوصل إلى مرضاة الله . كنشر العلم وإزالة الجهل ، ومساعدة المحتاجين والضعفاء ، وكل ما يساعد المسلمين عامة في كافة النواحي .

ولنتأمل هذه الآية ، الآية في بلاغتها وادائها وشموليتها وقربها من الواقع . قال تعالى : ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ، الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يُتبعون ما انفقوا مَنّاً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ [البقرة : 261 ـ 262] . فالله الرزاق الكريم ، يخبرنا أنه يضاعف لنا ما ننفقه في سبيل الله أضعافاً مضاعفة ، نفيد منه في دنيانا وآخرتنا ولكن قد اشترط جل وعلا لهذا الثواب ترك المن والأذى . كأن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن إليه أمام الناس مظهراً بذلك فضله على الآخرين ، هذا من حيث المن ، وأما الأذى : أدهى وأنكر وهو أن يذكر المحسن إحسانه لغير من أحسن إليه فيؤذيه بين أقرانه ومواطنيه ويسيء إلى سمعته .

وإذا كانت غاية التجارة الربح فالله سبحانه وتعالى يدلنا على تجارة رابحة تفيدنا في

دنيانا وتنجينا في الآخرة. قال تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ [الصف الآية : 10 ـ 11] .

وليكن انفاقنا من الصدقات من طيبات ما نكسب حتى نحب لغيرنا ما نحب لأنفسنا قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كَسَبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تُغمضوا فيه واعلموا أنّ الله غني حميد** ﴾ [البقرة : 267] .

كما ورد في القرآن الكريم آية أخرى بهذا المعنى. قال سبحانه : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم** ﴾ [آل عمران : 92] .

قال المفسرون إن هذه الآية نزلت في الزكاة المفروضة حيث كان بعض العرب يعمدون إلى تصنيف الغلال فالجيد منها يتركوه لهم ، والخبيث يدفعون به إلى صاحب الصدقة . ولكن لو سألتهم هل ترضون بهذا لأنفسكم وهل تغمضون أعينكم إذا ما أردتم شراء بضاعة لكم . فمن كره العيب لنفسه فعليه أن يكرهه لاخوانه المؤمنين ، ومن أحب الخير لنفسه فليرغب به إلى الآخرين ، هذا هو العدل الإلهي وهذه هي الشريعة الإسلامية في حكمتها وسموها وعدالتها .

وفي الإسلام مورد آخر للفقراء ليس له حد معلوم .

هذا المورد جاء عن طريق الكفارات التي فيها معنى عقوبة النفس أو البدل أو جبر الناقص . مثال ذلك : قسم اليمين والتراجع عنه . فقد يحلف الرجل أن يقوم بعمل ما ثم يعدل عنه لظروف خاصة فليزم عليه في مثل هذه الحالة أن يدفع كفارة ، إطعام عشرة مساكين مما يطعم به أهله ، أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، وإذا ما عجز عن صوم رمضان لمرض أو هرم ، يفطر ويطعم عن كل يوم إفطار مسكيناً .

وقد يخل الحاج بشرط من شروط الحج الرئيسية فعليه أيضاً أن يكفر بذبح يقدمه للمساكين . وفي عيد الفطر يجب علينا دفع زكاة الفطر إلى المعوزين المؤمنين .

وفي عيد الأضحى أوجب الإسلام على المستطيع ذبح ضحية تيمناً بانقاذ إسماعيل (ع) من الذبح عندما افتداه الله . قال تعالى : ﴿ **وفديناه بِذِبْحٍ عظيم** ﴾ [الصافات : 107] . هذا بعض التشريع الإسلامي في الاقتصاد الذي يوثق

عرى المحبة بين الأفراد، ويوفق بين الطبقات الاجتماعية المختلفة ، ويقضي على الفقـر ، ويعمل على الاستقرار في المجتمع ويشيع السلم والسلام في ربوع الإسلام .

الزراعة

الـزراعة عـامل هـام من عوامـل استقـرار الإنسـان ، ومؤشر واضـح من مؤشرات الحضارة الإنسانية . ذلك إن الإنسان الهادىء البال والبعيد عن كوارث الحروب وويلاتها يقوم بزراعة أرضه واستثمارها ليحسن وضعـه المعيشي ويسير بـه نحو الأفضـل . وعندمـا يعمر أرضه ويستفيد من خيراتها يشعر بـالميل نحـوها ، ويحب الالتصـاق بها وعـدم البعد عنها ، وكأن ذلك الحنين إلى أصله بـدأ يغازل روحـه ، ويدغـدغ أمالـه الخضراء . ومن المحبة يولد كل خير ويبدأ التعمير والبناء والصعود على السلم الحضاري درجة درجة .

كانت الدولة الإسلامية بعد الفتوحات المبـاركة ، تضم كثيـراً من الأقاليم التي تعـد من أخصب بقـاع العالم كبـلاد الشام ، والعـراق ، ومصر ، وخراسـان ، وسجستـان ، وبعض مناطق من شمالي إفريقية .

وقد ساءت الأحوال الاقتصادية في هذه الأقاليم قبل الإسلام بسبب الحروب المتوالية بين الدولتين الكبيرتـين : الفرس والـرومان . وكلنـا يعلم ما تسبب الحـروب من ويلات ومصائب تعيق سير عجلة الحضارة عن التقدم ، وربما تشلها تماماً ، والتاريخ يعيـد نفسه ما تصنعه الحروب في هذه الأيام المستوردة من الدولتين العظمتين : أميركا وروسيا .

ونحن في لبنان في هذه الأيام ذقنا طعم الحـرب الهدامـة البغيضة ومـا زلنا نعـاني من ويلاتها ومن دسائس الذين يشعلونها كلما خبت نارها .

وما أحدثته الحروب الرومانية الفارسيثة كثرة الضرائب والظلم في فرضها وجبايتها ، لتغـطية نفقـات الحروب . وقلة الأيـدي العاملة في الـزراعة ، وإهمـال الدولـة في شؤون الإصلاح الزراعي ، مما أدى إلى قلة المحاصيل الزراعية والاضرار بالاقتصاد الوطني .

ولما فتح المسلمـون هذه البـلاد المنكوبـة عمدوا إلى تحسـين وضعها الـزراعي وتنمية مواردها الاقتصادية مما أدى إلى إنعاشها وازدهارها . ومن مظاهر هذا التغيير :

كـثرة الأيدي العـاملة ، وإصلاح وسـائل الـري وتنظيمهـا ، فبنوا السـدود وشقـوا القنوات وأقاموا الجسور والقناطر . وانفقوا في سبيل ذلك أموالاً طائلة مستخدمـين العدد الكبير من العمال .

وقد درسوا صلاحية كل تربة لأنواع النباتات فزرعوا فيها ما يصلح لها ، وبذلك تمكنوا من استغلال الأراضي الزراعية أفضل استغلال .

واعتنوا بتسميد الأرض عناية كبرى بعد أن عرفوا السماد الصالح لكل نوع من النباتات عرفوا التلقيح فلقحوا الكروم وأشحار التين ، وأشجار النخيل بالطلع الذكر ، كذلك عرفوا تطعيم بعض الأشجار من بعض .

اهتم الفرس بزراعة قصب السكر ، وصنعوا منه السكر ، ثم انتقل إلى مصر ، وسواحل الشام حيث عرفه الصليبيون فيما بعد ونقلوه إلى أوروبا(12) .

الحاصلات الزراعية : عرف المسلمون أنواعاً من الحاصلات الزراعية منها :

النخيل : عرف بالعراق ، وكرمان ، وشمالي إفريقية ، ولكن العراق أعطى أجود أنواع التمور أما كرمان فقد كثر التمر حتى انهم باتوا لا يستطيعون رفع ما تساقط من النخل ، وكان رسم الجمالين نصف ما كانوا يحملون من كرمان إلى خراسان .

وقد استفادوا من كل جزء من أجزاء النخلة ، من ثمرها اللذيذ الذي استخرجوا منه دبساً وشراباً . كما أفادوا منه في الطب لمعالجة كثير من الأمراض . ومن السعف اتخذوه زينة في الاحتفالات وصناعة كثير من أدواتهم .

التين : لا تقل أهمية شجرة التين عن سابقتها ، استفادوا من ثمرها رطباً ويابساً ، وكان لها في نفوسهم أهمية كبيرة لتكريم الله لها في كتابه العظيم : ﴿ **والتين والزيتون وطور سنين** ﴾ [التين : 1] .

الزيتون : هو من نباتات إقليم البحر الأبيض المتوسط ، عرفت في بلاد الشام وشمالي أفريقيا ، حيث كانتا تمدان الدولة الإسلامية كلها بالزيت ، وأحسنه الزيت الشامي ، ولا سيما مدينة نابلس . ولا زالت شجرة الزيتون تلقى من العناية في بلاد الإسلام ما لا تلقاه في البلاد الأخرى من بلاد البحر الأبيض المتوسط .

الكروم : كان منتشراً في أكثر البلاد كالطائف واليمن والعراق وبلاد الشام وأرمينية وأذربيجان أما العراق فكان له فيها النصيب الأوفر ، واليمن النوع الأجود .

البطيخ : أكثر الفواكه مبيعاً في الأسواق ، من هنا كان سوق بيع الفاكهة يسمى دار

---

(12) راجع الحضارة الإسلامية لآدم متزج 2 ص 299 .

البطيخ[13] ، واشتهر في شمالي فارس بنوع خاص ، وكان يقدد لجودته ويحمل إلى العراق .

قصب السكر : كان يزرع في أكثر البلاد الإسلامية ولكن البلدان التي اشتهرت في زراعته هي : خوزستان ، والأندلس ، ومصر ، وكابل ، وصور .

القطن : اشتهرت بزراعته بلاد فارس ، وبلاد ما بين النهرين ثم انتشر فيما بعد في شمالي أفريقيا والأندلس .

القطن : اشتهرت بزراعته مصر . وبصورة خاصة الفيوم ، وبلاد الشام .

الحنطة : وكانت تزرع في المناطق المتوفر فيها الماء في الدولة الإسلامية ، في بلاد العراق وفي ناحية خوزستان لها المكان الأول .

الذرة : تزرع في المناطق الجافة في جنوب الدولة الإسلامية ، وبلاد النوبة وجنوب مصر ، وكرمان .

الصناعة

عرف المسلمون كيف يستفيدون من ثرواتهم الطبيعية المختلفة ، والمعدنية ، واتقنوا الكثير منها . من هذه الصناعات :

1 ـ **السكر** : اشتهر بصناعته خوزستان ، وإقليم البصرة ، وبلاد الأندلس . وكان أكبر مركز لصناعته إقليم خوزستان ، وفي العراق إقليم البصرة . وقد تفننوا في صناعة الحلويات على اختلاف أنواعها . وما زالت العراق تشتهر بأنواع خاصة من الحلويات عرفت بها « كالمن والسلوى » والمعجنات بالتمور وغيرها .

2 ـ **القطن** : كان يزرع في بلاد فارس ، وفيما بين النهرين ، وكرمان ، أما المراكز الكبرى التي اشتهرت به كانت في نيسابور ، ومرو . وقد برعوا في صناعته فيما بعد حتى صدروا منه إلى بلاد الصين .

3 ـ **الحرير** : اشتهرت به خوزستان وطبرستان ، أما خوزستان فكان يصنع فيها

(13) في ديوان ابن الرومي قصيدة بعنوان « دار البطيخ » .

أجود أنواع الحرير مثل الخز والديباج (وهو أرقى الأنواع) يلبسه الطبقة العليا الميسورة في المجتمع .

4 ـ **العطور** : ازدهرت صناعة العطور في بلاد فارس والعراق . قامت به سابور من أعمال فارس وتميزت بصناعته إلى حد بعيد ، تستخرجه من البنفسج ، والنرجس ، والسوسن والزنبق ، والمرسين ، والنارنج وغيره . . .

كذلك اشتهرت مدنية « جور » في جنوب فارس بصناعة العطور ، ولكنها كانت تتخذه من غير الزهور التي ذكرناها مثل : الورد ، والزعفران ، والطلع ، والقيسوم . . . حتى إنه كان ماء الورد الصافي ينقل من « جور » إلى سائر البلدان ؛ كالمغرب ، واليمن ، ومصر ، والهند ، والصين .

أما الكوفة فقد عرفت نوعاً آخر يدعى دهان الخيري وعطر البنفسج الذي تفوقت به على سابور .

5 ـ **معقدات الفاكهة** : (المربى) اشتهرت اليمن بهذه الصناعة فجودتها وبرعت بها حتى قالوا : (مربى يمني) أي معروف بجودته . كما تميز أهل اليمن بصناعة الشهد الجامد الذي يقطع بالسكين ، وكان لهم في صنعه طريقة خاصة عرفوا بها ، يرسل منه هدايا إلى العراق ومكة ، وغيرهما .

6 ـ **طحن الحبوب** : كانوا يطحنون الحبوب في مطاحن مائية أو هوائية ، وكانت أكبر الأرحاء العائمة تقوم على نهر دجلة في تكريت ، والحديثة ، وبغداد ، والموصل . يصنعونها من الخشب أو الحديد ، وسموها عربة ، في كل عربة حجران أو أكثر يطحن كل حجر منها خمسين وقراً كل يوم . وفي بغداد كانت رحى البطريق أكبرها .

أما الارحاء الهوائية فكانت تدفع بواسطة الهواء ، لها ثمانية أجنحة ، تكون بين عمودين ينفذ بينها الهواء كالسهم ، والاجنحة تقوم عمودية على قائم عمودي أيضاً طرفه الأسفل يحرك حجراً ، فيدور هذا الحجر على حجر آخر . وقد تمكنوا من تنظيم سرعتها بواسطة منافس تغلق وتفتح حسب الحاجة . (تقوم مقام « فريم » السيارة) .

7 ـ **الأخشاب** : كانت الأخشاب كثيرة في البلاد الإسلامية ، وصناعاتها متنوعة ؛ فخراسان عرف فيها خشب العرعر وهو من الاخشاب الجيدة استعمله الأغنياء من المسلمين في بناء بيوتهم في صدر الإسلام وخشب الساج الهندي وهو أفضل أنواع

- الأخشاب المستعملة في بناء البيوت في الشرق كله ، تصنع منه أدوات بيتية لكبار القوم والميسورين .

وكانت مفروشات بيوتهم تصنع من خشب الخلنج ، وهو خشب أبيض مائل إلى الحمرة ، عرفت به مدينة « قم » التي كانت تصنع منه أجود الكراسي وتصدرها إلى الخارج .

8 ـ **البسط والسجاديد** : صناعة البسط والسجاديد كانت منتشرة في جميع انحاء البلاد الإسلامية ، اشتهرت بصناعتها بلاد فارس ، وبخارى ، وأزمير ، يصنعون منها ما تفرش به الأرض ، وما يعلق على الجدران ، والستائر الجميلة على النوافذ والفتحات في جدران المنزل .

وكان جمال البيت يتلخص في فرش أرضه وجدرانه ونوافذه .

كما عرفت أسيوط ، بصعيد مصر ، هذه الصناعة من الفرش القرمزية الجميلة جداً .

9 ـ **المعادن** : أحسن المسلمون الاستفادة من ثرواتهم المعدنية كالحديد والنحاس والذهب والفضة عرف الحديد في فارس ، وكابل ، وكرمان ، وبلاد فارس كانت أكبر إقليم لاستخراجه وصناعته .

والنحاس الأصفر : كان معدنه في أصفهان وبخارى ، صنعوا منه الأدوات المنزلية المختلفة وتفننوا في النقش عليها من الأيات القرآنية والحكم والأمثال .

نقشوها على (الصواني والأباريق والصدور الكبيرة) التي كانوا يعلقونها للزينة على الجدران . كما استعملوا النحاس أيضاً في طلاء أعلى المنائر في المساجد .

والذهب والفضة : في مشرق البلاد الإسلامية كان الفضة ، وفي المغرب منها كان الذهب . فأكملت أجزاء البلاد بعضها بعضاً . وكانت أيضاً معادن التبر[14] ، في شرقي أسوان ، والتبر هو الذهب والفضة بالشكل الخام قبل أن يصاغا .

---

(14) كانوا يتجولون في الليالي التي يضعف فيها ضوء القمر ، فيضعون علامة على المواقع التي يرون فيها شيئاً مضيئاً ، فإذا أصبحوا عرفوا الاماكن المعلمة ، يعملون منها الرمل ويمضون بها إلى آبار عندهم ، فيغسلونها بالماء ويستخرجون منها التبر . راجع الحضارة الإسلامية لآدم متزج 2 ص 314 .

التجارة

كان للعرب قبل الإسلام معرفة واسعة بالتجارة ، وخبرة طويلة في تاريخها ، ولما جاء الإسلام واتسعت الفتوحات ، وانتعشت الزراعة ، وتحركت عجلة الصناعة ، نشطت التجارة نشاطاً ملحوظاً ، واتسع مجالها حتى أصبح للمسلمين صلات تجارية مع معظم بلاد العالم . وأول قبيلة عملت في التجارة نجاحاً كبيراً هي قبيلة قريش .

وقد بلغ من اهتمام القرشيين بها أنهم كانوا يرحلون رحلتين في العام ، رحلة إلى اليمن ، التي ازدهرت كثيراً على يد تجارها ، حيث كانوا ينقلون غلات حضرموت وظفار واردات الهند إلى الشام ومصر ، ورحلة الصيف إلى الشام[15] .

كما يروى ان هاشماً هو الذي سن هاتين الرحلتين[16] ؛ لذلك نرى مكة التي سكنت فيها قبيلة قريش ، قد لعبت دوراً هاماً في التجارة ، لأنها تقع في منتصف الطريق التجاري ، وفيها بئر زمزم حيث تسقي منها القوافل ، وتأخذ حاجتها من الماء في رحلتها الطويلة[17] . قال تعالى على لسان إبراهيم (ع) : ﴿ **ربنا إني أسكنتُ من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾ [إبراهيم : 37] .

والجاحظ يذكر لنا في رسائله عن اختصاص قريش بالتجارة فيقول : « وقد نشروا تجارتهم في كل أنحاء الجزيرة العربية حتى عرفوا (بقريش التجار)[18] .

وكذلك البغدادي فإنه يروي لنا في سبائكه عن رحلتي قريش فيقول :

« وكان بنو عبد مناف الأربعة يتوجهون إلى البلاد المختلفة للتجارة ؛ فكان هاشم يتوجه إلى الشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس .

وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه البلاد في ذمة هؤلاء الأخوة الأربعة لا يتعرض لهم أحد بسوء »[19] .

وقد منَّ الله على قريش في ذلك بقوله : ﴿ **لايلاف قريش ، إلافهم رحلة الشتاء**

---

(15) راجع الاطنام لابن الكلبي ص 12 ـ 31 ـ 42 .

(16) تاريخ العرب قبل الإسلام ج 4 ص 66 .

(17) انظر السيرة لابن هشام ج 1 ص 142 .

(18) رسائل الجاحظ ص 156 .

(19) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ص 69 .

والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ [قريش الآية : 1 ـ 2 ـ 3 ـ 4 ـ] . وامتدت تجارة المسلمين إلى الشرق حتى وصلت إلى الصين والفلبين ، وإلى الغرب حتى وصلت إلى بلاد الفرنجة ، وإلى الجنوب حتى وصلت إلى نيجيريا والحبشة وسواحل أفريقيا وإلى الشمال حتى وصلت إلى بلاد الروس ، التي ظلت إلى ما بعد الحروب الصليبية ، هي الطريق بين شمالي أوروبا والشرق .

ثم أصبح الكثير من المدن الإسلامية مراكز حافلة بمظاهر التبادل التجاري البري والبحري من أهم هذه المدن ، بغداد ، والبصرة ، والقاهرة ، والاسكندرية ، وأصفهان ، ومرافىء الشام كطرابلس ، وبيروت ، وصيدا . حتى اصبحت بغداد والاسكندرية هما اللتان تقرران الأسعار للعالم في ذلك العصر في البضائع الكمالية على الأقل[20] .

أثر التجارة الاجتماعي : استفاد المسلمون من تجارتهم ، فضلاً عن الغنى والثروة المالية خبرة بعيدة بشؤون الحياة ، ومعرفة واسعة بأخلاق الناس ومعالجة الأمور الاجتماعية ، حتى اصبحت التجارة الإسلامية مظهراً من مظاهر أبهة الإسلام وحضارته ، ولها السيادة في البلاد ، وغدت سفن المسلمين ، وقوافلهم التجارية تجوب البحار ، حتى احتلت المكان الأول للتجارة العالمية[21] .

---

(20) الحضارة الإسلامية ج 2 ص 375 .

(21) الحضارة الإسلامية ج 2 ص 365 .

الفصل الثامن

السلام والحرية في الاسلام

السلام

شعار من شعارات الإسلام ومبدأ حضاري من مبادئه، ومثل أعلى يتطلع إليه المسلم في سلوكه (السلام عليكم) تحية كل مسلم ومسلمة ، والحديث المعروف الذي ورد على لسان النبي محمد (ص) يقول : « المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه » . والمسلم أيضاً هو من أسلم وجهه لله سبحانه وتعالى . وقد فصلنا فيها القول في تعريف كلمة إسلام في الفصل الأول .

وانطلاقاً من هذا المفهوم يتجه مفهوم السلام في العقيدة الإسلامية في اتجاهين : اتجاه نحو الفرد ، واتجاه آخر نحو الجماعة .

فيما يعود للفرد يعني السلام مسالمة الإنسان أخاه الإنسان من أذى اليد واللسان ، بدلالة الحديث الشريف الآنف الذكر . لأن المسلم مرآة أخيه يرى فيها حسناته وسيئاته فهل يجوز له إضافة العيب أو الكره أو الحقد على هذه المرآة ! والمسلم ليس وحده من اتبع الدين الإسلامي ، وإنما هو من أسلم وجهه لله طوعاً ، واتبع شريعة إلهية ، وسار على هدى رسالة من رسله الكرام تحت ظل لواء : إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم أفضل الصلاة والسلام جميعاً . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ [البقرة الآية : 208] . وإذا كانت الاديان كلها تنادي بالمحبة ، والإسلام خاتمها وينادي بالسلام ، وما السلام إلا لون من ألوان المحبة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، فيصبح النداء في هذه الآية الكريمة لجميع خلق الله المحبين المسلمين .

وبعد هذا يكون السلام للفرد والجماعة والدولة والعالم كله ، قال تعالى مخاطباً محمداً ، خاتم النبيين والرسل : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ [الأنبياء : 107] .

وهنا أحب أن أقول إن الجهاد في هذه الأيام العصيبة ضد الظلم والظالمين ، والاقوياء المستكبرين ، الذين يهددون سلام الإنسان والعالم ، واجب شرعي يدعو إليه الإسلام . فعلى كل مسلم مؤمن واجب الجهاد لينقذ نفسه وينقذ امته وينقذ الناس جميعاً من جور الظالمين المفسدين في الأرض . ولا مجال أبداً للمسالمة باسم السلام لأن مثل هذا السلوك يعني الخضوع والاستسلام للاقوياء ، ويعني العار والذل للمساكين الضعفاء . وهذا ما يرفضه الإسلام رفضاً باتاً ويحمل المسلمين تبعاته . إن المسلم المؤمن يأبى الذل والخضوع لأنه لا يحمل كرامته الشخصية وحده ، بل هو يحمل كرامة الأمة الإسلامية وكرامة الدين الإسلامي . فلا مساومة ولا مفاوضة مع أعداء الإسلام ، أعداء السلام وأعداء الإنسانية جمعاء .

إن المسلم المؤمن لا يجتمع في قلبه أبداً السلام والذل لأنه عزيز الجانب دائماً وداعية إلى السلام والله تعالى يحب عباده المؤمنين ويكرمهم ولا يرضى لهم الذل والهوان ، لذلك منعهم من قبول أي إهانة باسم أنهم يدعون إلى السلام ، فأمرهم سبحانه من قتال من يقاتلهم قال تعالى : ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ [آل عمران : 129] .

وقال جل وعلا : ﴿ . . . **من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ [البقرة : 194] .

والقتال الذي أمر به الإسلام هو من أجل السلام حتى لا تكون هناك فتنة ، ويكون الدين لله والقتال في سبيل الله . قال تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله** . . . ﴾ [البقرة : 193] .

إن سلامة الفرد المسلم من سلامة المجتمع ، وسلامة سلوكه أهم جوانب السلامة في الإنسان ، وطهارة لسانه هي السبيل إلى طهارة قلبه ، ومتى صلح القلب صلح الإنسان كله .

فالسلم هو الذي لا يحمل السلاح في وجه من يخالفه في عقيدته ، حيث : لا إكراه في الدين . ولكنه يقاتل المعتدي بالمثل .

والمسلم هو الذي يقول الشهادة بأن الله حق ، ورسله حق ، وكتبه حق ، ويتمثل هذا الحق فعلاً وسلوكاً .

والمسلم هو الذي لا تتضارب أقواله مع أفعـاله ، وتتنـاقض تصرفاتـه مع معتقـداته والمسلم هو من لا يستهتر بكـرامات النـاس ، ويشهر بـاعراضهم ، وينـالهم في غيابهم ، ويمس حرماتهم ، بل عليه مصارحتهم في كل ما يرى عندهم من سوء .

والمسلم هو من لا يستبيح دم المسلم وماله وعرضه .

كل إشهار السلاح في وجه المسلمين الآخرين حرام ، وإراقة دمـائهم حرام ، وأكـل مالهم حرام ، واحتكـار أرزاقهم حرام ، واستغـلال اتعابهم حـرام ، حتى إن الحديث في سلوكهم حـديثاً يحـزنون لـو سمعوه ؛ كـل ذلك مـدعاة إلى خـروج الإنسان من وصفـه بالإسلام ومن الشعار الكبير السلام .

من هنا كانت دار السلام في الشريعة الإسـلامية التي يكـون فيها السلطان لـلإسلام والمسلمين وتطبق فيها النظم الإسلامية جميعهـا . وهي وطن المسلم من أي جنس كان ، لأن المسلم لا يرتبط بطين الأرض فقط بل يرتبط بـالعقيدة التي آمن بهـا . فالعقيـدة فوق الأرض ، ولا حيـاة بلا عقيـدة . وقد عـاب الله من كانت أرضـه فـوق العقيـدة . قـال تعـالى : ﴿ **ولو انـا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم أو اخـرجوا من ديـاركم مـا فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً** ﴾ [النساء : 66] .

العقيدة هي التي تبني الإنسان القوي والمجتمع الأقـوى ، وتجعل من المـواطن شعلة تتـوهج بنـور الحق لتضيء دروب الآخرين . والعقيـدة تدعـو إلى شد أواصر المحبـة بـين الأفراد ليكونوا ساعداً واحداً وقلباً واحداً وجماعة متـراصة واحـدة ، كالبنيـان المرصـوص تقف في وجه الظالمين المستكبرين . قال الرسول الأعظم (ص) :

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الـواحد ، إذا اشتكى منـه عضو ، تداعى له سائر الجسد في الحمى والسهر » .

وهو القائل (ص) أيضاً :« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

المؤمن الحق هو الذي يطبق تعاليم الرسول الأعظم فيريد لأخيـه ما يـريده لنفسـه ، ويكـره له مـا يكره لهـا ، فإذا أحببت أن تكـون غنياً فـاحبب لأخيك الغنى ، وإن أردت الصحة والعافية فأرد له الصحة والعافية ، وإن رغبت في العلم فارغبه له .

وهكـذا يرتـاح ضميرك اتجـاه الآخرين . وأن في ذلـك تتمثل الإنسـانية والمثـالية في التعاليم الإسلامية الكريمة الأصيلة .

فالسلام طمأنينة للنفوس فحين يتحقق للفرد يتحسن سلوكه اتجـاه الآخرين ويفيض

قلبه بالمحبة التي يتقلب تحت ظلالها الجماعة اخواننا في الإنسانية ، هكذا طلب منا الإسلام وهكذا نصت الشريعة الإسلامية ، ونفذت حكم الله على الأرض بواسطة المرسلين الطيبين ، وخاتمهم محمد بن عبد الله النبي الأمي (ص) وبدون هذا الحب الإنساني الكبير المطلوب من المسلمين المؤمنين ، لا يكون سلام ولا يكون إسلام .

الحرية في الإسلام

من المبادىء الحضارية في الإسلام التي تتصل بالعقيدة والسلوك في آن معاً الحرية . الحرية في الفكر الإسلامي حق طبيعي لكل إنسان ، وهبها الله سبحانه وتعالى له كونه إنساناً ولأن إنسانيته لا تكتمل بدون حريته ، بل بها يتميز عن المخلوقات الأخرى . والحرية شرط من شروط المسؤولية ، والمسؤولية قوامها العقل ، الهبة التي أعطاها الله للإنسان دون غيره . فالإنسان صاحب العقل حر ولأنه حر أصبح مسؤولاً عن كل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال . وإذا كانت الحيوانات محكومة بغرائزها فإن الإنسان ذو العقل والارادة ، لا يحقق وجوده إلا إذا كان حراً . شرط أن لا تتعدى حريته على حدود المواطنين الآخرين ، ولا تخل بمبادىء المجتمع العامة .

هذه الحرية الإنسانية الكريمة التي حرص عليها الإسلام تنطلق حرة في آفاقها البعيدة لتشمل الحرية الدينية ، والحرية الفكرية ، والحرية السياسية .

أ ـ الحرية الدينية :

لم يلزم الإسلام أحداً في ترك دينه واعتناق العقيدة الإسلامية ، بل ترك الحرية لأصحاب الديانات الأخرى من أصل الكتاب ممارسة عباداتهم وشعائرهم في المجتمع الإسلامي . قال تعالى : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾ [البقرة : 256] . ويقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً (ص) : ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ [يونس : 99] . ومن آثار الحرية الدينية ما رسمه الإسلام من أدب المناقشة الدينية ومجادلة أهل الكتاب عن طريق العقل والمنطق والاقناع ، ولكن بالطريقة التي هي أحسن . قال تعالى : ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون** ﴾ [العنكبوت : 46] .

وعلى هذا المبدأ سار المسلمون في حروبهم وعلاقاتهم مع أهل الكتاب ، فكانوا يسمحون لأهل البلد الذي تم فتحه أن يبقوا على دينهم مع اداء الجزية ، وفي مقابل ذلك

كان لهؤلاء حق الحماية ضد أي اعتداء ، تحترم عقائدهم وشعائرهم ومعابدهم . والأمثلة كثيرة منها : ما قطعه عمر بن الخطاب على نفسه لأهل القدس : « واعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم ، وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود . . . »[1] .

وإلى أبعد من هذا ، لقد أباح الإسلام لغير المسلمين تحت ظل الإسلام ما لا يبيحه الإسلام لأهله . كلنا يعلم أن الخمر محرم في الإسلام وقد أقام الحد على شاربها من المسلمين ، ومع ذلك فقد أبيح لغير المسلمين أن يشربوها ، وكذلك لحم الخنزير حرمه على المسلمين ولم يمنعه غيرهم . وهذا لعمري منتهى ما يمكن أن تصل إليه الحرية المترامية الآفاق . والله جل وعلا يرسم للمسلمين كيفية معاملتهم للذين يخالفونهم في دينهم فقال سبحانه : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون** ﴾ [الممتحنة الآية : 8 ـ 9] . فالله يأمر المسلمين أن يعاملوا من يخالفونهم في دينهم بالعدل ، بل تجاوز ذلك سبحانه إلى التوصية بالبر بهم ، والبر يأتي من العطف والحنو . أما الذين اضطهدوا المسلمين وقاتلوهم ، كإسرائيل اليوم فقد أوجب قتالهم .

إنه دين الرحمة ودين العدل ودين التسامح ودين الحق من رب العالمين .

ب ـ حرية الرأي والتفكير :

لما كان العقل هو السمة المميزة للإنسان من الحيوان ، وعن طريقه يحصل العلم والتفكير ، ولما كانت المحافظة على العقل محافظة على الإنسان بجوهره وأصالته . اهتم الإسلام بالعلم والعلماء وإذا أردنا إحصاء الآيات التي تذكر العقل والفكر والعلم والتدبر لطال بنا المجال كثيراً إنما نريد أن نعطي بعضاً منها لندل إلى هذا الدفع المستمر لاستعمال العقل والتفكير في جميع شؤون حياتنا ، والوصول به إلى المستوى الإنساني الرفيع . فيذكر (أولي الألباب) في بضع عشرة مرة ، ويقول تعالى في تذييل كثير من الآيات القرآنية : (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) و (لقد بينا الآيات لقوم يعقلون) و (أفلا تعقلون) (أفلا يتفكرون) و (لعلهم يتفكرون) و (يتدبرون ويعلمون . . .) .

---

(1) راجع الطبري ج 1 ص 2405 .

وقد نعا على الذين يهملون موهبة العقل بأسلوب قاس جداً فقال تعالى : ﴿ **أم تحسب أنّ اكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا** ﴾ [الفرقان : 44] .

حتى أنه سبحانه وتعالى جعل إهمال استعمال العقل يسبب عذاب الآخرة كقوله عن الكفار : ﴿ **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير** ﴾ [الملك : 10] ولعمري إنها إشادة كبيرة بالعقل اختص بها الإسلام دون غيره من الأديان الأخرى .

لقد سمح الإسلام بالتفكير في كل ما يحيط بنا وفي كل شيء يقع عليه النظر ويدور في الخاطر لكنه منعنا من التفكير في الذات الإلّهية ، لأن ذات الله عز وجل لا يحيط بها العقل وكل محاولة في هذا الاتجاه إضاعة للطاقة الفكرية والطاقة الإنسانية في غير جدوى أو طائل . قال الإمام الصادق (ع) : « فكروا في المخلوقات ولا تفكروا في الخالق » ولا ريب أن حرية التفكير تستدعي حرية التعبير ، وهذه الحرية تتحقق بوسائل عدة عن طريق الكتابة وعن طريق الخطابة وبطرق أخرى مختلفة . . .

وفي ظل الإسلام استعمل الناس هذه الحرية في التعبير بشكل واسع من حرية التعبير عن الرأي ، إلى حرية المحاورة ، إلى حرية النقد للحكم القائم إذا شذ عن طريق الحق ، حتى الأئمة الراشدين والأئمة المعصومين والنبي نفسه كانوا يحاورون ويسألون بحرية تامة عن كل ما يريدون .

« إن حرية الرأي والقول في الحدود التي وضعتها الشريعة الإسلامية تعود بلا شك على جميع الأفراد بالنفع العام والتقدم المثمر ، وتؤدي إلى نمو الاخاء والحب والاحترام بين الأفراد والجماعات . وبذلك حفظ توازن المجتمع ووحدة صفوفه وضبط الأمور على أكمل وجه »[2] .

ج ـ الحرية السياسية :

وهي تتضمن حرية المشاركة في الحكم ، واختيار الحاكم ، ومراقبة أعمال الحكام ونقدها ، وإبداء الرأي فيها . وبذلك تكون الفرصة متاحة أمام الفرد ليعبر عن إرادته دون خوف أو حذر .

والحرية السياسية جزء أساسي من الحرية الإنسانية لذلك منحها الإسلام للفرد وهيأ

---

(2) النظم الإسلامية للمؤلف ص 53 .

له جميع وسائلها ، وهو الذي وضع جميع المناهج الحية والأصول الثابتة للدولة ، المنزلة من الله على رسول الله (ص) ليبلغهـا إلى عباد الله ، وأغناها عن سن القوانين واستيرادها من هنا وهناك حسب رأي السياسيين وأهوائهم وامزجتهم ومصالحهم .

ومن الحرية السياسية كانت حرية الاجتماع ، التي استساغها الإسلام وحث عليها ، شرط أن لا تكون مخلة بالآداب الإسلامية والمصالح العامة .

ومن الحرية السياسية أيضاً كانت حرية تأليف الجمعيات . التي أباحها الإسلام وعقدها إذا كانت جمعيات تعاونية أو خيرية ، تعمل من أجل المصالح العامة للأمة الإسلامية .

أما إذا كانت مبادؤها ومقرراتها تتنافى مع الشريعة الإسلامية ، وتبث أفكاراً إلحادية بين صفوف المجتمع ، فعند ذلك يجهز عليها الإسلام ويزيل آثارها .

د ـ الحرية المدنية :

هي إعطاء الفرد الحرية التامة في العمل الذي يرغب والمسكن الذي يريد ، حسب ميوله ورغباته . ومن هذه الحرية كانت الحرية الشخصية التي تمنح الفرد حرية ممارسة أي حرفة أو مهنة أو صنعة ، ما لم يكن ذلك العمل محرماً في الشريعة الإسلامية ، كبيع الخمور وغيرها من المحرمات التي نهى الإسلام عن مزاولتها .

كما له أيضاً التخصص في العلم الذي يريد التخصص به ، كما له الحق في اختيار الزوجة التي يريدها شريكة حياته ، دون أن تكون من اللواتي نص على تحريمهن القرآن الكريم .

وللفرد حرية السكن فيقيم في البلد الذي يشاء وفي البيت الذي يريد ما لم يكن مغصوباً .

هـ ـ الحرية الاقتصادية :

هي إباحة تصرف الفرد في ملكه حيثما شاء ، فله حرية الاختيار في نوع العمل الذي يريد ممارسته كالزراعة أو الصناعة أو التجارة ، والذي يرى فيه ربحاً وافراً . وقد حدد الإسلام الحرية الاقتصادية وفرض عليها بعض القيود من أجل المصلحة العامة . وذلك كمنعه الربا والاحتكار والغش وما إلى ذلك من الأمور المحرمة التي توجب الضرر العام على المواطنين .

ومن الحرية الاقتصادية كانت الحرية الفردية في التملك : وهي حرية الشخص في

استغلال ملكه ، والتصرف فيه من بيع أو رهن أو إيجار . وقد حدد الإسلام حرية التملك ونهى عن بعض وسائله من أجل المصلحة العامة .

هذه هي بعض ألوان الحرية التي منحها الإسلام للإنسان ، أو قل التي منحها الله للإنسان قال عمر ابن الخطاب : « كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . وقد كان السباق في مجال الحرية لعديد من الدول التي سموها متحضرة ، كالبلدان الأوروبية والأميركية وغيرها . جاء في التشريع الجنائي في الإسلام : « سبقت الشريعة الإسلامية القوانين الوضعية في تقرير نظرية الحرية بأحد عشر قرناً لأن القوانين الوضعية لم تبدأ بتقرير هذه النظرية إلا في نواحي القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، أما قبل ذلك فلم تكن هذه القوانين تعترف بالحرية بل كانت أقصى العقوبات تخصص للمفكرين ، ودعاة الاصلاح ، ولمن يعتقد عقيدة تخالف العقيدة التي يعتنقها أولو الأمر . هذا هو الواقع وهذه هي حقائق التاريخ . فمن شاء بعد ذلك أن يعرف كيف نشأت الاكذوبة الكبرى التي تقول : إن الأروبيين هم أول من دعوا للحرية فليعلم أنها نشأت من الجهل بالشريعة الإسلامية »[4] ، من هنا كان دور الإسلام في إلغاء الرق الذي عرفته البشرية قديماً وما يزال على صور وأشكال اليوم في عصر الاختراعات والصعود إلى القمر ، وعصر الصواريخ والذرة والكهرباء !! ولا نريد هنا أن نستفيض كثيراً وإنما نحب أن تظهر دور الإسلام في تحضير الجو النفسي والاجتماعي الذي يسمح بتحرير الرقيق .

العتق في الإسلام

كان النبي (ص) يشتري العبيد ثم يعتقهم ، أو يساعد العبيد المملوكين لغيره على شراء أنفسهم ليضرب بذلك مثلاً حسناً للمسلمين ليقتدوا به . وكان (ص) يذكر دائماً بالثواب العظيم لكل من يعتق عبداً . فإذا مرض لأحدهم مريض أو حل به بلاء أمره بالعتق .

ولم يكتف الإسلام بالترغيب في العتق وإنما استوجبه في حالات معينة مثل :

ـ كفارة عن القتل الخطأ ، وعن الظهار ، وعن اليمين . كما جعل الله في موارد الزكاة سهماً مخصوصاً ينفق في تحرير العبيد . قال عز وجل : ﴿ **والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً . .** ﴾ [النور : 33] .

---

(3) المصدر نفسه ص 54 .

(4) التشريع الجنائي في الإسلام لعبد القادر عودة ج 1 ص 36 .

*هذه الآية تؤدي إلى إلغاء الرق ، لذلك شاع أسلوب المكاتبة بين المسلمين استجابة لدعوة الله والرسول (ص) .

وللرقيق في الإسلام حقوق وحصانات نلخصها بما يلي :

1 ـ حرَّم الإسلام القتل ، لا فرق بين عبد وحر ، فحياة العبد مقدسة كحياة الحر .

2 ـ الحصانة الجسدية ، منع الإسلام ضرب العبد أو تشويه جسده ، إلا في حالة الخطأ فاجاز ضربه ضرباً خفيفاً للتأديب كما تؤدب الأبناء .

3 ـ الحصانة العائلية : منع الإسلام من التفريق بين العبد وزوجته .

4 ـ النفقة : فرض الإسلام على السيد أن ينفق على عبده الطعام والكسوة والطبابة فإن كان السيد بخيلاً على نفسه ، وراجع العبد القاضي ، فقد يلزم سيده أن يلبسه أحسن الثياب ، ويطعمه مما يأكل هو وعائلته .

5 ـ الرفق بالرقيق : أوصى النبي (ص) بالارقاء فقال : « لا تحملوا العبيد ما لا يطيقون ، واطعموهم مما تأكلون » ، ويقول (ص) : « إن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم اياكم » ، وكان (ع) ينهى عن مخاطبة الارقاء « بعبد وأمة » ويسأل المسلمين أن يستعملوا ؛ فتى وفتاة وغلام » كما كان ينهى الأرقاء أن يخاطبوا أسيادهم بـ : « ربي » فالله ربهم ورب الناس أجمعين .

وخلاصة القول : إن الإسلام أوصى خيراً بالرقيق وحض على عتقه عملاً بتعاليم القرآن ووصايا الرسول الأعظم ، فكثر العتق واستقامت معاملة الرقيق في رفق الإسلام ورحمته . الإسلام حض الناس على تحرير أرقائهم ، وجعله تعبيراً عن طاعة الله وتقواه ، وقد أعطى مثلاً عملياً الرسول الأمين حين آخى بين عمه الحمزة وزيد مولاه ، وحين زوج زيداً ابنة عمته زينب .

من هنا نستطيع القول إن الإسلام ضروري للمجتمع الإسلامي كما هو ضروري أيضاً لسائر المجتمعات الإنسانية .

هل يجوز للإنسان أن يدعي ما ليس له ، وأن يزعم لنفسه الحرية وهو مملوك ؟ .

وهل له أن يتجاهل حقوق الآخرين وهو مدين لهم .

أظن أن الجواب واضح كل الوضوح عند المسلمين المؤمنين .

إذا عدنا إلى ذاتنا ، وتأملنا في كينونتها ، ثم سألنا أنفسنا ، أنحن أحرار فيما نقول ونعمل وهل نستطيع تقويم ذاتنا على ما نشاء من رغد الحياة ، بعيداً عن أن يستذلها شيء

من المنغصات ، وفواجع البؤس والآلام ، وقيود الانظمة الآسرة وعواقب الموت والحرمان . . فإن علمنا أننا كذلك أحرار طليقون عن سائر القيود المذلة والمستعبدة ، فما علينا عندها إلا أن نسلك مسالك الأحرار في كل شؤوننا وأحوالنا .

وما الإسلام عندئذٍ إلا عبء لا مسوغ له ، وعقبة تضيق علينا سبيل حريتنا بلا موجب ولا سبب .

أما إذا نظرنا ، فعلمنا أننا مطبوعون بطابع العبودية المطلقة ، ومحكومون لنظام صارم لا نملك التخلص منه ، سائرون على سنن كونية لا نملك ردها ولا التحرر منها مقيدون بذل احتياجات كثيرة لا سبيل لنا إلى الاستغناء عنها ، فإن من أعبث العبث أن نتجاهل ما نحمله من هذه الأعباء والأثقال ، ثم نتشاغل بالسؤال عن الإسلام ووجه الضرورة الداعية إلى التقيد به .

وما هو الإسلام ؟ أليس هو الإستسلام طوعاً لهذا الذي استسلم له كياننا كرهاً وقسراً .

وبصورة أوضح ، أننا نمارس العبودية لله بالسلوك والاختيار ، كما خلقنا عبيداً لله بالقسر والاضطرار . وهذا الالتزام أمر طبيعي تقتضيه ضرورة التنسيق بين الأمور المتقابلة والمترابطة . وبقدر ما يكون التخالف عملاً مذموماً ينتج الاضطراب والفوضى بحكم البداهة والضرورة ، فإن ما يقابله من إقامة قواعد التناسق والانسجام ، منهج منطقي سليم ينتج الآثار المتناسقة ويرسخ دعائم التماسك والنظام .

وبوسعنا إذا كنا موضوعيين أن نلاحظ الاضطراب الخطير الناتج عن عدم الانسجام والتناسق بين الواقع الإنساني الخاضع لسنن وأحكام صارمة لا نملك أي تحرر منها أو تمرد على سلطانها ، وسلوكنا الذي يصطنع التحرر من كل شيء ونطمح إلى أن نخضع لرغباتنا كل شيء ، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة . ونسأل الذين تبرموا بالإسلام ، وانطلقوا يرفعون شعار الحرية المطلقة ، ثم تنادوا بضرورة الانعتاق من القيود والالتزامات ؟ نسألهم ماذا حققوا لأنفسهم بذلك من الحرية ومكاسبها ؟ .

إنهم لم يزيدوا على أن جعلوا من الحرية أداة استعباد للآخرين ، وجعلوا من التمرد على القيود قيوداً وأغلالاً . امسكوا بها أيدي الناس وغلوا أعناقهم . وللننظر الأمم والجماعات اليوم التي تتنازع وتتقاتل وتتهارج ، هل تعمل هكذا إلا لأنها قد خرجت ، في مجموعها ، من سلطان العبودية لله والتقيد بمحكم أوامره وأحكامه ، وتنادت بالحرية

المطلقة ، فطمح كل منهم إلى أن يصبح سيداً ومتنفذاً ؟ وهكـذا كان لا بـد من أن يكون الخـروج من سلطان العبوديـة لله ، دخولاً في بـاب عريض من استعبـاد النـاس بعضهم لبعض ، والتسابق الدامي على نيل الحظوظ وعروض القهر والعدوان .

وإذا ما تأملنا جيداً وجدنا أن الدنيا كلهـا تكاد أن تتحـول اليوم إلى لـوحة تـبرز فيها هذه الحقيقة على أكمل وجه .

هذا على مستوى الجماعة ، أما على مستوى الفرد ، فحسبنا من آثار هذه المعـاكسات ما يعاني منها الشارد عن مظلة الإسلام في عقيدته وسلوكه ، اضطرابـاً وقلقاً وحـيرة ، ثم وحشة تجاه ذاته والمكونات التي تحيط به .

تغذى هذا المضلل بـالحريـة ثم فوجىء بنفسـه سجيناً في نـواميس كونيـة لا مفر لـه منها ! . . طمح إلى السيادة المطلقة ، ولكنه لم يعثر على من يبني على كاهله ـ آمناً ـ عرش السيـادة ! . . أمسك بـزمام الـطبيعة ليقـودها إلى حيث يشـاء ، فـما كـادت تسـير وراءه خطوات معدودة ، حتى انقلب الحال ، فإذا الطبيعة هي القائد وإذا بالإنسان هو المقود .

وبعد فلا هو بالحرية الحقيقية تمتع ، ولا على علم بدقائق الكون وأسرار الطبيعة قـد حصل . وعاد يجر خيبته مستوحشاً حتى من ذاته يضيق ذرعاً حتى بمتعته وأحلامه . وليس له إلا الاطباء في علم النفس والتلهي على موائد الشرب واللهو . أو عندما تسـد في وجهه الطرق وتضيق ، الموت والانتحار . وهذا ما نسمع به يومياً في المجتمعات الغربية .

ولقد كان الوجوديون هم قادة الدعوة إلى ممارسة الحـرية المـطلقة ، ففلسفـوا السبيل إلى ذلك ونظموه ، ليصبح واضحاً معبداً أمام الناس جميعاً ، فإلى أين أوصل بهم سبيلهم هذا ؟ لقد أوصلهم إلى محطة القلق واليأس وإلى هـاوية القنـوط والسقوط ومـا السبب في هذا الفشل المضني ؟ .

إن الحـرية ليست ممـارسة لحقيقـة ذات طرف واحـد حتى يتـاح لـلإنسـان أن يمتلك جوانبها كلها بمحض قرار يصدر منه . وإنمـا هي ممارسـة للاختيـار الداخـلي الذي يشعـر الإنسان بأنه مجهز بالقدرة على ممارسته . وعملية الاختيار هذه ليست في جوهرهـا أكثر من أن يقيم الإنسان علاقة منسجمة بـين حياتـه الشخصية والـدنيا المحيـطة به . ومن أجـل ذلك فهي لا تتحقق إلا من تلاقي طرفين :

أحدهما ثابت fixe في أغوار مشاعرنـا . وثانيهـما مرتبط بقـوانين الكـون وأنظمتـه . والحرية في حقيقتها ليست أكثر من أن يمتلك الإنسان فرصة التنسيق بين هـذين الطرفـين

انطلاقاً من شعوره الداخلي بمحض رغبته وإرادته .

ولكن أي هذين الطرفين يعد قطباً ثابتاً وأيهما الذي يتحرك ؟ .

إن الواقع الذي يفرض نفسه يقرر بأن الطرف المرتبط بقوانين الكون وأنظمته هو القطب الثابت ، على حين لا يشكل الطرف الآخر إلا اتجاهاً متحركاً يدور حوله . فمن تصور أنه قادر على أن يجعل من رغبته الذاتية القطب الأساسي والمحور الثابت وأن الدنيا ستدور بكل ما فيها حول ذلك المحور الذاتي ، ثم اتخذ من حريته سبيلاً إلى ذلك ، فلا بد أن ينتهي إلى ما انتهى إليه الوجوديون من القلق واليأس والفشل .

ولكي يمارس الإنسان حريته بصدق ومنطق ، ينبغي أن يبدأ بالتعرف على طبيعة الكون وحقيقة الدنيا التي يعيش فيها ، ومعرفة نواميسها الثابتة التي لا مناص من الخضوع لها . وعند ذلك أبداً سوف نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام دلائل وجود خالق لها ومبدع لنظامها .

كل ذلك يدعونا إلى أن نتساءل عن علاقتنا بهذا الخالق المبدع ؟ والجواب حاضر واضح ، وهو إننا عبيد مملوكون لهذا الخالق سبحانه وتعالى ، فاطر السماوات والأرض ومنظم الكون الهائل أروع تنظيم . ومن هنا أظن أن الإنسان يبدأ باكتشاف هويته ، والاطلاع على مهمته التي أوكلها إليه رب العالمين للنهوض بها بما عنده من قدرات ومواهب .

وفي هذه الحال يتاح للإنسان أن يمارس حريته على وجهها الصحيح ، حيث يتكامل طرفاها اللذان لا يمكن للحرية الإنسانية أن تتكون إلا منهما معاً :

أ ـ الطرف الداخلي المتصل باغوار النفس .
ب ـ والطرف الخارجي المنسجم مع واقع الكون ونظامه .

من هنا يبرز وجه الحاجة إلى الإسلام بأنه القاعدة الأساسية التي تنمو على تربته الصالحة الخيرة شجرة الحرية الإنسانية ، وأنه الشعلة والمنارة المتوهجة التي لا يستبين نظام الدنيا إلا على ضيائها .

إنَّ حاجة الإنسان إلى الإسلام ضرورية كحاجة الجسم إلى غذائه ، وحاجة الأرض إلى الشمس ، وحاجة العين إلى الضوء وحاجة الحرية إلى النظام .

والحاجة إلى الإسلام لم تكن لسبب ضائقة اجتماعية أو اقتصادية عابرة ، وإنما هي

نابعة من صلة ما بين الإسلام وحقيقة الذات الإنسانية . وهذا جزء يسير من الحقيقة الكبرى التي نعبر عنها : الإسلام دين الفطرة .

والدين كما هو معلوم يعني الإسلام ، إذ هو الدين الحق الذي ألزم به الله عباده إلى أن تقوم الساعة .

والله تعالى كرم الإنسان وجعله محور الكائنات المختلفة حيث حصل معظمها مسخرة له ، قائمة بخدمته ، ثم أوكل إليه عمارة الأرض بمعناها الحضاري الشامل المستوعب لكل مجالات العمران والتطوير والتعمير . قال تعالى : ﴿ **ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ [الاسراء الآية : 70] .

وقال سبحانه : ﴿ ... **هو انشأكم من الأرض واستعمركم فيها .** ﴾ [هود : 61] .

من مقتضى هذه المكانة التي بوأه الله إياها والمهمة التي شرفه بها ، أن جهزه سبحانه بالامكانات والقدرات الخاصة التي تعينه من أجل النهوض بما كلف به ، وتيسر له السبيل في استخدام كل ما حوله ، ومكنه من إدارة شأن الأرض على أكمل وجه مطلوب . فاعطاه العقل والعلم والارادة والنزوع إلى الأثرة والتملك غير أن هذه الامكانات والقدرات التي جهز الله بها الإنسان ، اسلحة ذات حدين فهي تصلح لأن تكون أداة إصلاح وتعمير ، كما تصلح لأن تكون أداة تخريب وتدمير .

إن هذه القدرات التي متع الله الإنسان بها من أجل تحقيق المهمة القدسية التي انيطت به هي من فيوضاته الكريمة ، لذلك كان من شأنها أن تبعث في كيانه عزة ونشوة ، وأن تنزع به إلى شيء من معاني الربوبية وكبريائها .

فالبعض منا ينسى في غمار ذلك ذاته ويضل عن هويته فيتجاوز حدوده ويطغى ويصبح في صراع دائب لا على الحياة ومقوماتها بل على الطغيان وأسبابه .

أجل ، ذلك هو شأن هذه الصفات عندما تستعمل على غير وجهها الصحيح ، وعندما يجهل الإنسان العلاج الذي يحميه من الوقوع في أوحالها وشرورها .

لذا وجب على الإنسان أن يتأمل ويتبصر ملياً بحقيقة هذه الصفات التي ركبت فيه وبالحكمة من وجودها في كيانه ، وتميزه بها عن سائر المخلوقات الأخرى .

ثم عليه أن يتعلم كيفية استعمالها والافادة منها على وجهها الصحيح ، كما عليه أن

يتقن معرفة العلاج الواقي من ضررها وسوء مغبتها .

من هنا كان الحديث الشريف : « من عرف نفسه عرف ربه » .

على الإنسان أن يعرف الحدود التي يجب أن يتحرك ضمنها والمجالات التي يجب أن تعمل اسلحته وقدراته في الساحات المعينة لها ، ليتاح له أن يستعمل هذه الطاقات الهامة من حدها المفيد ، فيتقي حدها المفسد لكي لا تأخذ بلبه فيذهب ضحية رعونتها ولولا الحرية والارادة التي هي بمثابة الروح المحركة لتلك الصفات والملكات كلها لكانت الغريزة القسريّة خير لجام لضبط الإنسان عن الوقوع في مهلك هذه الصفات وسوء عاقبتها . وإلا لعاش الإنسان كالحيوان يتمتع بهذه المنح التي وهبها الله إياها حتى إذا كادت أن تتجاوز حد الاعتدال ، أقبل لجام الغريزة فضبطها وضبط صاحبها عن الوقوع في الانحراف والتجاوز الفاسد .

ولكن هذا لا يصلح في عالم الإنسان الذي لا تنهض مهمته التي كلف بها إلا على أكبر قدر من الحرية والاختيار . . لذا فقد حرر الله الإنسان من قيود الغريزة في نطاق سعيه وسلوكه بعد أن توجه تلك الصفات التي منحه إياها بنعمة الحرية والإرادة ، ولولا ذلك لما استطاع الافادة منها بأي شكل من الأشكال .

ولكن بقيت المشكلة قائمة ، والسؤال مطروحاً :

ما الذي يقي الإنسان مغبة هذه الملكات القوية التي ركبت فيه ، لا سيما وقد ملكه الله في غمارها مقود الحرية والاختيار . فهو يمارسها كيف شاء ، ويتجه بها إلى حيث يريد ؟ وما الذي يجنب الإنسان مغبة الأنانية وأوضار حب السيطرة والتملك ، وقد حررته الأقدار الربانية من كوابح الغريزة القسرية قد يقول بعضنا لدى النظرة العجلى : العقل ! . . أليس في نعمة العقل ما يقي الإنسان أوضار تلك الصفات ؟ .

ولكن إذا تأملنا جيداً علمنا بعد التجربة أن العقل قد يفقد معظم سلطانه أمام شراسة هذه الملكات والصفات ، بل سرعان ما يتحول العقل إلى جنود يسعون في خدمتها ويدور في فلكها .

إذا تأملنا ماذا يحدث حولنا وماذا حدث في التاريخ البعيد والقريب لقلنا : أي عقل هذا الذي يستطيع أن يحد من سلطان الأنانية ، عندما تستيقظ بكل فروعها وجذورها في كيان الإنسان ؟ . . وأي عقل هذا الذي يملك أن يكبح جماح القوة عن أن تقف دون تحقيق أهدافها . وبصورة خاصة عندما يراها الإنسان ملك يمينه .

ونحن لا ننكر أن العقل قد يجالد ويصارع إلى بضع مراحل ومحطات، ولكن لا بد أن تكون الغلبة أخيراً للحرية . . حرية تلك القوى المتسلطة الجامحة في كيان الإنسان .

هذا المخلوق الفريد في نوعه وكيانه ، مطلوب منه أن ينهض بعمارة هذه الأرض بمعناها الحضاري الواسع . . وها قد سخر له معظم المكونات والأدوات والأجهزة لذلك ، وها هو قد أوتي من البصيرة والقدرة وحوافز البحث وحب الذات والسيطرة والتملك ما يصلح أن يكون مفاتيح في يده ، يفتح بها كل خافية ومستغلق ضمن حدود المهمة التي أنيطت به .

ولكن هل يستطيع تحقيق ذلك دون مدرب يدربه على استعمال تلك المفاتيح فيرسم له الطرق الآمنة للكشف عن تلك الخفايا لتجعله في مأمن من نيران تلك الاستعدادات والملكات التي ركبت فيه وتلح على طوايا نفسه باستمرار .

لقد فشلت كل إجابات الفلاسفة وعلماء الاجتماع ، ودعاة الحرية ، وأنصار المادية ، أمام هذا السؤال. وكان لا بد أن يرتفع من خلال صمتهم وحيرتهم صوت وحيد يملك الجواب الحق ، ويحل المشكلة بكل ما لها من تعقيدات وأبعاد .

ذلك الصوت هو صوت الوحي الرباني الذي تتابع نزوله إلى الناس عن طريق الأنبياء والرسل ، منذ فجر الحياة الإنسانية حتى بعثة خاتم النبيين والرسل سيدنا محمد (ص) . تضمن هذا الوحي الرباني تبصير الإنسان بالطريقة المثلى التي يجب أن تمارس بها تلك الملكات والقدرات التي وهبها الله للإنسان ، لكي لا يلقى عنتاً في سبيل استعمالها والإفادة منها . وليكون المجتمع الذي يبنيه مجتمع سلم وسعادة لا مجتمع شقاء وعدوان .

هذا هو هدف الدين منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا ، وهذا هو المحور الذي يدور عليه والهدف الذي يرمي إليه . وهو في الحقيقة دين واحد تضمن مبادىء وحقائق واحدة . ولم يكن الجديد فيه مع الزمن ، إلا جدَّة الرسل الذين كانوا يتتابعون على التذكير به ، ولم يكن المتطور منه إلا الجانب التشريعي الذي كان يسير وراء مصالح الناس وتبدل أطوارهم المعيشية ، وما كان له من اسم منذ بدء الخليقة إلا الإسلام .

قال تعالى : ﴿ **هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا** ﴾ [الحج : 78] .

وقال سبحانه : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم** ﴾ [آل عمران : 19] .

هذا الدين « الإسلام » لم يكن يوماً من إختراع فرد أو أمة من الناس ، ولا من فكر

حـاكم أو سلطان من البشر . وإنما كـان ولا يزال وحياً من لدن خـالق عـظيم ورسـولـه الكريم ، وهذا أمر منطقي يقتضيه العقل السليم ، بعد اليقين بوجود الخالق جلا وعلا .

ألم يكلفهم خالقهم ليخلفوه باستخدام هـذه الأجهزة الكـاملة في عمارة الأرض ؟ ألم يطلق يدهم بالإستعانة بتلك الملكات والقدرات ؟ .

إذن وهو العلي الخبـير ، كان لا بـد أن يزودهم بصفحـة من الإرشادات والتعليمات المتعلقة بسبل استخدام تلك الأجهزة الكونية المعقدة ، وبطريقة ناجحـة وسليمة بـطريقة تسليط قدراتهم وملكاتهم عليها بحيث لا يعقبها أي خطر أو ضرر .

أليس هذا ، ولله المثل الأعلى ، ما يعمد إليه صاحب أي محل بيـع أجهزة كهـربائيـة فلا يصدره إلى الناس المستفيدين منه إلا ومعه صفحة من التعليمات والإرشـادات المتعلقة بكيفية استعمالـه وطرق صيـانته . فيعكف عـلى ذلك الكـراس ليقرأه ويفهم مـا فيه عـلى وجهه الصحيح ، ثم يطبقه في استخدامه لذلك الجهاز أدق تطبيق . إلى هذه الإرشادات يرشدنا النداء الإلهي الذي اتجه إلى أصغر أسرة إنسانية منذ فجر ظهورها على الأرض .

قال تعالى : ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعاً فـاما يـأتينَّكم مني هدى فمن تبـع هداي فـلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ [البقرة : 38] .

وقال سبحانه في نداء آخـر : ﴿ **يا بني آدم إمـا يأتينَّكم رسـل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ [الأعراف : 35] .

هـذا الكراس البيـاني يهتدي إليـه الناس بـواسطة الأنبيـاء والرسـل والأئمـة الـذين يقومون بدور مفاتيح المعرفة للخلق يهدونهم سبل السلام .

قال تعالى : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي بـه الله من اتبع رضـوانه سبـل السـلام ويخـرجـهم مـن الـظلمات إلى النـور بـاذنـه ويهـديهـم إلى صراط مستقيم** ﴾ [المائدة : 15 ـ 16] . فكيف تمكنت هذه الصفحات البيانية ، وكيف تمكنت هذه النداءات الارشادية من قبل خالق الكون بواسطة الصفوة المختارة من مخلوقاتـه ، أن تحمي الإنسـان من غوائـل تلك الصفات والقـدرات التي ركبت فيه ، فتهـديه بـالسبيـل الأمثل إلى تسخير ما حوله من المكونات الأساسية لعمارة هذا الكوكب الأرض .

لقد تمكن الإسلام أن يحقق في حياة الإنسان مـا عجز عنـه العقل بمفـرده عن تحقيقه وما عجز عن تحقيقه الفلاسفة وعلماء الاجتماع والأخلاق والاقتصاد لقد حقق الإسلام مـا فشلت في تحقيقه المذاهب الإنسانية الأخرى .

فما هو سر هذا الاخفاق في تحرير الإنسان من غوائل الصفات التي متعه الله بها ؟ .

يتلخص هـذا السر في أن حصيلة البحوث الفلسفيـة والأخلاقيـة والاجتماعية تلتقي جميعهـا مهما اختلفت في أنها صـادرة عن أناس مثلنـا ، ومهما كـان للكلام التـوجيهي من لبـاقة في البيـان والعرض ، فـإنه أضعف من أن يتغلب عـلى نوازع الحـرية المتـدفقة بـين جوانح الإنسان . ذلك أن أفكار علماء الفلسفة والاجتـماع تدعـو إلى الافضل من وجهـة نظر أصحابها ، بينما نرى المتلقى يستشعر من جهته بسلطان حريتـه عليه في داخـل كيانـه فيستجيب عندها إلى نداء الصوت المنبثق من ذاتـه وداخله أكثر ممـا يصغي للنصائـح التي تقبل إليه من خارج كيانه وهذا أمر طبيعي إذ أن الإنسان ميال بحكم الفطرة إلى الامعـان في تحقيق ذاته .

وبقيت نصائح علماء الاجتماع والأخلاق مجرد أحاديث تكتب وتروى ، أما الـدين ، أو الإسلام ، فهو يكشف السجاف عن حقائق هـامة كـافية في ذات الفـرد ، ولكنها قـد تكون في باديء الأمر خفية عن بصـيرته وشعـوره ، فيشرع الدين في تجليـة هذه الحقـائق وإبرازها أمـام فكره ومشـاعره بـالأدلة الـواضحة والأمثلة والـبراهين النـاطقة . فـإذا تنبه الإنسان إلى هذه الحقائق وصدق بها واستولى تأثيرها على مشاعره ، كان ذلك ايـذاناً بـأن يعيد النظر إلى نفسه ، ويتعرف على هويته من جديـد ، على ضـوء واقعه الـذاتي الذي لم يكن قد تنبه إليه من قبل ، ولم يكن قد حسب له أي حساب .

ثم أن الإسلام ، كما قلنا آنفاً ، يقـدم للإنسـان صفحة من الارشـادات والتعليمات المنبثقة عن واقعه الذي سبق أن اكتشفه وصدقه بكل مشاعره ووجدانـه . فايسر عليـه أن ينصاع عندئذٍ لتلك التعاليم والارشادات . ومن الصعب والحالة هذه أن تقف حريته لهـا بـالمرصـاد ، كيف يكون ذلـك وقد تقيـدت هي ذاتهـا بسلطان ذلـك الـواقـع وخضعت لضروراته . لا ريب أنه يجد نفسه أمام واقع حتمي لا يستطيع تجـاهله أو عدم الاكـتراث به . لأنه أمر متعلق بذاته وداخل في كينونته . وهذا ما يستوجب تقييد حريته بما يتفق مع واقع حياته . من هنا كـان سلطان الإسلام نـافذاً ، عنـدما فشلت محـاولات الآخرين . والقرآن الكريم كثيراً ما يحدث الإنسان عن ذاته ومصدره ومآله ، قبل أن يحمله أي شيء من التبعات والواجبات .

وما نرى أن خضوعه لتلك الواجبات لا يمكن أن يتم إلا إذا اكتشف ذاتـه وأدرك أنها قائمة على قوانين منسجمة مع النهوض بتلك الواجبات .

فلا غرابة بعد هذا إذا كانت معرفة الإنسان لذاته هي السبيل الذي لا بديل عنه إلى خضوعه للضوابط والأحكام السلوكية .

يعرف القرآن الإنسان على ذاته ويحدثه بأنه عبد للإله الذي خلقه ومملوك حقيقي له ، فهو لا يستقل دون رعاية خالقه وحمايته له ، ولا يملك أن يغني نفسه بعلم ولا بعقل ولا بمال ، وأن الله لم يخلقه عبثاً ، بل حمله مسؤولية كبرى هي الخلافة عن الله في الأرض ، يعمرها ويقيم سلطان العدالة الإلهية في جنباتها .

وأن الله جل وعلا يراقب عبده في كل حركاته وسكناته ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد وسيبعثه من بعد الموت ، ويوقفه بين يديه ليجزيه الجزاء الأوفى على ما قدمته يداه من خير أو شر . ثم يوضح رب العالمين عن طريق الرسل والأنبياء أنَّ الإنسان خاضع خضوعاً مطلقاً لنواميس كونية تتعلق بحياته ومعاشه ومراحل نموه وهو لا يملك ولن يملك أي سبيل للتحرر منها . وسوف نعطي بعض الأمثلة الموضحة من خلال بعض الآيات التي لا شأن لها إلا أن تعرف الإنسان على ذاته .

قال تعالى : ﴿ **الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء** ﴾ [الروم الآية : 54] .

وقال سبحانه : ﴿ **افحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾ [المؤمنون : 115 ـ 116] .

وجاء قوله تعالى في سورة ق : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ، ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد** ﴾ [ق الآية : 16 ـ 17 ـ 18 ـ 19 ـ 20 ـ 21] .

من الواضح أن الإنسان إذا استيقن هذه الحقائق الثابتة في كيانه فإن أول ما يتجلى من آثار هذا اليقين في كيانه ، أنه يكتشف لحريته التي يتمتع بها حدوداً أضيق مما كان يتوهم . إذ يدرك أن ليس بوسعه ، كما كان يخيل إليه ، أن يمارس حريته إلى أقصى مداها دون أن يعوقه عن ذلك عائق .

إن كل هدية أهداها الله للإنسان لها حدود معينة تتحرك في نطاقها وتجول في ساحاتها . فنعمة النظر مثلاً يحق الإنسان أن يرى كل شيء يقع تحت بصره ولكن هناك

أمور عليه أن يقف عندها فلا يحق له تجاوزها لأنه قد يؤذي الآخرين . . وقل مثل ذلك عن النعم الأخرى كالسمع واللمس والذوق والشم وما إلى ذلك من نعم لا تحصى . كل نعمة أنعم الله بها على الإنسان يجب أن يستعملها في المجال اللائق لها دون إفراط أو تفريط ، فلا يهدر الطاقات ولا يزور في تجاوز حدودها . وهو أمر سهل عليه إذ أنه يعود لكراس الارشادات والتعليمات التي وضحها لنا الرسل الكرام والأنبياء العظام .

إن صاحب اليقين ، المسلم المؤمن ، لا يقع في شيء من غوائل القدرة التي يتمتع بها ، فلا يستعملها في ظلم أو طغيان أو أذى الآخرين بدون حق ، ولا ينحرف في نشوة العلوم والمعارف التي اكتسبها فيستعملها للاضرار بالآخرين . ولا يسمح لمشاعر أنانيته تصعد به إلى سدة التعالي والكبرياء على بني جنسه . فهو عندما يدرك أن كل الناس من ماء وتراب وأن الإنسان سوف يموت إن عاجلاً أم آجلاً وأن هناك من يحاسبه على كل شاردة وواردة . لا بد وأنه يتواضع وتزول من رأسه نزوة الطيش والتكبر .

إلى جانب هذا يدرك صاحب اليقين الإيماني ، أنه ليس المالك الحقيقي لشيء من قدراته وعلومه وطاقاته ، لأنه يقدر أنها ليست أكبر أمانة أودعت عنده إلى حين ، وسوف تسترد الأمانة في وقت قريب أو بعيد ، وسيحاسبه الله على كل إساءة في سوء استخدامها ! فهل بعد هذا تستطيع الحرية والقدرات من أن تسكر صاحبها وتهيجه بغوائلها ، وهو على يقين من أنه سوف يتجرد منها بعد حين ! وإذا هو قد يرد إلى أرذل العمر : جاهل بعد علم ، ضعيف بعد قوة ، مفتقر بعد غنى ، ناس بعد ذكرى ! .

وليس الإسلام في أصوله وفروعه أكثر من أنه يعلم الإنسان هذه الحقيقة ثم يدعوه إلى الانسجام معها في حياته ومعاشه . فهو كما عرفه الحكماء : دعوة الإنسان ليكون عبداً لله بالسلوك الاختياري ، كما قد فطر على العبودية له بالواقع الاضطراري .

والآن بوسعنا أن نتصور هذا اليقين الإيماني ، كم له من الأثر في مجتمع يصطبغ أفراده به ، عن وعي وادراك حقيقيين ، لا عن خضوع قسري وتقليدي .

ولا ريب أن بعض آثار هذا اليقين في مثل هذا المجتمع ، تصبح النعم التي متع الله بها الإنسان ينابيع الخير المجرد والسعادة الخالصة . وأن يخلق كل ما كان لها من نوافذ إلى الفتن والاضرار والشقاء . حيث تقوم بين الناس في ذلك المجتمع وشائج الأخوة والمساواة والعدالة والرخاء في ظل ظليل من مشاعر عبوديتهم لله تعالى ، بعد أن كانت تتصادم فيها القوى وتتصارع الأسنة ، ويقع المستضعف ضحية لنزوات الأقوياء وأطماعهم .

في هذا المجتمع الإسلامي السعيد تصبح نزعة العلم والمعرفة نوراً وهاجاً يكشف المزيد من سبل تسخير هذا الكون لسعادة الإنسان ومصلحته ، وقبساً هادياً إلى وجود الذات الإلهية المهيمنة .

وعندها تغدو أسباب القوة والبطش أدوات لحراسة الحقوق المشروعة ، وحصناً لحفظ العدالة والدفاع عن المبادىء والمثل العليا الفاضلة يصبح الإنسان في أرفع درجات الحضارة .

وفي وقائع التاريخ والحياة الاجتماعية أوضح شاهد على شرعة الإسلام التي ألزم بها عباده قال تعالى وهو يقص علينا من خبر موسى وفرعون :

﴿ ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ويُريَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ [القصص الآية : 5 ـ 6] .

ونوجز القول أن العقيدة الإسلامية التي تقوم على يقين عقلي لا على دوافع تقليدية تنزل بالمتكبرين من علياء جبروتهم وتردعهم عن التطاول على الآخرين ، وأنها في الوقت نفسه ترتفع بالمستضعفين عن مساقط الذل والهوان ، فتطلقهم فوق صعيد الكرامة الإنسانية الأصيلة . وبذلك يلتقي هؤلاء وأولئك على حدود عادلة متساوية من المحبة الإنسانية والأخوة الكريمة بعيداً عن كل فرص الاستغلال ووسائل الاستعباد .

كل هذا يتم تحت ظل الشعور المتمثل في يقين الفئتين بأنهم جميعاً عبيد مملوكون لله عز وجل وأنهم مستأمنون على ما متعهم الله به من قدرات وملكات ليستعينوا بها في عمارة الأرض وتسخير ما في الكون للخير العام وصالح الناس جميعاً ، وأن جميع الناس مبعوثون من بعد الموت يحاسبون في ذلك اليوم العظيم عندما ينادي منادي الحق جل جلاله : **﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾** [المؤمن : 17] . من هنا يدرك الجميع حاجة المجتمعات الإنسانية كلها إلى الاعتقاد الإيماني الصحيح ، إلى الدينونة الواعية للإله الواحد الأحد الفرد الصمد ، وإلى الاعتقاد الجازم بعبودية الإنسان المخلوق له عبودية مطلقة .

وأما إنسان الحضارة الحديثة الذي نراه يشقى بعلمه ، ويفتقر بغناه ، ويهلك بالقوة ، ويختنق بالمتعة ، كان بإمكانه أن يتحاشى كل ذلك لو أنه أقام في ظل من رقابة الإسلام والإيمان بعقيدته والعمل باحكامه .

نحن بحاجة اليوم وكل يوم إلى مسلمين مؤمنين يعملون بوحي عقيدتهم ويطبقون

أحكام شريعتهم فيحبون لغيرهم ما يحبون لأنفسهم ويكرهون لهم ما يكرهون لها .

نحن بحاجة إلى مؤمنين يقتحمون العقبة ويلبسون القناعة العقلية ثياب التطبيق والتنفيذ حتى لا يبقى الكلام كلاماً ، والاحكام حبراً على ورق .

الإسلام ومطالب الروح والجسد

يتكون الإنسان من عنصرين هامين يكمل أحدهما الآخر : عنصر مادي ينمو ويتحرك ، وجوهر خالص من المادة . ولكل من هذين العنصرين رغائب وحاجات يسعى صاحبها إلى تحصيلها بكل ما عنده من طاقة . فللجسم حاجات من الطعام والشراب وسائر الشهوات الجسدية ، وللروح مدارجها من الترقي يمكن أن تحصل منها مجالات متفاوتة تتناسب مع حسن السعي وكيفية المجاهدة .

اتصلت الروح بالجسد وكان لهذا الاتصال ألوان من البلاء فانقسم الناس إلى فئتين: فئة عبدوا شهواتهم وملذاتهم وهمهم من الحياة رشف أطايبها المادية فقط ، من شتى ألوان الطعام والشراب وسائر أنواع الشهوات ، حتى انحدروا إلى درجة الحيوانية أو دونها ، بما اكتشفوا من فنون الشهوات التي عمي عنها الحيوان بغريزته وعرفها الإنسان بعقله .

وفئة ثانية نشدوا لرقي أرواحهم طرقاً ومناهج أبعدتهم عن الشؤون الدنيوية ، فأهملوا أمر الجسد ومتطلباته ، وتهاونوا في العناية به ، فاخترعوا رياضات بدنية شاقة قضت على رغبات النفس . فمنهم من خفف من الطعام إلى حد بعيد متوهماً أن ذلك عبادة حتى أصبحت أجسادهم كالهياكل العظمية من شدة الهزال والنحول كما قال المتنبي :

كفى بجسمي نحولا إنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

ومن نتيجة هذا التطرف الزائد كان التفريق بين الطرق الروحية والمادية حتى جاء الإسلام ، العادل في كل أحكامه وتشريعاته وكان التوسط بين مطالب الروح والجسد . فهو لا يأمر الذين اتبعوه وآمنوا به أن يحرموا أنفسهم من متع الحياة المادية والملذات الجسدية ما دام يتناولها أصحابها من طريقها المشروع وفي حدها المعتدل . فللجسد حقه ومطالبه وللروح حقها ومطالبها ، ولا يجوز لأحدهما أن يتجاوز حدوده على حساب الآخر .

أباح الإسلام لمتبعيه التجمل بكل ألوان الزينة ، والتمتع بجميع المشتهيات والملذات المادية ، شرط الاعتدال ، فلا إفراط ولا تفريط . قال تعالى : ﴿ **قل من حرم**

زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ [الاعراف : 32] . ولكن الله سبحانه وتعالى اشترط علينا الاعتدال :

﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ [الاعراف : 31] .

والله جل وعلا يحب عباده الصالحين ، لذلك أمرهم باختيار الطيبات من الرزق دون المآكل العادية البسيطة . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكر والله إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ [البقرة : 172] .

ولكن الإنسان الجاهل أخذ يحلل ما يريد ويحرم ما يريد حسب مزاجه ورغباته دون أي علم أو معرفة يقينية . جاء في سورة المائدة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي انتم به مؤمنون** ﴾ [المائدة : 87 ـ 88] .

وما يلفت النظر إن الله من محبته لعباده سمى حرمان النفس من طيبات ما أحله الله اعتداء وتجاوزاً وإثماً لأنه خروج عن طريق العدل بين الطبيعتين المادية والروحية .

وفوق هذا أعطانا الله العقل والارادة وأعطانا السلطان الكامل على الأرض وما عليها ، وسخر كل شيء لخدمة الإنسان ومنافعه . قال تعالى : ﴿ **الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وسخرلكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إنَّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ [الجاثية : 12 ـ 13] .

ثم إن الإسلام ينهى عن الرهبانية الموجودة عند المسيحيين التي شابها كثير من الغلو ولهذا جاء في القرآن عن النصارى : ﴿ . . **وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها** ﴾ [الحديد : 27] .

وقال الرسول الأعظم محمد (ص) : « لا رهبانية في الإسلام » .

لأن الرهبانية تجعل الصالحين من عباد الله لا يهتمون إلا بنجاتهم وحدهم فينزوون إلى كهوف وصوامع وينتقل زمام أمر العالم إلى من لا همَّ لهم إلا الإفساد في الأرض « والحق أن ما ذهب إليه الإسلام من الجمع بين الروح والمادة هو ما تقبله الفطرة

الإنسانية ، فالله ، وهو أرحم الراحمين ، لم يخلق الإنسان شهواته وقواه الطبيعية عبثاً ، أو لاخمادها بالعقاقير والرياضة النفسية والكبت المستمر ؛ ولكنه خلق الإنسان من تنوع الغرائز وتخالف الميول والنزعات ليصل الإنسان بقوة إرادته وبالسيطرة عليها وتوجيهها إلى المثل العليا .

فالحالة الوسطى بين الروحانية المتطرفة والمادية المغالية أمر تستدعيه حياة المجتمع ولا يوجد فيما بين أيدينا من التعاليم ما هو حاصل على هذه الميزة غير الإسلام »[5] .

إن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الإسلام مبنياً على قواعد العلم ونواميس الطبيعة وهذه القواعد العلمية تقول : العقل السليم في الجسم السليم ، والسمو الروحي لا يحصل من حرمان الجسد من حاجاته أبداً ، ولكن بتوجيه تلك الحاجات والرغبات توجيهاً سليماً معتدلاً عن طريق العقل المستنير والارادة الحكيمة .

وبالرغم من هذا يقرر الإسلام أن الحياة الأخرى خير وأبقى من الحياة الدنيا وأن الكمال الروحي هو الغاية التي يجب أن يتجه إليها كل مسلم . ولذلك نجد في القرآن الكريم آيات كثيرات تشير إلى تفضيل الحياة الآخرة على الحياة الدنيا نذكر بعضاً منها : ﴿ **وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وأن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** ﴾ [6] .

إن هذا الاعتقاد ، كما أسلفنا في فصل سابق ، يمد المسلمين المؤمنين بقوة روحية تجعلهم أصحاب إرادة قوية ، وقلب كبير ، لا يبالون بما يصادفون من خيبة أو فشل .

ولذلك حذرنا الله جل وعلا من الاغترار بمباهج الحياة الدنيا والانجذاب نحو اللذائذ والشهوات ونسيان اليوم الآخر ، يوم الحساب . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾ [فاطر الآية : 5] . فعلينا أن لا نغتر بزخارف الدنيا وننسى أوامر الله تعالى .

ثم ضرب لنا مثلاً حياً بصورة محسوسة واقعية ، فيها الحركة وفيها الجمال الأدبي الساحر فوصف الحياة الدنيا قال تعالى : ﴿**مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا ، المال**

(5) راجع روح الدين الإسلامي ص 136 .

(6) العنكبوت الآية 64 والحيوان : الحياة التي لا فناء بعدها .

والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾ [الكهف الآية : 45 ـ 46] .

فتأمل تصوير الدنيا في نضرتها وحياتها وشبابها ثم تأمل صيرورتها إلى الزوال فهي تشبه النبات الأخضر الذي ترعرع ونما ثم تحول إلى هشيم متفتت تنثره الرياح وتذروه في كل اتجاه وكأنه لم يكن . فهل ندرك هذا حتى لا نغتر بالمال والبنين ، زينة الحياة الدنيا . الدنيا الفانية . فأعمال الخير أيها المؤمن هي خير وأبقى عند الله ينال بها صاحبها كل ما كان يؤمله في الدنيا .

من هنا كانت الدنيا امتحاناً للبشر يبلو بها عباده أيهم أحسن عملا ، وهي وسيلة للفوز بالسعادة في الحياة الأخرى . وكل ناحية من نواحي الحياة في البيت والمعمل والحانوت والجامعة ومجلس النواب ورئاسة الحكومة ورئاسة الجمهورية كلها تجارب مختلفة لامتحان المرء .

ليس سبيل النجاة في الإسلام مجرد الانتساب إليه ، ذلك أن المؤمن بتعاليم الإسلام لا تبعده تقلبات الدهر عن ربه مهما كانت صعبة ، ولا تنسيه الأموال الطائلة ذكر الله مهما عظمت ، لأن المصائب والخير والشر هي اختبار وامتحان لجوهر نفسه . حتى المجاهدين الكبار والأنبياء الأطهار وكبار القديسين والأئمة المعصومين ابتلاهم الله بالخيرات والويلات . . قال تعالى : ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم** ﴾ [محمد الآية : 31] . وقال الله تعالى أيضاً : ﴿ **تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور** ﴾ [الملك : 1 ـ 2] .

هذه النظرة الصائبة للحياة هي أكبر دافع له للجهاد النفسي والرقي الاجتماعي والسمو الأخلاقي لمغالبة الشرور وتجاوز أزمات الحياة الدنيا .

فتنة المال

الصراع في سبيل تحصيل المال في هذه الأيام بلغ أشده ، حتى أنه وصل إلى حد إبعاد الناس عن ربهم وبالتالي إبعادهم عن المثل الأخلاقية والقيم الروحية العالية . الأمر الذي أدى إلى إثارة المشاكل الخطيرة والأزمات النفسية والاجتماعية القاتلة . ذلك أن الحياة عندما تتجه اتجاهاً مادياً صرفاً تصبح فارغة باردة لا معنى لها ، تعشعش في أحضانها الأنانية ، وتفرخ في أعشاشها الأطماع الشخصية والمصالح الخاصة ؛ وتولي من ديارها المحبة والرحمة والخير والحق والجمال ؛ ويصبح الاحسان الديني في غربة تامة .

والاحسان الديني غاية العباد الصالحين لأنه يضع المحسن في حضرة الخالق باستمرار ، وجهاً لوجه ، يسلم أمره بارتياح واطمئنان ﴿ **ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن** ﴾ [النساء : 125] . ومن الاحسان الديني الاحسان الأخلاقي وهو وسيلة لبلوغ غاية ، والزواج بينهما أمر ضروري لنستولد منهما الصلاح الاجتماعي . وماذا نعني بالصلاح ؟ .

إنه اقتران الخير بالحق واقترانهما معاً بالجمال . والجمال ذوق وحرية . والخير نفع والتزام والحق معرفة والتزام واجتماع الاقانيم الثلاثة ينتج الإنسان المثالي ، الإنسان المتعالي المتسلح بالمعرفة والإيمان . فلنبتعد عن عبادة المال ولنعبد الله[7] .

ولهذا توجهت تعاليم القرآن إلى التخفيف من شرور المال وبيان أضراره ، وحذر الناس من الانقياد الكلي للمال الذي يفتنهم عن دينهم ويبعدهم عن ذكر الله . قال سبحانه وتعالى في وصف المؤمنين الصادقين : ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار** ﴾ [النور : 37] .

والقرآن الكريم يصف الداء ويصف له الدواء فيعالج ما ينتج عنه من شرور .

والحقيقة أن المال هو امتحان واختبار للبشر في حياتهم الدنيوية ، ماضياً وحاضراً ، حيث كان ولم يزل وسيلة إلى الخير عند بعض الناس ، وإلى الشر عند البعض الآخر .

وأظن أنه اشتق من فعل (مال) أي غير وبدل وحاد عن الطريق السوي ، فقد يميل قلب الأخ عن أخيه والابن عن أبيه ، وقد يميل الضمير المهني والضمير الاجتماعي والضمير الديني والضمير الأدبي ، فيصبح والحالة هذه شراً ويحدث بين الناس الحقد والبغضاء والكراهية والأنانية . قال تعالى : ﴿ **واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم** ﴾ [الأنفال : 28]

والمسلم المؤمن مسؤول أمام الله عن كيفية جمع المال وعن كيفية إنفاقه ، فطرق الجمع والتحصيل يجب أن تكون مشروعة ومحدودة ، يجبى مالاً حلالاً ، ولا يخزن ويستزاد فيه كثيراً . ذلك أن الغنى الفاحش ليس من مظاهر رضوان الله . قال تعالى : ﴿**وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ، قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء**

---

(7) قال السيد المسيح (ع) (لا تعبدوا ربين الله والمال) .

ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا . . ﴾ [سبأ الآية : 35 ـ 36 ـ 37] .

وقد ذم الله طغيان المال لما له من تأثير سيء على النفس الإنسانية ، لأن النفس متى أحست بالقدرة وقبضت على ناحية الثروة قد تخرج عن الحدود الإنسانية المشروعة . لذلك أراد الله أن يرد النفوس عن طغيانها ويخفف من جبروتها فذكر الإنسان بضعفه وحقيقة خلقه . قال سبحانه : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ، أنْ رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى ﴾ [العلق الآية : 6 ـ 7 ـ8] .

كما حرم الإسلام كنز المال لأن في ذلك منعاً لها من التبادل الاقتصادي والاستفادة منها في استثمار الموارد الاقتصادية المختلفة لزيادة الدخل الوطني . قال تعالى : ﴿ . . والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [التوبة الآية : 34] . وهكذا نجد الإسلام يرمي إلى إيجاد نظام الملكيات الصغيرة ليقي أفراد المجتمع طغيان رأس المال الكبير وجمع الأموال الطائلة ، وليسعف الطبقة المحتاجة . من هنا كان نظام الزكاة والخمس في النظام المالي الإسلامي ، أقامه الإسلام على معيار وقانون أخلاقي فجعلها مقيدة بالمصلحة العامة للأمة بصورة مقصودة .

وما المال والمتاع والقصور وغيرها إلا متاع زائل ينتهي ويفنى على حين أن العمل الصالح والخير والحق أفضل وأبقى . قال جل وعلا : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾ [آل عمران : 14] .

وكما نهانا الله عن الإسراف وإنفاق المال بلا حساب ، نهانا أيضاً عن البخل لأنه يقضي على المودة بين الناس ويفرق بين الأحباب والأصدقاء . البخيل الذي يضن بماله على من يحب ولو يسيراً منه تمتلىء قلوب هؤلاء حقداً عليه ، والأمة التي يتفشى فيها البخل تنهار روح التعاون بين أفراد المجتمع ويبدأ الانحلال ينخر في جذع شجرتها .

ولو كان يعلم البخيل ذل نفسه ونفور القوم منه نتيجة شحه لتراجع عن بخله ذلك إنَّ جمع المال مع عدم الانتفاع به ضرب من الفقير أشد وقعاً على قلوب البخلاء من فقر المعوزين . قال تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء تُدعَوْنَ لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء ﴾ [محمد : 38] .

وفي هذا المجال يذكرنا المتنبي شاعر الحكماء بقوله :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله   مخافة فقر فالذي فعل الفقر

عالمنا اليوم بحاجة إلى ثقافة روحية :

عالمنا اليوم ، عالم المادة والآلة والأنانية وهو بحاجة ماسة إلى ثقافة روحية تزرع في نفوس الناس أخلاقاً نبيلة سامية تبعدهم عن الالتصاق بالطين الذي جبلوا منه ويرجعون إليه بعد حين .

إن الرقي المادي الذي وصلنا إليه في هذا القرن لم يؤت ثمرته الفعلية من إسعاد الناس بل هو على العكس ، جلب لنا التعاسة والحزن والخراب الناجمة عن هذه الحروب المدمرة التي لا نعرف لماذا اشعلت ومتى تخمد نارها . فالقوي يفترس الضعيف والغني يستغل الفقير وشريعة الغاب هي الحكم الفصل . والاستعمار وجد الأرض الخصبة عندنا ليجرب قنابله المختلفة الأشكال والألوان ، وينشب مخالبه في صدورنا الضعيفة وقلوبنا الجامدة الخالية من المحبة والإيمان . وهذا كله إن دل على شيء فإنما يدل على خلو الحضارة المادية من القيم الروحية البعيدة كل البعد عن الشريعة الإسلامية . قال سيدنا عيسى المسيح (ع) : ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .

والشاعر الهندي طاغور قال لبعض تلامذته قبل وفاته بساعات : « . . . فالاصلاح العلمي والاجتماعي والاقتصادي قد يهذب من أحكام الطبيعة وقد يلطفها ويصقلها ولكنه لن يجعل من الإنسان إلا حيواناً ممتازاً ولن يرسم للفرد كوحدة مستقلة سبيلاً واضحاً إلى الكمال الروحي المنشود . إذ الكمال الروحي لا يتقيد في عرفي بالتقدم المادي وإنما هو جوهر أبدي كامن في نفوسنا سواء أكنا متأخرين في الرقي المادي أم متقدمين . والواجب أن نبحث في أرواحنا مااستطعنا عن هذا الجوهر الأبدي ، أن نبحث عن مظاهره فينا ، وعن قواه المشتركة بيننا وبين الآخرين . وعلى قدر احساسنا بهذه القوى يكون اتجاهنا نحو الكمال » .

وهو يؤكد على القوى الأبدية وهي : « الطيبة والرحمة والمحبة والايثار والتضحية ، وكل ما يجعلنا نحس اننا في غير حاجة إلى الأنظمة والقوانين كي نقر السلام في قلوبنا والعدل والاخاء بيننا وبين الناس . وأعجب ما أعجب له أن حضارتنا تعتمد على إصلاح الأنظمة والقوانين لترقيتنا ثم لا تقرن هذا الاصلاح بالدعوة الحارة ، البعيدة عن التعصب لمذهب أو عقيدة ، إلى تلك القوى الروحية كمجموعة عناصر مشتركة أبدية يجب أن ننتفع بها كما ننتفع بالفحم والحديد والبخار والكهرباء . ثم يتابع :

وعندي إنه يجب أن تدرس للصبيان فوائد المحبة بجانب فوائد الكهرباء ، ومنافع الطيبة والرحمة بجانب منافع الفحم والحديد . أي يجب أن نقرن في نفوسهم العواطف الأبدية بالمعارف وتطبيقاتها العملية ، وإلا جاءت هذه المعارف وتطبيقاتها بعكس الغرض المنشود منها فاكتسحت العواطف وردت الإنسان إلى وحشيته الأولى .

والحق أن العالم اليوم أحوج ما يكون إلى الأبديات يقرر ويعترف بها وتنظم في شكل دين مشترك إنساني يفهمه الجميع ويشعر به الجميع .

فبالعقل والروح ، أي بالعلم واصلاحاته المبتكرة ، وبالنفس وفضائلها الأبدية يستطيع الإنسان الجديد أن يبني في فرح واطمئنان حضارة المستقبل .

هذه هي وصيتي أعلنها في العالم وأنا على أبواب الموت ، كما تلقيتها من الله الذي حاولت أن اندمج فيه بشعري فعلمني أن الاندماج الأعظم يجب أن يتم قبل كل شيء بين الإنسان وأخيه في ظل الحق والرحمة والمحبة . . . »[8] .

إن هذا الجوهر الأبدي ، وهذه القوى الأبدية : الطيبة والرحمة والمحبة والايثار والتضحية ، والعلم واصلاحاته المبتكرة ، والنفس وفضائلها الأبدية ، وحضارة المستقبل السعيدة كل ذلك أوصى به الإسلام ، وحرض عليه الله في كتابه العزيز « القرآن » وفصلته السنة النبوية الشريفة .

هذه القيم الروحية الإنسانية جاء بها الإسلام ليكفل الاستقرار والسلام والاخاء والعدالة الاجتماعية لجميع شعوب الأرض . وما يؤسف له أنها لا تزال مجهولة عند كثير من مفكري الإنسانية أمثال طاغور وغيره من علماء الاجتماع الذين يبحثون عن أفضل الوسائل لنشر السلام والمحبة في عالمنا المادي المضطرب .

وسوف يدرك الجميع إن الإسلام هو سلم وسلام وهو دين الإنسانية في المستقبل القريب بإذن الله . فهل نعمل اليوم بوحي إسلامنا ؟ وهل نطبق أحكام شريعتنا الموضوعة من قبل الله عز وجل وهي الثابتة والمستمرة لأنها تراعي المصلحة العليا للإنسان في كل مكان وزمان بعيداً عن العصبية القبلية والطائفية والأنانية والمزاجية والمصلحة الشخصية .

---

(8) راجع روح الدين الإسلامي نقلاً عن كتاب (على أبواب الابدية) تأليف الباحث الفرنسي (جورج مجلوار) وقد ترجم هذا الفصل الاديب إبراهيم المصري في جريدة (اخبار اليوم) المصرية في العدد تاريخ 27 يونيه 1953 .

من هنا كانت ديمومة الإسلام ومحبة الناس له ، ومن هنا كان انتشاره السريع على أرض الله الواسعة ، ومن هنا كان رأي أكثر علماء الغرب المعتدلين وعموم علماء الشرق المؤمنين في صلاحية الإسلام للتقدم الحضاري والتطور الإنساني(9) .

غربة الإسلام في مجتمع الحضارة الحديثة

في مجتمعنا العصري نلاحظ تهالك الناس على المال والاستمتاع بملذات الحياة الدنيا أكثر من أي وقت آخر . وفي هذا غربة الروح في عالم المادة . وكلنا يعلم بفداحة الإنفصام بين الوجود والذات وجسامة الصدام بين دوافع البناء ونوازع الخراب ، وكلنا يلاحظ لدى الأكثرين ارتباط غربة الروح بهجرة العقل واستخفاء الفكر المستنير من واقع الحياة ، إلى حد كبير . وبذلك نلمس غياب الأصالة والإبداع في جميع مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والتربوية والثقافية .

وغربة الروح هذه ظاهرة قديمة في تاريخ البشرية بدأت مع بني إسرائيل الذين زعموا أنهم أحباء الله وشعبه المختار . وهم أول شعب قست قلوبهم فحاقت بهم اللعنة ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وغربة الروح . وصفهم الله تعالى جل وعلا فقال : ﴿ **ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدُ قسوةً وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشَّقَّق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ [البقرة الآية : 74] .

وعرفت ظاهرة اغتراب الروح أيضاً عند اليونان والرومان والفرس والهند وغيرهم من الشعوب الذين انسلخوا من ذواتهم وعطلوا طاقاتهم الفكرية . فوصفهم سبحانه وتعالى بقطيع من الانعام . ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ، ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً صم بكم عمي فهم لا يعقلون** ﴾ [البقرة : 170 ـ 171] .

ومهما تطور الفكر الإنساني في عالم التصنيع والتجريب والواقعية لا يجوز الانتقاص من أهمية غربة الروح على الصعيد الفردي كما على الصعيد الاجتماعي . وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك فأقسم بالنفس الإنسانية في حالتي التقوى والفجور . ﴿ **ونفس**

---

(9) راجع محمد عند علماء الغرب للشيخ خليل ياسين.

وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكـاها ، وقـد خاب من دسـاها ﴾ [الشمس الآية : 7 ـ 8 ـ 9 ـ 10] .

والإسلام دين الفطرة ، من خلال الطبيعة الإنسانيـة الحقة قـد أعطاهـا المقام الأول فكرياً وروحياً قبل عصر التنوير والـذرة . نلاحظ ذلـك في كثير من نصوصه المستقـاة من القرآن وصحيح السنة . قال الرسول الأعظم (ص) : « إن الإسلام بدأ غريبـاً وسيعود غريباً »[10] .

لقد شبه الإسلام في أول أمره بالرجل الغريب الذي قل أنصاره ، لأنه كان على هذه الصفـة في أول ظهوره ، ثم اشتـدت معاقـده واستقرت قـواعده وكـثر أنصـاره . ولكنـه (سيعود غريباً) يعود إلى مثل حالته الأولى في قلة العاملين بشرائعـه ، والقائمـين بتطبيق أحكامه .

وقال(ص) أيضاً في موضع آخر : « إن الإسلام ليأزر إلى المدينة كما تـأزر الحية إلى جحرها »[11] . والمراد أن الإسلام ليـأوي إلى المدينـة كما تـأوي الحية إلى جحـرها ، لأن المدينة حمى له وهي قطب مداره ونقطة ارتكازه .

وقد أثنى الرسـول الأعظم (ص) عـلى الغربـاء وعظم أمـرهم مستنداً في ذلـك إلى نـوعيتهم لا إلى كميتهم . فوصفهم بـالفضـل والتقى والصـلاح بسبب وعيهم الـروحي والفكـري والاجتماعي والكـوني ، والناس تتنـاقص من حولهم في معـاني الخـير والإيمـان ويعيشون مع ترفهم المادي في دوامة الضياع والفراغ والفساد . ولما سئل الـرسول (ص) عن هؤلاء الغرباء في حديث مسند . قيل له : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال : « أناس صالحون قليل في أناس سوء كثير ، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم »[12] .

والمراد بقلتهم العددية هنا ، في فجـر الدعـوة الإسلاميـة على عهـد الرسـول ، إذ لم يستجب له يومئذٍ إلا قليل من المستضعفين ، اضطروا للهجـرة إلى الحبشة ثم إلى المـدينة فراراً بدينهم فنصرهم الله إنه على كل شيء قدير . جاء في سورة الأنفال :

---

(10) المجازات النبوية للشريف الرضي .

(11) المجازات النبوية ص 108 وأزر : تقبض واجتمع . راجع الحديث في صحيح مسلم ج 1 ص 65 وسنن ابن ماجه كتاب الفتن ج 2 ص 1320 وسنن الدارمي ج 2 ص 220 ومسند الامام أحمد ج 1 ص 184 وسنن الترمذي ج 3 ص 363 كتاب الايمان .

(12) مسند الامام أحمد ج 2 ص 177 .

﴿ واذكروا إن أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ [الأنفال الآية : 26] .

ولما ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ولم يبق إلا فئة قليلة من المؤمنين الصالحين لعمارة الأرض ، منفردين في مجتمعهم كالغرباء ، لأنهم صمدوا في وجه الظالمين وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم لاعلاء كلمة الله ، فحولوا غربتهم جهاداً مبروراً وسعيا مشكورا وفيهم قال رسول الله (ص) : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون »[13] .

تنطبق هذه الآية الكريمة والحديث النبوي الشريف على الأئمة المعصومين وأولهم الإمام علي بن أبي طالب (ع) الذي بدأ مع الرسول (ص) في محاربة المشركين فكان لسيفه (ع) الوقع الحسن في نصرة الدين الحنيف واعلاء كلمة الله ، ثم تابع بعده ولده الإمام الحسين (ع) الذي كان لثورته الصيت المدوي في رحاب الحق والصوت العادل الجريء ضد الظلم والظالمين . وتابع بعده الجميع منهم مسيرة الإسلام الحقة لا تأخذهم في الحق لومة لائم يحملون راية الإسلام ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم ضد الحكام الأمويين والعباسيين الذين انحرفوا عن الخط الإسلامي وأرادوها ملكاً كالقياصرة والاكاسرة . وما زالت المسيرة الإسلامية الحقة آخذة طريقها الصحيح في مكافحة الطغاة المستكبرين في العالم على يد الابطال الشهداء والمجاهدين الشرفاء يزرعون الأرض بأجسادهم ليرذوا الحق إلى نصابه كل هؤلاء هم الغرباء في الأيام الغريبة .

وما الذي جعلهم غرباء ؟ ولماذا اتصفوا بالغربة ؟ لأنهم ، كما وصفهم الرسول (ص) يصلحون إذا فسد الناس ، فتفردهم عن أهل زمانهم وامتيازهم عليهم بأصالة الفكر وعمق الوعي وثبات الإيمان ، واطمئنان الروح جعلهم غرباء في مجتمع يعيش فيه أكثر أفراده فريسة القلق الروحي والاغتراب عن الذات .

فأصبح الاغتراب تفرداً بالصلاح الديني في عالم المادة وزمان الاستهلاك إذا صح التعبير . والتاريخ يعيد نفسه ، والإنسان هو الإنسان على مدى الزمان يميل إلى الإنسانية .

---

(13) روي الحديث في الصحيحين وهو متفق عليه .

هـذا التعريف سـماه دوركهايم : التحلل من القيم والمعـايير ووصفـه بـالسـوداويـة المـزاجية المؤديـة بصاحبهـا إلى التشـاؤم والضجـر واليـأس والانسحـاب الكـلي من عـالم الواقع . قال رسول الله (ص) لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « كن في الدنيا كأنـك غريب أو عابر سبيل »[14] ، وعن علي بن أبي طالب (ع) :

« اغتنم خمساً قبل خمس ؛ صحتك قبل سقمك وحياتك قبل موتك ، وشبابك قبـل هـرمك ، وفـراغك قبـل شغلك ، وغناك قبـل فقرك ، ولا شـك أن الأخذ من الصحـة للمرض ومن الحياة للموت إشارة دالة على الاتصـال الدائم بـالذات والـوجود ، وامـارة واضحة أن الحياة في اطمئنان ورجاء . فالرسول (ص) يريد أن يستثير فينا دوافع الحركة والبنـاء والتطويـر والتعمير لنتسـاءل قبل المـوت : أين نحن من ركب الحضارة المتـطور ؟ وكيف نقضي الحيـاة بلا حسـاب دقيق ؟ وإلى اين المصـير ؟ هـل نتـذكـر قـولـه تعـالى : **﴿ألهـاكم التكـاثـر ، حتى زرتم المقـابـر ، كـلا سـوف تعلمـون﴾** [التكـاثـر : 1ـ2ـ3] . إنها دعوة المسلمين إلى الحيـاة والإحياء والابتعـاد عن الاغتراب عن الـذات والضياع في دينـا الفراغ . إنها دعوة إلى كل ما ينمي حياتنا ويجملهـا وينسق فيها بـين أطوار المـادة وأشواق الروح . قال تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنـوا استجيبوا لله وللرسـول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ﴾** [الانفال : 24] .

من أجـل هذا مـا كان لآراء المفكـرين الغربيـين أي تأثـير مباشر في التحـول بمفهوم الاغتراب الإسلامي عن جوهره الأصيل ، لأن الغرباء من علمائنا الابـرار وائمتنا الأطهـار لم يشعروا بالصغر والضعف في ظل النظام الإسلامي السليم الذي قام عـلى العدل والحق والخـير والجمال . والنـاس في شريعته كلهم سـواسية ، كلهم من ذكـر وأنثى ولا تفاضـل بينهم إلا بالتقى ونفع الناس والقرب من الله .

وهكذا لم ينطبق قـول الفيلسوف الفـرنسي روسو عـلى غربـائنا المهـاجرين إلى الله ، تعـريف الاغتراب الـذي قال عنـه في كتـابـه العقـد الاجتـماعي le contratsocial « . . والواقع أن الإنسان الذي يجعـل نفسه عبـداً لآخر لا يمنـح نفسه ، وإنمـا يبيع نفسـه نيلاً لمعاشه ، ولكن لما يبيع شعب نفسه ؟ .

والقول إن الإنسان يعطي نفسه تبرعاً محال لا يمكن تصوره ، وعقد مثل هـذا باطـل

---

(14) رواه البخاري راجع الحديث رقم 571 في كتاب منهل الواردين للدكتور صبحي الصالح ص 393 .

غير شرعي ، ولا يصدر هذا العقد عن رشيد ، وقول هذا عن شعب يفترض جنون هذا الشعب ، والجنون لا يوجد حقاً .

وإذا ما استطاع أحد أن يبيع نفسه فإنه لا يقدر على بيع أولاده ، فهؤلاء الأولاد يولدون أحراراً وتكون حريتهم خاصة بهم ولا يستطيع أحد غيرهم أن يتصرف فيها .

ثم أن تنزل الإنسان عن حريته يعني تنزلاً عن صفة الإنسان فيه وتنزلاً عن الحقوق الإنسانية ، وعن واجباتها أيضاً ، ولا تعويض يمكن لمن يتنزل عن كل شيء ، وتنزل كهذا يناقض طبيعة الإنسان ، ونزع كل حرية من إرادة الإنسان هو نزع كل أدب من أعماله[15] .

أما الغرباء في الإسلام فقد ظلوا أبناء الحياة الحرة الكريمة التي منحها الله تعالى لهم ، ولم يعطوا ذواتهم لأحد غير بارئهم ، ومن غير أن يضطروا إلى بيعها لأحد غير خالقهم الذي استخلفهم على هذه الأرض ليحرروا الإنسان من ظلم أخيه الإنسان ، وليزيلوا غربة الروح وينطلقوا مع الأحرار في طريق الهجرة إلى الله . وهكذا فعل الإمام الحسين (ع) في ثورته الإنسانية ضد الظالمين ليثبت الشريعة الإسلامية ويعلي كلمة الله ، فضحى بأمواله وأهله ونفسه ليرضيٰ ربه ويدخل جنته إنه العزيز الحكيم . قال تعالى : **﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقْتلون ويُقْتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾** [التوبة : 111] .

وإن تمسك الغرباء من المجاهدين المسلمين بمعنى الحياة الإنسانية الحرة الكريمة ، ورفضهم الخروج عن ذواتهم[16] ، هو إيمانهم العميق بعقيدتهم الإسلامية واحساسهم الدقيق بقيمتها . ومن طريق الإيمان نفسه يستثير القرآن في قلوب المؤمنين قوة إيجابية فاعلة ، ويعلمه أن تصوراته للعقيدة مهما تكن سليمة ونبيلة ، لا قيمة لها ما لم تفرغ في حركة مستمرة وجهاد متواصل .

إن غربة المؤمنين[17] ليست عن ذاتهم ، ولا عن حياتهم ، ولا عن المجتمع الذي

---

(15) العقد الاجتماعي ص 35 ـ 36 .

(16) سماه المحدثون (Exteriorisme) .

(17) ومن أبرزهم الامام علي بن موسى الرضى الذي سمي بالغريب .

يعيشـون فيه ، إنهم خلفـاء الله في أرضـه وهم قـادرون عـلى البنـاء والتعمـير ، والتغيـير والتطوير ، وتنمية الحياة وتحسين الوجود ، في كل ما نصت عليه الشريعـة الإسلاميـة في تعاليمها وحدود أحكامها . . وأن مجرد هذا الشعور في قلوبهم العامرة بضخامة دورهم في الخلافة عن الله ، يهيئهم للسعي الدؤوب ومضاعفـة العمل والانتـاج ، ويمدهم بـدوافع الحركة المستمرة ، مما يؤكد لهم أن وجودهم في هذا الكون ليس فلتة عابـرة ، بل هـو قدر مقدور وواقع مفطور . قال عـز وجل : ﴿ **وأنّ ليس لـلإنسان إلا مـا سعى ، وأنَّ سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى** ﴾ [النجم الآية : 39 ـ 40 ـ 41] .

يـرجع ذلـك كله إلى حقيقة التصـور الإسلامي لعـلاقـة المسلم بنفسـه ، وعـلاقتـه بخالقه ، وعلاقته بـالمجتمع الـذي يعيش فيه . هـذا الاعتقاد يجعله يثق بنفسـه وقدرتـه وامكانياتـه ولا مسوغ لـه أن يتخبط مع الفـلاسفة في سلب فـردانيتهم الذين تقـوقعوا في دائرة اغتراب العقل والشعور الداخلي[18] . ولا مع الماركسيـين الذين حـولوا الاغـتراب الفردي إلى اغتراب اجتـماعي ، واغتراب اقتصـادي ، واغتراب سيـاسي . المغترب عـلى الـطريقة الإسـلامية مخـالف لكل هـذه الأنـواع من الاغـترابـات ، لأنـه مهـاجـر إلى الله جل وعلا . الذي سخر له الكون بأرضه وسمائه وكل ما فيه فهل يرفض التعامل مع كـل هـذه العناصر المسخـرة لخدمتـه ! قال تعـالى : ﴿ **وسخـر لكم مـا في السـماوات ومـا في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ [الجاثية : 13] .

وهل يرفض جدة الصراع الطبقي والمساواة الاجتماعية وينسى قوله تعالى : ﴿ **يـا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عنـد الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ [الحجرات : 13] .

أم كيف يرفض التعامل مع الآلة والمادة بعـد أن تفنن في اتقانها وأبـدع في إخراجهـا وهــو يـتلو قــولــه تـعــالى : ﴿ **ليــأكـلوا من ثــمــره ومــا عــملتــه أيــديهــم أفــلا يشكرون** ﴾ [يس : 35] .

وماذا لو سمع عن الغرباء الأولين مقـاومتهم لترف المسرفـين وذمهم لكبار المتمـولين ولو كانوا من الحكام والخلفاء والولاة .

فأبو ذر الغفاري الصحابي الجليل طالب بأن يكون للفقراء حق في مال الأغنياء عملا

---

(18) امثال هيجل واتباعه .

بقوله تعالى : ﴿ والذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم ﴾ [المعارج : 24 ـ 25] .

ويؤثر عنه أنه مر على معاوية وهو يبني داره الخضراء فصاح به : « من أين لك هذا ؟ إن كنت بنيتها من مال المسلمين فهي الخيانة . وإن كنت بنيتها من مالك فهو الاسراف » . فشكاه معاوية إلى الخليفة عثمان ، فأرسل إليه هذا مائتي ديناراً مع رسول قال له : هذه من مال عثمان . وهو يقول لك إنها من صلب ماله ما خالطها حرام . قال أبو ذر : هل أعطى أحداً من المسلمين مثلما أعطاني ؟ قال : كلا . قال : اذهب أنت والدراهم . إنما أنا رجل من المسلمين يسعني ما يسعهم . ولست في حاجة إلى المال . قال له رسول عثمان : أصلحك الله إني لا أرى في بيتك قليلاً ولا كثيرا . فرفع أبو ذر الوسادة وأراه قرصين من خبز الشعير وقال : بل عندي هذان وإني لغني بهما وثقتي بالله »[19] .

المغترب على الطريقة الإسلامية يريد الهجرة الخالصة إلى الله والاطمئنان الكامل لقدرته عز وجل لأنه لا يبصر دربه الحقيقي إلا إذا حفت به عناية الله ، على حد قول الرسول الأعظم (ص) : « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها فهجرته إلى ما هجر إليه »[20] .

المغترب على الطريقة الإسلامية لا يغترب عن نفسه ولا عن مجتمعه ولا عن الله جل وعلا وإنما يغترب عن الظلم والظالمين والنفاق والمنافقين والكذب والكاذبين والضلال والضالين وهكذا لا يبيع المغترب الإسلامي نفسه لأحد غير بارئه ، سبحانه وتعالى ، رب العالمين فهو خليفته في أرضه مكلف باداء الرسالة على أكمل وجه ، يعمل قدر فكره وطاقته في اكتشاف أسرار هذا الكون الكبير لخيره وسعادته وخير الآخرين وسعادتهم .

لأن سعادة المؤمن في سعادة إخوته المؤمنين . قال الإمام جعفر الصادق :

« ليعن بعضكم بعضاً فإن أبانا رسول الله (ص) كان يقول : « إن معونة المسلم خير وأعظم أجراً من صيام شهر واعتكاف شهر في المسجد الحرام ، واياكم واعسار أحد

---

(19) الامام جعفر الصادق ص 365 .

(20) منهل الواردين ، شرح رياض الصالحين الحديث رقم (1) .

من إخوانكم المسلمين » فإن أبانا رسول الله (ص) كـان يقول : «ليس للمسلـم أن يعسر مسلماً . ومن أنظر مسلماً أظله الله يوم القيامة بظله حيث لا ظل إلا ظله »[21] .

إن المسلم الـذي يريـد الهجرة إلى الله هـذه هي صفاتـه يهتم بأمـور المسلمـين بكـل امكاناته ، لأن اهتمام المسلم بما اهم المسلم يهب المقرور دفئاً والمكروب بـرءاً ، والمنكوب طمأنينة .

---

(21) الإمام جعفر الصادق ص 359 .

الفصل التاسع

الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام

تكوين المجتمع العربي الإسلامي

كان للمجتمع العربي الإسلامي سمات واضحة وميزات قيمة أثرت تأثيراً عظيماً في حياة المسلمين وكان لها الدور الكبير في تنظيم حياتهم وفي رقي حضارتهم . كانوا يتسمون بالحلم الجميل والأدب الجم ، والوقار العظيم ، والتسامح الكريم ، والأخاء الوثيق والطمأنينة النفسية بما قسم لهم الله من حظوظ في هذه الدنيا الفانية . لقد سمعوا واقتنعوا بقول الله جل وعلا :

﴿ **والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا** ﴾ [الكهف الآية : 146] .

إن مجتمعاً هذه ميزاته وهذه عقيدته هو حقاً مجتمع سعيد هانىء مطمئن . يقول الإمام علي بن أبي طالب في وصيته لمالك الأشتر : « . . . وأشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم واللطف بهم ؛ فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق »[1] .

ويقول العلامة جوستاف لوبون : « إن مما يستوقف النظر ما نراه من التضاد بين ثبات نظم الشرقيين ، وتسليمهم بالأمر الواقع الذي ليس له دافع ، والاخاء السائد لمختلف طبقاتهم ، ومن ثورات الأوروبيين الدائمة ، وهرجهم وتنازعهم الاجتماعي ، ومن أظهر ما يتصف به الشرقيون أدبهم الجم ، وحلمهم الكبير ، وتسامحهم العظيم نحو الناس والأموال ، ودعتهم ووقارهم وقناعتهم ، وقد منحهم إذعانهم لمقتضيات الحياة طمأنينة روحية قريبة من السعادة المنشودة ، وقد أورثنا أمانينا ، واحتياجاتنا المصنوعة

---

(1) راجع النظم الإسلامية للمؤلف ص 225 .

قلقاً نفسياً بعيداً عن بلوغ تلك السعادة . . . »[2] .

يتكون المجتمع العربي بصورة عامة من عدة طوائف تختلف باختلاف أحوالها ومقدار عطائها للمجتمع من أهمها :

1 ـ كبار رجال الدولة ، ومنهم الخلفاء والأمراء والولاة والقضاة وكانو يتسلمون المناصب الكبرى في الدولة .

2 ـ العلماء والادباء : كان لهم نفوذ قوي في الدولة لما يتمتعون به من منزلة شعبية مرموقة .

3 ـ الجند : كان لهم ديوانهم الخاص بهم تدون فيه أعمالهم وأرزاقهم وكل ما يلزمهم ، كما كانوا يتميزون بملابسهم وزيهم .

4 ـ رجال الأعمال وأصحاب الأملاك والتجار والصناع يتميزون بملابسهم وطرق معيشتهم .

5 ـ أهل الذمة : وهم النصارى واليهود الذين ظلوا على دينهم ويمارسون شعائرهم الدينية بحرية تامة ، وكان لهم عقدو ذمة في عنق المسلمين .

6 ـ العامة من الناس وسواد الأمة ، أهل الفلاحة وأمثالهم .

7 ـ الخدم وغالبيتهم من الرقيق المجلوب من الشعوب غير الإسلامية .

والمجتمع الإسلامي بصورة خاصة يعمل بشعار الإسلام : التقوى والمساواة فلا يفرق بين أبيض وأسود ولا غني أو فقير ، وقوي أو ضعيف أو عربي وأعجمي فالناس كلهم سواسية أمام شريعة الله الثابتة . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ [الحجرات : 13] .

وقال رسول الله (ص) : « الناس كلهم سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » .

لقد تغير المقياس الاجتماعي السائد فأصبح التمايز بين الناس قائم على أساس جديد ، ومبدأ حديث هو مبدأ التقوى والمساواة بين جميع خلق الله .

---

(2) حضارة العرب ص 386 .

هذا المقياس الجديد كان له أثر واضح في سياسة الحكم ، ولا سيما في عصر الخلفاء الراشدين . ومعيار هذا المقياس : التقوى والمساواة بين جميع الطبقات الاجتماعية وهو يقوم على عناصر ثلاث :

أ ـ الإخلاص للدين الجديد ، فلا نقول أسلمنا بل آمنا .

ب ـ السابقة في الجهاد من أجل نصرة الإسلام وتثبيت شريعة الله واعلاء كلمته فالمسلمون المؤمنون الذين آزروا الرسول (ص) في غزواته الصعبة لهم فضل أكبر وأكثر من الذين أسلموا ووقفوا مكتوفي الأيدي يراقبون من بعيد[3] .

ج ـ التفاني بالدعوة للإسلام .

ويبدو في كتب السيرة النبوية ما وصل إلينا من أحاديث صحيحة أن النبي (ص) قد كان يفاضل بين الصحابة أنفسهم على أساس هذه العناصر . فكل فرد يعرف نفسه وكل جماعة تعرف نفسها[4] . تذكر كتب التراجم والسير والتاريخ أن الرسول (ص) قد بشر صحابته المفضلين بالجنة .

2 ـ البدريون :

إلى جانب الطبقة الأولى المبشرة بالجنة تأتي طبقة ثانية ، البدريون ، تميزت في الصدر الأول . ميزها رسول الله (ص) وشهد لمن شهدها بأن الله غفر لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر . ولكن هذه الميزة للبدريين لم تكن تتجاوز الميزة الدينية المعنوية والتقدير والاحترام ، أما ما وراء ذلك من أمور دينية فقد كانوا متساوين مع الناس ، في الحقوق والواجبات ، لا يفضلونهم بصغيرة أو كبيرة .

ولما وضع عمر الديوان فضل السابقين في الإسلام ، ففرض لكل رجل شهد بدراً من المهاجرين الأولين خمسة آلاف درهم في السنة ، ولكل من شهدها من الانصار أربعة آلاف درهماً سنوياً .

وهنا اجتهد عمر فجعل السابقين أولى من اللاحقين ، فظهر تميزه في التوزيع المالي لأنه رأى في هذا التمييز أسباباً موجبة في نظره .

3 ـ المقربون من الرسول :

أضاف عمر إلى تمييزه البدريين بالعطاء عدداً آخر من الناس كانوا مقربين من

---

(3) راجع أيام العرب في الاسلام .

(4) راجع نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية للمؤلف ج 1 فصل الصحابة .

الرسول (ص) منهم زوجات الرسول فقد فرض لكل منهن عشرة آلاف درهم في السنة إلا عائشة بنت أبي بكر جعل لها اثني عشر ألفاً لمكانتها منه .

وأعطى العباس بن عبد المطلب ، عم الرسول ، خمسة آلاف ، كما أعطى كذلك للحسن والحسين عليهما السلام خمة آلاف درهماً . ولا ندري إن كان عمر يعلم أنهما من أهل الكساء أو أهل البيت الذين نزلت فيهم الآية المباركة : ﴿ . . . **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾ [الاحزاب : 33] .

ورد عن عائشة قالت : « خرج رسول الله (ص) غداة يوم وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن فأدخله معه ثم جاء الحسين فأدخله معه ، ثم جاءت فاطمة فأدخلها ، ثم جاء علي فأدخله ، ثم قال : الآية التي ذكرناها ، آية التطهير »[5] .

كما أعطى عمر بن سلمى المخزومي ابن أم سلمى زوجة الرسول أربعة آلاف درهم .

4 ـ المهاجرون وبعض المسلمين :

كذلك رأى عمر بن الخطاب أن يكافىء الذين هاجروا إلى المدينة قبل فتح مكة وبعد غزوة بدر فجعل لكل رجل منهم ثلاثة آلاف درهم . أما الذين أسلموا بعد فتح مكة فقد خصص لكل منهم ألفي درهم ، وكذلك كان نصيب أولاد المهاجرين وأولاد الذين أسلموا بعد الفتح . أما بقية الناس فقد فرض لهم على مقدار منزلتهم الاجتماعية ومقدار جهادهم في الإسلام ، وحسن قراءتهم للقرآن ، فكان هذا العطاء يترجح بين ألفي درهم وثلاثمائة .

أما عن المؤلفة قلوبهم[6] الذين خصهم الله في الآية 60 من سورة التوبة بنصيب من أموال الزكاة . وقد أعطاهم الرسول (ص) وأعطاهم أبو بكر الصديق ، وحرمهم من العطاء عمر ، لأن الإسلام لم يعد بحاجة إليهم بنظره . يروى عنه أنه قال لهم حينما راجعوه لقبض سهمهم : « كان الإسلام محتاجاً إليكم ، أما اليوم فقد عز ، ولئن عدتم لضربت أعناقكم » .

---

(5) راجع صحيح مسلم ومستدرك الحاكم ومراجع أخرى كثيرة روت هذا الحديث .

(6) وهم رؤساء قومهم من كافر يرجى اسلامه ، ومسلم يرجى بعطيته قوة ايمانه أو اسلام نظيره ، أو نصحه بالجهاد ، أو في الدفع عن المسلمين ، أو قوة على جباية الزكاة ممن لا يعطيها .

5 ـ الرقيق :

عرف نظام الرق منذ القديم عند كل الشعوب وكل ما كانت تختلف فيه الأمم معاملة الرقيق من شدة وعنف أو لين ورحمة .

فالرومان كانوا يسترقون بكل قسوة وظلم ووحشية ، والرقيق في نظرهم « شيئاً » لا بشراً شيئاً لا حقوق له البتة وإنما عليه كل الواجبات.. يكسبون الرقيق عن طريق الغزو غير المشروع ويسترقونهم لحب شهوة استعباد الآخرين . ونختصر فنقول كان للسيد الروماني الحق المطلق في قتل عبده وتعذيبه واستغلاله دون أن تكون هناك أي جهة تنظر في شكواه . لذلك كثر الرقيق في عهدهم حتى أنه ذكر بعض مؤرخيهم أن الأرقاء في الممالك الرومانية بلغوا ثلاثة أمثال الأحرار .

وكذلك اليونان والفرس استرقوا ولم تكن حالة الرقيق عندهم بأفضل من حالة الرومان . ولما جاء الإسلام بشريعته السمحاء رد لهؤلاء البشر إنسانيتهم ، ولكنه لم يستطع أن يلغي نظام الرق دفعة واحدة ، لأن المسلمين كانوا في أول عهدهم في حالة حرب دائمة مع الأعداء ، والحرب مرة نصر ومرة هزيمة ، فإذا ما هزم المسلمون في غزوة ما غيرهم من الأعداء ووقع في أيديهم جماعة من الرقيق فيكون هؤلاء وسيلة للمبادلة في غزوات يهزمون فيها ، وهذا واقع الحرب في كل العصور .

جاء الإسلام ليقول للسادة عن الرقيق : ﴿ **بعضكم من بعض** ﴾ [النساء : 55] وأمرهم بحسن معاملتهم : ﴿ **وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت إيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورا** ﴾ [النساء : 36] وقال رسول الله (ص) : « من قتل عبداً قتلناه ، ومن جدع أنفه جدعناه ، ومن أخصى عبده أخصيناه »[7] ، لأن الإنسان أخ لأخيه الإنسان فالكل من أصل واحد والكل إلى مصير واحد . ولا فضل لأحد على الآخر بالنسبة لعشيرته أو عرقه أو ماله ، وإنما الفضل للتقوى : « ألا لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لاعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحمر ، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى »[8] .

لقد رفع الإسلام الرقيق إلى مستوى الأخوة الكريمة ، لا في عالم المثل وإنما في عالم

---

(7) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي .

(8) اخرجه الطبري في كتاب آداب النفوس .

الواقع ، وبعد أن ساهم في التحرير الروحي عمد إلى التحرير المطلق للأرقاء بوسيلتين : العتق والمكاتبة . فأما العتق ، فهو التطوع من جانب السادة بتحرير من في يدهم من الأرقاء . وقد شجع الإسلام على ذلك تشجيعاً كبيراً . وكان الرسول الأعظم القدوة الأولى في ذلك إذ أعتق كل ما عنده من الأرقاء . كما أعلن أن كل من يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة فهو حر لوجه الله .

والقرآن الكريم نص في بعض آياته أن كفارة بعض الذنوب هي عتق الرقاب . وكما نعلم أن الذنوب لا تنقطع . قال تعالى : ﴿ **ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله** ﴾ [النساء : 92] .

فالقتيل الخطأ خسارة فرد في مجتمع وخسارة خاصة لأهله . فقد عوض الأهل بدية تسلم إليهم وعوض المجتمع بتحرير رقبة ، لأن تحرير الرقيق هو إحياء لنفس إنسانية يذكر لنا التاريخ أنّ عدداً كبيراً من الأرقاء قد حرر بطريق العتق وأنّ هذا العدد الضخم لا مثيل له في تاريخ الأمم الأخرى . زد على ذلك أن دوافع العتق كانت إنسانية بحتة ، تنبع من ضمائر الناس ابتغاء مرضاة الله .

أما المكاتبة . فهي منح الحرية للرقيق متى طلبها بنفسه . وفي هذه الحال يصبح العتق إجبارياً على السيد ، لا يستطيع تأجيله أو رفضه . قال تعالى : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها . . وفي الرقاب . . .** ﴾ [التوبة : 60] . فالزكاة تصرف من بيت المال ، الخزانة العامة في العرف الحديث ، لمعاونة المكاتبين من الأرقاء أداء ثمن التحرير إذا عجزوا بكسبهم الخاص عن أدائه ، ونخلص إلى القول أن الإسلام عمل في تحرير الرقيق من الداخل ومن الخارج بدأ بحسن المعاملة ليعيد التوازن إلى النفوس المنحرفة ، ويرد إليها اعتبارها فتشعر بكرامتها الإنسانية وكيانها الذاتي .

آخى الرسول (ص) بين بعض الموالي وبعض الأحرار ، وزوج بنت عمته زينب من مولاه زيدً ، ثم أرسله على رأس جيش فيه الانصار والمهاجرون من سادات العرب ؛ فلما قتل ولى ابنه أسامة قيادة الجيش وفيه من كبار الصحابة .

هذه النماذج التي وضعها الإسلام غايتها تحرير الرقيق من الداخل . التحرير الحقيقي ولم يكتف بالنية الطيبة كما فعل لنكولن باصدار تشريع لا رصيد له في داخل النفوس ، وكما ألغت الثورة الفرنسية الرق في أوروبا . وكل هذا كان إلغاء ظاهرياً . وإلا فأين هو الرق الذي ألغي ؟ فماذا نسمي اليوم ما يحدث في كل أنحاء العالم . وما اسم ما كانت تصنعه فرنسا في المغرب والجزائر ؟ وما تصنعه أمريكا في الزنوج ،

وانجلترا في جنوب أفريقيا ؟ .

أليس الرق في حقيقته هو تبعية قوم لقوم آخرين ، وحرمان طائفة من البشر من الحقوق المباحة للآخرين ؟ وما الفارق بين أن يكون هذا تحت عنوان الرق ، أو تحت عنوان الحرية والاخاء والمساواة ؟ ماذا تجدي العناوين البراقة التي تخبىء تحت شعاراتها أخبث ما عرفته البشرية من الحقائق عبر تاريخها الطويل .

لقد كان الإسلام صريحاً مع نفسه ومع الناس أجمعين فقال : هذا رق وسببه هو كذا ، وهذا هو الطريق إلى التحرير منه .

أما الحضارة المزيفة الحضارة الحديثة التي تصرف همها في تزييف الحقائق وطلاء اللافتات البراقة . ثم تقول ، كما في أمريكا ، : « ممنوع دخول السود والكلاب » هذا أقصى ما وصل إليه القرن العشرون من التحضر والتمدن والارتفاع الفارغ ! .

6 ـ الموالي :

للمالك أن يعتق عبده أو أمته ، فيرد له حريته التي سلبته إياها ظلامات الإنسان ، ولكن تبقى هناك صلة العاتق والمعتوق ، هذه الصلة تسمى « الولاء » . ويظل المعتوق ينسب إلى عاتقه . فيقول زيد بن حارثة مولى رسول الله ، لأنه أعتقه . وبشار بن برد كان مولى زوج أمه ، تزوجت أحد الأسياد بعد وفاة والد بشار ، زوجها الأول ، وأخذت معها بشاراً مع جهاز العرس ، مولى لزوجها الجديد .

وإن كانت المعتوقة أنثى فهي مولاته ، والجمع موال . والمعتوق ينسب دائماً لقبيلة العاتق فيقولون موالي بني ثقيف ، وموالي بني هاشم وموالي بني أمية . . . وهكذا يظهر أثر هذه الصلة فيما إذا مات العاتق من غير وارث ، يرثه المعتوق .

وهناك نوع آخر من الولاء لا يعود أصله إلى العتق وإنما سببه أن يسلم رجل على يد رجل آخر ويعاقد معه فيكون ولاءه له . وقد كانوا في بعض الأحيان يبيعون الولاء مع بقاء الرق . هكذا كان نظام الولاء من الوجهة القانونية ، أما من الوجهة التاريخية :

فيظهر أن الولاء لم يكن له هذا المعنى عند العرب في الجاهلية ، وإنما كان يطلق « موالي الرجل » على حلفائه وعلى ورثته من بني عمه وأخوته وسائر جماعته أو عصبته . قال المفسرون في تفسير قوله تعالى : **﴿ ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون ﴾** [النساء : 33] .

قال : الموالي ، العصبة ، هم كانوا في الجاهلية الموالي ، فلما دخلت العجم على

العرب لم يجدوا لهم اسماً . فقال تبارك وتعالى : ﴿ فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ﴾ [الاحزاب : 5] .

يظهر من القول إن اطلاق الموالي على هؤلاء الأعاجم معنى مستحدث في الإسلام ، وقد استعمل في عهد النبي (ص) بهذا المعنى . ووردت أحاديث كثيرة بهذا المعنى مثل : « الولاء لحمة كلحمة النسب » ، و « نهى رسول الله عن بيع الولاء » . . إلخ .

ولما كثر الرق وكثر العتق كثر معنى الموالي بمعنى المعتقين . وقد تأثر الموالي كأسيادهم بالعصبية القبلية والعربية ، كان موالي كل قبيلة ينتسبون إليها ، ويحاربون معها ، ويعملون كل ما من شأنه خدمة شؤون القبيلة .

ومع حرص الإسلام على إقامة العدل الإلّهي والمساواة بين جميع الناس من كل عرق ولون ، فقد وجدنا أكثر العرب ، وخاصة في الدولة الأموية ينظرون إلى الموالي نظرة استخفاف وازدراء ، مما أدى إلى كراهية الموالي للأمويين وخلق ما اطلق عليه اسم « الشعوبية » .

جاء في العقد الفريد لابن عبد ربه : « إن معاوية قال : رأيت هذه الحمراء (يعني الموالي من الروم والفرس) قد كثرت . . وكأني انظر إلى وحدة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت أن أقتل شطراً ، وأدع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق . . » .

هذه العصبية الأموية وصفها الجاحظ ، أمام العقل فقال : الدولة الأموية دولة عربية أعرابية . ذلك أن سياستها المتبعة من حكامها ، إبعاد كل من هو غير عربي عن إدارة الدولة لعدم ثقتها به .

هذه الظاهرة ، من رق وولاء ، كان لها أكبر الأثر في الحياة العقلية والاجتماعية عند العرب . وبصورة خاصة عندما توسعت البلاد المفتوحة وكثرت السبايا مع الغنائم ، فكانت توزع على الجيش العربي قواداً وجنوداً ، لكل جندي تقريباً عبيد وإماء يستخدمهم في حوائجه ، ويستولد الاماء إن شاء . فنتج من هذا أن دخل في البيت العربي عناصر مختلفة العرق والدم ، من فرس وروم وبربر ، فتغيرت حالته ولم يعد عربياً خالصاً . فرب البيت عربي أما الخدم ، من النساء ، فكن يشتركن في إدارة البيت وتربية الأطفال . أضف إلى ذلك انهن كن يتزوجن من العرب فيلدن أولاداً من عرقين ودمين : الدم العربي من جهة الأب ، والدم الأجنبي من جهة الأم . ثم أخذ هذا العدد يزيد مع زيادة الفتوح وتوسعها حتى طغت موجة السبي والأسر . والنساء كما وصفهن

الرسول (ص) : « النساء حبائل الشيطان »[9] فهن أقوى ما يصيد به الشيطان الرجال ، كالحبائل المبثوثة ، والاشراك المنصوبة .

ذكر الزمخشري في كتابه « ربيع الأبرار » : « إن الصحابة رضي الله عنهم لما أتوا المدينة بسبي فارس في خلافة عمر بن الخطاب كان فيهم ثلاث بنات لملك الفرس « يزجرد » فباعوا السبايا ، وأمر عمر ببيع بنات يزجرد أيضاً ، فقال علي بن أبي طالب : أن بنات الملوك يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة ، فقال : كيف الطريق إلى العمل معهن ؟ قال : يقومن ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن . فقومنا . فأخذهن علي بن أبي طالب ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لولده الحسين ، وأخرى لمحمد بن أبي بكر الصديق ، فأولد عبد الله ولده سالماً ، وأولد الحسين زين العابدين ، وأولد محمد ولده القاسم ، وهؤلاء الثلاثة بنو خالة وامهاتهم بنات يزجرد وهن من خيرة بنات الفرس .

بعض هؤلاء الارقاء والموالي انتخبوا في الجيل الثاني لعهد الفتح ، ومنهم من يعد من سيادات التابعين وحملة لواء العلم في الإسلام .

7 ـ أهل الردة :

إرتد فريق من العرب عن الإسلام أيام الرسول (ص) ، وآخرون بعد وفاته . فأما الذين ارتدوا في حياته ، فقد حاربهم ، ومن بقي منهم هزم وأسر ، وأصبح رقيقاً ، وأما الذين ارتدوا أيام أبي بكر فأولئك الذين منعوا الزكاة ، وقد حاربهم الصحابة فقتل منهم من قتل وأسر منهم من أسر . ويبدو أن فريقاً منهم تابوا قبل أن يصيبهم الأسر والرق فنجوا . غير أن أبا بكر ظل حذراً منهم ، يحسب لهم حساباً خوفاً من ردة الفعل ، لذلك منعهم من الاشتراك في القتال ، لأنهم قد يكونون (طابوراً خامساً) ويفسدون على الجيوش الإسلامية أمرها . ففي عهد أبي بكر شهدت السياسة الإسلامية لوناً من الحذر في اندماج المرتدين في المجتمع الإسلامي . جاء في تاريخ الطبري :

« إن أبا بكر كان لا يستعين في حربه بأحد من أهل الردة حتى مات »[10] .

وقد كتب إلى عمال الردة : « أما بعد ، فاني أحب من أدخلتم في أموركم إلي من لم يرتد ومن كان ممن لم يرتد . فاجمعوا على ذلك ، فاتخذوا منها صنائع ، وأذنوا لمن سار

(9) المجازات النبوية ص 202 .

(10) الطبري ج 3 ص 347 .

في الانصراف ، ولا تستعينوا بمرتد في جهاد عدو »[11] .

وفي عهد عمر فكر في تغيير وصفهم ، تغييراً فيه كثير من الاناة لأنه رأى أن حدَّة الأمور قد انكسرت ، ولم يعد هناك من داع في أن يبقى هؤلاء فرقة متربصة ، هي من المسلمين وليست منهم . وزد على ذلك إن أمر المسلمين قد قوي ولم يعد للارتداد من شأن يذكر . فأذن لأهل الردة أن يشاركوا في الحروب ، ورضي لهم أن يلوا بعض المراتب في الجيش ، ولكنه لا يطمعهم في كثير . .

وفي عهد عثمان وجدنا المرتدين يقفزون قفزة واسعة انتهت بهم إلى الاندماج في المجتمع الإسلامي ، وتنسدل أطراف من النسيان طويلة الذيل على قصة الردة ، ويتعاون على ذلك عناصر ثلاثة ، من فعل الزمن ، وصلاح المرتدين ، وحلم عثمان .

ثم تكون الفتن في عهده من القسوة والشدة بحيث تنسى معها الفتن السابقات ، ويُسقط عثمان عن هذه الطبقة آخر آثار العقوبات التي فرضها أبو بكر وكسر حدتها عمر « فيأذن باستعمال المرتدين استصلاحاً لهم »[12] .

والملاحظ أن المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول (ص) أوشك أن ينشعب في طبقتين : طبقة المسلمين المؤمنين بعقيدتهم الذين ثبتوا على الإسلام وناصروه ، وطبقة الذين شابت حياتهم قصة الارتداد . وقد كان لذلك آثاره الواضحة في استعمال هذه الطبقة المرتدة أو في الاستعانة بها ، وفي اندماجها في المجتمع الإسلامي .

غير أن هذه الطبقة لم يعد لها من وجود وقد زالت كلياً ، ولذلك لم يحتفظ المجتمع الإسلامي بهذا التمييز بين طبقة المؤمنين وبين طبقة المرتدين . ولم نعهد في كتب الأدب والتاريخ والسير أن أحداً من الناس عُيِّر بأنه من أنسال المرتدين أو أنه حرم من أي منصب في الدولة لهذا السبب نفسه .

8 ـ غير المسلمين :

وهم أهل الذمة من اليهود والنصارى ثم العرب المشروكون .

كان اليهود والنصارى موجودين في جزيرة العرب ، وخارجها ولما امتد الإسلام إلى خارج الجزيرة ، بقي فريق من اليهود والنصارى على دينهم ، ورضوا بدفع الجزية وكان

---

(11) المرجع السابق ص 341 .

(12) المجتمعات الإسلامية لشكري فيصل ص 42 ـ 43 .

هؤلاء طبقة من طبقات المجتمع في الصدر الأول . وكل ما عليهم تجاه الدولة الجديدة دفع الجزية . وهي في الحقيقة لا تعدو ما نسميه اليوم (بذل الخدمة العسكرية) لأن القتال لم يكن مفروضاً على أهل الذمة ؛ وكذلك الزكاة فرضت على المسلمين دونهم . وقد تساووا في الواجبات مع المسلمين فعليهم الجزية وعلى المسلمين الزكاة . غير أن فريقاً من النصارى حارب مع المسلمين فسقطت بذلك عنه الجزية ، لأن الغرض منها قد انتفى ولم يعد هنالك ما يبرر بقاءها(13) .

والشريعة الإسلامية تعد أهل الذمة مواطنين تسأل عنهم ، وتقوم على نفقة العاجز منهم . وهذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل الحيرة جاء فيه : « وجعلت لهم ، ايما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته ، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ودار السلام . فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام ، فليس على المسلمين النفقة على عيالهم »(14) .

وقد كان يحق للذمي تولي الوظائف غير الدينية في الدولة ، ولكن لا يحق لهم الاشتراك في انتخاب الخليفة أو الإمام .

روى ابن الجوزي عن رجل اسمه (اشق) قال :« كنت عبداً نصرانياً لعمر ، فقال : أسلم حتى نستعين بك على بعض أمور المسلمين لأنه لا ينبغي لنا أن نستعين على أمورهم بمن ليس منهم ، فأبيت ، فقال : لا إكراه في الدين ، واعتقني » .

وقال رسول الله (ص) : « من آذى ذمياً فقد آذاني » وفي حديث آخر : « من آذى ذمياً فأنا خصيمه يوم القيامة »(15) .

الإسلام ونظام الطبقات

إذا استعرضنا تاريخ أوروبا في العصور الوسطى وجدنا المجتمع عندهم مقسماً إلى طبقات مميزة ، محددة المعالم يختلف بعضها عن بعض بمجرد النظر إليها .

---

(13) الطبري ج 4 ص 152 .

(14) راجع تاريخ العرب لجرجي زيدان . وعيل : اي اصبحت نفقته على بيت مال المسلمين .

(15) راجع تاريخ العرب لجرجي ج 4 ص 101 .

فرجال الدين : لهم ثيابهم الخاصة بهم ولهم السلطة النافذة في الحكم . فالبابا يريد أن يزعم أنه هو الذي يمنح السلطان للملوك والأباطرة ليحكموا الشعوب . كما كانت لهم أموال طائلة من الأوقاف، يقفها عليهم المتدينون ، ومن الاتاوات ، يفرضونها هم على الناس .

والأشراف : كانوا طبقة تتوارث الشرف أبا عن جد ، فابن الشريف يولد شريفاً دون أن يبذل أي جهد لتشريفه ، ويموت شريفاً بصرف النظر عن الأعمال التي يقوم بها إن كانت قريبة أو بعيدة عن هذا الشرف المزعوم ! .

وأما امتيازاتهم فكانت سلطاناً مطلقاً على الشعب في عهد الاقطاع . كانوا هم السلطة الوحيدة التي تشرع وتحكم وتنفذ . وكانت أهواؤهم هي القانون الذي ينفذ على الشعب المحروم . ولأنهم هم مصدر السلطة التشريعية فلا يمكن إلا أن يشرعوا القوانين التي تهدف إلى حمايتهم والاحتفاظ بامتيازاتهم . وهل يعيد التاريخ نفسه في عهد التنوير والتصنيع والذرة ؟ ! .

والطبقة الثالثة المهملة الشعب ذلك الهمل الذي عليه واجبات يلتزم بتقديمها ولا حقوق له ولا امتيازات . وكان يتوارث الذل والفقر والعبودية جيلاً بعد جيل ثم حدث تطورات جديدة في أوروبا فكانت الطبقة البرجوازية التي نازعت الاشراف امتيازاتهم ومكانتهم . وبقيادة هذه الطبقة ، وعلى اكتاف الشعب قامت الثورة الفرنسية التي ألغت - في الظاهر - نظام الطبقات وأعلنت المبادىء الثلاثة الحرية والإخاء والمساواة .

ولكن ما هذا الجديد الظاهري الذي لم يتناول التغيير العملي الواقعي . فالطبقة الرأسمالية مقام طبقة الأشراف القديمة ولكن من وراء الستار. فهي تملك المال والسلطان والحكم ، على الرغم من مظاهر الحرية التي تتمثل في الانتخابات الديمقراطية ، كما هي الحال اليوم في طريقة الوصول إلى البرلمانات ودواوين الحكومات ، حيث ينفذون ما يريدون تحت مختلف الشعارات والعنوانات ،

وليست الحال في انجلترا ، أم الديمقراطية ، بأفضل مما هي عليه في فرنسا . فحتى اليوم ما زال فيها نظام إقطاعي يقضي بأن يحرم جميع الأبناء والبنات من الميراث فيما عدا الابن الأكبر ، وذلك منعاً لتفتيت الثروة ، حتى تبقى ثروات الأسر المالكة قائمة لا تزول هذا هو نظام الطبقات المحدود الذي يمنع كل فرد من التحرك والصعود والعطاء مهما كان موهوباً إذا كان من الطبقة الثالثة .

ونختصر فنقول أن الطبقة التي تملك المال تملك وسائل التشريع بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . فهي مصدر السلطة وبيدها التشريع ، تشرع لحماية نفسها ولإبقاء الشعب محروماً من حقوقه خاضعاً لسلطانها .

إذا تأملنا ذلك أدركنا أنه لا يوجد نظام طبقات في الإسلام ، فليست هناك أفضليات تؤخذ بالميراث كما هي الحال في طبقة الأشراف في أوروبا ، وليس هناك سلطة حاكمة باهوائها ونزواتها هي تشرع القوانين وتنفذها .

وليس هناك قوانين تحتفظ بالثروة في يد قوم معينين يتوارثونها ولا تخرج من أيديهم لقد كره الإسلام ذلك كله ووضع قانوناً لتفتيت الثروة بصورة دائمة **﴿كيلا يكونَ دولة بين الأغنياء منكم﴾** . لقد جعل الإسلام نصيباً للمحرومين من غير أولي القربى يشبه ضريبة التركات في العصر الحديث : قال تعالى : **﴿ وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفا ﴾** [النساء : 8] .

ثم فصل الله جل وعلا الارث تفصيلاً دقيقاً واضحاً ولا شأن للحاكم إلا تنفيذ شرع الله[16] وما يعنينا اثباته : أنّ التشريع في الإسلام ليس ملكاً لطبقة معينة ، ولا يستطيع أحد أن يشرع على مزاجه . لأن الشريعة الإسلامية السماوية منزلة من عند الله ، أحكم الحاكمين ، تحكم الجميع بلا محاباة لأحد ، فلا فردية ولا طبقية ولا مال ولا سلطان أمام العدل الإلّهي ، كل الناس عباد الله ، سواسية كأسنان المشط ، وأقربهم إلى الله أنفعهم لعياله . وليس في وسع أحد أن يصنع لنفسه قانوناً يحمي به مصالحه على حساب الآخرين . فهل هناك بعد من موقع لنظام الطبقات في الإسلام .

ولعل أحد يقول أنه جاء في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق . . ﴾ [النحل : 71] .

وقوله أيضاً : **﴿ ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات ﴾** [الزخرف : 32] .

ما يفهم من مضمون هاتين الآيتين أن الناس متفاوتون في المراتب والأرزاق، وهذا أمر واقع احدثته الفطرة ، ففي كل بلاد العالم ، في روسيا التي تنادي بالاشتراكية وفي أوروبا العلمانية هل يتناول جميع الناس أجراً متساوياً ، أم أن بعضهم مفضل على بعض في الرزق . وهل كلهم رؤساء أم جميعهم مرؤوسون ؟ وهل كلهم ضباط أو جنود ؟ .

هذا أمر ترفضه الحياة الواقعية ولا تسير بموجبه المركبة الاجتماعية .

---

(16) راجع سورة النساء الآية 11و12 .

والآيتان لا تقولان إن التفضيل بسبب الرأسمالية أو بسبب الشيوعية أو بسبب الإسلام ولا تقولان إن آثاره تكون عادلة دائماً بمقياس الأرض أو ظالمة . لا شيء من ذلك كله . إنهما تقولان إن هذا هو الأمر الواقع في كل مكان على الأرض ، وكل ما عليها داخل بلا ريب في إرادة الله وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فهل يعتقد الشيوعيون أن نفوذ الله ، عز وجل ، محدود بالعالم الإسلامي ، كما كان بنو إسرائيل يتوهمون أن نفوذ الله محدود بمصر وفلسطين ، ولا نفوذ له سبحانه على بقية الأرض .

ما صرح به الإسلام في القرآن الكريم وجود طبقة الأرقاء ، وقد تحدثنا عنهم ما فيه الكفاية فقلنا إن الرق ليس أصلاً من أصول المجتمع الإسلامي ولكنه وجد بصورة عارضة اقتضته ظروف وملابسات معينة ، ثم سعى الإسلام دائماً إلى تحريره .

هذا هو الإسلام لا طبقات اجتماعية ولا مزايا تشريعية لطبقة أو لأخرى فالتشريع من الله ، والحكم لله ، والعمل الصالح في سبيل الله .

أما اختلاف الناس في الأرزاق والثروات ، فموضوع آخر لا يجوز أن يختلط بمسألة الطبقات ما دام ذلك لا يرتب للمالكين حقوقاً تشريعية أو قضائية ، وما دامت الشريعة تطبق على جميع الناس بلا تفضيل ولا تمييز .

وقد رأينا أن الملكية في الإسلام لا ترتب للملاك حقوقاً يستعبد بها الآخرين أو يستغلهم ، ذلك أن الحاكم لا يستمد نفوذه من تأييد طبقة الملاك ، وإنما من انتخاب الأمة له وقيامه بتنفيذ شريعة الله . وإلا (فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) . وإذا ما تأملنا ملياً في المجتمعات الكونية فهل نجد الثروة قد تساوت فيها بين جميع الأفراد ؟ حتى المجتمع الشيوعي الذي يقول ، مصيباً أو غير مصيب ، إنه ألغى نظام الطبقات وأبقى طبقة واحدة هي التي تملك وتحكم ، قوله هذا وهم ومغالاة وبعيد كل البعد عن الواقع الحياتي .

أما المجتمع الإسلامي فهو طبقة واحدة ، يتماسك أفراده برباط الأخوة ، والتفاضل بينهم يتم على أساس تقوى الله ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ .

والذي متّن رباط الأخوة بين المسلمين وجعل الفرد منهم يشعر بمحبة الآخرين له ، هو نظام الزكاة . الضمان الاجتماعي . شرعه الإسلام ليسد بها حاجة الطبقات المحرومة . وفي القرنين الأخيرين عملت الدول الأوروبية بهذا التشريع الإسلامي إذ قررت ضرائب على رؤوس الأموال سموها بضريبة الضمان الاجتماعي . وضرائب غيرها

على أصحاب المداخيل الكبيرة التي بلغت 90 ٪ من تلك الايرادات عند بعض الدول .
يتبين لنا أن الزكاة في الإسلام نظام اجتماعي غايته حفظ التوازن بين طبقات المجتمع إنَّه تشريع إلّهي عادل جاء رحمة من رب العالمين .

المرأة في الإسلام

يتساءل المفكرون الاجتماعيون في حديثهم عن المرأة ، بعد أن ظفرت بحقوق كثيرة ووثبت هذه الوثبة الاجتماعية العظمى ، أي الشرائع أهدى لها أكثر؟ واعتنى بها أكثر؟ .

ثم هل الإسلام حررها من العبودية وأعزها وصانها وكرمها أم نسيها وأهملها ؟ .

وقبل أن نشرع في بيان ما قدمه الإسلام للمرأة ، نلقي نظرة سريعة على منزلة المرأة عند الأمم القديمة ، قبل الإسلام ، وعند الأمم الحديثة بعد الإسلام لتتبين لنا الصورة واضحة للمكانة التي تبوأتها المرأة في الإسلام ، أما كانت أم زوجة أم بنتاً .

كانت المرأة عند الشعوب القديمة من سقط المتاع تباع وتشترى في الأسواق ، وقد سموها رجساً من عمل الشيطان ، وحرموا عليها كل شيء سوى تربية الأطفال وتدبير المنزل وكأنها في سجن أو إقامة جبرية .

جاء في شرائع الهند : « إن الوباء والموت والجحيم والسم والافاعي والنار خير من المرأة » واليهود لم تكن الشريعة عندهم أكثر رحمة من شرائع الهند . جاء في سفر الجامعة :

« درت أنا وقلبي لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلاً ولأعرف الشر أنّه جهالة والحماقة أنها جنون ، فوجدت أمرَّ من الموت التي هي شباك وقلبها أشراك ويداها قيود . . . » .

أما عند الرومان فحدث ولا حرج ، اجتمع في روما هيئة كبرى للبحث في شؤون المرأة فقرروا إثر الاجتماع أنها كائن لا نفس له ، وأنها رجس يجب أن لا تأكل اللحم ، وأن لا تضحك بل ولا أن تتكلم ، وعليها أن تمضي أوقاتها في الصلاة والعبادة والخدمة ، ولأجل أن يمنعوها الكلام جعلوا على فمها قفلاً من حديد ، فكانت تسير في الطرقات وتروح وتغدو في دارها وفي فمها قفل. هذا غير العقوبات البدنية التي كانت تتعرض لها باعتبارها أداة الاغواء يستخدمها الشيطان لافساد القلوب .

وفي فرنسا عقد اجتماع سنة 586 م في بعض ولاياتها دار فيه البحث عن المرأة : هل تعد إنساناً وفي ختام البحث قرر المجتمعون أن المرأة إنسان ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل .

أما في انكلترا فقد أصدر الملك هنري الثامن أمراً يحرم النساء من مطالعة الكتاب المقدس كما كن طبقاً للقانون الانجليزي العام حوالي سنة 1850 م غير معدودات من المواطنين ، ولم يكن لهن حقوق شخصية ، ولا حتى في الأموال التي يكسبنها بعرق الجبين[17] .

وأما عند العرب في عصر الجاهلية فلم تكن المرأة تتمتع بحقوقها الشخصية ولا باستقلالها بل كانت تعد عندهم أداة من أدوات الزينة التي يحرص عليها الرجل ويتمتع بها .

وقد كان الجاهلي يفضل الذكر على الأنثى ، لأنه ينظر إلى المرأة كعضو أشل لا يفيد في أمر القتال وفوق ذلك يلزمها حراسة خوفاً من السبي . لذلك حين تلد له زوجته أنثى يسود وجهه في المجتمع ويتوارى من الناس خجلاً وحياءً على ما حل في بيته من مصيبة نادحة لذلك كان يعمد بعض العرب إلى وأد البنات ، وهن أحياء ، ليخلصوا من عارهن في مجتمعهم الضيق .

« وهذا أبو حمزة الضبي هجر امرأته لأنها ولدت بنتاً ، وقد مر بخبائها يوماً يترقب حالها دون أن تراه فإذا بها ترقص ابنتها وتقول لها :

ما لابي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان الا نلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

ولما سمع أبو حمزة هذا الصوت حن قلبه وولج البيت وقبل رأس زوجته وبنتها »[18] .

تحرير الاسلام للمرأة :

وجاء الإسلام والعالم على ما وصفنا من امتهانه وتحقيره للمرأة ، فقام بتحريرها ورفع عنها الظلم والغبن ، وأعطاها مكانتها التي تستحق في المجتمع ، سيما وهي ركن أصيل في الأسرة ترضع النشء الحليب وتعلمه العلم والأخلاق والوطنية .

أعلن الإسلام للعالم كله أن المرأة أحد العنصرين اللذين تكاثر منهما الإنسان وجعل

---

(17) راجع روح الدين الإسلامي ص 287 .

(18) حضارة العرب في عصر الجاهلية للمؤلف ص 126 .

ذلك نعمة منه على خلقه . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء** ﴾[19] .

ولما كان بعض البشر يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة جاء الإسلام وأعطاها حقها الإنساني كما أعطى الرجل . قال تعالى : ﴿ **ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** ﴾ [النساء : 124] .

وقد ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في حق المبايعة ، فبايع النبي الرجالِ على السمع والطاعة والقيام بحدود الله كما بايع النساء . قال تعالى : ﴿ **يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم** ﴾ [الممتحنة : 12] .

وبينما نرى بعض الشعوب تنظر إلى المرأة نظرة احتقار وازدراء فلا تعتبرها أهلاً للاشتراك مع الرجل في أي نشاط اجتماعي . جاء الإسلام مصرحاً أنها والرجل على حد سواء . قال تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله** ﴾ [التوبة : 71] . تثبت هذه الآية ولاية المؤمنين والمؤمنات بعضهم لبعض ، والولاية تعني التعاون والتناصر لما فيه خيرهم ، كما تثبت أيضاً حق المرأة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الأعمال الصالحة وهذا برهان واضح في إعطائها حقها من النشاط الاجتماعي الذي كانت مبعدة عنه عند الشعوب الأخرى .

وقد عمل الإسلام على تحقيق الكيان البشري في الأرض للجنسين : ذكر وأنثى ، فأتاح لهما أهليه التملك والتصرف فيه بجميع الحالات من أجار أو رهن أو بيع أو شراء أو استغلال على حد سواء . قال تعالى : ﴿ . . . **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** ﴾ [النساء 32] .

وقال سبحانه : ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً** ﴾ [النساء : 7] .

بينما نرى شرائع أوروبا (المتحضرة) تحرم المرأة من حق الملكية والتصرف والانتفاع

---

(19) النساء الآية 1 ونفس واحدة : هي نفس آدم عليه السلام . خلق منها زوجها : خلق حواء من نفس آدم .

إلى عهد قريب ، وجعلت السبيل الوحيد إليها عن طريق الرجل وحده . أي أن المرأة الأوروبية ظلت أكثر من إثني عشر قرناً بعد الإسلام لا تملك ما أعطاها الإسلام من حقوق .

ولا يخفى أن الاستقلال الاقتصادي له أثره في تكوين المشاعر الإنسانية وتنمية الشعور بالذات . وهذا ما حرص عليه الإسلام دين الفطرة والإنسانية والمساواة .

ويبلغ من تقدير الإسلام لمقومات الكيان البشري ، في عصور كان يغشاها الجهل والظلام ، أنْ اعتبر العلم والتعلم ضرورة بشرية لازمة لكل فرد ولكل طائفة من الناس ، فقرر لجميع الخلق حق التعلم ، بل جعله فريضة على الرجل والمرأة ودعاها أن ترتفع بعقلها وتسمو بتفكيرها ، كما ترتفع وتسمو بروحها وجسدها عن مستوى الحيوان .

وبعد هذا التكريم والتقدير للمرأة أعطاها الإسلام حرية اختيار الزوج الذي تريده بينما كانت في الماضي صفقة تجارية بين شريكين في المعيشة ووسيلة من وسائل إرضاء الجسد والاستراحة من غوايته الشيطانية . .

والزواج في الإسلام هو الزواج الإنساني في وضعه الصحيح من وجهة الفرد ومن وجهة المجتمع . فهو سكن نفساني من وجهة الفرد ، وسبيل مودة ورحمة بين الرجال والنساء .

وهو واجب اجتماعي أيضاً من وجهة المجتمع للمحافظة على النوع الإنساني . قال تعالى : ﴿ **وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾[20] تخص هذه الآية الأولياء وتعم الجميع بأن يزوجوا العزاب من النساء والرجال وأن لا يكون الفقر داعياً للحيلولة دون تزويجهم لأن الله قد تكفل باغنائهم من فضله .
أما الفقير العاجز عن الانفاق فالله يأمره بالعفة عن الشهوة المحرمة ويعده بالغنى قال تعالى : ﴿ **وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله** ﴾[21] .

والزواج في الإسلام عهد أمين وميثاق غليظ بين الزوجين . قال تعالى : ﴿ **وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** ﴾ [النساء : 21] . وهو ميثاق الزواج ، عهد بين الرجل والمرأة يلتزم كل منهما بواجبه نحو الآخر . والميثاق الغليظ يعني الحفظ والمودة والرحمة ، لأن العلاقة

---

(20) النور الآية 32 وانكحوا : زوجوا . والايامى جمع أيم يطلق على الرجل والمرأة إذا لم يتزوا بكرين .
(21) النور الآية 33 والنكاح هنا : مؤونة الزواج .

بين الرجل والمرأة كما عرفها القرآن ، علاقة « سكن » تستريح فيها النفس وتتصل بها المودة والرحمة . قال تعالى : **﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾** [الروم : 21] .

وفي هذا المعنى ورد أيضاً في القرآن : **﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾** [البقرة : 187] .

لقد شبه كلاً من الزوجين باللباس لأن كل واحد منهما يستر الآخر في جسمه ومعايبه وحفظه من عاديات الأذى ، كما يحفظ عليه شرفه ، ويصون عرضه ويوفر له راحته .

ثم إن السكون الدائم الذي يثمره التناسب في الأخلاق ، واللباس الذي يستر الزوجين ويوفر لهما صون العرض والشرف والراحة كل ذلك وليد التربية الدينية الصحيحة الصالحة التي تهذب اخلاق المرأة وتحفظ عليها حياءها .

وقد نجد بعض الاعتراضات والانتقادات أثارتها نساء المؤتمرات ، وأثارها معهن كتاب « ومصلحون » وشباب ، يعلم الله كم يريدون بدعوتهم وجه الصلاح . فيقولون بأن الله فضل الرجال على النساء ، وجعل من حقهم وحدهم إدارة شؤون الدولة والتحكم بمقاليد الأمور ويستدلون على ذلك بآيات قرآنية ، ليتهم فقهوا معناها ، منها : **﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم ﴾** وقوله عز وجل في الإرث : **﴿ للذكر مثل حظ الانثيين ﴾** .

يحضرني مناقشة جرت حول المساواة بين الجنسين في كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب في فصل (المشكلة الجنسية) يقول : « . . . وتبعاً لهذا الاختلاف الحاسم في المهمة والأهداف اختلفت طبيعة الرجل والمرأة ، ليواجه كل منهما مطالبه الأساسية وقد زودته الحياة بكل التيسيرات الممكنة ، ومنحته التكييف الملائم لوظيفته .

لذلك لا أرى كيف تستساغ هذه الثرثرة الفارغة عن المساواة الآلية بين الجنسين ! إن المساواة في الإنسانية أمر طبيعي ومطلب معقول . فالمرأة والرجل هما شقا الإنسانية وشقا النفس الواحدة . أما المساواة في وظائف الحياة وطرائقها فكيف يمكن تنفيذها ؛ ولو أرادتها كل نساء الأرض وعقدت من أجلها المؤتمرات وأصدرت القرارات . هل في وسع هذه المؤتمرات وقراراتها الخطيرة أن تبدل طبائع الأشياء ، فتجعل الرجل يشارك المرأة في الحمل والولادة والإرضاع ؟ .

وهل يمكن أن تكون وظيفة بيولوجية من غير تكييف نفسي وجسدي خاص ؟ هل اختصاص أحد الجنسين بالحمل والرضاعة لا يستتبعه أن تكون مشاعر هذا الجنس وعواطفه وأفكاره مهيأة بطريقة خاصة لاستقبال هذا الحدث الضخم ، والتمشي مع مطالبه الدائمة ؟ .

إن الأمومة ، بكل ما تحويه من مشاعر نبيلة ، وأعمال رفيعة ، وصبر على الجهد المتواصل ودقة متناهية في الملاحظة والأداء . . هي التكييف النفسي والعصبي والفكري الذي يقابل التكييف الجسدي للحمل والإرضاع . كلاهما متمم للآخر متناسق معه .

وهذه الرقة الدقيقة في العاطفة ، والانفعال السريع في الوجدان ، والثورة القوية في المشاعر ، التي تجعل الجانب العاطفي ، لا الفكري ، هو النبع المستعد أبداً بالفيض ، المستجاش أبداً بأول لمسة ، كل ذلك من مستلزمات الأمومة ، لأن مطالب الطفولة لا تحتاج إلى التفكير ، الذي قد يبطىء أو يسرع ، وقد تستجيب أو لا يستجيب ، وإنما تحتاج إلى عاطفة مشبوبة لا تفكر ، بل تلبي الداعي بلا تراخ ولا إبطاء .

فهذا كله من الوضع الصحيح للمرأة حين تلبي وظيفتها الأصيلة وهدفها المرسوم .

والرجل من جانب آخر مكلف بصراع الحياة في الخارج ، سواء كان الصراع مجابهة الوحوش في الغابة ، أو قوى الطبيعة في السماء والأرض ، أو نظام الحكومة وقوانين الاقتصاد كل ذلك لاستخلاص القوت ، ولحماية نفسه وزوجه وأولاده من العدوان .

هذه الوظيفة لا تحتاج أن تكون العاطفة هي المنبع المستجاش ، وإنما يصلح لذلك الفكر فهو بطبيعته أقدر على التدبير وحساب المقدمات والنتائج قبل التنفيذ . وسواء كان صيد فريسة ، أو اختراع آلة ، أو وضع خطة اقتصادية ، أو سياسة حكم ، أو إشعال حرب ، أو تدبير سلم ، فكلها أمور تحتاج إلى إعمال الفكر ، ويفسدها تقلب العاطفة .
ولذلك فالرجل في وضعه الصحيح حين يؤدي هدفه الصحيح .

إن مزية الإسلام الرئيسة أنّه نظام واقعي ، يراعي الفطرة البشرية دائماً ولا يعاكسها أو يحيد بها عن طبيعتها ، وهو يدعو الناس إلى الارتفاع بأخلاقهم وتهذيب طبائعهم ، وهو يسير في قضية المساواة بين الرجل والمرأة على طريقته الواقعية المدركة لفطرة البشر ، فيسوي بينهما حيث تكون التسوية منطق الفطرة الصحيح ، ويفرق بينهما كذلك حيث تكون التفرقة منطق الفطرة الصحيح .

فالفطرة تقضي أن يكون الرجال قوامون على النساء ، لأن الضرورة تقضي أن يكون

هناك قيم توكل إليه . كإدارة البيت وتدبير شؤون العيال والانفاق عليهم وقد اهتدى الناس بالواقع المعاش إنه في كل شركة أو تنظيم لا بد من رئيس مسؤول وإلا تدهور أمن الشركة ودبت فيها الفوضى . فأي الفريقين أجدر أن تكون وظيفته القوامة الرجل أم المرأة ؟ فالرجل بطبيعته وقدرته على الصراع واحتمال أعصابه أصلح من المرأة في أمر القوامة على البيت . حتى إن النساء يحتقرن الرجل إذا سيرته إمرأة .

ثم إنّ هذا لا يعني أن يستبد الرجل بإدارة البيت ، فالرئاسة يقابلها تبعة ومسؤولية وهي لا تنفي المشاورة في بعض الأمور والمعاونة . إن توجيهات الإسلام تهدف إلى إيجاد هذه الروح داخل الأسرة ، روح التفاهم الكامل والتعاطف المستمر ، وإلى تغليب الحب والتفاهم على النزاع والشقاق . . قال تعالى : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف** ﴾ [النساء : 19] .

وقال رسول الله (ص) : « رفقاً بالقوارير »[22] . وقال أيضاً : « خيركم خيركم لأهله »[23] . فجعل ميزان الخير في الرجل طريقة معاملته لزوجته .

أما اعتبار شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد فليس دليلاً على أن المرأة تساوي نصف رجل . إنما هو اجراء عملي دقيق روعي فيه كل الضمانات في الشهادة ، سواء كانت الشهادة لصالح المتهم أو ضده . فالمرأة بطبيعتها العاطفية وشعورها اللطيف هي مظنة أن تتأثر بملابسات القضية ، فربما قد تضل عن الحقيقة ، فوجود امرأة أخرى ﴿ **أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى** ﴾ أضمن لصحة الشهادة . ومن النادر جداً حين تحضر امرأتان في قضية واحدة وأن تتفقا على تزييف واحد دون أن تكشف إحداهما خبايا الأخرى فتظهر عندها الحقيقة واضحة .

أما الإرث ومسألة تقسيمه . يقول الإسلام : ﴿ **وللذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ هو حق بلا ريب ولا شك لأن الرجل هو المكلف بالانفاق على المرأة ، ولا يتطلب منها أن تصرف شيئاً من مالها إلا على نفسها وزينتها . فأين الظلم الذي يزعمه دعاة المساواة المطلقة ؟ فتأمل معي مسألة حسابية : تأخذ المرأة ثلث الثروة الموروثة لتنفقها على نفسها ، ويأخذ الرجل ثلثي الثروة لينفقها على الزوجة وعلى الأولاد . فأيهما يصيب أكثر من الآخر ؟ ومهما كانت ثروتها الخاصة فلا يحق له أن يأخذ منها شيئاً إلا بالتراضي الكامل بينهما . ولها حق أن تشكوه إذا قصر أو امتنع عن الانفاق .

---

(22) المجازات النبوية والقوارير : النساء .

(23) رواه الترمذي .

هذا بالنسبة للمال الموروث ، أما بالنسبة للمال المكتسب فلا تفرقة فيه بين الرجل والمرأة . والخلاصة ، إن الإسلام قد حرر المرأة من الظلم والحيف واعترف لها بشخصيتها المستقلة وأعطاها حقوقاً لم تصل إلى بعضها حتى في الدول المتحضرة . إضافة إلى حقها في الانتخاب وحقها في التملك وحقها في اختيار الزوج الذي تريده .

ولا بد لنا في هذا المجال من ملاحظة الزمن الذي نادى فيه الإسلام بهذه الحرية ، والمقارنة مع ما كان عليه الناس في الجزيرة وفي خارجها من ظروف ضيقة وآفاق محدودة ، وقيود تنال من آدمية المرأة ووجودها وكرامتها وحقوقها وحريتها . وهذه الملاحظة جديرة بالتقدير في تاريخ الحضارة الإنسانية .

انصاف الإسلام للمرأة :

الإسلام بتعاليمه القدسية ، وارشاداته الحكيمة وأحكامه العادلة نشر راية الحرية خفاقة فوق رؤوس المسلمين ، وأعطى كل فرد حقه يتصرف به كيف يشاء من ذكر وأنثى على حد سواء ، فلا ظلم ولا فساد ، ولا استبداد ولا استعباد . لم يفرق بين الرجل والمرأة إلا بما فرضته الأوامر السماوية ، كل فرد ضمن نطاقه حسب مقتضيات الدين الحنيف . في هذا الجو الهادىء المريح استنشقت المرأة روح الحرية ولم تعد كما كانت في السابق ألعوبة للرجل ، وخادمة لأولاده ؛ لأن الإسلام جعلها مساوية للرجل ، ففرض عليها ما فرض عليه من صلاة ، وصيام ، وحج ، وزكاة ، وغير ذلك من واجبات دينية . قال سبحانه وتعالى : ﴿ **ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** ﴾ [النساء : 124] .

وقال سبحانه وتعالى أيضاً : ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب** ﴾ [آل عمران : 195] .

ومما لا ريب فيه أن الإسلام أنصف الإنسان من ذكر وأنثى فلم يبخس حق الرجل ، ولم يظلم المرأة ، بل جعل لها المرتبة التي تليق بها كإنسان كامل له حقوقه الكاملة .

الحياء والمرأة :

الحياء من الصفات الحميدة التي يجب أنْ تتصون بها كل فتاة مسلمة ليزيد أنوثتها مهابةً ووقارا . والحياء هو حالة من وقار ، أو كمال تنم عنه شخصية المرأة حيث تفرض بنظرتها

الاحترام على من يجالسها أو يخاطبها ، بعكس التي تنظر إليك ، نظرة المسترجلة وكأنها نطرد من ساحتها الأنوثة والحياء والكمال . ولقد أجاد الشاعر بقوله :

صوني جمالك بالحياء إذا تجنبت الحجابا[24]
أخشى عليك فإن في وادي الهوى أجماً وغابا

الحجاب والمرأة :

فرض الحجاب في الشريعة الإسلامية على المرأة المسلمة بأمر من الله تعالى، ليقيها الفتنة والاغراء ، وتصون نفسها من مكر الماكرين الذين لا يردعهم شرف ولا يمنعهم دين . وقد نص القرآن الكريم على حجاب المرأة بقوله جل وعلا : ﴿ **يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾[25] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهنّ أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾[26] .

ومعنى الآيتين إن الله تعالى أمر المرأة المسلمة بالتحجب ولبس الخمار لتستر ما أمر الله بستره عن نظر الرجال الأجانب وإن كانوا من أقاربها أو عشيرتها .

وغاية ذلك كله يعود لمصلحة المرأة الدنيوية فضلاً عن الحياة الأخروية لتعيش بكرامة وسعادة .

ولا ندري كيف غفل بعض المسلمين عن مثل هذه النصائح السماوية التي تجعلهم مثال الأدب والكمال ، ثم تناسوا أنفسهم كمسلمين مؤمنين ، أرادهم الله خير أمة أخرجت للناس ؟ وقد نجد في عصرنا اليوم كما في كل عصر ، أناساً فاسدين مضللين

---

(24) يشير الشاعر إلى اللواتي لم ينزجرن عن السفور ، بل خرجن متبرجات مسترجلات .

(25) الاحزاب الآية 59 والجلابيب جمع جلباب وهو ثوب واسع تلويه المرأة على رأسها وتبقى منه ما ترسله على صدرها . ويدنين عليهن جلابيبهن : يرخينها عليهن ويغطين به وجوههن وأعطافهن .

(26) النور الآية 31 والخمر جمع خمار وهو القناع واختمرت المرأة : لبست خمارها وغطت رأسها .

يزرعون بذور الفساد في النفوس البريئة فيقولون : إن الإسلام ، ضرب الحجاب على المرأة لتكون رهينة البيت ، لا تصلح إلا للخدمة ، إذ لا تتمكن بحسب وضعها وهي محجبة من الانسجام مع الاجيال المتطورة والحضارة الحديثة . وهذا افتراء بلا ريب ! .

فهل الحجاب يمنع المرأة من التطور ويؤخرها من التقدم في الركب الحضاري ؟ .

إن الإسلام منع الحجاب المادي ولم يمنع الحجاب الاجتماعي ، إنه دعامة الحضارة وقلبها النابض في كل معنى جميل من معانيها . والرسول الأعظم (ص) هو المؤسس للحضارة الإنسانية الصحيحة ومنميها وحامل لوائها .

وبعد هل بقي ما يشغل بال المرأة المسلمة ولم يضع لها الإسلام حلاً عادلاً ؟ وأي هدف بقي لها في الحياة لم يحققه لها ، لتسعى إلى تحقيقه عن طريق الانتخاب والتمثيل البرلماني ؟ .

هل تريد المساواة الإنسانية مع الرجل ، لقد أعطاها الإسلام هذه المساواة نظرياً وعملياً أمام القانون .

أم تريد التعليم ؟ وقد منحها الإسلام هذا الحق ، بل جعله فريضة عليها .

أم تريد الزواج من الرجل الذي تريد فأعطاها إذناً أن تخطب نفسها .

أم تريد الاستقلال الاقتصادي وحرية التعامل المباشر مع المجتمع ، والإسلام أول من أعطاها هذا الحق دون أن تطلب هي وتناضل وتكافح كما حصل في الدول الأوروبية والأمريكية .

أم تريد معاملة كريمة من الرجل ما دامت تقوم بدورها الأساسي في تربية الأسرة وواجبها الزوجي كما ينبغي .

أم أنها تريد الحرية المطلقة بلا قيود ولا حدود لتسقط في الحياة الرخيصة المبتذلة . تلك هي الحرية التي حرمها إياها الإسلام ، ولكنه كذلك حرم الرجل منها على قدم المساواة .

الإسلام ساوى بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات ، والثواب والعقاب ، والتفقه في الدين والعلم وفي جميع الميادين . لكنه خصص الرجل بمسؤوليات فردية تثقل كاهله كالانفاق على المرأة ورعايتها والدفاع عنها ، وترك لها إدارة شؤون البيت وتربية الأطفال وغير ذلك من ضرورات الحياة . وهذا لعمري جهاد لها يساوي جهاد الرجل في سبيل الله .

والإسلام ، كما لا يخفى على أحد ، رفع من مستوى المرأة ، ووهبها من القوة والنشاط ما هيأها لتسير نحو المثل العليا ، وتكون في طليعة المربيات الناجحات في الحياة ، مرتكزة في ذلك على دينها القويم وإيمانها العظيم من العلم والمعرفة ونظم الأمور .

وما من شك في أن المرأة هي عضو عامل وعنصر فاعل في المجتمع تعمل بعلمها وحلمها في تقدم الإنسان الأخلاقي ، وبناء الصرح الوطني إن هي أحسنت السير على الطريق المستقيم .

ومن الواجب في عصرنا الحاضر أن يتعاون الرجل والمرأة ، الركنان الأصيلان في بناء الأسرة ، من أجل تركيز الدعائم الأخلاقية الكريمة والتنشئة الوطنية الأصيلة فنعيد القول : أعطني أسرة سعيدة وخذ وطناً سعيداً .

يقول الأستاذ محمد عطية الأبرشي في كتابه (عظمة الرسول (ص)) : فالإسلام أعطى المرأة حقوقها وهي بنت أو زوجة أو أم ، ووضعها في المنزلة اللائقة بها ، ولا أبالغ إذا قلت أنّها لم تعط حقوقها كاملة إلا في الإسلام .

فإذا أردنا حياة سعيدة كريمة ، وإذا أردنا إصلاح الأخطاء في حياتنا علينا بالعودة إلى نظام الإسلام . علينا أن ندعو الجميع رجالاً ونساءً شباباً وشابات إلى حكم الإسلام وأن نؤمن إيماناً صادقاً بالعقيدة الإسلامية فنمنحها جهدنا وتفكيرنا ونعيشها بواقعيتها ، وحينئذٍ نؤمن ونعمل لتنفيذ ما نؤمن به بحكم الإسلام الرشيد القويم ، فيوضع عندها كل شيء في مكانه الصحيح بلا إفراط ولا تفريط .

الفصل العاشر

الحياة الأدبية في صدر الإسلام

الأدب الإسلامي

استمد أصوله من الإسلام وتأثر به في جميع نواحيه ، وظهر ذلك في الفاظه وأساليبه ، وفي أخيلته ومعانيه ، وفي صوره وثقافته ، استمد أفكاره وقيمه من الإسلام ونسج على منوال القرآن الكريم . وله هدف سام ورسالة عظيمة ، وعلى الأخص في عصرنا الحاضر لأنه يعمل على إيجاد يقظة إسلامية ووعي إسلامي وثقافة إسلامية ، ويقف في مواجهة الأفكار الغربية المدسوسة والغايات الاستعمارية الموجهة .

أثر الإسلام في اللغة العربية والأدب العربي :

للإسلام أثر كبير في وحدة اللغة العربية وانتشارها واتساع أغراضها . كما نلمس له تأثيراً واضحاً في حياة العرب الأدبية .

عند ظهور الإسلام كان للعرب لهجات مختلفة وقبائل مختلفة ونزعات متباينة . وكان لقريش المنزلة الأولى في الفصاحة والبلاغة ونفوذ روحي واقتصادي على جميع القبائل العربية ، لما كانت تتمتع به من ثقافة وخبرة وتجربة بتأثير الأسواق الأدبية ومواسم الحج . وقد نزل القرآن الكريم بلهجة قريش فأيدها وأصبح لها السيادة والغلبة . وكان من قريش والسلالات المضرية رجالات الدعوة ، وزعماء الدولة من أمراء وولاة وحكام وقضاة وعمال . وهذا ما أثر في انتحال العرب لهجة قريش بعد أن اندمجت فيها لهجة حمير وغيرها وأصبح لها السيادة والغلبة على جميع اللهجات الأخرى .

وقد أدت الفتوحات الإسلامية الواسعة إلى انتشار العرب في أنحاء البلاد المفتوحة وذيوع اللغة العربية في أكثر هذه الأقطار : في مصر وفلسطين وسوريا وشمالي أفريقيا وصارت لغة الدين والسياسة المجتمع في هذه البلدان وسواها .

ثم اتسعت أغراض اللغة وتنوعت باتساع الإسلام ، فـأخذت اللغـة تستعمل في : تبيين العقائد الدينية التي جاء بها الإسلام وتوضيح المسـائل الشرعيـة واستنباط الأحكـام المـلائمة لأحـوال الزمـان والمكان ، واستعـمالها في ضبط أمـور الحكم ونـظام العمـران ؛ ومبادىء العلوم وترجمة العلوم الطبيعية والريـاضية وغـيرها من العلوم المسـاعدة في النمو الحضاري والثقافي بصورة عامة .

ولا ريب أن كلما اتسعت آفاق الأمة اتسعت معهـا مداركهـا وارتقت لغتها وتنـوعت معانيها بتنـوع أغراضهـا ، ولانت وصقلت بليون طبـاع أهلها وسمـو غايـاتهم . فكنت تلمس دقة المعاني وعمقها وحسن تركيبها لأنها صارت تنبع من معين ثقافة القرآن الكريم والحـديث الشريف ، ومن أصول العلم والمعـرفة التي حضّ عليهـا الإسلام كـما تغـيرت الألفاظ وتهذبت وتوسعت ، ونشأت ألفاظ إسلامية متحضة ، ودخلت ألفـاظ أعجمية ؛ وكان التأنق في صياغة الأساليب والتفنن في إحكامها ونظمها ووصولهـا إلى غايـة بعيدة في البلاغة .

كـل ذلـك بسبب انبعـاث روح القـرآن في قلوب المتكلمـين ، وسلوكهم سبيله في البيان ، وحسن الاداء ، مؤثرين الإيجاز على الإطناب . من هنا كان :

أثر القرآن على الحياة الأدبية :

بـزغ فجـر الإسـلام عـلى العـرب بنـور جـديـد تفتحت عليـه قلوبهم وتيقـظت لـه بصائرهم ، فلم يجدوا بداً من الانجذاب نحوه ، مؤمنين مذعنين مسلمين ، أو معارضين جاحدين منكرين . فعكفوا عليه يدرسونه ويتأملونه بعمق وتأمل ؛ فكـان لهذا كله الأثـر البالغ في يقظة أدبهم واختيار ألفاظهم ، وتهذيب أخلاقهم وتقويم سلوكهم .

ولم يبق هنـاك من مجال للشـك في أن البلاغـة في التعبير ، والأنـاقـة في التصـويـر ، والبلاغة في الخطاب والسمو في الخيال ، والغيرة على الحق والحب والكره في سبيـل الله ، قد اتخذ كل هذا اتجاهاً سديداً وارتدى لباساً جديـداً . ولذلـك قال المؤرخـون : « إن ما جاء به محمد (ص) لا يتطاول إلى بيانه بيان ، ولا يستطيع أن ينطق بمثله لسـان أو يجري في مضـماره إنسان ، اللهم إلا أن يسـير عى ضوئـه ، ويهتدي بنـوره ، ويقتبس من نوره ويهتدي به ويعود من جديد تلميذاً له ، يأخذ من فضله وينتفع بأدبه ويسترشد بنصحه . وقـالوا أيضـاً : « إن كثيراً من الشعـر غاض مـاؤه ، وانتكس لواؤه ، وحـار بيانـه وتعـثر لسانه ، وذهل لبه وخانه قلبه وأجبلت قريحتـه ، وأظلمت بديهتـه ، فاقصر عن الشعـر ،

لأنه رأى في بيانه عيًا ، وفي نطقه خرساً ، وفي فصاحته فهاهة ، وفي أدبه قحة »[1] .

وفي الواقع جف ماء الشعر وتعثر دولابه عن الدوران ، لأن صوت القرآن قد غطى على بلاغة الشعراء ، وفصاحة الخطباء ، وصار الذي يخطب في المجالس والمجامع لا يقول إلا بميزان ولا ينطق إلا بحذر . وهذا لا يعني أن مصراع الزمن قد أغلق دون الشعر والنثر ، وأن ألسنة الشعراء وأقلام الكتاب قد توقفت عن القول ، ولكن ما نريد بيانه أن أساليب البيان العربي أخذت طريقاً جديداً ولوناً أجمل وبياناً أكمل ، وهجرت الألفاظ النابية ، والمعاني الهزيلة ، وأصبح أسمى ما يهدف إليه كاتب أو خطيب الحث على فضيلة ، أو الدعوة إلى مكرمة ، أو التفاني في واجب نبيل أو السعي وراء غرض شريف . وكان حملة لواء البيان هم أنفسهم جنود الدعوة الإسلامية ، أمثال كعب بن مالك وحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ، وقفوا جميعهم باحساسهم الصادق ووجدانهم النقي إلى جانب رسول الله (ص) يدافعون عنه ، ويؤيدون الدين الجديد بالمعاني الفياضة والعاطفة العميقة والقول السديد والبيان الرائع .

يبدو لكل مطالع وباحث أن الأدب المأثور عن عصر صدر الإسلام يمثل بوضوح مدى تأثر المسلمين بأدب القرآن الكريم وسحره وأدب الحديث النبوي وبلاغته .

ولقد أصبح الأدب العربي بعد ظهور الإسلام مغايراً في قليل أو كثير الأدب الجاهلي ، إن من حيث الاتجاه والأسلوب أم من حيث الشعور والمضمون . من هنا كان الصراع بين الوثنية الجاهلية والعقيدة الإسلامية . ولم يمض ربع قرن حتى دخل الناس في الدين الجديد أفواجاً أفواجاً فاتخذوا العقيدة الإسلامية عقيدتهم ، والتشريع الإسلامي قانوناً ونظاماً يسيرون عليه في نظم أمورهم . وهذا ما جعل الأدب العربي بظهور الإسلام يتطور تطوراً كبيراً في أغراضه ومعانيه وأسلوبه ومراميه .

القرآن

وهكذا غير الإسلام في مجرى حياة العرب الأدبية تغييراً كلياً ، وسبب التغيير : القرآن الكريم والدين الجديد والاتجاه الجديد في جميع نواحي حياة العرب الدينية والعقلية والاجتماعية والسياسية والأدبية . فالقرآن ، ذلك الدستور الإنساني والكلام الإلهي المنزل وحياً على رسول الله النبي الأمي هو الذي حوّل خشونة الطباع عذوبة

---

(1) الحياة الادبية في عصر صدر الإسلام ص 42 .

وليونة ، وبدل حوشية الكلام بلاغة وسهولة فأورث العرب بعدا في التفكير ، وقوة في التعبير ، وجديداً في التصوير ، وقوة في الأسلوب واللسان والحجة والبرهان .

وما يبدو أن هذا التغيير لم يحدث فجأة وفي زمن يسير وإنما اختمر في العقول وبقي يتلجلج في الصدور حتى آن أوانه فظهر شيئاً فشيئاً بعد أن قضى العرب وقتاً مستمسكين بأدبهم القديم ، لا يكادون يعدلون عنه . ثم بدأ عصر الانتقال والتغيير حين تلي عليهم القرآن فاعجبوا بسحر بيانه وجديد أسلوبه وقوة بلاغته . فتحداهم ليأتوا بسورة مثله فوقفوا عنه عاجزين ، وخروا أمامه ساجدين مقرين بعظمة بيانه ومذعنين بأسلوبه ومعانيه . قال الوليد بن المغيرة أحد خصوم النبي (ص) المعروفين ، وقد سمعه يتلو بعض الآيات : « والله لقد سمعت من محمد كلاماً ، ما هو من كلام الإنس والجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق »[2] .

لقد انقطعت آمال العرب في محاكاته ، أو الاتيان بشيء على مثاله مع انفتهم واستكمال عدتهم وكثرة خطبائهم وسمو البلاغة فيهم ، وتمكن العداوة في قلوبهم .

قال تبارك وتعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ [البقرة الآية : 23] .

أما أثر القرآن في الأدب العربي الإسلامي فقد تجلى في الألفاظ والأساليب والمعاني والصور الأدبية الجميلة .

- الأثر الأول الجليل للقرآن الكريم ، توحيده للهجات العربية المختلفة في أفصح وأعذب لهجة وهي لهجة قريش ، ثم حفظه اللغة من الانقراض أو الدس والتشويه .

- كما عمل القرآن على ذيوع اللغة العربية وانتشارها في شتى البلاد التي فتحها المسلمون .

- هذب القرآن الكثير من الألفاظ الحوشية واستبدلها بألفاظ سائغة عذبة ، كما عدل عن الأساليب القديمة المعقدة بأساليب سهلة ممتنعة . من هذه الأساليب سجع الكهان .

- جدد الكثير من الألفاظ فنقلها إلى معان إسلامية جديدة أوجدها طابع الدعوة الجديدة مثل الإيمان والصلاة والصوم والزكاة والحج والركوع والسجود والوضوء والغسل والكفر والنفاق والجزية . كل هذه الألفاظ بعضها جديد وبعضها غيّر الإسلام مدلولها .

(2) راجع تفسير الزمخشري في سورة المدثر ، ومغدق : كثير المياه .

ـ أوجد القرآن أجمل صور البيان وأروع الأساليب البديعة التي استخرجها علماء اللغة وبعض الأدباء وسموها المحسنات البديعية .

أما عن أثره في المعاني والأغراض فنوجزه بما يلي :

ـ السمو في المعاني الأدبية شعراً كانت أم نثراً ، والعمق في دلالاتها والترتيب في أفكارها .

ـ الابتعاد عن المعاني البدوية النابية واستعمال المعاني الإسلامية الجديدة .

ـ هجر الأدباء والشعراء المسلمون الأغراض الجاهلية : كالمبالغة في المديح والهجاء والفخر والغزل والمجون ، والدعوة إلى العصبية القبلية والأخذ بالثأر وغيرها من العادات والتقاليد الجاهلية .

ـ أتى القرآن بكثير من القصص التي ضربها عبرة وذكرى للبشر كقصص الأنبياء والملوك فأحيا بذلك فنوناً أدبية جديدة ، كأدب القصة ، والتاريخ ، وأدب الحكمة ، وأدب الزهد ، وأدب الكتابة ، وأدب الخطابة . . .

ـ وبسبب بلاغة القرآن عكف علماء اللغة والعلماء والفقهاء على وضع الأصول العلمية والثقافة الإسلامية ، فكثرت الكتابة في هذه العلوم ، وما زالت حتى اليوم واشتد حرص المسلمين على تفهم القرآن لمعرفة ألفاظه ، وتفسير معانيه الواقعية والمجازية ، ونشط الرواة الموثوق بدينهم وعلمهم يجمعون اللغة والأمثال والوصايا والخطب والدواوين ، فتألفت بذلك مادة الأدب القديم التي صارت فيها بعد أساساً للآداب العربية في شتى موضوعاتها ومختلف أساليبها وتصوراتها .

ـ تأثر الشعراء والخطباء والكتاب من آيات القرآن وطرائقه في التعبير ، ومناهجه في صياغة الحجج وسوق الآراء ، مما جعلهم يحتذون حذوه ويرصعون كلامهم ببعض تعابيره البليغة ، وصوره الجميلة ، وحكمه الخالدة ، وتعابيره الجديدة نعطي مثلاً من هذا الأسلوب البياني الرائع ما جاء في قول شاعر النبي (ص) ، حسان بن ثابت . في الرد على أبي سفيان . قال :

اتهجوه ولست له بكفء   فشركما لخيركما الفداء

وقوله أيضاً :

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى   حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

فقد اقتبس هذا الأسلوب البارع من قوله تعالى : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم**

عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ [التوبة : 128] .

وهذا معن بن أوس يقول متأثراً بأدب القرآن :

فما زلت في ليني له وتعطفي ... عليه كما تحنو على الولد الأم
وخفض له مني الجناح تألفاً ... لتدنيه مني القرابة والرحم

هذا القول الشعر يترجم معنى الآية الكريمة التي توصي بالوالدين براً واحساناً : ﴿ . . . فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ [الاسراء : 23 ـ 24] .

ونرى الحطيئة وهو أقرب إلى جفاء البدو منه إلى لين الحضر ، قد تأثر بمعاني القرآن فقال :

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقيّ هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً ... وعند الله للأتقى مزيد

متأثراً بالآية الكريمة التي تقول : ﴿ . . . إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [الحجرات : 13] . وبذلك نرى أن القرآن الكريم كان مقصد الشعراء والأدباء وعلماء البلاغة وفحول البيان ، وكل النابغين قد تخرجوا عليه .

والقرآن الكريم كما أتى بكل جديد من ناحيتيه الروحية والفكرية في نطاق الكشف والتقدم والحضارة ، أتى أيضاً بقيم أدبية رائعة كانت وستظل جديدة على مر العصور والأحقاب . الصورة الأدبية في القرآن تحدد للأدب شتى عناصره ومختلف وظائفه وبيان أصوله وخطواته . وجدتها تعتمد على نقطتين هامتين :

أ ـ **طريقة الأداء** : وهو ما نطلق عليه اسم الجنس الأدبي .

ب ـ **المضمون أو الفكرة** : هكذا جاءت الصورة الأدبية في القرآن الكريم ، تنسيق جميل ، وتناغم رائع وتوافق دقيق بين الشكل والمضمون . وهذا ما أعطاها السمو والارتقاء في رحاب الفن الأصيل المتألق والمتجدد على مر العصور والأجيال .

كانت القصيدة الغنائية وحدها أرفع صور الأدب في مجتمع الجاهليين ، ومع ذلك فإنها لا تزن شيئاً في مقام الحديث عن الصورة الأدبية في القرآن الكريم . فما هو الجديد فيها ؟ وماذا أتت بجديد لم يعرفه الجاهليون من فنونها وألوانها وطرق أدائها ؟ .

ونجد أنفسنا أمـام أشياء جـديدة كـل الجدة ، ليست عـلى النمط المألـوف من كلام العرب من شعر أو خطابة أو وصية أو منافرة أو مفاخرة أو حكمة أو مثل .

قال تعالى : ﴿ **طه ، ما انزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى ، تنـزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى** ﴾ [طه الآيات : 1ـ 2ـ 3ـ 4] .

﴿ **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مُكْثٍ ونزلناه تنزيلا** ﴾ [الاسراء : 106] .
﴿ **تبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾ [الفرقان : 1] .

﴿ **آلر تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . . . إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجـدين** ﴾ [يوسف : 1 ـ 2 ـ 3] .

إذا تأملنا ملياً وجدنا القصة في أروع أشكـالها وامتـع ظلالهـا فيها الخيـال الرفيـع في ألوان بديعة من التمثيل والتشبيـه والاستعارة والمجـاز والكتابـة . ونجد الـوعد والـوعيد والتبشير والإنذار وأرفع الأوصاف وأجمل الصور . كلمه يضيء كما يضيء الفجـر كالـروح في البدن جاء القـرآن على مـذهب فريـد من نوعـه ، خارج عـلى المعهود من نـظام كلام العرب ومباين للمألوف من مناهجهم .

لقد صور الحيـاة الإنسانيـة في ماضيهـا وحاضرهـا ومستقبلها ، والنفس البشريـة في سلمها وحربها ولهوها وجدها ، وإيمانها وكفرها ، والمثـل العليا النبيلة الكـريمة التي يسعى إليها إنسان الإسلام المسلح بالمعرفة والإيمان .

وفي القرآن الحكمة السامية والحجة الدامغـة ، والروحـانية الصـافية وكـل ما يـوقظ الضمائر ويحرك الألباب ويثير النفوس .وفيـه الأمثال الواقعيـة والبراهـين العقلية ، وحسن المقابلة ، وروعة الطباق ، وبـديع الجنـاس وجمال التقسيم . والسـور القرآنيـة طويلة أو قصيرة تجيء ممثلة لفكرة تسـير معها خـطوة خطوة ، وتمشي مـع الغرض القـرآني في وحدة واتساق وكأنها موكب مصور لادق خفايا وحنايا الشعور .

الغرض القرآني في وحدة واتساق وكأنها موكب مصور لأدق خفايا وحنايا الشعور .
والصورة القرآنية تتناول الموضوع الذي تعرف به التجربة الأدبية بأداء فني جميل فيـه الإيقاع الموسيقي والظلال الغني والمعنى المؤدي إلى أكمل وجه .

ومن دلائل بلاغة الكلام أن يراعى فيه مقامات الكلام وأصول بلاغته ، فيأتي التقديم والتأخير والذكر والحذف ، والوصل والفصل ، والايجاز والاطناب ، والجزالة والرقة كل في موضعه . ومن البديهي أن أبلغ الكلام هو الذي يصور بأسلوب دقيق المراحل المختلفة لانفعال المتكلم واحساسه بالتجربة الشعورية التي يصورها ، فيخرجها متناسقة متناغمة تعشق الفاظها ومعانيها ويعلن جرس حروفها عن أبعاد معانيها . والصورة الأدبية بهذا المعنى جاءت على ابلغ ما يكون الاداء في القرآن المعجزة الأدبية .

ولو حاولنا المقارنة بين أساليب القرآن وأساليب العرب لجاء البون شاسعاً ، لما في البلاغة القرآنية من عناصر جديدة كل الجدة ، تحمل في جوانبها العناصر القديمة التي تداول استعمالها عند القدماء أو العناصر التي كشف عنها النقاد المحدثون . وحسبك أن الأسلوب القرآني نمط فريد من البلاغة والروعة وسمو الروح واشراق البيان وعبقرية التصوير والتعبير . إذ لما سمعه ارباب البيان وفصحاء العرب خروا له خاشعين في سحر بيانه من تأثير مباشر على النفوس .

وما تردد بلغاء العرب على الاماكن التي كان يتعبد فيها محمد ليلاً يسمعوا هذه البلاغة الخفية ، وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله : « والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر » حيث سمع سورة « فصلت » وما ايمان عمر حين سمع سورة « طه» وما قول الوليد بن المغيرة « والله لقد سمعت من محمد كلاماً ،.ما هو من كلام الأنس والجن » ، إلا دليل السحر القرآني الذي وصفه العرب متعجبين : إن هو إلا سحر مبين ، إن هذا إلا سحر يؤثر . . .

وماذا نقول أمام الذكر المبين والقرآن الحكيم ، امام الجلال والعظمة والايجاز والاعجاز ، ودقة التعبير وروعة التصوير التي لا تقف عند حد معين ، إن القرآن آية البيان ومعجزة الزمان ، ووحي السماء وحكمة الانبياء ، ومهما قلت فلن ابلغ بكلامي بعض ما اريد بلوغه . على حد ما عبر المتنبي في بعض شعره فقال :

أريد من زمني أن يبلغني ... ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

فيا كتاب الله ، يا وحياً نزل على محمد بن عبد الله ليبلغه إلى عباد الله ، فإني لأعجز عن أن احيط بما احتويت عليه من اسرار البيان ودقائق الفرقان .

الحديث

الحديث لغة يعني الجديد من الأشياء والجمع أحاديث وهو شاذ على غير قياس[3]

(3) انظر لسان العرب في مادة حديث .

والحديث اصطلاحاً . اسم من التحديث وهو الاخبار . ومعنى الاخبار في وصف الحديث كان معروفاً عند العرب في الجاهلية منذ كانوا يطلقون على « أيامهم المشهورة » اسم الأحاديث . ومن هنا شاع على الألسنة صار « أحدوثة » أو صار حديثاً إذا ضرب به المثل[4] . والحديث والأحدوثة مترادفان .

قال الشاعر :

ولا تصبحوا أحدوثة مثل قائل ... به يضرب الأمثال من يتمثل[5]

وكيفما تقلب مادة الحديث تجد معنى الاخبار واضحاً فيها . حتى في قوله تعالى : ﴿ **فليأتوا بحديث مثله** ﴾ [الطور الآية : 34] .

أ ـ وعلم الحديث الخاص بالرواية هو علم يشتمل على أقوال النبي (ص) وأفعاله وروايتها وضبطها وتحرير ألفاظها ، ولكل ما أضيف من ذلك إلى الصحابة والتابعين .

ب ـ وعلم الحديث الخاص بالدراية « علم يعرف منه حقيقة الرواية وشروحها وأنواعها ، وأحكامها ، وحال الرواة ، وشروطهم ، وأصناف الروايات وما يتعلق بها »[6] .

نشأة الحديث :

الحديث النبوي هو الأصل الثاني للإسلام بعد القرآن ، وترجع أهميته إلى أنه متمم في بيان احكام الشريعة الإسلامية . وقد اهتم المسلمون اهتماماً بالغاً بالحديث ، وعلى رأسهم الصحابة . فقد كان بعضهم يقيم عند الرسول (ص) ليتعلم أحكام الإسلام وعباداته ، ثم يعود إلى أهله وقومه يعلمهم ويفقههم مما تلقاه مباشرة من الرسول .

أما البعض الآخر من الصحابة فكان يتعذر عليهم الحضور مجالس رسول الله دائماً وذلك لقيامهم بأعمالهم المعيشية ، فكانوا يتناوبون في الحضور ويأخذون الحديث عن بعضهم البعض .

لم يكن للدس أو الكذب في الحديث من وجود آنذاك ولا يتهم بعضهم البعض . وإلى جانب هذه المجالس كان الصحابة يتلقون السنة عن الرسول بطرق عدة يمكن حصرها في :

---

(4) الأغاني ج 14 ص 47 .

(5) الأغاني ج 10 ص 120 .

(6) راجع نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية للمؤلف ج 1 ص 180 .

أ ـ حوادث كانت تقع للرسول نفسه ، فيبين حكمها ، ثم ينتشر هذا الحكم بين المسلمين ممن سمعوه منه .

ب ـ حوادث كانت تقع للمسلمين فيسألون الرسول عنها ، فيجيبهم ويفتيهم مبينا حكم ما سألوا عنه .

ج ـ وقائع وحوادث شاهد فيها الصحابة تصرفات الرسول (ص) في صلاته وصيامه وحجه وسفره وإقامته . فنقلوها إلى التابعين الذين بلغوها بدورهم إلى من بعدهم .

تدوين الحديث :

لم يدون الحديث رسمياً في عصر الرسول (ص) وقد نقل إلينا الرواة أخباراً مختلفة فيما يعود إلى التدوين يدعو بعضها إلى تدوينه ، ويدعو البعض الآخر إلى عدم تدوينه[7] . وعذرهم في عدم التدوين لعله كان يخشى أن يختلط الحديث بالقرآن أو أن يشغل المسلمون بالحديث عن القرآن ! وعلى كل حال لم يمنع الرسول أحداً من كتابة الحديث ، بل على العكس شجع على كتابته . ودليلنا على ذلك أنه حين أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن سأله : « بم تحكم ؟ فقال : بكتاب الله ، قال فإن لم تجد ، قال فبسنة رسوله »[8] هذا ما كان يجري في حياته (ص) .

أما إذ انتقلنا إلى عصر الصحابة ، وجدناهم غالباً يكرهون تدوين الحديث[9] ، بينما يرغبون في روايته . أمر غريب !! يحبون روايته ويكرهون تدوينه ؟ ! .

ومما يروى عن ذلك أن جماعة من الصحابة أشاروا على عمر بن الخطاب ، بشأن تدوين الحديث ، فلبث شهراً يستخير الله في ذلك ، ثم أصبح وقد عزم الله له فقال : « إني كنت قد ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت فإذا أناس من أهل الكتاب قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً ، أكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإني لا ألبس كتاب الله بشيء ، أبداً »[10] .

---

(7) انظر تعييد العلم للخطيب البغدادي ص 29 وص 65 .

(8) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البرج 1 ص 126 .

(9) المصدر نفسه ص 36 .

(10) المصدر نفسه ص 64 .

وما نراه أن كتاب الله لا يمكن أن تلتبس به شيء لأنـه منزل من رب العـالمين ومحصي ومحفوظ . قال تعـالى : ﴿ إنَّـا نحن نـزلنا الـذكر وإنَّـا له لحـافظون ﴾ [الحجـر : 9] . وفوق هذا ، الأسلوب القرآني فريد من نوعـه لا يشبه الشعـر ولا يشبه النـثر وإنما هـو كما قال (طه حسين) : « ليس هو بالشعر ولا هو بالنثر وإنما هو قرآن » .

ومضى الصحابة لا يدونون الحديث تدويناً رسمياً عاماً مكتفين بروايته ؛ وظلت هذه الفكـرة شائعـة في عصر التابعـين حتى كان عصر عمـر بن عبد العـزيز عـلى رأس المـائـة الأولى للهجرة رأينا هذا الخليفة العادل يأمر بتدوين الحديث رسمياً ، ولكن لسوء الحظ لم يكتب له الحياة لينفذ أوامره[11] .

وبقي الحال على هذا المنوال ، بـين التدوين والخـوف منه ، حتى النصف الثـاني من القرن الثاني للهجرة ، فكان مـوطأ مـالك إمـام المدينـة (ـ 179 هـ) وإن كان الحـديث ممزوجاً بفتاوى الصحابة والتابعين .

وجاء عصر أتباع التابعين على رأس المائتين للهجرة ، وظهـرت عنايـة العلماء بتأليف المسـانيد المقصـورة عـلى السنـة النبـوة الخـالصـة . ومن هؤلاء السبـاقـين كـان أبـو داود الـطيالسي (ـ 204 هـ) ومن بعـده أحمد بن حنبـل (ـ 241 هـ) الـذي يعـد من أتبـاع التابعين .

والخـلاصة أن السنـة الصحيحة المـرتبة عـلى الأبواب ، لم تحصـل إلا في عصر اتباع التابعين ، ممن عـاصر البخاري ، حيث ألفت الصحـاح الستة : البخـاري ، ومسلم ، والترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والنسائي[12] .

وقـد وضع حـول الحديث النبـوي سيـاج محكم منـذ العصر الأول للهجـرة حتى لا يدخله الوضع والانتحال فأقاموا من أجله علماً سموه مصطلح الحديث .

وبذلك حافظ المسلمون على حديث الرسول الأعـظم (ص) وإن كانـوا قد أجمعـوا على أنه في جملته ما روي بالمعنى ولم يرو باللفظ بسبب تأخر تدوينه .

---

(11) طبقات ابن سعد ج 7 ص 157 .

(12) علوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحي الصالح ص 118 .

تطور الحديث مع إتساع الدعوة الإسلامية

أقام رسول الله (ص) ثلاث عشر سنة بمكة ، ثم أقام عشر سنين بالمدينة ، سمي العهد الأول بالعهد المكي والعهد الثاني بالعهد المدني . ولكل عهد صفاته وتشريعاته .

العهد المكي : يكاد لا يتعرض لشيء من التشريع في المسائل المدنية . والأحوال الشخصية وإنما يقتصر على بيان أصول الدين والدعوة إلى اعتناقها : كالإيمان بالله ، والأمر بمكارم الأخلاق كالعدل والإحسان والوفاء بالوعد ، وأخذ العفو ، والخوف من الله وحده ، وتجنب الأخلاق السيئة كالزنا والقتل ، ووأد البنات ، والتطفيف في الكيل . وباختصار النهي عن كل ما هو كفر أو مكروه .

أما عن الأسرة وتنظيمها والزواج المخالف للشرع الذي لم تراع فيه أصول العقد الزوجي قال (ص) : « أيما امرأة نكحت بغير إذن مواليها فنكاحها باطل »[13] . أما فيما يخص الإرث فقد غيَّر الإسلام النظام الجاهلي وأمر بتوريث المرأة .

العهد المدني : ومنه كانت التوجيهات الأخلاقية والتشريع في الأمور المدنية ، من بيع وايجار وربا ، والأمور الجنائية : من قتل وسرقة . والأحوال الشخصية : من زواج وطلاق وكل ما يعود إلى تنظيم الأسرة .

قال الرسول محدثاً عن الحلال والحرام وحدودهما : « الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما أمور متشابهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه ومرضه . ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ؛ كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

إلا وإن لكل ملك حمى ، الا وإن حمى الله محارمه ، الا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، الا وهي القلب »[14] وقال عليه الصلاة والسلام في الربا من وحي الآية الكريمة : ﴿ **وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾ [البقرة الآية : 275] . الحديث الشريف : « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبُّر بالبُّر ، والشعر بالشعر ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، مثلاً بمثل ، سواء بسواء ، يداً بيد ، فمن زاد أو ازداد فقد أربى »[15] . ثم امتدت الدولة الإسلامية واتسعت الفتوحات حتى شملت فلسطين وسوريا ولبنان والعراق ومصر وبلاد فارس ؛

---

(13) قارن بسنن أبي داود ج 2 ص 308 .

(14) رواه الشيخان البخاري ج 2 ص 3 .

(15) أورده مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده وهو حديث مشهور .

وارتفعت راية الإسلام غرباً في ربوع الأندلس سنة 93 هـ وعلى حـدود الصين شرقـا سنة 96 هـ[16] .

ولا شك أنه كان في طليعة الجيوش الإسلامية صحابة الرسول (ص) والتابعون من بعدهم فكانوا كلما دخلوا بلداً أقاموا فيه المسـاجد ومكثـوا يعلمون القـرآن الكريم وسنـة رسول الله الشريفة[17] وكان الخلفاء يمدون البلاد الجديدة بالعلماء الأكفاء ، وقد استوطن كثير من الصحابة تلك الأمصار ، يرشدون أهلها ، وينهلون من الينابيـع التي أخذت عن الرسول .

وقد تخرج في مكة مثلاً كما جاء في فجر الإسلام على أيدي الصحابة ٠
مجـاهد بن جبـير ، وعطاء بن أبي ربـاح ، وطاوس بن كيسـان ، وعكرمـة مولى ابن عباس وغيرهم كما هبط الكوفة أيضاً الكثير من الصحابـة الاجلاء الفقهـاء ، على رأسهـم أمـير المؤمنـين عـلي بن أبي طـالب (ع) وسعـد بن أبي وقـاص ، وعبـد الله بن مسعـود وغيرهم .

يروي لنا ابن سعد فيقول : « وكان في بني ثور الذين نزلوا الكوفـة ثلاثـون رجلاً » منهم : كميل بن زيد النخعي ، وسعيـد بن جبير الأسـدي ، وإبراهيم النخعي ، وأبـو إسحاق السبيعي وعبد الملك بن عمير[18] .

وهكذا أصبحت في الاقاليم والأمصار الإسلامية مراكـز علمية عـظيمة ، تشـع منها انوار الإسلام وعلومه بواسطة حفاظ الحديث والفقهاء العلماء من الصحابة وأتباعهم .

أقسام الحديث

أقسام الحديث التي ورد ذكرها أربعة ، يندرج تحتها أنواع كثـيرة من هذه الأنـواع : الصحيح ـ الحسن ـ الموثق ـ الضعيف .

أ ـ الصحيـح : عرفـه الشهيد الثـاني في كتابـه (البدايـة في علم الدرايـة) فقـال : الحديث المتصل سنده بالمعصوم بواسطة الامامي العدل من مثله في جميع الوسائط الـواقعة بين المعصوم والراوي الأخير ولو كان بين رواته واحد غير ثقة يفقد هذه الصفات[19] .

---

(16) تاريخ الإسلام السياسي ج 1 ص 313 وص 305 .

(17) تاريخ الطبري ج 2 ص 255 .

(18) طبقات ابن سعد ج 6 ص 4 ومعرفة علوم الحديث ص 243 .

(19) علوم الحديث ومصطلحة علم الدراية ص 19 .

وقالوا أيضاً : « هو الحديث المسند الذي يتصل أسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط ، حتى ينتهي إلى رسول الله (ص) أو إلى منتهاه من صحابي أو من دونه ، ولا يكون شاذاً ولا معللاً »[20] .

ب ـ **الحديث الحسن** : « هو ما عرف مخرجه واشتهر رجاله ، وعليه مدار أكثر الحديث ، ويقبله أكثر العلماء ، واستعمله عامة الفقهاء »[21] .

ج ـ **الموثق** : « هو الحديث الذي يرويه المستقيم في دينه ، المتمسك بعقيدته ، المعروف بحسن السيرة والسلوك والصدق والأمانة على شرط أن لا يكون إمامياً سواء كان من الشيعة الذين انحرفوا عن الخط الامامي أم كان من غير الشيعة من المذاهب الأخرى »[22] .

د ـ **الضعيف** : جاء في التدريب : « الحديث الضعيف هو ما لم يجتمع فيه صفات الصحيح ولا صفات الحسن »[23] وله أنواع كثيرة .

صفات المحدث :

أجمع أئمة الحديث على قبول رواية الثقة الضابط وهو: «المسلم العاقل البالغ، سالماً من أسباب الفسق وخوارم المروءة ، وأن يكون مع ذلك متيقظاً غير مغفل ، حافظاً إن حدث من حفظ ، فاهماً إن حدث على المعنى . فإن اختل شرط مما ذكرنا ردت روايته »[24] فأساس قبول خبر الراوي أن يوثق به في روايته . والعادل :

هو البالغ العاقل ، الذي سلم من أسباب الفسق وخوارم المروءة .

وأما الضابط : فهو اتقان ما يرويه الراوي . بأن يكون متيقظاً لما يروى ، غير مغفل ، حافظاً لروايته إذا روى من حفظه ، ضابطاً لكتابه أن روى من كتاب ، عالماً بمعنى ما يرويه ان روى بالمعنى . وبعد كل ما ذكرنا يمكننا الوثوق بروايته ، بعد أن أدى الأمانة كما حملها ، لم يغير منها شيئاً[25] .

---

(20) راجع نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية للمؤلف ج 1 ص 224 .

(21) تدريب الراوي ص 49 .

(22) الدراية للشهيد الثاني ص 23 .

(23) التدريب ص 59 .

(24) الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث لابن كثير ص 92 .

(25) التدريب ص ٢١٠ .

ويعرف ضبط الراوي بموافقة الثقات المتقنين الضابطين ، إذا قيس حديثه بحديثهم ولا تضر مخالفته النادرة لهم ، أما إذا كثرت مخالفته وندرت الموافقة ، اختل ضبطه ولم يحتج بحديثه .

الجهود التي بذلت في مقاومة الوضع في الحديث :

أساء أعداء الإسلام إلى الحديث إساءة خطيرة ، فأرادوا بكذبهم تشويه وجه الحقائق الدينية بما أرادوا إدخاله من دس وافتراء . فانبرى لهم من الأمة رجال مخلصون وعلماء أمناء ، فقاوموا الوضاعين وتتبعوهم على الأثر . وميزوا الباطل من الصحيح . فكان لجهودهم تلك ، الفضل الكبير في بلورة الحديث وتصفيته من الشوائب .

إن المرء ليعجب إلى حد بعيد بتلك القواعد العلمية الدقيقة التي طبقها العلماء لتنقية السنة الشريفة ، وبذلك المنهج الخاص الذي اتبعوه في سبيل الحفاظ على حديث رسول الله (ص) . وقد استفاد من هذه القواعد العلمية والمنهج النقدي الدقيق علماء التاريخ في تحقيق علم الرواية إفادة جلى ، وعلى رأسهم العلامة المعروف ابن خلدون في مقدمته المشهورة ؛ فطبق أصول الحديث تطبيقاً حرفياً لجودتها وعلو مقامها . ونحن ندرك قيمة هذه القواعد الأصيلة التي ما زال علماء التاريخ حتى اليوم ينهلون من معينها[26] .

كل ذلك حتى تحفظ السنة من عبث العابثين وتأويل المغرضين وتحريف الجاهلين ، وقد صدق ابن المبارك حين قيل له : وهذه الأحاديث الموضوعة ؟ !! فقال :

تعيش لها الجهابذة ، ثم ردد الآية الكريمة : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنَّا له لحافظون** ﴾[27] . ونستعرض الآن ما بذله علماء الحديث من جهود وما نهجوا من قواعد دقيقة في كل ما يتعلق بالحديث النبوي رواية ودراية نلخصها فيما يلي :

أولاً : التزام الأسناد : بقي الحديث سليماً حتى كانت الفتنة ، وتكونت الفرق والأحزاب وبدأت المصالح السياسية . فوقف الصحابة والتابعون من هذه الظاهرة وقفة صامدة للحفاظ على الحديث الشريف ، وتشددوا في طلب الأسناد من الرواة والالتزام به لأن السند للخبر كالنسب للمرء ، يقول محمد بن سيرين عن ذلك : « لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ

---

(26) راجع مصطلح علم التاريخ للدكتور أسد رستم .

(27) راجع نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية للمؤلف ج 1 ص 404 والآية 9 من سورة الحجر .

حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم »[28] .

وكذلك التابعون واتباعهم تواصوا بطلب الأسناد . قال هشام بن عروة : «إذا حدثك رجل بحديث فقل عمن هذا ؟ »[29] . وقال ابن الزهري : « لا يصلح أن يرقى السطح إلا بدرجة »[30] وقال الامام الأوزاعي : « الأسناد سلاح المؤمن ، فإذا لم يكن معه سلاح فبأي شيء يقاتل »[31] .

وعلى مذهب الأوزاعي يصبح سلاحنا في نقد الحديث الأسناد أو ما يعرف (بعلم الرجال) وقد اتقن التابعون الإسناد وبرزوا فيه كما برزوا في غيره من علوم الحديث ، حتى أصبح من واجب المحدث أن يبين نسب ما يروي . وقد شبه الشعراء الحديث بلا سند كالبيت بلا دعائم ولا سقف . قال أحدهم :

والعلم إن فاته إسناد مسنده   كالبيت ليس له سقف ولا طنب[32]

ثانياً : التثبت من الحديث : كان الكثير من طلاب العلم يرحلون إلى الصحابة ويقطعون الفيافي والقفار للتأكد من حديث يسمعونه من تابعي عندهم . وهذا معنى قول أبي العالية : « كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله (ص) بالبصرة فلم نرض حتى ركبنا إلى المدينة فسمعناها من أفواههم »[33] .

والتابعون وأتباعهم رحلوا في سبيل تحمل الحديث عن الثقات ، فهناك من ارتحل إلى أبي الدرداء لحديث عنده في دمشق . كما رحل ابن شهاب إلى الشام إلى عطاء بن يزيد ورحل يحيى بين أبي كثير إلى المدينة للقاء من بها من أولاد الصحابة . ورحل محمد بن سيرين إلى الكوفة ليلقى عبيدة وعلقمة وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، كما رحل سفيان الثوري إلى اليمن [34] . وكثيراً ما كان التابعون وأتباعهم يتذاكرون الحديث ، فيأخذون ما عرفوا ويتركون ما انكروا . قال الإمام الأوزاعي : « كنا نسمع الحديث فنعرضه على أصحابنا كما يعرض الدرهم الزيف على الصيارفة ، فما عرفوا منه أخذناه وما

---

(28) راجع نقد الحديث في علم الرواية ج 1 ص 405 وانظر ترجمة ابن سيرين في تهذيب التهذيب ج 9 ص 214 .

(29) الجرح والتعديل لابي حاتم الرازي ج 1 ص 34 .

(30) الجرح والتعديل ص 16 .

(31) شرف أصحاب الحديث ص 80 .

(32) المحدث الفاضل ص 22 .

(33) الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع ص 168 .

(34) المحدث الفاضل ص 31 .

تـركوا تـركناه »[35] . وكـان أئمة الحـديث في هذا العصر عـلى جـانب كبـير من الـوعي والاطـلاع ، فقد كـانوا يحفـظون الصحيـح والضعيف والمـوضـوع حتى لا يختلط عليهم الحديث وليميزوا الخبيث من الطيب .

وفي هذا يقول الإمام سفيان الثوري : « إني لأروي الحديث على ثلاثـة أوجه اسمـع الحديث من الرجل اتخذه دينا ، وأسمع من الرجل أقف حديثه ، وأسمـع من الرجـل لا أعبأ بحديثه وأحب معرفته »[36] .

ثالثاً تتبع الكذبة : إلى جانب كل ما ذكرنا من تحريهم الدقـة في صحة الحـديث كان البعض منهم يحـاربون الكـذابين عـلانية ويمنعـونهم من التحـديث ، ويستعـدون عليهم السلطان ، فقد كان عامر الشعبي يمر بأبي صالح صاحب التفسير فيأخذه بأذنه ويقـول : « ويحك كيف تفسر القرآن وأنت لا تحسن أن تقرأ »[37] .

وقـال الشافي : « لـولا شعبة مـا عرف الحـديث بالعـراق ، كـان يجيء إلى الـرجـل فيقول : لا تحدث وإلا استعديت عليك السلطان »[38] .

وقد كان عند الناس وعي جيد يميزون به بين المتطفلين على الحديث وأهله ورجاله ، يكشفـون عن الكـذابـين ويبينـون عـوارهم لأن طـلاب الحق لا يخجلون من أحـد من هؤلاء : سفيـان الثوري ، كـان شديـداً على الكـذابين . قـال قتيبة بن سعيـد : « لـولا سفيان الثوري لمات الورع »[39] .

رابعـاً : بيان أحـوال الرواة : تمكن النقـاد من معـرفـة أحـوال المحـدثـين والحكم بصدقهم أو كذبهم ، فبينوا السمين من الضعيف وميـزوا الصحيح من المكـذوب وكأنهم علموا بقول المتنبي قبل أن يقول مخاطباً سيف الدولة الحمداني :

أعـيـذهـا نـظرات مـنـك صـادقـة ... إن تحسب الشحـم فيـمن شحمـه ورم

لـذلك درسـوا حياة الـرواة وتتبعوهم في جميـع أحوالهم ومختلف حيـاتهم فتعمقوا في البحث بعيداً « حتى عرفوا الاحفظ فالاحفظ ، والأضبط فالاضبط ، والأطول مجالسة لمن

---

(35) الجرح والتعديل ج 1 ص 21 .

(36) الجامع لاخلاق الراوي ص 157 والكفاية ص 402 .

(37) نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية للمؤلف ج 1 ص 411 .

(38) الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع ص 149 .

(39) نقد الحديث للمؤلف ج 1 ص 413 .

فوقه ممن كان أقل مجالسة »[40] .

قال سفيان الثوري : « لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ »[41] كانوا يبينون أحوال الرواة وينقدونهم ويعدلونهم ، لا خوفاً من عقاب ولا طمعاً بمكافأة فلا تأخذهم خشية أحد ، ولا تتملكهم عاطفة بعيد أو قريب .

فليس أحد من أهل الحديث يحابي أباه ولا أخاه ولا ولده .

فهذا زيد بن أبي أنيسة يقول : « لا تأخذوا عن أخي !! »[42] . وعلي بن المديني عندما سألوه عن أبيه قال : « سلوا عنه غيري فأعادوا عليه المسألة فاطرق ، ثم رفع رأسه فقال : هو الدين ، إنه ضعيف »[43] ولم تكن المظاهر لتغريهم وكل ما يهمهم أن يخلصوا العمل لله . ويصلوا إلى ما ترتاح إليه ضمائرهم لخدمة الشريعة الإسلامية ودفع ما يشوبها وبيان الحق الصريح .

قال يحيىٰ بن معين : « إنا لنطعن على أقوام لعلهم قد حطوا رحالهم في الجنة منذ أكثر من مائتي سنة »[44] . وعن أبي بكر بن خلاد قال : قلت ليحيى بن سعيد القطان : أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله تعالى ؟ قال: «لأن يكون هؤلاء خصمائي أحب إلي من أن يكون خصمي رسول الله (ص) يقول : لم حدثت عني حديثاً ترى أنه كذب »[45] .

وهكذا تكون علم الجرح والتعديل الذي وضع أسسه كبار الصحابة والتابعين وأتباعهم على ضوء الشريعة الإسلامية متأسين برسول الله (ص) وعاملين بكتاب الله .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾ [الحجرات الآية : 6] .

وقال النبي محمد (ص) في الجرح : « بئس أخو العشيرة » وفي التعديل : « إن عبد الله رجل صالح »[46] .

---

(40) شرف أصحاب الحديث ص 38 .

(41) الكفا[illegible] .

(42) صحيح مسلم ج 1 ص 121

(43) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص 66 .

(44) الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع ص 160 .

(45) الكفاية ص 44

(46) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص 52 .

وقال الإمام مـالك : «لا يؤخذ العلم عن أربعة ويؤخـذ ممن سواهم : لا يؤخـذ من صاحب هوى يدعوا الناس إلى هواه ، ولا من سفيـه معلن بالسفـه ، وإن كان من أروى النـاس ، ولا من رجل يكـذب في أحاديث النـاس ، وإن كنت لا تتهمه أن يكـذب على رسـول الله (ص) ، ولا من رجل لـه فضل وصـلاح وعبـادة ، وإن كـان لا يعـرف مـا يحدث »[47] . فصاحب الهوى ، والسفيه ، والكـذاب ، والجاهـل : يطرح حـديثهم . ثم ألفت معاجم خاصة بالضعفـاء والمتروكـين ، وأصبح من السهـل جداً عـلى أصحاب الحديث أن يميزوا الخبيث من الطيب في كل عصر ، استنـاداً على تلك المقـاييس الدقيقـة والمـوضوعيـة . وبذلـك قدم النقـاد المسلمون للحضـارة الإنسانيـة أعظم انتـاج في هـذا المضمار . قال المستشرق الألماني (شبرنجر) في تصديـر كتاب الاصـابة لابن حجـر : « لم تكن فيما مضى أمة من الأمم المعاصرة أتت في علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون في هـذا العلم الخـطير العـظيم . الـذي يـتنـاول أحـوال خمـسمائـة ألف رجـل وشؤونهم . . . »[48] .

ولم يكتف العلماء بهذا فقط بل قسموا الحديث باعتبار الصفة التي فقدهـا من صفات القبول ، قسمه ابن الصلاح : الاتصال ، والعدالة ، والضبط ، والتـابعة في المستـور ، وعدم الشذوذ ، وعدم العلم .

خامساً : وضع قواعد لمعرفة الموضوع من الحديث : وضع العلماء المسلمون قـواعد وأصول لمعرفة الحديث الموضوع ، وذكروا ما يدل على الوضع في سند الحديث ، وما يدل عليه في متنه . فقالوا :

أ ـ علامات الوضع في السند .

ب ـ علامات الوضع في المتن[49] .

كيفية تحمل الحديث :

إن حرص العلماء على صون الحديث دعاهم إلى إحاطته بالرعايـة من كل جـوانبه . وفصلوا الطرق المختلفة التي ينقل فيها الحديث . وهذه الطرق هي :

---

(47) المحدث الفاضل ص 79 والجرح والتعديل ج 1 ص 82 .

(48) أضواء على التاريخ الإسلامي ص 136 .

(49) راجع نقد الحديث للمؤلف ج 1 ص 417 وما بعدها .

1 ـ السماع : وهو أن يسمع المتحمل صوت شيخه ، وهو أقوى أنواع النقل وأرفعها[50] .

2 ـ القراءة : وتعني قراءة التلميذ على الشيخ حفظاً عن ظهر قلب أو من كتاب يقرأ التلميذ فيه . ويسميها بعضهم العرض ، وهي دون السماع .

3 ـ الإجازة : وهي مجرد شهادة الشيخ لتلميذه بالرواية عن لسانه في أمر محدد[51] .

4 ـ المناولة : وهي على نوعين أ ـ المناولة مع الاجازة . مثل أن يناول الشيخ الطالب كتاباً من سماعه ويقول له : « ارو هذا عني » . ب ـ المناولة المجردة عن الاجازة . مثل أن يناول الشيخ الطالب كتاباً ويقول له : هذا من حديثي ، أو من سماعاتي من غير أن يأذن له بروايته .

5 ـ المكاتبة : وهي أن يكتب الشيخ بعض حديثه لمن حضر عنده ، أو لمن غاب عنه ، ويرسله إليه ، سواء كتبه بنفسه أم أمر غيره أن يكتبه . ويكفي أن يعرف الرجل المكتوب له خط الشيخ أو خط الكاتب عن الشيخ .

6 ـ الاعلام : وهو اكتفاء الشيخ باخبار تلميذه بأن هذا الكتاب أو الحديث من مروياته ، أو من سماعه على فلان من غير أن يصرح باجازته له في أدائه .

7 ـ الوصية : يراد بها تصريح الشيخ عند سفره أو موته بأن يوصي لفلان بكتاب معين كان يرويه وهي صورة نادرة من تحمل الحديث .

8 ـ الوِجادة : وهي أن يجد الشخص أحاديث بخط راويها ، سواء لقيه أو سمع منه ، أو لم يلقه ولم يسمع منه ، أو أن يجد أحاديث في كتب لمؤلفين معروفين . ففي هذه الأنواع كلها لا يجوز له أن يرويها عن أصحابها ، بل يقول : « وجدت بخط فلان » أو قال « فلان في كتابه » أو نحو ذلك .

والوجادة ليست نوعاً من أنواع الرواية ، وإنما ذكرها العلماء في هذا الباب الحاقاً به لبيان حكمها . ونحن اليوم نروي على لسان القدماء ونكتفي بذكر المصدر وتعينه .

(50) الالماع للقاضي عياض ص 68 وما بعدها

(51) راجع التدريب ص 138

العلوم الإسلامية

1 ـ التفسير

التفسير لغة هو التبيين والايضاح ومنه قوله تعالى : ﴿ **ولا يأتونك بمثَلٍ إلا جئناك بالحق وأحسنَ تفسيرا** ﴾[52] .

والتفسير اصطلاحاً : علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية . وحاجة الناس إلى التفسير ماسة جداً لأن الأفراد والجماعات لا يبلغون غايتهم من السعادة في الدنيا والآخرة إلا بفهم القرآن والعمل بتعاليمه ونظمه الحكيمة . وعن طريق التفسير يتأتى الكشف والبيان لما تدل عليه ألفاظ القرآن الكريم ، وبصورة خاصة في هذه الأيام التي فسدت فيها ملكة البيان .

قال السيوطي في بيان الحاجة إلى التفسير : « إن القرآن إنما نزل بلسان عربي في زمن أفصح العرب ، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه ، أما دقائق باطنه فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر ، مع سؤالهم النبي (ص) في الأكثر كسؤالهم لما نزل قوله : ﴿**ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ فقالوا : وأينا لم يظلم نفسه ففسره النبي (ص) بالشرك . واستدل عليه بقوله : ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾[53] .

ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه وزيادة على ذلك ؛ لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم .

جعل العلامة ابن خلدون التفسير على صنفين : تفسير نقلي مسند إلى الآثار المنقولة عن السلف . . . وتفسير يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والأعراب ، والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب[54] . وقد قسم العلماء التفسير إلى ثلاثة أقسام :

1 ـ **تفسير بالرواية وسمي بالمأثور :**
2 ـ **تفسير بالدراية وسمي بالرأي .**
3 ـ **تفسير بالإشارة وسمي بالتفسير الإشاري .**

---

(52) الفرقان الآية 33 جاء في لسان العرب التفسير والتأويل واحد والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل ، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر .

(53) الاتقان ج 2 ص 174 .

(54) راجع المقدمة ج 2 ص 997 .

- **التفسير بالمأثور :**

هو بيان معنى ما جاء في القرآن الكريم ، أو السنة ، أو كلام الصحابة .

فالأول مثل قوله : ﴿ والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب ﴾ فكلمة النجم الثاقب : بيان لكلمة الطارق . التي قبلها .

والثاني مثل تفسيره (ص) الظلم بالشرك في الآية التي مرت قبل قليل .

والثالث : مثل ما صح وروده عن الصحابة من تفسير القرآن ، لأنهم شاهدوا الرسول وعايشوا أسباب النزول التي تسهل الكشف لهم عن معاني القرآن . ولا يخفى ما كانوا عليه من سلامة الفطرة وصفاء النفس واليد الطولى في مبدان الفصاحة والبيان وكل ما [illegible] هم من الفهم الصحيح لكلام الله . قال الحاكم : « إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع »[55] .

طبقات المفسرين :

طبقة الصحابة : جاء في الاتقان : « اشتهر بالنفسير عشرة من الصحابة ، الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن الزبير . أما الخلفاء فأكثرهم من روى عنه منهم علي بن أبي طالب ، والرواية عن الثلاثة نذرة جداً . . .

أما علي كرم الله وجهه فقد عاش حتى اشتدت حاجة الناس في زمانه إلى من يفسر لهم القرآن الكريم ، لاتساع رقعة البلاد ، ودخول الأعاجم في الإسلام ، ونشؤ جيل من أبناء الصحابة كان بحاجة إلى علم الصحابة .

هذا إلى ما امتاز به (ع) من خصوبة الفكر ، وغزارة العلم ، واشراق القلب ، وصلته الوثيقة برسول الله (ص) ، وقرابته وصهارته له ؛ فلا جرم إن كان ما نقل عنه أكثر مما نقل عن غيره ، وهو القائل : « والله ما نزلت اية إلا وقد علمت فيم أنزلت ، وأين أنزلت إن ربي وهب لي قلبا عقولا ، ولساناً سؤولا »[56] . وبعد علي (ع) إمام المتقين وإمام المفسرين في عهد الخفاء الثلاثة قبله ، كان ابن مسعود توفى بالمدينة سنة 32 هـ وهو من أعلام الصحابة قال فيه علي (ع) حين سئل عنه : « علم القرآن والسنة ، ثم انتهى وكفى بذلك علماً » .

ثم ابن عباس توفى بالطائف سنة 68 هـ كان ترجمان القرآن ، قال عنه ابن مسعود :

---

(55) الاتقان للسيوطي ص 176 .

(56) راجع مقدمة تفسير القرطبي ص 35 .

« نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس ، وقد دعا له النبي (ص) بقوله : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » .

وكان أبي بن كعب المتوفى سنة 20 هـ من أعلام القراء ، ومن كتاب الوحي ، ومن المكثرين في التفسير كذلك روي عن جماعة من الصحابة غير هؤلاء العشرة اليسير من التفسير كأنس ، وابن عمر ، وجابر وعائشة[57] .

طبقة التابعين : ثلاث طبقات : أ ـ طبقة أهل مكة . طبقة أهل المدينة . طبقة أهل العراق .

أهل مكة : اعلم الناس بالتفسير « لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وطاووس »[58] .

أهل المدينة : من أشهر رجالها : زيد بن أسلم ، وأبو العالية ، ومحمد بن كعب القرظي .

أهل العراق : من أعلام هذه الطبقة : مسروق بن الأجدع ، وقتادة بن دعامة ، والحسن البصري ومرة الهمذاني الكوفي .

هؤلاء من أشهر أعلام التابعين وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة وعنهم أخذ تابعو التابعين وهكذا وصل إلينا كتاب الله ، وعلومه ، كاملة سليمة عن طريق التلقي جيلاً بعد جيل مصدقاً قوله تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ [الحجر الآية . 9] .

طبقة جمعت أقوال الصحابة والتابعين : من أشهر هؤلاء :

1 ـ شعبة بن الحجاج المتوفى سنة 160 هـ .

2 ـ وكيع بن الجراح المتوفى سنة 197 هـ .

3 ـ سفيان بن عيينة المتوفى 198 هـ .

4 ـ يزيد بن هارون السلمي توفى سنة 206 هـ .

5 ـ آدم بن إياس وهو ثقة متعبد 221 هـ .

6 ـ أبو بكر بن أبي شيبة الامام الحافظ 325 هـ[59] .

7 ـ إسحاق بن راهويه الامام الحافظ 238 هـ .

---

(57) راجع الاتقان للسيوطي ص 187 .

(58) المرجع السابق ص 189 .

(59) الاتقان ص 190 .

طبقة ابن جرير الطبري : من أعلامها :

1 ـ ابن جرير الطبري صاحب التفسير المعروف باسمه توفي سنة 310 هـ .

2 ـ ابن أبي حاتم المتوفى سنة 327 هـ .

3 ـ ابن ماجة المتوفى سنة 273 هـ .

4 ـ ابن مردويه المتوفى سنة 410 هـ .

5 ـ ابن حيان البستي المتوفى سنة 354 هـ .

طبقة من يحذف الأسانيد : اختصر مفسرو هذه الطبقة الأسانيد فدخل في تفسيراتهم الدخيل ، والتبس الصحيح بالعليل ونقل عنهم بالظن والتخمين دون الالتفات إلى ما ورد عن السلف الصالح . من أشهر هؤلاء :

1 ـ أبو إسحاق الزجاج النحوي 310 هـ .

2 ـ أبو علي الفارسي 377 هـ .

3 ـ أبو جعفر النحاس 338 هـ .

4 ـ أبو العباس المهدوي 349 هـ .

طبقة من برع بنوع من العلوم : غلب كل مفسر من هده الطبقة الفن الذي برع فيه ، لذلك اختلفت تفاسيرهم فوجدنا الفخر الرازي مولعا بأقوال الفلاسفة وأمثالهم . والقرطبي مغرم بتقرير الأدلة للفروع الفقهية والرد على المخالفين . وأبو حيان اهتم بالأعراب ووجوهه .

كما اهتم أصحاب المذاهب المتطرفة بتأويل الآيات بما يؤيد تطرفهم .

تدوين التفسير بالمأثور :

بدأ تدوين التفسير بالمأثور في عهد أتباع التابعين ، فألفت تفاسير كثيرة جمعت أقوال الصحابة والتابعين كتفسير سفيان بن عيينة ، وشعبة بن الحجاج ، ووكيع بن الجراح وإسحق بن راهويه وغيرهم ، ومن بعدهم ألف ابن جرير الطبري وابن ماجة وابن حيان وكل تفاسير هؤلاء مسندة إلى الصحابة والتابعين وليس فيها غير ذلك ، إلا ابن جرير فإنه تعرض لترجيح بعض الأقوال على بعض وهو أفضل التفاسير وأعظمها .

قال النووي في تهذيبه : « كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله » .

ومن التفاسير الجليلة بالمأثور ، تفسير القرطبي المتوفى سنه 260 هـ . سمع من أحمد ابن حنبل ، ورحل إلى مصر والحجاز وبغداد . قال عنه ابن حزم : « أقطع أنه لم

يؤلف في الإسلام مثل تفسيره لا تفسير ابن جرير ولا غيره » .

ولكن من سوء الحظ أن هذا التفسير الجليل لم يكتب له البقاء كما كتب لغيره كتفسير ابن جرير ، ولا ندري فالأسباب كثيرة والحسد والغيرة والحقد في عصر القرطبي ولم تزل . ولا ننسى تفسير ابن كثير المعروف المتوفى سنة 774 هـ . وهو بنظر الفقهاء من أصح التفاسير .

ومن التفاسير بالمأثور أيضاً تفسير السيوطي المتوفى سنة 911 هـ ، وهو تلخيص لتفسير ترجمان القرآن لابن عباس .

ب ـ التفسير بالرأي :

هذا النوع من التفسير عندما يستند إلى مستند سليم وصحيح يمكن الاعتماد عليه والثقة به وإلا كان مذموماً لا يؤخذ به .

والأصول التي يجب اعتمادها في هذا الضرب من التفسير هي :

1 ـ الاعتماد على ما نقل عن النبي (ص) مما ينير السبيل أمام المفسر بعيداً عن الضعف والوضع .

2 ـ المعرفة التامة بأساليب اللغة والخبرة بأصولها صرفاً ونحواً .

3 ـ الخبرة والبصيرة بقوانين الشريعة حتى ينزل كلام الله على المعروف من شريعته .

4 ـ الأخذ بقول الصحابي المتحلي بالعلم والإيمان ، فإنه في حكم المرفوع[60] .

هذه الشروط وضعها الفقهاء لتحقيق أعلى مراتب التفسير .

المشهور من المفسرين بالرأي :

1 ـ الامامان الجلالان صاحبا تفسير « الجلالين » وهو من أكثر التفاسير الميسورة .

2 ـ الإمام البيضاوي صاحب تفسير : أنوار التنزيل وأسرار التأويل .

3 ـ الإمام فخر الدين الرازي صاحب تفسير « مفاتيح الغيب »

4 ـ النسفي صاحب التفسير المسمى : مدارك التنزيل وحقائق التأويل .

5 ـ الألوسي صاحب التفسير المسمى : روح المعاني .

ج ـ التفسير الاشاري :

ظهرت تفاسير المفسرين المتعددة كل منها انطبع فيها صورهم بما ارتضوه لأنفسهم

---

(60) نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية للمؤلف ج 1 ص 340 وما بعدها .

حسب تباين منازعهم واختلاف مشاربهم ؛ فنجد تفاسير أهل السنة وتفاسير المعتزلة وتفاسير الشيعة . ويمكن إرجاع هذه التفاسير إلى نوعين :

الأول : التفسير الإشاري . الثاني : تفسير أهل الكلام .

فالنوع الأول ، هو تأويل القرآن بغير ظاهره لاشارة خفية تظهر لارباب السلوك والتصوف مع امكان الجمع بينها وبين الظاهر . وهذا التفسير مقبول إذا توافر فيه ثلاثة شروط .

1 ـ ألاّ يدعي أنه المراد وحده . 2 ـ أن يكون له شاهد من الشرع يؤيده . 3 ـ ألا يتنافى مع ما يظهر من معنى النظم الكريم فلا يكون تأويلاً بعيداً .

أمّا الغزالي فلا يعوّل على هذه التفسيرات ، لأنها كما يقول : أذواق ومواجيد خارجة عن حدود الضبط ، وكثيراً ما يختلط فيها الخيال بالحقيقة ولا تخلو من الدس ، فالبعد عنها بعد بالنفس عن المزالق واستبراء الدين . وأهم كتب التفسير الإشاري :

1 ـ تفسير النيسابوري .
2 ـ تفسير الألوسي .
3 ـ تفسير التستري .
4 ـ تفسير ابن عربي .

فالأولان : يذكران المعنى المراد ، ثم يليه التفسير الإشاري معنوناً بكلمة : (ومن باب الإشارة) مثلاً .

والاخيران : سلكا مسلك الصوفية ، مع الموافقة لأهل الظاهر . هذا هو النوع الأول من التفسير الإشاري المسمى بالتفسير الصوفي ، أما النوع الثاني فهو :

تفاسير أهل الكلام ، وهم فرق ، تناولت كل فرقة كتاب الله تفسره بما يساند رأيها وهم مع هذا مختلفون في التعصب لمذاهبهم وأهم هذه التفاسير :

1 ـ **تفاسير المعتزلة** : وأشهرها تفسير الكشاف للزمخشري ، وهو من المعتزلة المتعصبين ، وكتابه هذا من أفضل كتب التفسير ، رغم نزعته الاعتزالية ، وأكثر التفاسير التي أتت بعده أخذت عنه . وقد سلك طريق السؤال والجواب .

2 ـ **تفاسير أهل السنة** : منهم القاصد في تأييد عقيدته ، ومنهم المتعصب الذي شنها حرباً شعواء على أهل البدع والانحراف في العقيدة فصاغ الأدلة وقدم البراهين لتدعيم مذهب أهل السنة ونقض المخالفين له .

3 ـ **تفاسير الباطنية** : ترفض الأخذ بظواهر الكلام ، فقالوا إن للقرآن معنى ظاهراً ومعنى باطناً ، والمراد هو المعنى الباطن . ومن امثلتهم قوله تعالى :﴿**وورث سليمان داود**﴾ إن النبي ورث النبي في علمه وكان منهم طوائف عدة فمنهم القرامطة ، والإسماعيلية ، والسبعية ، والحرمية[61] وغيرهم . وعلى العموم مذهب الباطنية هذا انتقل إليهم من المجوس[62] . وتفاسيرهم جاءت حادة ومنحرفة عن الشريعة الإسلامية . قال الإمام النسفي في عقائده إن تفاسيرهم مناقضة للإسلام . « النصوص على ظواهرها والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن الحاد »[63] .

4 ـ **تفاسير الشيعة** : وهم الذين أحبوا علياً (ع) وتشيعوا له ، فمنهم من بالغ كثيراً حتى كفر ، ومنهم المعتدل العاقل . وهذا ما دعا أمير المؤمنين إلى القول : « هلك فيَّ اثنان رجل بالغ كثيراً في حبي ورجل بالغ كثيراً في كرهي » والحقيقة أن الأول خالف الشريعة الإسلامية لأنه تحول إلى عبادة الأشخاص ، والثاني خالفها أيضاً لبعده عن الحق ؛ لأن علياً دائماً مع الحق والحق دائماً مع علي ، فمن كره علياً كره الحق ووقع في الباطل ومنه في الكفر .

ومن أفضل كتب تفاسير الشيعة : مجمع البيان في تفسير القرآن للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي من أكابر علماء الامامية في القرن السادس . والميزان للشيخ العلامة الطباطبائي والفرقان في تفسير القرآن للدكتور الشيخ محمد الصادقي والتبيان للشيخ الطوسي[64] .

2 ـ الفقه

2 ـ **الفقه في اللغة** : يعني العلم بالشيء والفهم له . جاء في لسان العرب : وغلب على الدين لسيادته وفضله وشرفه على سائر أنواع العلم . . وقد جعله الصرف خاصاً بعلم الشريعة ، شرفها الله تعالى وتخصيصاً بعلم الفروع منها .

---

(61) القرامطة : نسبة إلى حمدان قرمط ، احدى قرى واسط ، والاسماعيلية · نسبة إلى إسماعيل أكبر أولاد جعفر الصادق ، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون ان لامامة فيه والسبعية نسبة إلى الامام السابع . والحرمية : نسبة إلى الحرمة وذلك لانهم يستبيحون الحرمات .

(62) المجوس : قيل عنهم انهم كانوا يعبدون النار

(63) الاتقان للسيوطي ص 178

(64) من كبار علماء الشيعة المعروفين كتب في شتى العلوم الإسلامية .

وفي الاصطلاح : هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية ، وهو مستنبط بالرأي والاجتهاد ، ويحتاج فيه إلى النظر والتأمل .

وقد عرفه ابن خلدون فقال : « **الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين** بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة ، وهي منتقاة من الكتاب والسنة ، وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة ، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها : « فقه »[65] .

وللفقه أصول يرتكز عليها ويبني أحكامه وقد أصبح علماً وصناعة عندما عظمت أمصار الإسلام وزادت الفتوحات . قال ابن خلدون : «**ثم عظمت أمصار الإسلام** وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب ، وتمكن الاستنباط وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلماً ، فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء »[66] . وقد نشأ الفقه الإسلامي ككل كائن مادي أو معنوي ، بدأ متدرجاً في مراتب الحياة والوجود حتى بلغ مرحلة النضج والكمال من التطور .

الأطوار التي مر بها الفقه : تدرج الفقه الإسلامي في عدة أطوار :

1 ـ طور النشأة .
2 ـ طور الشباب .
3 ـ طور النضوج .
4 ـ طور الاجتهاد .

1 ـ طور النشأة : بدأ في حياة الرسول (ص) وانتهى بوفاته ، استمر طيلة إثنين وعشرين عاماً تقريباً ، وهو طور التأسيس والتشريع . وفي هذه الفترة كان الفقه يعتمد على الوحي النازل من السماء ؛ فقد نزل كتاب الله ، وحفظت السنة واستكملت أصول التشريع وتمت ، قبل أن ينتقل الرسول (ص) إلى الرفيق الأعلى . قال تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾[67] . وقد ينزل الجانب الأكبر من الأحكام التفصيلية في السور المدنية ، وقد بلغت ثلث القرآن ونيف تقريباً .

---

(65) المقدمة لابن خلدون .

(66) المقدمة لابن خلدون والقراء الذيل كانوا يقرأون القرآن لأن العرب كان أكثرهم يجهل الكتاب والقراءة فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته وندرته يومئذٍ .

(67) المائدة الآية 3 .

نزلت هذه الأحكام منجمة حسب الحاجة التي تدعو إليها دفعاً للحرج عن المسلمين وتيسيراً لهم في التكليف الحياتية والتنظيمية باشكالها المختلفة .

الطور الثاني : ابتدأ في عهد الخلفاء الراشدين بعد أن فتح الله على المسلمين الكثير من الأمصار واتسعت رقعة البلاد الإسلامية . ولا يخفى أن لهذه البلاد أعرافاً وتقاليد وحضارات مختلفة . لذلك كان لا بد من تعدد الأحداث وبروز المشكلات التي تحتاج لبيان حكم الشرع فيها حيث لم يكن هناك من نص صريح في الكتاب أو السنة . ففي عهد الخليفتين أبي بكر وعمر كان اللجوء إلى القرآن فإن لم يجدوا فإلى السنة فإن لم يجدوا ، جمعوا أهل الرأي والعلم ثم قضيا بما يجمعون عليه . ولا حياء في العلم الجميع يعملون من أجل مصلحة الإسلام ومن أجل الدعوة الإسلامية . فعلي بن أبي طالب الذي يؤكد الشيعة أنه صاحب الحق في تسلم الخلافة بعد النبي (ص) كان المستشار الأول لأبي بكر وعمر في جميع القضايا الفقهية مخافة القول على الله وعلى رسول الله بلا علم .

وبعد عمر تفرق الصحابة في الأمصار ، وهاجروا إلى البلدان المختلفة ، فكثر التحديث عن رسول الله ، وزاد التعمق في استنباط الأحكام من القرآن ، وبدأت أبواب الاجتهاد في الاتساع ، وأخذ الفقه يتكون ويتميز .

التف الناس حول الصحابة يسمعون منهم ؛ فكان منهم القراء والمعلمون ، وقد يصح عند أحدهم ما لا يصح عند الآخر .

لهذه الأسباب كلها اتجه بعض الصحابة والتابعين إلى تأسيس علم الفقه ووضعوا له الأصول والفروع ، ليكون مثلاً يحتذى به .

يتبين لنا من هذا العرض الموجز أن أول الفقهاء المسلمين هم الصحابة الأولون وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون وعلى رأس هؤلاء إمام المتقين والفقهاء تلميذ الرسول الأعظم الذي كرم الله وجهه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . ثم انتقلت الفتوى والفقه إلى التابعين ، واتباعهم . ولما كثر التحديث عن رسول الله (ص) وزاد الشك في صحة هذه الأحاديث اتجه الفقهاء إلى الاجتهاد بالرأي . الذي وضع أصوله الشيعة الامامية وكان له الدور البارز في تطور التشريع الإسلامي .

الطور الثالث : هو طور النضج والكمال والتدوين أو عصر المذاهب الفقهية .

بدأ هذا الطور في أوائل القرن الثاني الهجري واستمر إلى منتصف القرن الرابع الهجري . وفي هذا العصر ظهرت المذاهب الفقهية الخمسة .

أ ـ المذهب الحنفي : (80 هـ ـ 150 هـ) ينسب إلى الامام أبي حنيفة ، النعمان بن ثابت بن زوطي وهو تابعي لأنه رأى الصحابة . تلقى العلم عن إبراهيم النخعي . أما اجتهاده فيما لم يكن فيه نص من كتاب أو سنة فقد كان مرجعة إلى القياس . وقد كان صاحب مدرسة عرفت بمدرسة (الأرأيتيين) . يقولون : أرأيت لو حصل كذا ؟ أرأيت لو كان كذا ؟ .

ب ـ المذهب المالكي : صاحبه مالك بن أنس (93 هـ ـ 179 هـ) ولد ونشأ وتوفي بالمدينة تلقى العلم عن الازهري وأشهر ما أعطى كتابه « الموطأ » . وقد تميز المذهب المالكي بكثرة أصوله وهي : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس ، والاستحسان ، والعرف ، وإجماع أهل المدينة ، والمصالح المرسلة ، وسد الذرائعة . . .

ج ـ **المذهب الشافعي** : ينسب إلى الإمام محمد بن ادريس بن عثمان بن شافع (150 هـ ـ 204) ظهر في مصر ثم انتشر في بغداد وبلاد خراسان . وقويت شوكته في عهد الدولة الأيوبية . خالف مالكاً وأبا حنيفة في وضع قواعد الرواية فقال : إن الحديث متى صح بالسند المتصل إلى النبي يجب العمل به من غير تقييده بموافقة عمل أهل المدينة كما اشترط مالك .

من أشهر مؤلفاته كتاب (الأم) وكتاب « الرسالة » . يرى الشافعي أن القرآن كلام الله غير مخلوق . كما يرى أن علياً هو الإمام الحق في عصره وأن معاوية وأصحابه كانوا من الفئة الباغية[68] . وقد عرف عنه أنه كان يبغض علم الكلام ولا يعتبرها من كتب العلم .

د ـ **المذهب الحنبلي** : ينسب إلى الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (164 هـ ـ 241 هـ) ولد في بغداد وتوفي فيها . أخذ الفقه عن الشافعي وأخذ عنه الشافعي الحديث . روى عنه البخاري ومسلم ، وكان آية في الحفظ والورع والزهد والأمانة . والقدماء كانوا يعتبرونه من أهل الحديث وليس من الفقهاء . شاع المذهب الحنبلي في البلاد النجدية وساعد على انتشاره محمد بن عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابي وابن تيمية وابن القيم الجوزية . ولكنه ابتلي بمحنة خلق القرآن في عهد المأمون وقد شد بالحديد والأغلال ليقول بخلق القرآن وبقي في السجن حتى جاء المعتصم فأقر

---

(68) قال بعد سؤال : « ماذا أقول في رجل (علي) أخفت أولياؤه فضائله خوفاً ، وأخفت اعداؤه فضائله حسداً ، وشاع له من هذين ما ملأ الخافقين » راجع الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج 3 ص 216 .

واعترف بأن القرآن مخلوق . من آثاره البارزة : المسند الذي جمعه ابنه عبد الله فـألحق به ما يشاكله . أما أصول مذهبه فهي : الكتاب والسنة والاجماع والقياس .

هـ ـ المـذهب الجعفـري : سمي بـالجعفـري نسبـة إلى الإمـام جعفـر الصـادق (83هـ ـ 148 هـ) ولد بالمدينة ونشأ فيها تحت رعاية جـده الإمام زين العـابدين الـذي لازمه مدَّة ثمانية عشر عاماً . تتلمذ على يد أبيه الإمـام الباقـر وكان في طليعـة تلامـذته في مدرسته بالمدينة . وصف بصدق الحـديث والقول والعمـل حتى أصبح حـديث الناس في عصره . كـان يطلب الحق للحق لا يبتغي عنـه بديـلاً ولا تلتبس عليـه الأمـور قـال فيـه مـالـك بن أنس : مـا رأت عـين ولا سمعت أذن ولا خـطر عـلى قلب بشر أفضـل من جعفر بن محمد الصادق علماً وورعاً وعبادة . وقال عنه أبو حنيفـة بعد منـاظرتـه بأمـر من المنصور : « ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد » كان صـاحب مدرسـة عرفت بـاستقلالهـا الـروحي واستقلالهـا المنهجي وعدم خضـوعهـا لنظام السلطة ، لـذلـك لم يتسن لـذوي السلطة من استخدامها كغيرها من مدارس المذاهب السابقة ، في مصالحهم الخاصـة مهما بذلوا من جهـد وحيل . من هـذه المحاولات الفـاشلة ، محاولـة المنصور حيث كتب إليـه قائلاً : « لولا تغشانا كما تغشانا سائر الناس . فأجابه الإمام الصادق :

ما عندنا من الدنيا ما نخافك عليه ، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك لـه ، ولا أنت في نعمة فنهنيك عليها ، ولا نعدها نقمة فنعزيك بها فلم نغشاك ؟! . ومرة أخرى حاول المنصور فكتب له : تصحبنا لتنصحنا . فأجابـه الإمام : من أراد الـدنيا فـلا ينصحك ، ومن أراد الآخـرة فلا يصحبـك » وبهذا يتجـلى موقف الإمـام الصـادق من حكـام عصره جميعهم .

أنشأ المدرسة الجعفريـة التي وضع أسـاسها وغـرس بذرتهـا النبي (ص) . فقال : « إني مخلف فيكم الثقلين كتـاب الله وعـترتي أهـل بيتي ، مـا إن تمسكتم بهـما لن تضلوا أبداً »[69] .

اعتمد في الفقه والقرآن والسنة وضرب بـالقياس عـرض الحائط بعـد مناظـرة طويلة جرت بينه وبين أبي حنيفة .

يتميز عصر المذاهب بتدوين السنة والفقه وكان لهذا الفتح الجديد أثـر كبير في تـطور الفقه .

---

(69) راجع النظم الإسلامية للمؤلف ص 105 .

الطور الرابع :

وهو طور التقليد والاجتهاد استمر إلى عصرنا الحاضر ، ذلك أنه ظهر لكل مذهب أتباع ومقلدون وفقهاء ، دونوا الفقه في متون ، ثم قام البعض بشرح هذه المتون ، ثم وضع حواش عليها . وما زالت محاولات العلماء الفقهاء وجهودهم المبذولة في الاجتهاد مستمرة ، ولا يزال باب الاجتهاد مفتوحاً أمام كل من استطاع خدمة الإسلام وخدمة المسلمين .

3 ـ النحو

عرف العرب بفصاحة اللسان وقوة البيان منذ القديم ، إذا قالوا أعربوا ، وإذا نطقوا أفصحوا ، لا يتطرق اللحن إلى لسانهم ، ولا العجمة إلى بيانهم ، امتلكوا ناصية اللغة فكانت طوع إرادتهم حتى نشأت لديهم ملكة هي أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد .

وهذه هي البلاغة في تعريفها الدقيق ، كلما كان الأديب قادراً في توضيح مقاصده والابانة عن غاياته كلما ارتفع في سلم البلاغة ، وبلغ ما يريد من نفوس قارئيه .

وقد ظل اللسان العربي لساناً عربياً مبيناً حتى سطع نور الإسلام ، واتسعت الفتوحات ، ودخل الناس في الإسلام أفواجاً ، فاختلط العجم بالعرب وتزاوجوا وتصاهروا ، ومعروف هو دور الأم في تربية الأطفال وتنشئة الجيل الجديد . فبدأ التغيير في ملكتهم وظهر اللحن في لغتهم وتسربت العجمة إلى لسانهم عن طريق الأمهات والمربيات الأجنبيات فسمع الأطفال كلمات غير سليمة النطق واعتادوا على النطق بها بلغة مهجنة ملتوية . قال ابن خلدون : « والسمع أبو الملكات اللسانية ، ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع »[70] .

تذمر العرب مما كانوا يسمعونه من اللحن ، وبصورة خاصة قراءة القرآن ، وأحسوا بالحاجة الماسة إلى ما يحفظ لغتهم من اللكنة ، وما يصون لسانهم من العجمة ، فوضعوا علم النحو واهتموا به كثيراً لشدة عنايتهم بالقرآن ليقرأه العرب كما أنزله الله جل وعلا بلسان عربي مبين .

وأمثلة اللحن وتفشيه بين القوم ، كثيرة نذكر بعضاً منها على سبيل الذكر : قالوا إن

---

(70) المقدمة ص 695 .

اعـرابياً سمـع مؤذناً يقـول : أشهد أن محمـداً رسول الله (بنصب رسـول الله) فقـال : ويحـك يفعل مـاذا ؟ كما روي إن عمـر بن الخطاب مـر على قـوم يسيئون الـرمي ففرعهم فقالوا : « نحن قوم متعلمين » فاعرض مغضباً وقال : « والله لخطؤكم في لسانكم أشـد علي من خطئكم في رميكم » .

اختلف الـرواة والباحثـون على أن واضـع النحو هـو أبو الأسـود الدؤلي ، من هـذه الروايات رواية تقول[71] : إن إعرابياً قدم في خلافة عمر بن الخطاب فقال : من يقـرئني شيئاً مما أنزل الله تعالى على رسوله (ص) ؟ فاقـرأه رجل سـورة « براءة » حتى إذا وصـل إلى قوله تعالى : ﴿ **إن الله بريء من المشركين ورسوله** ﴾ بكسر اللام ؛ فقـال الأعرابي : أو قد بريء الله من رسوله ؟ إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه ؛ فبلغ عمر مقـالة الأعـرابي فدعـاه فقال : يـا اعرابي اتـبرأ من رسـول الله (ص) ! فقص عليـه الأعـرابي قصته . فقال عمـر : ليس هذا يا أعرابي . فقال : إن الله بريء من المشركـين ورسولـه (برفع اللام) فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ مما بريء الله ورسولـه منهم فأمـر عمر أن لا يقـرأ القرآن إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع النحـو . والروايـة الثانيـة التي نراها أقرب إلى الصحة تروي عن أبي الأسود أنـه قال : « دخلت عـلى أمير المؤمنـين عـلي بن أبي طالب كـرم الله وجهه ؛ فـوجـدت في يـده رقعـة فقلت : مـا هـذه يـا أمـير المؤمنين ؟ فقال : إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخـالطة هـذه الحمراء (يعني الأعاجم) فأردت أن أضع شيئاً يرجعون إليه ، ويعتمدون عليه . ثم ألقى الرقعـة وفيها مكتوب :

الكلام كله اسم وفعل وحرف ؛ فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبىء به ، والحرف ما أفاد معنى ، وقال لي : انح هذا النحو ، وأضف إليه مـا وقع إليـك . . .[72] وقد أكد هذا الخبر ابن خلدون في مقـدمته فقـال : « وأول من كتب في النحو أبـو الأسود من بني كنانة ، باشارة من علي كرم الله وجهه » .

كما سمعت رواية أخرى تعلل سبب اندفاع أبي الأسود في وضع علم النحو تقـول : « قالت ابنة أبي الأسود لأبيها : ما أحسنُ السماء (بالرفع) فقال لهـا نجومهـا ؟ فقالت : إني لم أرد هذا ، وإنما تعجبت من حسنها ، فقال لها : إذن افتـحِ فاك وقولي : ما أحسنَ السماء ؛ وعند ذلك ، لما دخل اللحن إلى بيته بالذات ، وضع علم النحو .

---

(71) راجع في هذا الموضوع المزهر للسيوطي ج 2 ص 246 وصبح الأعشى ج 1 ص 169 .

(72) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 121 .

يبدو من هذه الأقوال وغيرها بأن واضع النحو هو أبو الأسود الدؤلي . قال ابن قتيبة ! « إن أبا الأسود أول من تكلم في النحو وهو أول من وضع العربية »[73] .

وقال ابن سلام الجمحي : « أول من أسس العربية ، وفتح بابها ، وانهج سبيلها ، ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي »[74] .

من سماه نحواً ؟ سمي نحواً لقول علي بن أبي طالب (ع) لأبي الأسود : انح هذا النحو . وقيل : إن أبا الأسود كان كلما وضع باباً عرضه على علي (ع) فيقول له : ما أحسن هذا النحو الذي نحوت .

نشأة علم النحو : علم النحو كما قال العالم الانجليزي سبنسر هو كنمو الإنسان وتطوره ، ينشأ صغيراً ثم يكبر ، وضع بذوره أبو الأسود الدؤلي ، ثم أضاف إليه من جاء بعده ما استدركه ، ثم زيد عليه وابتدع فيه حتى كمل ونضج .

قيل إن هذا العلم لم تطل مدة حضانته ، كغيره من العلوم ، بل شب واكتمل بخطى واسعة ؛ لحاجة العرب الماسة إليه ، من أجل حفظ لغتهم ، وخاصة القرآن الكريم .

تعهده بالرعاية البصريون والكوفيون فاستكملوا قواعده . وقد استحثهما على ذلك التنافس بينهما الذي اشتد ردحاً من الزمن يزيد على المائة سنة . فخرج هذا العلم وقد تمت أصوله ، وكملت عناصره بجهود كبار النحاة من المدرستين . في مدينة بغداد (دار السلام) . وفي بغداد كان دور الترجيح بين المدرستين حتى انتشر نور هذا العلم على جميع الحواضر الإسلامية .

قسم العلماء المراحل التي مر بها علم النحو إلى أربع :

المرحلة الأولى : النشوء والتكوين اختصت به البصرة من عصر واضعه ، أبي الأسود الدؤلي إلى عصر الخليل بن أحمد .

المرحلة الثانية : النمو والترقي : اشتركت فيه المدرستان ، ويبتدىء من عهد الخليل بن أحمد (البصري) ، وأبي جعفر الرؤاسي الكوفي .

المرحلة الثالثة : مرحلة النضوج والكمال : وقد اشتركت فيه أيضاً مدرستا البصرة والكوفة ويبتدىء من عهد أبي عثمان المازني (البصري) وابن السكيت (الكوفي) .

---

(73) المعارف ص 192 .

(74) انباء الرواة للقفطي ج 1 ص 14 .

المرحلة الرابعة : مرحلة الترجيح : ابتدأ من عهد بغداد حتى عصرنا اليوم ، وقد اشترك فيه جميع العرب : البغداديون والمصريون والشاميون والأندلسيون .

مدرسة البصرة :

زعيم هذه المدرسة الخليل بن أحمد الذي كان مجمعاً علمياً بذاته ، جال وادي الحجاز ونجد وتهامة واستمع إلى أحاديث أهاليها ، ثم عاد إلى البصرة واستجمع كل ما سمع ، وقد أعانه فكره الوقاد وذاكرته الحادة على البحث عن جواهر هذا العلم مستعيناً بذلك بالنحوي المعروف يونس بن حبيب الذي شد أزره وكانت له حلقات علمية ومذاهب علمية تفرد بها دون سواه . ومن أشهر رجالات البصرة في علم النحو :

أبو الأسود الدؤلي ت 69 هـ .
ونصر بن عاصم ت 89 هـ .
وعنبسة الفيل ت 100 هـ .
وابن هرمز الأعرج ت 117 هـ .
ويحيى بن يعمر ت 129 هـ .
والأخفش الأكبر ت 157 هـ .
والخليل بن أحمد ت 174 هـ .
ويونس بن حبيب ت 182 هـ .
وسيبويه ت 188 هـ .
وقطرب ت 206 هـ .
والمازني ت 249 هـ .
والرياشي ت 257 هـ .
وأبو حاتم السجستاني ت 255 هـ .
والمبرد ت 285 هـ .

مدرسة الكوفة :

تبدأ مدرسة الكوفة عند القدماء بأبي جعفر الرواسي 187 هـ[75] وما نراه أنّها بدأت مع الكسائي ت 189 هـ ولا نعلم أن كوفياً كان لغوياً بالمعنى الدقيق قبل الكسائي . ويؤيدنا في رأينا هذا بروكلمن[76] قال في عرضه لنشأة المدرستين : « وكان تنافس سيبويه

---

(75) ضحى الإسلام لأحمد أمين ج 2 ص 284 .
(76) تاريخ الشعوب الإسلامية ج 2 ص 28 .

في علم النحو أحد قراء القرآن السبعة الكسائي الكوفي الذي سبق لـه أنْ علم الرشيد نفسه ، ثم عهد إليه الرشيد في تأديب ولده الأمين ، ولم يشر إلى نحويين قبله كما فعل غيره من قدماء ومحدثين . أما عن المادة النحوية للمدرستين التي عني بجمعها الخليل بن أحمد وعلي بن حمزة الكسائي فهي مجموعة من :

1 ـ المرويات الضخمة التي عني بجمعها الرواة الأولون كأبي عمر بن العلاء وأبي عبيدة الأصمعي وغيرهم من البصريين .

2 ـ البوادي العربية التي كانت تزخر بالفصاحة وبالأعراب الذين لم تشب لقائهم ولهجاتهم شائبة من عجمة كبوادي نجد والحجاز وتهامة .

3 ـ الشعر العربي الجاهلي والإسلامي كان مصدراً من مصادر الدراسة الكوفية وأساساً بنوا عليه كثيراً من أصولهم .

4 ـ القراءات وهي مصدر هام من مصادر النحو الكوفي ، ولكن البصريين وقفوا منها موقفهم من سائر النصوص اللغوية فاخضعوها لأصولهم وأقيستهم . أما الكوفيون فلهم موقف مغاير حيث قبلوها واحتجوا بها .

أكبر الظن أنّ الكسائي وتلميذه الفراء هما المؤسسان الحقيقيان لهذه المدرسة استفادا من نحو البصرة فغيرا فيه ونهجا في دراسته منهجاً مستقلاً .

ولكن القدماء أبوا إلا أن ينسبوا إلى أشخاص قبل الكسائي زعامة المدرسة الكوفية من بينهم أبو جعفر الرواسي ومعاذ بن مسلم الهراء .

أما إذا تأملنا بعمق وتريثنا قليلاً وجدنا أن الدراسة النحوية في الكوفة تبدأ بالكسائي ت 189 هـ فهو الذي نهج بالنحو منهجاً جديداً ، تولاه من بعده الفراء ت 207 هـ بالرعاية فهما رئيسا هذه المدرسة وإليهما يعزى تأسيسها وتنظيم منهجها وبهما يبدأ تاريخها .

أما قبل ذلك فالنحو بصري محض وأهل العربية فيه سواء ، في البصرة كانوا أم في الكوفة أم في سائر الأمصار . كلهم أخذوا النحو من معاهد البصرة ثم انتشروا في سائر الاقطار في الكوفة أولاً وفي بغداد ثانياً ثم في مصر وسوريا والمغرب والأندلس . وظلت البصرة وحدها تقوم بعبء هذا العمل الذي كان قرآنياً ثم أصبح قرآنياً لغوياً ، ثم لغوياً خالصاً قرابة قرن من الزمن .

من منتصف القرن الأول إلى منتصف القرن الثاني . وإذا أردنا أن نؤرخ لمدرسة

الكـوفة ينبغي أن نؤرخ للكسـائي ، لأنه النحـوي الأول « الذي رسم للكـوفيين رسـوماً يعملون عليهـا » كما قـال أبو الفـرج . ولأنـه « عـالم أهـل الكـوفـة وأمـامهـم » كـما قـال السيـوطي ؛ وإذا أردنا المصـدر الأول الذي استقى منه الكسائي علمـه وأصبح إماماً في النحـو فإننـا نرى أن الخليـل بن أحمـد هـو ذلـك المصـدر الـذي لقن الكسـائي صنـاعـة الإعراب . وليس ذلك كثيراً على الخليل بن أحمد صـاحب كتاب العـين ، ومؤلف البحور الشعرية التي كانت وما زالت الموازين الأصيلة للشعراء في كل العصور ، وصاحب العقل المبتكر في كل ميادين الابداع الجميل والعطاء الأصيل .

ـ مـا تتميز بـه مدرسـة الكوفـة أنها كانت تعتمـد المثل الـواحد أو الـظاهرة الفـردية ويقيسون عليها . ومذهب الكوفيين السماع فقد يهون عليهم نقض أصـل من الأصول ، أو قـاعدة من القـواعد ولا يهـون عليهم اطراح السـماع . فالمثـال الواحـد الذي يسمعـه النحوي من أعرابي أو أعرابية ينبغي أن ينظر إليه على أنه يمثل لهجة لغوية تحتل مكانها بين البيئات اللغوية المختلفة التي احتوتها البيئة العربية الواسعة ، فاهدارها إهدار لهذه البيئـة ومضيعة لجانب لغوي لا تتم الدراسة إلا بالاحاطة به .

ـ والأمثلة في النحو البصري توضع لتلائم الأصول الموضـوعة ، بحيث إذا اصـطدم بأصل منها ، فزع إلى التأويل . فإذا خضع له ، وإلا وصفه بالشواذ أو الندرة .

ـ نحاة الكوفة كانوا يمتازون بفهم العربية فهمـاً لا يقوم عـلى افتراضـات وتكهنات أو استشهاد بقوانين العقل ، وأصول المنطق ولكنـه يقوم عـلى تذوق اللغـة وجس طبيعتها . وهم بذلك أقدر من البصريين على تصوير المعاني الطبيعية ، وأصدق منهم تفسيراً لظواهر الـتركيب ، وهم بكشفهم عن معاني الكلمات الـطبيعية كثيـراً ما أعـانوا العقـل الإنساني السليم على أن يحصل على حقه من التقدم الحضاري .

أما البصريون فقد جاءت تفسيراتهم عقلية ـ فنية ، وتعليلاتهم منهجية ـ صناعية .

فـإذا أمعنـا النـظر في مقارنـة دقيقة رأينـا أن النحو الكـوفي أقرب إلى روح الـدراسة اللغـوية من النحـو البصري ، وأبعد عن الأخـذ بأسبـاب المنطق ، وأن الكـوفيين كـانوا أجـدى على اللغـة العربيـة من البصريين ، بـالرغم من سبق هؤلاء إلى تنـاول البحـوث اللغوية . لقد أضاع البصريون بالأصول التي أملاها عليهم منهج دراسي دخيل أمات مـا في اللغة من حيوية ، رماها بالجدب والجمود .

ولو تتبعنا أعمال الكوفيـين لوجـدناهـا قريبـة الشبه بمـا ينادى بـه أصحاب المـدارس الحديثة ، فمنهجهم العام يقوم على الاعتماد على المسموع من كـلام العرب ، والميـل عن تحكيم المقاييس الفعلية في القضايا النحوية .

ويعلم الجميع أن لكل لهجة من اللهجات العربية مزايا خاصة بها نجمت عن تأثرها ببيئة خاصة ومجتمع خاص ، ولولا ذلك لما اختلف التميميون والحجازيون مثلاً . ولا يشك أحد في فصاحة هؤلاء وأولئك جميعاً .

والخلاصة أنه لن يغير فصاحة لهجة مخالفتها لهجات عربية أخرى . « فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء وإن كان غير ما جاء به خيراً منه » .

4 ـ الخطابة

كان عصر صدر الإسلام من أزهى عصور الخطابة العربية ، ففيه كان مشرق النبوة ومولد الدين ، وظهور الإسلام ، ونزول القرآن ، وانتصار الدعوة الإسلامية المباركة . ثم أن حياة الجهاد التي شملت الأمة العربية طوال هذه المدة ، وكانت فاتحتها دعوة النبي إلى الدين الجديد ، مما اضطر العرب إلى الخصام والمحاجة والحوار والترغيب والترهيب للذود عن عقيدتهم وتثبيت شريعة الإسلام على الأرض .

والنبي (ص) وأصحابه المجاهدون أيدوا هذا الدين بلسانهم الطليق وخطبهم البليغة .

ولما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى كثرت الأحداث والفتن ، وطال الحوار والجدل ، واحتدم النزاع وكان الرد والدفاع . وأول ما ظهر من اختلاف كان بين المهاجرين والأنصار ، فيمن يتولى أمر الأمة بعد النبي ، ثم فتنة المرتدين ، ثم تجهيز الجيوش للجهاد في سبيل الله . ثم نكبة المسلمين بمقتل عثمان ، والفتنة الكبرى أيام علي ، وانقسام المسلمين أحزاباً وشيعاً يحارب بعضهم بعضاً ، منهم من أراد الدنيا وبهارجها فانضم إلى معاوية بن أبي سفيان والي الشام ، ومنهم من آثر الآخرة وفهم الحق فناصر علياً أمير المؤمنين وخليفة المسلمين .

ففي هذا الجو الذي وصفنا ، وفي تلك الأحوال كان للخطابة شأن هام ، فهي وسيلة ناجحة يوضح كل منهم فيها مذهبه ، ويدلي بحجته ، وهي اداة المتجادلين والمحاورين .

كما أن الدين الجديد جعلها شعار المجتمعات الرسمية : كخطبة الجمعة وخطبة العيدين ، وموسم الحج ، كما كان عليها اعتماد القوم عند التقاء الصفوف ، وقدوم وفود ، وارسال المبشرين .

أنواع الخطب في صدر الإسلام :

1 ـ أهم أنواع الخطب في هذا العصر كانت : الخطب الدينية ، التي تبشر بالإسلام وتدعو إلى الدين الجديد ، وتهتم بشرح العقيدة الإسلامية ، وتبيين الأحكام ، أو في الوعظ والارشاد ومن هذا النوع كانت أكثر خطب النبي (ص) .

2 ـ الخطب السياسية : وهي التي قيلت في شرح المواقف السياسية كالخلافة ، والولاية ، والمناهج السياسية للخلفاء والأمراء والولاة .

3 ـ الخطب العسكرية : وهي التي يقولها قواد الجيوش في تهيأة الجند قبل الزحف ، ودب الحماسة في قلوب المقاتلين عند التقاء الصفوف .

ما تتميز به الخطابة في صدر الإسلام :

ـ حرص الخطيب على اختيار الالفاظ الجزلة ، البعيدة عن خشونة البداوة ، اقتداء بالفاظ القرآن الكريم ، حيث كان ولم يزل المثل الأعلى للبلاغة العربية .

ـ ترصيع الخطبة بما يناسب الموضوع بآيات القرآن الكريم ، والمبالغة في ذلك أحياناً حتى تكون أكثر الخطبة آيات لبرهان القصد وتثبيت الحجة .

ـ تفاوت الخطابة بين الايجاز والاطناب ، وذلك على حسب المقام .

ـ قلة الاسجاع ، إلا ما جاء منها عفواً بلا تكلف .

ـ قوة الأسلوب وجماله وشدة تأثيره ليمتلك عقول السامعين فيقنعهم ، ويؤثر في زمام وجدانهم وشعورهم فيستميلهم ويهذب طباعهم النافرة .

وخلاصة القول إن الخطابة وصلت في هذا العصر إلى أرقى مراتبها ، بتأثير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، ولم تشهد العربية عصراً حافلاً بكثرة الخطب والخطباء مثل هذا العصر . وأعظم الخطباء وأشهرهم الرسول الأعظم (ص) والخلفاء الراشدون وعلى رأسهم الخطيب المعروف والبليغ المشهور صاحب نهج البلاغة ، الإمام علي بن أبي طالب (ع) وقواد الجيوش الإسلامية ، والولاة . كل هؤلاء اعتمدوا ملكة اللسان وكانت لديهم الوسيلة الوحيدة في الإعلام ، احتلت مكان الصحيفة والاذاعة والتلفزيون وجميع وسائل الإعلام الأخرى التي نستعملها نحن اليوم .

لقد أصبحت الخطابة أداة الدعوة ، واللسان الناطق بالرسالة ، تشرح للناس أسرارها ، وتبين لهم المثل الأخلاقية والقيم الإنسانية التي أتت بها ، وتدلهم على طريق الهدى والرشاد ، والحق والصلاح ، فتفند آراء المخالفين وتجادل الخصوم .

ولما لم تكن الكتابة قد شاعت وانتشرت في الآفاق ، ولما كان الإسلام يكره الشعر ، لما يحمل من منافرات الجاهلية ومفاخرات العصبية القبلية ، كان للخطابة في الإسلام عظيم الشأن وجسامة المهمة .

أول ما اعتمدها رسول الله (ص) حين كلفه ربه بنشر الإسلام ، فدعا عشيرته الاقربين وأحياء العرب أجمعين وعرض عليهم دعوته وشرح لهم كل موقف من عقيدته . وكان يلقى الناس في مواسم الحج وفي الأسواق فيخطب فيهم ويقول لهم : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا .

ثم هاجر إلى المدينة (يثرب) وأقام مجتمعاً جديداً . وشرع يشرح للناس بحسن بيانه وعذوبة لفظه ، وسماحة لسانه . حتى أقبلت عليه وفود العرب من كل حدب وصوب ، فخطب في كل وفد يدعوهم إلى اتباع الدين الجديد ، ويبين لهم الاحكام الشرعية ، والآداب الدينية كما أمره بها رب العالمين . سبحانه وتعالى إنه العزيز الحكيم والرحمان الرحيم .

قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾ [النحل الآية : 44] .

وكذلك كانت حال الخلفاء من بعده يعتمدون الخطابة في رسم سياستهم في رعاياهم ، وتحديد دساتيرهم في حكم الناس ومعاملاتهم ، ونظم أمور حياتهم ، فيفسرون ويشرحون في كل علم واجتهاد ، ويحضون الخطباء على كل غزوة أو جهاد .

هكذا كان دور الخطابة في صدر الإسلام من نباهة شأن ، وعلو مكانة ، وارتفاع ذكر وعظمة منزلة . مهيأ لها كل أسباب الازدهار .

أسباب ازدهار الخطابة

الحرية :

إن ما أسبغه الإسلام على المجتمع الجديد من صراحة ، وما غرسه فيه من حرية واسعة يستطيع من خلالها الإنسان أن يراجع ويناقش ويحاور ويجادل ويعترض حتى على الخليفة نفسه هو الذي مكن الخطابة وجعلها منشورة الراية . هذه الحرية التي اتسع مداها ، وامتد أفقها لتشمل النساء . فلم تكن المرأة لتسكت عما تظن أنه حق ، بل كانت تخطب وتتحدث وتجادل .

لقد ذهبت امرأة إلى رسول الله وقالت له : إني وافدة النساء إليك ، ثم ذكرت ما

للرجال من الأجر ؛ وقالت أخرى : « يا رسول الله ، غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوماً تحدثنا فيه ، ولهم كذلك .

وكانت امرأة تعترض عمر بن الخطاب وهو يخطب ، فتراجعه ، حتى لقد يرجع عن رأيه ، ويقول : « أصابت إمرأة وأخطأ عمر » .

وكانت عائشة زوج الرسول وبنت أبي بكر الصديق تخطب لترد على خصوم أبيها لتبين مآثره وتذكر مفاخره .

والسيدة زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب سيد البلغاء ، وقفت في مجلس يزيد والإباء والأنفة يملآن نفسها ، وقد اسمعته من التوبيخ والتقريع غير هيابة ولا وجلة .

والزرقاء بنت عدي وقفت في حرب صفين ضد معاوية ، ولما طلبها إليه قالت له بحرية تامة : « إنه قد مات الرأس ، وبتر الذنب ، والدهر ذو غير، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر » حتى قال لها معاوية : والله لوفاؤكم له بعد موته ، أعجب إلي من حبكم له في حياته[77] .

وأم الخير بنت الحريش الباروقية كانت تؤيد علياً أيضاً في سياسته ، وتخطب في الناس فتلهب النفوس وتثير الحماس وتدفع الجماهير المؤمنة إلى مقابلة أعداء الله بسيوفهم ورماحهم . هذه بعض مآثر الحرية على الخطابة في ظلال الإسلام .

الجهاد :

الجهاد في سبيل الله ، وما يستلزمه من تحميس الناس له وتحريضهم عليه .

1 ـ جهاد النفس .

2 ـ الكفاح ضد عدو الإسلام .

3 ـ الصراع مع الطبيعة .

إن واجب الدين مد الإنسان بالبرامج والتعاليم الضرورية لنجاحه في جهاده لنفسه ، وصراعه مع الطبيعة والاجابة على الأسئلة المصيرية .

أ ـ ما هي التغييرات والتعديلات المطلوب اجراؤها في ذات الإنسان ، وكيف يتم إصلاحه وتهذيبه .

---

(77) راجع النظم الإسلامية للمؤلف ص 333 وما بعدها .

ب ـ ما هي العلاقات الواجب اقرارها بين الناس ، أو بعبارة أوضح ما هو النظام الاجتماعي السليم والصالح ؟ .

ج ـ ما هو الأسلوب الواجب اتباعه من أجل إقامة هذه العلاقات والنظام الاجتماعي أو ما هو الكفاح الذي يمكن الإنسان من تحقيق التغييرات المنشودة ، لكي تتم الوحدة العادلة بين الناس والاتفاق التام فيما بينهم ، ليتحقق النظام الاجتماعي المطلوب ؟ .

د ـ ما هي وسائل الصراع مع الطبيعة ؟ . وما هي كيفية الاستفادة منها ؟ .

إن أهمية الدين ، ودور كل مدرسة تربوية ، تحددها نوعية الأجوبة المعطاة لهذه المسائل المطروحة السالفة الذكر . وبعبارة أخرى ، إن قيمة الدين رهن بما يعطيه من اتجاه إيجابي للتغيير ، وكيفية ناجحة لكفاح الإنسان والمجتمع . فعندما تكون هذه الكيفية تكاملية ، تقدمية ، تنتصر بذلك القوة المكافحة ويتم ضمان استمرار حياة الإنسان الحرة الكريمة من جهة ، وسموه الروحي وتكامله الأخلاقي من جهة أخرى . ويكون الاتجاه من أجل إيجاد الإنسان الأفضل والأرقى علماً وأخلاقاً . الإنسان المسلم المؤمن المثل الأعلى الذي وصفه أبو تمام في بعض قصائده فقال :

من لي بإنسان إذا أغضبته وجهلت	كان الحلم رد جوابه ؟
وإذا طربت إلى المدام شربت من	أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغي للحديث بقلبه	وبسمعه . . . ولعله أدرى به

الدين الحق هو منهاج كفاح مستمر للإنسان ، يتناوله في بداية الأمر أفضل الناس وأخلصهم وأكثرهم تكاملاً وتقدماً .

وبما أن القوة المجاهدة تتألف من عنصرين : الإنسان والوسائل المادية ، فالتغيير المرغوب فيه يشمل البناء النفسي والبناء المادي معاً ، ولا ريب أنه كلما كان البناء النفسي قوياً ومتيناً كلما كان الانتصار مؤكداً . ومن المعلوم أن تكامل الكيان المادي يكون من خلال التطور العلمي الاقتصادي ، وتكامل الكيان المعنوي يتم من خلال الادراك الكامل للهدف الذي يرجى تحقيقه ، والفهم العميق للعقيدة الراسخة والإيمان بها ؛ ليكون الجهاد في سبيل الله ، الجهاد السامي النبيل الذي يبغي الخير والعدالة والحرية للناس كافة .

كل هذا يتم توضيحه وشرحه عن طريق الخطابة وبواسطة الخطباء .

إلى جانب هذا يمتلك العرب ملكة أصيلة في البيان ، والكلام طوع أيديهم ، وناصية اللغة بأمر ارادتهم حتى لم يكن يصعب عليهم قول أو يند عن أذهانهم خطاب . وكان ذلك كله داعياً إلى نهضة الخطابة وازدهارها .

أغراض الخطابة في صدر الإسلام :

إذا تأملنا الأطوار التي مرت بها الخطابة في هذه الفترة نلمس بوضوح كيف كانت تؤدي رسالتها على أكمل وجه دون أن يعرقل سيرها عائق ، ولا يمس بها ضعف أو إعياء ، حتى نهضت بهذه الموضوعات :

1 ـ دعوة الناس إلى الإيمان بالله ورسله وملائكته واليوم الآخر ، بدلاً من المفاخرة بالعصبية القبلية ، وعبادة الأوثان والأصنام ، وفوضى الحياة الجاهلية .

2 ـ الحث على الجهاد في سبيل الله ، والاستشهاد في سبيل الله بدلاً من الغارات في الجاهلية والسلب والنهب والأخذ بالثأر .

3 ـ شرح آداب الدين ، وتبيان فضائله وكشف أسراره ، وإظهار ما يتميز به من صفات حميدة وميزات نبيلة تصلح أمور الناس في دنياهم وتسعدهم في آخرتهم .

4 ـ الدعوة إلى الاعتدال في الحياة الدنيا ، فلا إفراط ولا تفريط ، ولا انغماس في ملذات الدنيا الزائلة بل التفكير بالآخرة والنعيم الدائم .

5 ـ ومن دلائل اهتمام الإسلام بالخطابة وتقديره لشرف مقامها ، أنَّه جعلها جزءاً من العبادة في يوم الجمعة من كل أسبوع ، وفي الأعياد ، وفي الوفود وكل ما ينوب المسلمين من أحداث في الحرب والسلم .

6 ـ استخدم المسلمون الخطابة في جميع ميادين حياتهم فشرحوا منهجهم السياسي ، ودافعوا عن آرائهم ومبادئهم ، وكل ما استلزمته الخلافة الإسلامية ونظامها الجديد من وعظ وإرشاد وحكمة وتوجيه .

خصائص الخطابة الإسلامية :

تتصف الخطابة الإسلامية بصفات عدة أهمها :

1 ـ الالتزام من حيث المبدأ بمنهج واحد ، وهو حمد الله وتوحيده والثناء عليه بما هو أهله ، وقد يتبع ذلك الصلاة على رسول الله . هذا النموذج كان متبعاً في الكثير الغالب ، ومخالفته لم تكن محمودة عند الجميع . فقد عابوا على زياد خطبته التي خلت من حمد الله ، فسموها (البتراء) أما الخاتمة فغالبهم يختم بقوله : « أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم » .

2 ـ كانت كغيرها في العصور الأخرى تقوم على الاقناع والتأثير ، معتمدة الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة ، وكثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم ، ومأثور الكلام من مثل وحكمة ، وأحياناً بالشعر .

3 ـ أما عن أسلوب الخطابة في صدر الإسلام فقد كان الأسلوب الفطري الذي يوائم السليقة ، ويساوق الطبع ،ولا يتعسف في لفظ أو فكر أو خيال يواكب اللفظ المعنى فكأنه لباس له ، فمرة يكون عاصفاً ثائراً ، ومرة يكون هادئاً ليناً وذلك حسب مقتضيات الحال ، ووفقاً للمراد والظروف الذي يتطلبه الموقف . فالايجاز في موضع الايجاز ، والاطناب في موضع الاطناب والاطالة ، وترك السجع المتعمد ووحشي الكلام ، والبعد عن التكلف والتصنع ، والانسجام التام في البناء والتعبير .

قال (ص) في المثالية الواقعية فأوجز وأوفى : « إن هذا الدين متين ، فأوغلوا فيه برفق ولا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله ، فإن المنبتَّ لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى »[78] .

هذا الدين متين : يشبه الدين بالحبل المتين على طريق الاستعارة المكنية أوغلوا : أي ادخلوا .

والمنبت : المرهق نفسه في السير حتى ينقطع دون غايته ، فقد شبه من يغلو في دينه بالمسافر المرهق المنقطع ، وهنا استعارة تصريحية .

من علامات الشريعة الإسلامية (شريعة الفطرة) بعدها عن التكليف بما يرهق كاهل الإنسان ، ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ [البقرة : 286] . ﴿ **وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ [الحج : 78] . في الحديث مراعاة لنوازع النفس البشرية ، وما تؤدي إليه من ضعف وانحراف لئلا ييأس المخطئون ، ولا يغلو العابدون ، ولا تهدر الحقوق ، ولا تقصر الواجبات لم يهدد الرسول (ص) بأنه لا يدخل الجنة ، وإنما دعاه أن يؤدي حق المجتمع فيه . ذلك أن النفس الإنسانية تهرب من الشاق ويستهويها الميسور .

وقد جاء رجل إلى رسول الله (ص) وقال له : إنه لا يطيق الصلوات كلها ، وإنه يتعهد ببعضها ، فلم ينهه الرسول . فاستغرب الصحابة ، فقال لهم بعدما ذهب : إذا تمكن الإيمان من قلبه ، فسيصليها جميعاً . ومن تريد نصحه ، لا تقل له علنا ، بل سراً بينك وبينه ولا تجادله فينفر منك . قال الشاعر :

لك نصحي وما عليك جدالي   آفة النصح أن يكون جدالاً

(78) رواه الشيخان والحديث لجابر عن رسول الله .

فتأمل معي هذه المعاني المكثفة في قليل من الكلام ، أوجز فأصاب .

وهذا حديث نبوي آخر يتطلب التوضيح والتفصيل وضرب الأمثال .

قال رسول الله (ص) : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وأصاب بعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فآذوهم . فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن دركوهم وما أرادوا ، هلكوا جميعاً وإن أخذوا على يدهم نجوا جميعاً »[79] .

يشبه الرسول الأعظم محافظة المؤمن على حدود شريعته ، بمحافظة الجندي على حدود وطنه . كلاهما لا يتهاون في اداء مهمته حتى أنه يبذل دمه دونها .

وهذا الأسلوب البياني أتى على طريقة التشبيه التمثيلي في علم البيان ، وقد مثل بالصور المادية المتحركة لتكون أوقع في النفس ، وادعى لرسوخ المشهد ، فصور بسرعة ووضح وفصل .

أما من حيث الجوانب الاجتماعية التي يرمي إليها الحديث : فجماعة يتذرعون بحق الفرد وحياته وحريته ، وآخرون حائرون في حق المجتمع عندما يهدده حق الفرد . وفي حياة المجتمع وحرية المجتمع .

وقد شبه الرسول هذين الفريقين بالسفينة وهي تمخر عباب البحر ، والامواج تحف بها من كل جانب ، والسفينة ملك لهذين الفريقين ، ولها طابقان ولكل راكب موضعه من السفينة وملكه الخاص فيه . فإذا جاء أحد الركاب وقال : هذا موضعي وهو ملكي ولي الحق أن أصنع فيه ما أريد ، ومن حقي أن أحدث ثقباً في ما أملك ، لاستقي منه ، ولامنع الأذي عن غيري . . . ولكنه إذا استعمل هذا الحق الخاص الذي لا ينازعه فيه أحد ، فإن السفينة ستغرق بكافة من فيها ، حتى بهذا الأحمق وهو يسيء استعمال حقه . في هذه الحال يظهر الرسول ويمنع السفيه من التصرف في ملكيته الخاصة ، لأنه لم يبال بحق الجماعة ، ولم يدرك مصلحته البعيدة في استمرار حياة السفينة كلها فالحد من حرية الفرد من أجل حماية حرية الجماعة وحياة الجماعة ضرورة لا بد منها .

وما أكثر أمثال هذا الأحمق في عصرنا الحاضر ، الذين يسيئون استخدام حقوقهم ، وحرياتهم ، وملكياتهم الفردية الخاصة ، ولو تضرر منها المجتمع والدولة . والأمثلة تفوق

---

(79) رواه البخاري عن النعمان بن بشير .

الحصر . كالجواسيس الذين يقبضون المال من الأجانب ويتجسسون على أوطانهم ينظرون إلى مصلحتهم الخاصة ولا يهمهم مصلة الجماعة .

وقد شرع الإسلام الحجر على السفهاء وحدد حقوق الفرد التي تهون أمام مصلحة الجماعة ودعا إلى الالتزام بحدود الله وأحكامه حتى لا يقع أحد في الخطايا . فأوجب ضرورة تطبيقها وعدم التفريط فيها قبل أن تقع الكارثة وتفوت الفرصة على الجميع .

فهل نستفيد نحن اليوم من وحي هذا الحديث ونعمل بكل طاقاتنا بأمانة وعقل وحب واخلاص لنحفظ السفينة اللبنانية من الأمواج الخارجية التي تنتابها ، ونقيها من الغرق ؟ نأمل ذلك والله ولينا وإليه المصير .

ففي هذا الحديث اقتضت الضرورة للتوضيح والتفصيل وضرب الأمثال لتتوضح الصورة وذلك على عكس ما اقتضت ضرورة الايجاز في الحديث السابق . من هنا كان القول المأتور : لكل مقام مقال .

هكذا كانت الخطابة في صدر الإسلام ، أما ما بقي لها من سماتها القديمة فهو : القيام على نشز من الأرض ، للاشراف على السامعين كما هي الحال في منابر المساجد ، والخطيب كان إذا قام لخطبته اعتمد على شيء في يده كسيف أو عصا . وعليه أن يتحلى بجهارة الصوت ، وتمام الوقار ، وكل ما يدعو إلى التأثير في نفوس السامعين لأن الغاية المرجوة من الخطابة الناجحة : الاقناع والتأثير . أي استمالة العقول واستمالة القلوب .

أشهر الخطباء في صدر الإسلام :

ازدهرت الخطابة في هذا العصر ازدهاراً ملحوظاً ، وكثر الخطباء والبلغاء ، جاء على رأسهم الزعيم الروحي والخطيب الأول الرسول الأعظم محمد (ص) .

ومن بعده من الخلفاء الراشدين تلميذه النجيب وابن عمه الحبيب صاحب نهج البلاغة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) .

خطبة النبي (ص) أيام التشريق[80] وهي خطبته في حجة الوداع .

وهي ككل خطبة يتمثل فيها صحة الطبع ، بعيدة عن التكلف ، تتجلى منها السهولة مع غزارة المادة ، والايجاز الذي يزاحم الاطناب ويتغلب عليه ، مع تحقيق

(80) كانت في السنة العاشرة من الهجرة ، وهي آخر خطبة ودع بها المسلمين ، وايام التشريق هي ايام النحر ، لأن الهدي لا ينحر حتى تشرق الشمس .

الغرض المطلوب . وذلك أمر لا يتيسر إلا لمن أوتـوا الحكمة وفصـل الخطاب مثـل رسول الله (ص) خير ناطق من البشر .

يقول رسول الله (ص) بعد حمد الله :

أيها الناس هل تدرون في أي يوم أنتم وفي أي بلد أنتم ؟ قالوا : في يوم حرام ، وفي شهر حرام ، وفي بلد حرام ، قال : ألا فإن دماءكم وأمـوالكم وأعراضكم عليكم حـرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه ـ ثم قـال : اسمعوا مني تعيشوا ، ألا لا تظّالموا[81] (ثلاث مرات) .

ألا إنه لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه . ألا إن كل دم ومال ومأثرة[82] كانت في الحياة الجاهلية تحت قدمي هذه ، ألا إن أول دم وضع دم ربيعة بن الحـارث بن عبد المطلب ، ألا وإن كـل ربا كـان في الجاهليـة موضـوع[83] ، ألا وإن الله تعالى قضى أول ربا بوضع ربا عمي العباس ، لكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تُظلمون ، ألا وإن الزمان استدار كهيئته يـوم خلق الله السمٰوات والأرض : « منهـا أربعة حـرم ؛ ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم » ، ألا لا ترجعوا بعـدي كفاراً يضرب بعضكم رقـاب بعض . ألا وإن الشيـطان قـد يئس أن يعبـده المصلون ولكن في التحـريش بينكم[84] .

اتقوا الله في النساء ، فإنهن عوان[85] عنـدكم ، لا يملكـن لأنفسهن شيئاً ، وإن لهن عليكم حقـاً ولكم عليهن حق ، ألا يوطئن فـرشكم غـيركم . فـإن خفتم نشـوزهن[86] فـاهجـروهن في المضـاجـع ، واضربـوهن ضربـاً غـير مـبرح . ولهن رزقهن وكسـوتهن بالمعروف . فـإنما أخـذتموهن بـأمانـة الله تعالى ، واستحللتم فـروجهن بكلمة الله ألا من كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من أئتمنه عليها ثم بسط يده فقـال : ألا هل بلغت ؟ ليبلغ الشاهد الغائب . فرب مبلغ خير من سامـع . اللهم اشهد ، ثـلاثاً ، إنَّ الله مـولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مـولاه فعلي مـولاه ، اللهم وال

---

(81) لا يظلم بعضكم بعضاً .

(82) المأثرة كالأثرة : المكرمة المتوارثة .

(83) من وضعه وضعاً وموضعاً : إذا حطه .

(84) التحريش : الإغراء .

(85) عوان : جمع عانية وهي الأسيرة .

(86) نشزت المرأة : إذا استعصت على زوجها وابغضته .

من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه أينـما دار »[87] . »

وما إنْ فرغ من كلامه حتى اندفعت الوفود إلى علي تبايعه وتهنئه .

هـذا القرار لم يصـدر عن النبي (ص) إلا بدافـع قاهـر ، فلقد أمـر الله النبي بـأن ينصب علياً للناس ويخبرهم بهذه الولاية ، وعندما تأخر بالتبليغ خوفاً من اتهامه من بعض الحاسدين بالميل لصهره والجنوح لقـرابته ، نـزلت الآية الكـريمة في اليـوم العاشر من ذي الحجة في السنة العاشرة للهجرة في حجـة الوداع في غـدير خم . قـال تعالى : **﴿ يـا أيها الرسول بلغ مـا أنزل إليـك من ربك وإن لم تفعـل فما بلغت رسـالته والله يعصمـك من الناس ، إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾** [المائدة : 67] .

موضوع الخطبة :

التحـذير من البغي والعـدوان والبعد عن سنن الجـاهلية الأولى التي يخشى أن يعـود إليهـا الناس وينسـوا دينهم . وفيها تـوصية بـالنساء والحكم في معـاملتهن . ثم التبليـغ بولاية الإمام علي بن أبي طالب (ع) .

مضمونها ومنهجها : بدأها (ص) بأسلوب الاستفهام الذي ينبه الأذهان الغافلة ، ويحرك القلوب الراكدة ، فيشعر المسؤول أن عليه عبء الإجابة ، فيبقى في حركـة ذهنية حتى ليصل إلى المطلوب فيهدأ خاطره وتستريـح نفسه . وإننـا نجد الكثـير من مثل هـذه البـدايـات الاستفهـاميـة في الأحـاديث النبـويـة . كـل ذلـك حتى يستقـر المعنى أكـثر في الأذهان ، ويتم الإقناع بأفضل أسلوب وبرهان .

كرر النبي (ص) بيان تحريم الدماء والأموال واعقبها بالأعراض . مما يدل حرصـه الشديد على تحريمها (الدماء والأموال) مكررة في صورتين ، أما الأعـراض فإنـه الشرف قد يحول دون الخوص فيها إلا في طائفة معينة . وقد أكد هذا الأمر بقوله : اسمعوا . . . تعيشوا . فجعل العيش الصالح مرتباً على سماع الامتثـال والقبول ، وقـد نفذه في أقـرب الناس إليه .

ثم قـال بالغـاء النسيء الذي كـانوا يحتـالون بـه للسير في حـروبهم وارواء عـطشهم بـالثأر ، فبـين أن الزمـان عاد كـما خلقه الله ، أول الأمـر ، ثم نهى عن الظلم وبصـورة خاصة في الأشهر الحرم .

---

(87) روى الحديث 110 من الصحابـة و 84 من التابعـين ، و 350 من العلماء على اختـلاف طبقاتهم راجـع نظم إسلامية للمؤلف ص 199 .

وخص ظلم المرأة في العصور الجاهلية ، وبين أن الإسلام قد أنصفها فأعطاها مالها وطلب إليها ما عليها فعليها حفظ الرجل في ماله وعرضه ، وعليه كسوتها والانفاق عليها . وله المتعة منها ، وعليها الطاعة له . هكذا أراد الله في حكمته . ثم ختم بالاستفهام ليحمل السامع التبعة والمسؤولية . وعلى عادته في القول ، في معانيه دقة ووضوح، وتنسيق وسمو ، وفي أسلوبه سهولة وبلاغة ، وجمال تستسيغه الأذن ، وتستهويه النفس .

الأسلوب النبوي ، كما عرفه البلغاء ، سهل ممتنع يحفل بالمعاني الكثيفة والحكم الغزيرة ، مع خلوه من الغريب النافر ، والحوشي المستكره ، والتعقيد اللفظي والمعنوي . ومثل هذا لا يصدر إلا عن نفس كريمة وفكر دافق . فهل أقوى وأروع من قوله : « ألا وإن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ، ولكن في التحريش بينكم » .

وقد جاءت تشبيهاته جميلة رائعة ، أصابت غرة الهدف وجاءت متساوقة في المقام . والخطب النبوية تحتذي أسلوب القرآن الكريم وطريقة تصويره وجمال تعبيره . يتزاوج فيها المعنى مع المبنى ، وتدق فيها الاستعارات وتلطف الكنايات والتشبيهات ، وتختال الأفكار في مطارف محفوفة من السحر والبيان . « إن من البيان لسحرا » .

خطبة للإمام علي بن أبي طالب (ع) :

من بيت النبوة ودوحة الرسالة علم كبير من أعلام الخطباء في عصر صدر الإسلام ، علي بن أبي طالب ولد بمكة قبل البعثة بثماني سنوات ، ونشأ فيها في كفالة الرسول (ص) كأحد أولاده ، مسلماً وهو صغير السن دون أن يدنس نفسه بشيء من آثام الجاهلية وما فيها من شرك وباطل لذلك قيل فيه « كرم الله وجهه » لأنه لم يسجد لصنم قط .

كان ذا منزلة رفيعة عند الرسول والصحابة وعلماء المسلمين ، وعلى جانب كبير من التقوى جمع أطراف العلم من جميع أطرافه . قال عبد الله بن عباس : « قسم علم الناس على خمسة أجزاء فكان لعلي منها أربعة ولسائر الناس جزء شاركهم فيه ، فكان أعلمهم به » .

كان يسأل عن أشكل الأمور وأعقدها فيجيب بها على البديهة لحل مشاكل المسلمين وتوضيح الأمور .

كان فارساً شجاعاً وبطلاً مقداماً وخطيباً مصقعاً ، وبليغاً عالي الشأن ، ومحاوراً منطقياً ، ومستشاراً مؤتمناً على تحقيق وتوضيح الرسالة الإسلامية طوال عهد الخلفاء الراشدين قبله وبصورة خاصة في عهد أبي بكر وعمر بن الخطاب .

جاهد في سبيل نشر الدعوة الإسلامية في حياة الرسول ، ونام في مضجعه ليفـدي به نفسه ، ويضمن نجاح هجرته ، مع ما كان يعلمه مما قد يصيبه من قتل أو تعذيب .

هاجر مع النبي إلى المدينة ، وأقام فيها مع رسول الله يستمد علمـه من علم صاحب النبوة ، وكان من كتّاب الوحي ، اشترك في جميع الغزوات التي خاضها الرسـول (ص) ضد المشركين والكافرين ما عدا غزوة تبوك . كان رائع التضحية والايثار ، إذ وقف وراء خليفة رسول الله يشد أزره ، وكان ظهيراً ومعيناً لمن جاء بعده .

هـو صاحب كتـاب جليل ، وأثـر أدبي خالد، هـو تحت كلام الخـالق وفـوق كـلام المخلوق جمعـه الشريف الرضي (المتـوفى عام 406 هـ) مشتمـلاً عـلى كـل خـطب عـلي ووصاياه وحكمه ، ومواعظه ، وأمثالـه ، ورسائـل عهوده ، ومحـاوراته . هـو كتاب نهج البلاغة الـذي تتلمذ عليـه ، وتثقف بثقافتـه الكثير الكثـير من عشاق الأدب ودارسيـه في القـديم والحديث ، ولا يـزال حتى اليوم من أهم كتب الأدب وأفضـل مصـادر الحضـارة الإسـلامية والثقـافة الـدينية والبـلاغة العـربيـة . والكتـاب نهج في البـلاغـة ، فخم في العبارة ، مصقول البيان يدخل إلى القلب بغير استئذان وصل في البلاغة إلى أسمى منازلها وفي الفصاحة إلى أعلى قممها .

وذلك يعود إلى نشأة علي في أسرة وبيئة كان لها مكانة عليا في دنيا البلاغة ، ثم تأثـره ببلاغة القرآن والحديث النبـوي . ثم جليل شخصيتـه ، وقوة عـارضته ، وحـدة ذكائـه وحبه للصراحة والحق وإلى جانب هذا كله حياة الإمام علي التي كانت كلها كفاح ونضـال وجهـاد ، وهذا كله من الأسبـاب الهامـة التي تذكي الخـطابة وتـدعـو إليهـا وتبعث عـلى الإجادة في القول إلى أرقى الدرجات . والذي يتصفح (نهج البـلاغة) يحتـار أي خطبـة يتناول ليزين بها صدر بحثه ، فهو كمن يدخل حانوت عـطار لا يستطيـع التمييز الـدقيق بين عطر وعطر . فالكل محبب إلى النفس والكل يرفل بالجمال البديع .

اخترت من بين هذا الحشد الحـافل بـالخطب البليغـة خطبـة يحث فيها عـلى حمد الله ويكثر من ذكر المـوت . وهي صورة من بيـانه العلوي والـوعظ الربـاني فيها حكم بـالغة بالفائدة وآيات ناطقة بالسحر والجمال .

نص الخطبة : قال (ع) :

أوصيكـم ـ أيها الناس ـ بتقوى الله وكثرة حمده ، على آلائه إليكم ، ونعمائه عليكم ، وبلائه لديكم[88] ، فكم خصكم بنعمه ، وتداركم برحمتـه ، أعورتم[89] لـه فستركم ،

(88) البلاء هنا : الاحسان ، ونبلوكم بالشر والخير .

(89) أعور : ظهر والمراد انكشاف المستور من الشيء أو الأمر .

وتعرضتم لأخذه فأهلكم[90] . وأوصيكم بذكر الموت وإقلال الغفلة عنه ، وكيف غفلتم عمن ليس يغفلكم[91] وطمعكم فيمن ليس يمهلكم[92] ، فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم ، حملوا إلى قبورهم غير راكبين ، وانزلوا فيها غير نازلين . فكأنهم لم يكونوا للدنيا عمارا وكأن الآخرة لم تزل لهم دارا ؛ أوحشوا ما كانوا يوطنون[93] ، وأوطنوا ما كانوا يوحشون ، واشتغلوا بما فارقوا ، وأضاعوا ما إليه انتقلوا[94] . لا عن قبيح يستطيعون انتقالا ، ولا في حسن يستطيعون ازدياداً[95] . أنسوابا لدنيا فغرتهم ، ووثقوا بها فصرعتهم ، فسابقوا رحمكم الله إلى منازلكم التي أمرتم أن تعمروها ، والتي رغبتم فيها ورغبتم إليها ، واستتموا نعم الله عليكم بالصبر على طاعته والمجانبة لمعصيته ، فإن غداً من اليوم قريب . ما أسرع الساعات في اليوم ، وأسرع الأيام في الشهر ، وأسرع الشهور في السنة وأسرع السنين في العمر .

موضوع الخطبة : الحث على حمد الله وشكره على ما أسبغ على الإنسان من خيرات ونعم . والوعظ للذين شغلوا بالدنيا عن الآخرة ، والحكم البالغة والآيات الناطقة التي تفيد أصحاب الفكر وتساعد أصحاب العبر لينظروا بأبصارهم وبصيرتهم وليأخذوا دروساً من الحياة قبل أن تنقضي أعمارهم بسرعة ولا ينفع بعدها الندم .

مضمونها ومنهجها : بدأ الإمام علي يوصي بتقوى الله ، ولكل ما يتخذه الإنسان وقاية له من سخط الله وعقابه . وعليه أن يطيع الله في أوامره ونواهيه ، ويتجنب غضبه ومعاصيه .

كما عليه أن يحمد الله على ما أسبغ عليه من نعم وما دفق عليه من خيرات . ثم أوصاهم بذكر الموت وكرر ذلك مرات ، ودلهم على ما ييسر لهم ذلك ، فالله جل وعلا لا يتركهم إن هم تركوه ، ولا يمهلهم إن طمعوا فيه . والشواهد تتوالى أمام أعينهم في الحياة . كل يوم يحمل الإنسان الموتى إلى قبورهم ولا يدري متى يكون محمولا . وعليه أن يستغل الفرصة قبل فوات الأوان . يترتب على ذلك الدعوة إلى المسابقة إلى منازل الأبرار

---

(90) تعرضتم لأخذ الله بالعقاب وذلك بما اقترفتم من السيئات .

(91) اغفل عنه : تركه وسها عنه والموت لا يترك أحداً .

(92) هم يطمعون أن يجاملهم الموت ، فشبههم بمن يطمعون في شخص لا يرحم ولا يتنازل عن موعده في اقتضاء حقه .

(93) أوحشوا ما كانوا يتخذونه وطنا وذلك أنهم هجروه فصار وحشاً لا أنس به .

(94) اشتغلوا بالدنيا التي كانت لهم معبرا ففارقوها وأضاعوا الآخرة التي هي دار القرار .

(95) من مات فقد انقطع عمله فلا يستطيع أن يتحول عن قبيح كان عليه ، ولا أن يزداد من خير قصر فيه .

وفي دار القرار وذكر بالنعم فدعا إلى استتمامها بالصبر على الطاعة والبعد عن المعاصي . وأخيراً ذكر الإنسان كيف تزول هذه الدنيا سريعاً بزوال الساعات التي بها الأيام . وبالأيام التي منها الشهور وبالشهور التي منها السنين ، وما أسرع السنين في العمر وبذلك تفنى الأعمار وتؤخذ نفس الإنسان وهو لا يشعر .

أسلوبها : في الخطبة صورة من البيان العلوي ، وحكم بليغة بالغة استقاها صاحبها من نشأته الرفيعة ، وحياته الخصبة ، وتجاربه الجليلة في الحياة . تتفجر الحكمة من عباراتها ، وتتدفق البلاغة من كلماتها ، ويملأ الوعظ فيها السمع والقلب . جاءت بأسلوب يفيض بالرقة والعمق في اختيار الألفاظ ، ويتوخى الدقة والمواءمة بين العبارات ، حتى في الحروف التي تختلف بها الدلالة عند أهل الذوق . فتأمل هذه التعابير التي تدل على ذوق الكاتب في الاختيار وقدرته في تقليب الكلام ، وفهمه اللغة العربية الغنية جداً بدلالاتها . : « على آلائه إليكم ، ونعمائه عليكم ، وبلائه لديكم » فتصور كيف يكون المعنى لو بدلنا هذه العبارات ، فإنه بلا ريب يسقط من عليائه ، ويفقد بهاء تركيبه وجمال دلالته . ولاحظ أيضاً الابداع في كلمة : (أعورتم له فستركم) أي كشفتم له عن مخبآت أخطائكم فستركم . وكذلك عبارة : (فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم) .

وهكذا نراه يجول ببيانه في كل مجال ، ويصول به في كل نضال ، وكأنه يمتلك سر فصاحة القول ، وهو ما يسميه النقاد (بحسن النظم) .

ونلاحظ في الخطبة الميل إلى السجع القصير ، مع الموازنة في الفقرات التي فيها شيء من الترادف في المعنى كقوله : اوحشوا ما كانوا يوطنون وأوطنوا ما كانوا يوحشون ، وقوله : واشتغلوا بما فارقوا ، وأضاعوا ما إليه انتقلوا . وفي الخطبة أيضاً قليل من المجازات والكنايات القريبة المتناول مثل قوله : (ووثقوا بها فصرعتهم) . (فسابقوا إلى منازلكم) ومن الاستعارات مثل قوله : (حملوا غير راكبين فانزلوا غير نازلين) .

يبدو من الإمام الخطيب البليغ ، في استعمال الكلمة ، وهذا لعمري لا يتيسر إلا لصاحب العارضة القوية في امتلاك ناصية اللغة ، فيتصرف بالكلمة بيسر وسهولة ويضعها في مكانها المناسب لها تماماً ، فهو كاللاعب الماهر الذي يضع الكرة في مكانها ولا يحظى حتى بضربة واحدة . قال : . . . منازلكم التي رغبتم فيها ورغبتم إليها .

والخطيب البليغ هو الذي يوضح القول فيستميل العقل ، ويؤثر في النفس فيستميل القلب . ويختم خطبته بكلمة صائبة ومؤثرة ، بلغت هدفها من السامع .

فتأمل قوة الفقرة الأخيرة ، وشدة تأثيرها وحسن دلالتها على وشك انقضاء الأعمار قال : . . . فإن غداً من اليوم قريب ، ما أسرع الساعات في اليوم وأسرع الأيام في الشهر وأسرع الشهور في السنة وأسرع السنين في العمر .

ولا يخفى ما للقرآن الكريم من أثر كريم صالح في حصافة عقل الإمام وقوة بلاغته ، وسعة تمكنه وحسن بيانه وإصابة أحكامه . قال عنه الشريف الرضي : « كان مشرع الفصاحة وموردها ، ومنشأ البلاغة ومولدها ، ومنه ظهر مكنونها ، وعنه أخذت قوانينها ، من أجل هذا كان إذا خطب فهو أخطب العرب بعد رسول الله وإذا كتب كان أبلغ الناس قولاً ، وأصدقهم وصفاً ، وأسيرهم مثلاً »[96] .

وعنه أيضاً قال : « علي بن أبي طالب من أكبر دعاة الإسلام وقادته ، ومن أعلام البلغاء والخطباء في عصر صدر الإسلام ، نشأ في بيت الرسالة ، وكان فرعاً في دوحة النبوة ، تغذى بالبيان والحكمة وتفقه الكتاب والسنة ، وتفوق في العلم والمعرفة ، وفي الزهد والفصاحة ، وفي الحكمة والخطابة . . . » .

الشعر

كان للشعر في نفوس العرب منزلة رفيعة لا تدانيها منزلة ، ومكانة عالية لا تساميها مكانة . بيد أن رسالته قبل مبعث الإسلام ، كانت قد انحرفت في غالب أمرها عن الوضع الكريم الذي يليق بالإنسانية المهذبة والأخلاق العالية التي يصلح بها أمر الحياة الاجتماعية .

فكان الشاعر يثير العصبية القبلية ، ويحرض الناس على الحروب والتناحر ، ويبعثهم على التقاطع والتنافر . ويصف المرأة بوصف قبيح مقذع ، ويخرق الحجب والاستار .

فكان بهذه الروح يحسب من أسباب الدمار والتقاطع التي مني بها المجتمع العربي .

إلى أن جاء الإسلام بدعوة العفة في القول ، والمساواة بين جميع الناس والاخاء بين أفراد المجتمع الواحد ، والمعاملة الحسنة عن طريق العقل والمنطق ، والأدب العفيف الذي يليق بالمسلم . لذلك حرم على الناس كل الفواحش والمنكرات ما ظهر منها وما بطن ، وحذرهم من القول الباطل والظن السيء ، والخداع والغش والغرور . ودعا أتباعه بالبعد عن كل رذيلة والامتناع عن كل محرم وكل قول أو فعل فيه أذى للمسلمين .

(96) الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام لمحمد عبد المنعم خفاجي ـ القاهرة 1949 .

أول ما دعا إليه البعد عن العصبية القبلية والحمية الجاهلية . فحذر عليهم كل ما يثير النفس ويحرك كامن الاحقاد والضغائن ويذكر بالخصومات والحروب على حد قول زفر بن الحارث .

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا[97]

أوجب عليهم حفظ الفروج وغض البصر وصيانة الحرمات والأعراض ، وحرم عليهم شرب الخمر لأنها رجس من عمل الشيطان . من هنا وجد الشعراء الذين اهتدوا بهدي الإسلام أدباً غير الأدب الجاهلي ، وروحاً غير روح الجاهلية ، وأسلوباً في الخطاب غير الأساليب التي اعتادوها ، ونحواً من بلاغة الكلام العفيف وقفوا عنده عاجزين دون أن يبلغوا مداه .

إزاء هذا الواقع تعطلت أداة الشعراء ، ووجدوا أن سبيلهم لما كانوا يتناولون من المعاني والصور قد قطعت ، وإن ما كانوا يخوضون فيه من ألوان القول دون خوف أو تحرج ، قد حظر عليهم الإسلام أن يتناولوا منه إلا ما عف لفظه وشرف معناه . فكان لا بد لهم من التحول عن معانيهم التي أجادوا فيها وأبدعوا ، إلى المعاني التي ارتضاها الدين الحنيف وأقرها . حتى أن البعض من شعرائهم امتنع عن قول الشعر في الإسلام حتى وافاه أجله ، كلبيد بن أبي ربيعة .

والواقع أن هذا التحول الشعري عن روح الجاهلية ومشربها ، إلى روح جديدة ومعان جديدة ، قد ضاقت بها شياطين الشعراء ، وتخلفت فيها أخيلتهم وضاق أفقهم فباتوا يجفلون عن كل معنى يتسم بسمة جاهلية . وفرق كبير بين شاعر ينتهب كل معنى يعن له ، في أي موضوع وأية ناحية ، وبين شاعر يستولي عليه التحرج من كل ما يخالف عقيدته . فمنهم من كان جافي الطبع ، لم يهذب الإسلام له نفساً ، ولم يعدل له من سلوك ، فبقي على ما اعتاد عليه ، جاهلي النزعة يزخر شعره بالمعاني الخبيثة والهجاء المقذع كالحطيئة . ومنهم من رقق الإسلام طبعه وامتزج بدمه وروحه ، فترك كل ما كان له علاقة بالجاهلية وكافح في شعره ضد خصوم الرسول وأعداء الإسلام كحسان بن ثابت .

موقف الإسلام من الشعر :

رفض الإسلام الشعر الذي لا يتفق مع أهدافه ، ولا يتناسب مع جلاله وكماله ، ولم يهجن من الشعراء إلا لما يبدو منهم من سمات وأخلاق لا ترتاح إليها الأخلاق الكريمة ،

(97) راجع أدب العرب في عصر الجاهلية للمؤلف ص 222 .

ولا يرضاها الدين الحنيف . جاء في قوله تعالى : ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون** ﴾ [الشعراء الآية : 225] .

أما ما عاد ذلك فلا حرج فيه ولا لوم ، فقد كان النبي (ص) يستمع إلى الشعراء ويقول : « إن من الشعر لحكمة » وكان يأمر حساناً أن يرد على أعداء الإسلام .

من هؤلاء بنو تميم دخلوا المسجد بعد فتح مكة وقالوا : يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فأذن لخطيبهم وكان عطارد بن حاجب بن زرارة ، فأمر رسول الله (ص) قيس بن ثابت ، فرد عليه ، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فلاحيٌّ يعادلنا منا الملوك وفينا يقسم الرُّبُع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا من الشواء إذا لم يؤنس القزع[98]

ولما فرغ من افتخاره أمر الرسول (ص) حساناً بالرد عليه فارتجل قصيدته :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الا له وبالأمر الذي شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

فلما فرغ حسان من قصيدته ، قال أحد رجال الوفد :[99] « والله إن لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا . . ثم أسلموا » فكما تلاحظ أن الشعر حين أخلص في وجهته وسلم من الفواحش والاقذاع ، كان من عداد الأسلحة الجديدة والألسنة المجاهدة من أجل تثبيت الدعوة الإسلامية واستقرار قوائمها .

ذلك أن القلوب إذا تطهرت ، والافئدة إذا استنارت ، والأخلاق إذا صلحت ، عف اللسان وجمل الخلق ، وحسن الأدب ، وأظل الناس عهد وادع ، وصلحت رسالة الشعر ؛ تلك الرسالة المستمدة من روح الإسلام ، وتعاليمه الكريمة ، وآدابه القويمة ، وعدالته الحقة وهكذا أصلح الإسلام النفوس وهذب الألسنة ، ووجه رسالة الشعر توجيهاً حسناً شريفاً ، سامي الأهداف ، نبيل الغايات .

---

(98) القزع : السحاب .

(99) كان الأقرع بن جانس .

أغراض الشعر :

هجر الشعراء الأغراض الشعرية التي تتنافى والشريعة الإسلامية، كالهجاء المقذع ، والغزل الفاحش ، والفخر الكاذب ، ولم يعد لوصف الخمر من كلام ، ولا للميسر وفتيانه من مجال ، وكذلك كان شأن الصيد والطرد ، وتملق الناس بالمديح المتكسب الكاذب .

وهذا ما يجعلنا نصغي لمن قال : إن الشعر قد ضعف في صدر الإسلام .

وقد اقتصروا في نظم الشعر على الأغراض التالية :

1 ـ **الدعوة إلى الإسلام ومبادئه** . كان من أشهر الذائدين عن الدعوة الإسلامية ورسول الإسلام حسان بن ثابت 54 هـ ، وكعب بن مالك 50 هـ ، وعبد الله بن رواحة 9 هـ .

وكان من شعراء المشركين الذين حاربوا الإسلام : ضرار بن الخطاب ، وأبو سفيان ، وابن الزبعرى ، وهبيرة بن أبي وهب ، وأبو عزة الجمحي .

2 ـ **الرد على أعداء الإسلام** وهجاء أصحاب الديانات الزائفة بعد عصر النبوة .

3 ـ **الفخر بالانتصار** على جيوش الفرس والروم ، ومدح أبطال المسلمين ، ووصف الحصون وآلات القتال وأنواع الحيوان الذي لم يشاهدوه من قبل كالفيلة وسفن البحر وغير ذلك . . .

4 ـ **رثاء من استشهد** في غزوات الرسول من المسلمين في الفتوحات الإسلامية الكثيرة .

5 ـ **المدح** وأشهر شعرائه حسان بن ثابت وكعب بن زهير والنابغة الجعدي ، ويبدو في هذا الضرب أثر الإسلام في المعاني والألفاظ .

6 ـ **الزهد والدعوة** إلى تقوى الله ، متأثرين بتعاليم الإسلام وأحكامه .

7 ـ **الحكمة** : كثرت الحكمة في شعر هذا العصر بتأثير ثقافة القرآن والحديث، وتجارب المسلمين المؤمنين ، يقول حسان :

وإن امرأ يمسي ويصبح سالماً ... من الناس إلا ما جنى لسعيد

ويقول كعب بن زهير :

من دعا الناس إلى ذمه ... ذموه بالحق والباطل

بدأت معاني الشعر في عصر صدر الإسلام تتأثر تأثراً واضحاً بالإسلام (القرآن

والحديث) فظهرت المعاني الإسلامية الملونة بالعاطفة الدينية ، وبدأ أسلوب الشعراء يتغير تغيراً واضحاً في الأداء والألفاظ الإسلامية كالصوم والصلاة والحج والزكاة والحج والجهاد والجنة والنار . . .

وقد هجروا حوشي الكلام وأخذوا يقتبسون كثيراً من القرآن والحديث ، روحاً وأسلوباً يقول حسان :

شهدت بإذن الله أن محمداً ... رسول الذي فوق السماوات من علُ
وأن الذي عادى اليهود ابن مريم ... رسولٌ أتى من عند ذي العرش مرسلُ
وأن أخا الاحقاف إذ يعزلونه ... يقوم بدين الله فيهم فيعدل

ويقول في رثاء الحمزة الذي استشهد يوم أحد :

فإن جنان الخلد منزله بها ... وأمر الذي يقضي الأمور سريع
وقتلاكمو في النار أفضل رزقهم ... حميم معاً في جوفها وضريع

صور من الشعر في عصر صدر الإسلام :

قال حسان في مدح النبي (ص) :

أغر[100] عليه للنبوة خاتم ... من الله شهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد
نبيٌّ أتانا بعد يأس وفترة ... من الرسل والأوثان في الأرض تعبد
فأمسى سراجاً مستنيراً وهادياً ... يلوح كما لاح الصيقل المهند[1]
وأنذرنا ناراً، وبشرجنة ... وعلمنا الإسلام، فالله نحمد
وأنت إله الخلق ربي وخالقي ... بذلك ما عمرت في الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا ... سواك، إلهاً أنت أعلى وأمجد
لك الخلق والنعماء والأمر كله ... فإياك نستهدي، وإياك نعبد

وهذا أبو ذؤيب الهذلي ، يرثي أولاده السبعة :

أمن المنون وريبه تتفجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع
أودى بنيّ واعقبوني حسرة ... بعد الرقاد وعبرة ما تقلع
فبقيت بعدهم بعيش ناصب ... وإخال أني لاحق مستتبع

---

(100) أغر : أبيض الوجه .

(1) المهند : السيف المصنوع من حديد الهند .

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم | وإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها | ألفيت كل تميمة لا تنفع
فالعين بعدهم كأن حداقها | سلمت بشوك فهي عور تدمع
وتجلدي للشامتين أريهمو | أني لريب الدهر لا أتضعضع
والنفس راغبة إذا رغبتها | وإذ ترد إلى قليل تقنع

موقف النبي من الشعر :

جاء في القرآن الكريم في وصف الرسول الأعظم ، محمد بن عبد الله الأمي : **﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن كريم ﴾**[يس الآية : 69] .

وفي حقيقة الأمر لم يكن يحفظ الشعر أو يرويه كغيره من العرب آنذاك ، الذين كان الشعر سلاحهم وديوانهم وزادهم اليومي ، فإذا غابت عن ذاكرتهم كلمة أحلوا محلها أخرى في وزنها ومعناها ، فيستقيم البيت ، ويتم المعنى . قال الرافعي في الاعجاز :

« وكان رسول الله (ص) في حقيقة الأمر لا يتهدى إلى إقامة وزن الشعر ، إذا هو تمثل بيتاً منه ، بل يكسره ، ويتمثل البيت مكسوراً »[2] والامثلة كثيرة على ذلك . منها : أنّه انشد مرة صدر بيت للبيد « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » صحيحاً ، ولكنه لم يكمله . كما أنشد بيت طرفة بن العبد :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً | ويأتيك (من لم تزود) بالاخبار

مع أن أصل البيت كما نعرفه :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً | ويأتيك بالأخبار من لم تزود

أترى هل كان الرسول لا يعرف وزن الشعر ، أم أن لذلك حكمة وغرضاً ؟ .

وقد روى عنه أنه كان يتمثل بيتين من الرجز الأول :

هل أنت إلا اصبع دميت | وفي سبيل الله ما لقيت

والثاني: أنا النبي لا كذب | أنا ابن عبد المطلب

من المعلوم عند الجميع أن محمداً عربي قرشي هاشمي ، فصيح اللسان ، قوي البيان ، سليم الذوق أنزل على لسانه ، القرآن المعجزة ، يعرف بلا ريب المستقيم من الوزن، وغير المستقيم كما يعرف جيداً أن الرجز أهون الشعر، والشعراء الفحول لا

(2) إعجاز القرآن ص 339 .

يعتبرونه شعراً ، ولا الرجاز شعراء . وقد سمع (ص) إنهم سموا الرجز « حمار الشعر » .

يجيب الرافعي بقوله : « إنه لم يمنع إقامة وزن الشعر في انشاده إلا لأنه منع من إنشائه، فلو استقام له بيت واحد، لغلبت عليه فطرته القوية ، فمر في الانشاد وخرج إلى القول والاتساع وإلى أن يكون شاعراً ، ولو كان شاعراً لذهب مذاهب العرب التي تبعث عليها طبيعة أرضهم ، ونافس فيها ، ولجاراهم في ذلك إلى غايته ، حتى لا يكون دونهم فيها يستوقد له الحمية ، وهذا أمر ، يدفع بعضه إلى بعض ، ثم لا يكون في جملته إلا أن ينصرف عن الدعوة ، وعما هو أزكى بالنبوة ، وأشبه بفضائل القرآن . . . فيقرهم على شيء ويجاريهم في شيء ، وينقض شعره أمر القرآن عروة عروة ، ولذا قال تعالى[3] .

وقد جاء بعده الصحابة والخلفاء فتصرفوا كما تصرف الرسول (ص) ولم يحيدوا عنه خطوة واحدة . لكن هذا لا يعني أن الرسول وقف في وجه الشعراء ، وسد عليهم منافذ القول ، ومنعهم من إنشاد روائع الشعر ، وامتنع عن سماعه . بل كان يدرك إدراكاً تاماً أن الشعر كان فخر العرب ، وأنهم يحفظونه ويروونه ، وأنه سلاح من أسلحتهم ، يرفعون به من أقدارهم ، ويسحقون به أقدار أعدائهم .

كل هذا كان الرسول الأعظم يدركه تماماً . كما أنه كان يستمع إلى القصائد ، منظومة أم مروية ، وقد يشترك كغيره من الناس في بيت شعري رائع ، أو شاعر عظيم ، وقد يوصف له شاعر جاهلي معروف كعنترة ، فيتمنى أن يراه .

كما عفا عن كعب بن زهير بعد أن أنشد بين يديه قصيدته « بانت سعاد » ثم رمى عليه بردته بعد أن كان أهدر دمه .

والخنساء ، يروى أنه طلب منها أن تسمعه شعرها الذي قالته في رثاء أخويها صخر ومعاوية .

وكما مر معنا ، كان (ص) يستدعي شاعره حسان بن ثابت ليرد على قصائد الوفود بقصائد مماثلة ، ليذود عن دين الله وعن رسول الله .

إن مثل هذا الموقف المدرك جعل الرواة يرحلون إلى البوادي والآفاق طلباً في جمع الشعر يحفظونه ويدرسونه ، دون أن يجدوا في عملهم حرجاً دينياً . ولولا هذا الموقف

---

(3) إعجاز القرآن ص 343 والسابقة السابقة الذكر .

الطيب المتسامح لم يحفظ لنا التاريخ بيتاً من الشعر أو قصيدة من القصائد .

وخلاصة القـول : إن رسول الله (ص) ممنـوع من الله جل وعـلا من عمل الشعـر وصنـاعته ، ولكنـه ليس ممنوعـاً من سماعـه ، وتذوقـه ، واستخدامـه وسيلة من وسائـل الدعوة الإسلامية للذود عن الدين الحنيف ، والجهاد في سبيل تثبيت شرعة الله ، واعلاء كلمته إنه هو السميع المجيب .

الفن الأدبي في الحديث النبوي

الفن هـو التعبير الجميـل عما يجـول في النفس من خواطـر ، وإفصـاح عـما يجيش في القلب من مشاعر ، وبيـان لما يـرتسم في الخيال من تصـورات بأسلوب جميـل ترتـاح إليه النفس وتسعد برؤياه العين .

وقد اختلف النقاد منذ القديم في نظرتهم إلى مفهوم الفن وماهيته . فهو بنظر البعض ترف ومنعة ، وبنظر الآخرين تقليد للطبيعة ، وقد يكون إبداعاً وابتكاراً ، وتكون قيمتـه من الوظيفة التي يؤديها[4] .

والفنـان يمضي في مهمته فيحـاول التعبير عن هـذه الخواطـر والمشـاعـر والتصـورات بـالطريقـة الفنية الميسرة لـه من ألحان أو خـطوط أو ألوان أو ألفـاظ . من هذه الأشكـال المختلفـة للفن يهمنـا الفن الأدبي . والفنـان في الأدب ، هـو شخص مـوهـوب صـاحـب حسـاسية خـاصة ، تستـطيع أن تلتقط الألفـاظ الخفية اللطيفـة ، التي لا تدركهـا عقول الناس العادين ؛ كما تغوص على المعاني البعيدة والمبتكرة .

والفنان الأصيل يمتلك قدرة تعبيرية خاصة تستطيع أن تحول إحساسه بالحياة وتفاعله معها ، إلى لون من الأداء الجميل يحرك في النفس حاسة الجمال[5] .

والحديث النبوي الشريف هو لون من ألـوان الأدب بكل مـا تحمل هـذه الكلمة من شمول في المعنى الأدبي ، وسمو في المعنى الأخلاقي .

والفن التحـديثي هو الكيفيـة التي يعبر بهـا المحـدث عن أفكـاره ، وينقـل خـلالهـا انفعالاته واحساساته . وهذه الكيفية تستمد طـاقتها من لغـة المحدث وفصـاحته وبـلاغة تعبيره .

---

(4) المتحب العاني للدكتور أسعد علي ص 262 عن افلاطون عن النقد الجمالي ص 403 .

(5) منهج الفن الإسلامي للسيد قطب ص 15 .

ومحدثنا هو النبي محمد (ص) أفصح العرب . أنه قرشي هاشمي وقريش من أفصح قبائل العرب ، وعلى لسانها دار حديث الشعراء في سوق عكاظ ، وبلغتها نظمت المعلقات . لقد ورث الفصاحة من قبيلته وفي موطن رضاعه ، وفي بني أخواله وفي أهل زوجته السيدة خديجة ، وفي موطن مهاجرته إلى المدينة المنورة[6] . وإلى جانب هذا كله النبي محمد (ص) فصيح بالفطرة اجتمعت فيه عوامل الذكاء والعقل والنسب، وفوق هذا ؛ هناك التأهيل الخاص ، والرعاية العليا والتوجيه المعين لتضيء الفصاحة وتفيض الحكمة ويشرق البيان ويوضع كل شيء في مكانه .

ولا ننسى تلمذته للقرآن الكريم الذي يرشف من معينه الأدباء ليسمو أسلوبهم ويعلو بيانهم ويضيء كلامهم . هذا مع الناس العاديين ، فكيف إذا كان ذلك مع محمد الموحى إليه من ربه وأدبه سبحانه وتعالى فأحسن تأديبه .

وعلى سبيل المثل لا الحصر نورد بعض الأحاديث التي ذهبت مذهب الأمثال ، وتناقلتها الأجيال ، وباتت قبساً منيراً يطعم بها البلغاء على مرور الأزمان .

المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص . الدين المعاملة . الدين النصيحة . المرء مع من أحب . إذا لم تستح فاصنع ما شئت . تحابوا بذكر الله وروحه . اليد العليا خير من اليد السفلى . الإسلام يجب ما قبله . مات حتف أنفه . إياكم وخضراء الدمن . يا انجشة : رفقاً بالقوارير . اغتربوا لا تضووا . اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن . ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل . ألا أدلكم على خير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة : إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته في ماله وعرضه . لا تجن يمينك على شمالك . ما هلك امرؤ عرف قدره . إنما الأعمال بالنيات ، رحم الله امرءاً عرف حده فوقف عنده . خير المال عين ساهرة لعين نائمة . ليس الغنى عن كثرة العَرَض ولكن الغنى غنى النفس . رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم . أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً . المؤمن مرآة أخيه . اللهم إني أحمدك على العرق الساكن والليل النائم . إن من البيان لسحراً . إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . هذا قليل من كثير وفيض من غيض .

وقد وضعت عنواناً لهذا البحث : الفن الأدبي في الحديث النبوي . فقد يسأل البعض ما علاقة الفن بالحديث ؟ .

---

(6) قبيلته : بنو هاشم ، وموطن رضاعه : بنو سعد . واخواله : بنو زهرة . وأهل زوجته : بنو أسد . وموطن مهاجرته : بنو عمرو وهم الأوس والخزرج .

أوليس الحديث النبوي ركناً من أركان الشريعة الإسلامية بعد القرآن الكريم ؟ .

أوليس الفن فناً غايته التعبير عن الجمال وإظهاره بأبهى أشكاله وأجمل حلله ؟ .

والدين الإسلامي يبحث عن الحقيقة ، والفن يبحث عن الجمال ، وفرق بين الحقيقة التي تتقيد بحدود ، وبين الجمال الهائم الطليق الذي لا يتقيد بشيء . والحديث النبوي يحرص على الأخلاق ، والفن يكره القيود كلها . لا بد إذن أن الفن التحديثي مجموعة من الحكم والمواعظ والإرشادات ! فهل العلاقة بين الحديث والفن علاقة نفور وخصام ؟

لا ريب أن هذا فهم ضيق للدين الإسلامي وللحديث النبوي وللفن على السواء ! .

إن الحديث النبوي يلتقي في حقيقة النفس بالفن فكلاهما انطلاق من عالم الضرورة ، وكلاهما شوق يجنح لعالم الكمال . فالفن في الحديث النبوي هو التعبير الحر الجميل عن الجمال ، جمال الكون والحياة وجمال الإنسان وذلك من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان[7] .

فالفن التحديثي هو الذي هيأ اللقاء الكامل بين الجمال والحق . فالجمال حقيقة في هذا الكون ، والحق هو ذروة الجمال[8] .

متى يلتقي الجمال والحق في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود من خير وحق وجمال . وغرضنا بعد هذا كله ، أن نستنتج العناصر الفنية التي يتركب منها أدب الحديث ، وأن ندرك قيمة فنية الأدب التحديثي ، من خلال ما حققه الرسول الأعظم محمد (ص) . أما العناصر التي يتكون منها الفن الأدبي فهي :

المعنى وما يرافقه من عمق انفعال ورحابة خيال ، وقوة أسلوب واستمرار ايحاء . والأحاديث النبوية يصعب حصرها بالتفصيل الكامل لكل ما تتضمن من بعد في المعنى وروعة في الآداء وجمال في الصياغة .

أ ـ **الأسلوب** : الأسلوب هو فن من الكلام يكون قصصاً أو حواراً ، تشبيهاً أو مجازاً أو كناية ، تقريراً أو حكماً أو أمثالاً . فهو يشمل الفن الأدبي الذي يتخذه الأديب وسيلة للاقناع والتأثير . من صفات الأسلوب الجيد الوضوح والجلاء ، والقوة لقصد التأثير ،

---

(7) راجع منهج الفن الإسلامي للسيد قطب ص 15 وما بعدها .

(8) منهج الفن الإسلامي ص 16 .

والجمال لقصد الامتاع أو السرور[9] .

يحسن بالأديب أن يؤدي أفكاره مميزة عن سواها ، ظاهرة الخواص والمعالم ، ولتحقيق هذا الجلاء لا بد له من تحري البساطة في صوغ العبارات مجانبة التعقيد مع الاحتفاظ بسموها وقوتها . من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليلحينَّكم الله كما لحيت عصاي هذ »[10] .

يبدو البيان الأدبي في جملة (ليلحينكم الله) . والالحية : جمع لحاء وهو قشرة الشجرة .

ولا يخفى ما في قشرها من قوة لها فإذا زال القشر تعرض جسمها الداخلي للخطر والفساد ، من عوامل الجو التي تؤثر فيها .

فالمراد أن الله ينقص من أموالكم وثرواتكم ، ويصيبكم بالمصائب العظام ، فتصبحون كالاغصان المنتصبة التي جردت من أوراقها وعريت من ألحيتها فباتت قضباناً عارية ، وعيداناً بشعة لا حياة فيها . فهي معرضة في كل لحظة لأذى المؤثرات الخارجية ، ونوائب الدهر القاسية . كما يقال : لحاه الدهر لحي العصا . أي قسا عليه في ولده أو رزقه أو أي نعمة من نعم الخالق . فالنعم للإنسان كالحاء للقضيب تقويه وتجمله وتحفظه ، أو بالأحرى كالورق للغصن الرطيب . ففي الحديث دقة في المعنى ووضوح في الفكرة .

ب ـ **المعنى ووضوح الفكرة** : ومن ألطف أحاديثه وأبلغ تعبيراته قوله (ص) : « إن المؤمن إذا أذنب كان الذنب نكتة سوداء في قلبه ، فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، فإن زاد زادت حتى تغمر قلبه »[11] .

فكلمة (صقل قلبه) لها ظلها الغني في الحديث ، وهي تعني إزالة تلك النكتة السوداء عن قلبه ، ولكنها لما كانت بمنزلة الوسخ في الثوب ، أو الطبع على السيف ، يحسن أن يقال : صقل قلبه من الدرن كما يصقل السيف أو كما يغسل الثوب ، فيذهب أثر الذنب منه على طريق الاستعارة التبعية .

ومن ناحية أخرى فهو تشبيه رائع ، إذ أن الذنب نكتة سوداء ، وسرعان ما تزول وتصقل من قلب المؤمن إذا تاب عن دنبه كما يصقل السيف من الطبع (الصدأ) ولكنها

(9) الاسلوب للدكتور أحمد الشايب ص 224 .

(10) المجازات السوية ص 353

(11) المحازات البوية ص 404 النكتة : النقطة التي لها أثر .

تعـود إليه وتضمـر قلبه إذا عـاد إلى الارتكاس في وحـول الحياة . وكـما تلاحظ جليـاً قوة الصورة وجمالية الأداء وحسن الأسلوب .

ومن أقواله الأدبيـة المعبرة قـوله (ص) في صلح الحـديبية في شـأن قريش : « فـإن اتبعونا اتبعنا منهم عنق يقطعها الله »[12] .

لقد شبه عليه الصلاة والسلام من تبعه منهم في تلاحقهم وامتدادهم بالعنق الواحدة التي لا تختلف أجزاؤها ، فهي أشد لقوتها وأقوى في صدمتها . وعلى هذا قال الشاعر :

أبـلغ أمـير المـؤمـنـيـنـا أخـا الـعـراق إذا أتـيـنـا
إن الـعـراق وأهـله عـنـق إلـيـك فـهـيـت هـيـتـا[13]

فقد شبه الشاعر الطالبين له بالعنق في التـلاحق والامتداد . وأمـا قولـه عز وجـل : ﴿ **فظلت أعناقهم لها خاضعين** ﴾ [الشعراء الآية : 4] .

يـريد سبحـانه وتعـالى أن خضوع الأعنـاق هو خضـوع أصحابهـا ، وهو تعبـير من تعابيرنا اليوم .

والوجه الآخر لعله يريد الجماعات ، فقد تسمى الجـماعة عنقـاً كأن تقـول : جاءنـي عنق من الناس ، أي جماعـة من الناس ، كـما يجوز أن تكـون الأعناق كنـاية عن رؤوس القوم المتقدمين فيهم وساداتهم[14] .

كما نستطيع القول أن النبي (ص) جاء بالعنق هنا على سبيـل الاستعارة التصريحيـة تشبيهاً للقوم الذين ذكر اتباعهم له بالعنق في الاحتشاد لطلبه والامتداد للحاق به .

ج ـ **الخيـال** : عرف العـرب ألوانـاً من الخيـال ، منهـا مـا ابتكـر الشخصيـات من العـدم ، ومنها مـا أنطق الحيـوان والنبات والجـماد . ومنهـا الأسـطوري كـما في ألف ليلة وليلة ، غير أنهم لم يدرسوا من ألوانـه إلا ما يسميـه البلاغيـون علم البيان[15] . وصـور هذا العلم تشمل التشبيه والاستعارة بأنواعهـا والمجاز والكنـاية . والخيـال في الدراسـات

---

(12) المصدر السابق ص 26 والحديبية موضع قرب مكة عقد الرسول الصلح المشهور عندها .

(13) والمعنى أن أهل العراق متفقون على الـرضا بـك ، كالعنق في التصـاق بعضها ببعض فهي ممدودة إليك تـريد حضورك فاقبل إليها .

(14) راجع تفسير ذلك في قاموس المحيط .

(15) المنتجب العاني عن أسس النقد ص 510 .

النقدية يرادف المجاز[16] . والطواف في روضة الأحاديث النبوية يفسح لنا المجال للتمتع بثمار ذلك الخيال الجميل المبدع .

د ـ **التشبيه** : قيل خير التشابيه ما أدى رسالته فأوضح وأثر . جاء في قوله (ص) :

« المؤمن مرآة أخيه » ويعني أن المؤمن الناصح لأخيه والمرشد له في كافة أعماله هو كالمرآة يبصره مواقع رشده، ويطلعه على خفايا عيبه . وبذلك عندما ينظر إلى المحاسن يستحسنها ويحب الاستزادة منها ، وعندما يرى المعايب يستقبحها فيتجنبها .

في الحديث تشبيه بليغ حيث شبه المؤمن بالنسبة لأخيه المؤمن بالمرآة من حيث انطباع الصورة . لأن المؤمن يرى في أخيه أثر أفعاله إن كانت حسنة أو قبيحة فينصحه إذا أساء ، ويمدحه إذا أحسن .

ومن ذلك أيضاً قوله (ص) : « المؤمن موه راقع »[17] .

والمراد أن المؤمن إذا أساء أحسن وإذا أخطأ ندم . فكأنه يوحي دينه بمعصيته ، ويرقعه بتوبته . فشبهه (ص) بمن يخرق ثوباً ثم يبادر رقع ما خرق ورتق ما فتق .

في الحديث تشبيهان بليغان ، حيث شبه المؤمن بخارق الثوب وهو موه وذلك عند ارتكاب المعصية ، وشبهه بالراقع الذي يرقع الثوب ويخيط فتقه وذلك عند توبته ، وحذف وجه الشبه وهو الإفساد والإصلاح في كل ، وحذفت أيضاً وجه الشبه .

الاستعارة : ليست إلا تشبيهاً مختصراً لكنها أبلغ منه وأبعد مجالاً في الفن الأدبي « وما يبتكره أمراء الكلام من أنواع صور الاستعارة البديعة ، التي تأخذ بمجامع الافئدة وتملك على القارىء والسامع لبهما وعواطفهما ، هو سر بلاغة الاستعارة »[18] .

ومن أحسن استعاراته وأحسن التمثيلات قوله عليه الصلاة والسلام : « إن المسلم إذا توضأ ثم صلى الخمس تحات خطاياه كما يتحات الورق »[19] .

يكفر الله تعالى عن المصلي خطاياه بسرعة ، فتحط عنه أوزار خطاياه وتسقط عنه ذنوبه كما تتساقط الأوراق عن أغصانها إذا هزهزتها الرياح .

---

(16) العمدة ج 1 ص 178 .

(17) المجازات النبوية ص 72 وموه اسم فاعل من أوهى : أي ضعف وأصلها موهي حذفت الياء لالتقائها ساكنة .

(18) جواهر البلاغة ص 313 .

(19) المجازات النبوية ص 315 .

والصلاة أفضل شعائر الإسلام وأظهر معالم الإيمان ، وهي واجبة على كل عاقل بالغ قـادر عليها ، كـما أنها تتكرر في الليـل والنهار خمس مـرات فتنهي الإنسـان عن الفحشـاء والمنكر ، وتسقط عنه عقاب معاصيه وآثار ذنوبه كما يتساقط ورق الشجـر المتناثـر وينسل من أغصـانه . ففي قـولـه (ص) (تحات الورق) استعـارة جميلة حيث شبـه بـه زوال الخطيئة .

ومثل هذا قوله (ص) « أمرت بقرية تأكل القرى تنفي الخبث كـما ينفي الكير خبث الحـديد » فـأهل هـذه القريـة التي أمر بسكنهـا أو الهجرة إليهـا ، يقهـرون أهـل القـرى الأخرى ، فيملكون بلادهم ، ويغتنمون خيراتهم وأموالهم فكـأنهم يأكلونهم . وللعـرب أقوال معروفة في هذا الشأن . يقولون : أكل فلان جاره إذا عدا عليه فانتهك حرمته وابتز خيراته .

ثم قوله : نفى الخبث كما ينفي الكير خبث الحـديد ، فـالمراد أن المـدينة تنفي خبث الرجال كما ينفي الكير خبث الحديد .

وخلاصة الحديث : إن القرية الظالمة تأكل أهل القرى كما يفترس الحيوان الحيوانات الأخرى ويأكلها ؛ كما أنها تنفي خبـائثها كـالكير ، وهـو المنفاخ الـذي يؤجج نـار الحداد ليخرج الحديد الضار ويلفظه إلى الخارج . كالرجـل الفاسـد يلفظه المجتمـع وينفيه بعـد التجربة والمعاملة التي هي بمثابة اختبار له أو محك تجربة .

هـ ـ المجاز : « هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع لـه لعلاقـة مع قـرينة مـانعة من إرادة المعنى الـوضعي »[20] قـال (ص) : « العلم رائـد والعـدل سـائق والـنفس حرون »[21] .

لقد شبه علم الإنسان بالـرائد الـذي يتقدم أمـام القوم فيـدلهم على المنـزل الوسيـع والمرعى الخصيب ، لأنه خبير بأمور الأرض عالم بأسرارها . فبفضل علمه أخذ بقومه إلى شاطىء الأمان وأنقذهم من غوائل الحياة .

والعقل هو السائق دون شك وهو ربان السفينة ومديرها ومدبر أمورها .

يبحث الإنسان عن سـلوك النهج الأسلم ، ويحمله على الذهاب في الطريق الأقوم ، دون أي تأثير لنزوات النفس والعاطفة ، ودون أي تبرير لعنفوان الإرادة ولكن مـا فائـدة العلم الرائد والعدل السائق إذا كانت النفس حروناً ؟ .

---

(20) جواهر البلاغة ص 302 .

(21) المجازات النبوية ص 204 .

النفس التي تتراجع وتتقاعس وتعارض صاحبها كالدابة الحرون[22] التي إذا أريد جرها وقفت عن السير ، مما يضطر صاحبها إلى لذعها بسوط الأدب لتطيعه وتجري في الطريق الصالح . وقد وصف الإنسان العنيد بهذا الوصف الحقير ، لأنه إذا توقف عقله عن التفكير السليم وإرادته عن الحوار المصيب كان أخطر شأناً من الحيوان الأبكم ومن ذلك قوله (ص) : « كفى بالسلامة داء »[23] .

يقول المثل الدارج : السلام غنيمة . ولكن السلامة الدائمة تفضي إلى الأدواء الفاتلة ؛ إذ أن طولها المستمر يؤدي إلى موت الشهوات ، وانقطاع اللذات . وعوارض الهرم وتغييراته وعوادي السقم ومضايقاته . لذلك سمى السلامة داء ، لأنها مؤدية إليه .

والحقيقة أنّ السلامة الدائمة تؤدي إلى تراخي الجسد وتكاسل الأعضاء ، وبالتالي تعود على صاحبها بالملل والضجر ثم بالعلل والمرض . « وحسبنا داء أن نصح ونسلم » .

يقول علماء الاجتماع إن العمل يجلب لنا : المال والصحة والسعادة والفضيلة . والبطالة تجلب لنا : الفقر والمرض والضجر والرذيلة .

وقد تناول الشعراء هذا المعنى في أشعارهم إلا أن كلمة النبي جاءت أبهى وأنصح وأبلغ وأنضج . قال لبيد بن ربيعة :

ودعوت ربي بالسلامة جاهداً ... ليصحني فإذا السلامة داء[24]

وقال آخر :

يود الفتى طول السلامة والغنى ... فكيف يرى طول السلامة يفعل

الكناية . لفظ أريد به غير معناه الذي وضع له ، مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته[25] .

من ذلك قوله (ص) : « اللهم إني أحمدك على العرق الساكن والليل النائم » وصف الليل بالنوم لأن النوم إنما يكون فيه لا منه ولكنه لما كان مطية للنوم حسن أن يوصف به .

---

(22) الدابة الحرون : إذا أريد جرها وقفت وحرنت والحران خاص بذوات الحافر

(23) المجازات النبوية ص 430

(24) المصدر السابق ص 432

(25) جواهر البلاغة ص 360

كما يمكن أن نلاحظ في الليل المجاز العقلي . فقد أسند (ص) اسم الفاعل الذي هو نائم إلى الليل ، لأن في النائم ضميراً يعود على الليل ، والليل ليس بنائم وإنما هو ظرف لنوم الإنسان فهو من اسناد ما في معنى الفعل إلى ظرفه وزمانه .

أما الكناية ، مثلنا في الحديث ، فقوله : العرق الساكن يريد به الطمأنينة ، لأن سكون العرق يكون جريان الدم فيه طبيعياً وعندها يكون القلب طبيعياً . والقلب كما هو معروف يتأثر نبضه ودفعه الدم في العروق بالخوف وبالحزن وبالخجل وبالمرض . وعلى العموم يتأثر القلب بتأثر الحواس . فإذا لم يحدث للإنسان ازعاج ، من أي مصدر كان ، فعرقه ساكن ، أما إذا أزعج وتأثر فإن القلب يدفع الدم بشدة في العروق فيظهر أثر ذلك فيها بالارتفاع والانخفاض فلا يكون ساكناً .

ولم يرد سكون العرق فقط بل أراد لازمه وهو هدوء البال وطمأنينة العيش والليل لا ينام وإنما ينام فيه الإنسان ، وفيه كناية لأن الإنسان لا ينام إلا إذا كان خالي البال مستريح الضمير غير متألم ولا مريض .

2 ـ **العاطفة** : للعرب نقد دقيق في العاطفة يكاد يوجز في بحثهم عن سموها ، وصدقها ، وعمقها ، وتنوعها واستمرارها . فإذا توفرت لها هذه الصفات في الأدب ، أثارت الشعور والوجدان وبذلك يكون قد أفلح الأديب في نقل أحاسيسه من قلبه إلى قلوب الآخرين .

أما إذا فقدت العاطفة من الأدب ، وصف بأنه قليل الماء والرونق[26] .

أما عن علاقة العاطفة بالفن فنستطيع القول إنها المادة الخام التي يستمد منها الفنان ، ويحولها بواسطة ملكة الخلق والابداع إلى مادة جديدة ، غير مادة العواطف والأفكار وقد حدد بعض نقاد العرب هذه العلاقة فقالوا : « فالعاطفة مصدر للفن غير مباشر وإنها عنصر فيه قليل الظهور بل مستتر وراء الصور والأشكال »[27] .

وبعد هذا تبقى العاطفة عصية عن التعريف الدقيق ، فهي حالة نفسية يصعب ضبطها أو قياسها بدقها . وفي ذلك قال الإمام علي بن أبي طالب : «أقدر الناس من قدر على ضبط عواطفه في حالتي الشدة والرخاء » . إنها ومض انفعالي لا تضبط مادته : « قد يكون حدساً أو إلهاماً ، كما يكون فناءً عند الصوفية »[28] .

(26) راجع اسس النقد ص 506 .

(27) النقد الجمالي ص 86 ـ 87 .

(28) التصوف في الشعر العربي ص 71 .

وعلينا أن ننبه هنا أنه حين يبحث عن المضمون العاطفي للحديث النبوي ، ينبغي أن نعي بوضوح أنّ الجانب العاطفي لدى النبي (ص) في حياته وبيانه ، إنما هو انعكاس لاهتمامه الرسالي ونابع من همومه في تأدية رسالته إلى الناس . العاطفة النبوية : سامية وصادقة وقوية وعميقة .

أ ـ سموها : قال النعمان بن بشير : سمعت رسول الله (ص) يقول : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالحمى والسهر »[29] .

يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها ، فيجيبه إذا دعاه ، ويعوده إذا مرض ، ويقدم له النصيحة إذا استنصحه ، ويحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنه وبذلك يصبح جميع المؤمنين إخوة في الغنم والغرم كل واحد منهم يحس بافراح الآخرين وأتراحهم ، ويشاطرهم أفراحهم وهمومهم في السراء والضراء . فهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى عضو منه تداعت له سائر الأعضاء .

فإذا ما أصبنا بالحمى نرى جميع أعضاء الجسم تشترك في تحمل خبث هذا الداء ، واحتر الرأس والأطراف والجسد جميعاً ، فيهتز الجسم كله هزة واحدة ، إذ يرتعد كالمقرور ، ويسبح في الدموع مع كافة أعضائه .

وإذا دب فينا النعاس ترانا نتراخى جميعاً ، فتغمض العين ، ويسكن القلب ، وتهدأ الرئتان ، وتغفل جميع الحواس ، فيستسلم الجسد للنوم بجميع أعضائه ، ولا يقدر أي عضو على الاعتراض فيحصل الغرض المطلوب ، وهو هنا ، النوم العِميق .

لقد أعطانا النبي (ص) صورة ناطقة ، نحس بها لأنها منا وفي متناولنا ، وهو على عادته يحسن ضرب الأمثال الواقعية لتكون دروساً للورى ، منها يأخذون وبها يقتدون .

ب ـ صدقها : إن صدق العاطفة ينبع من صدق الإحساس وصدق التعبير عنه . فالنبي محمد (ص) الأمين أفصح فصحاء العرب وأبلغهم استطاع أن يختار أدق الألفاظ وأكثرها نقاء للتعبير عن عواطفه نحو نفسه ونحو الآخرين .

ولنأخذ هذه الصورة من صوره الرائعة في تصوير العاطفة الصادقة . قال (ص) : « مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى »[30] .

---

(29) احياء علوم الدين ج 2 ص 194 .

(30) احياء علوم الدين ج 2 ص 158 .

إن الأخوة والألفة هي ثمرة الخلق الحسن ، والخلق الحسن يوجب التحاب والتآلف بين الأخوان . والمراد بالأخوة ، الأخوة في الله عز وجل الذي ألف بين قلوب المؤمنين ، فأصبحوا بنعمته إخواناً ، تلك الأخوة التي تعفو عن شوائب الشيطان ونزعاته ، والتي بالقيام بها نتقرب إلى الله زلفى لننال الدرجات العلى .

فالاخوان اللذان يؤمنان بتلك الأخوة هما كاليدين تغسل إحداهما الأخرى . إذ يتعاونان في جميع ميادين الحياة ومتاعبها ، فيقدم كل منهما لأخيه كل ما يملك من قوة وطاقة لتنفيذ جميع مهامه وتحقيق أهدافه ومراميه . وكذلك هو واجب الأخ الثاني في مديد المساعدة والعون ورد الجميل لأخيه بمحبة ويسر وإخلاص . لأن الإسلام في القلب واللسان . قال (ص) : « والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه »[31] .

ولا تقتصر المساعدة على الماديات بل تتعداها إلى المعنويات ، فالمؤمن يخفف الهم عن قلب أخيه ويزيل عنه الكرب والضجر والغم ، فإليه يشكو وبه يغسل آثار تلك الهموم . فهو له كاليد التي لا غنى لها عن أختها إذ تتعاونان معاً في تحصيل الغرض المطلوب بكل يسر وطواعية .

وما أحوجنا نحن اليوم إلى التمسك بمثل تلك الأقوال التي تساعد في تمكين البنية الاجتماعية وشد أواصرها . هذا هو الصدق في العاطفة ، هذا الشوق المستمر التوهج والتحرك الايجابي الدائم الحضور ، فهو حاضر في قلب المؤمن لا يغيب ولا يخيب . وهذه العاطفة الدائمة والمتوهجة التي وصفناها بالصدق يمكن وصفها أيضاً بالقوة .

قوتها : إذا كانت العاطفة تقاس بمقدار تأثيرها في النفس فاصغ معي إلى هذا الحديث الشريف : قال (ص) : « الولد ثمرات القلوب وقرات العيون » .

وهو يعني أن الأولاد خلاصة القلوب والأكباد ، كما أن الثمر خلاصة النبات والأشجار فالولد من أبيه بمنزلة الثمرة من الشجرة لأنه منه تفرع ، وبواسطته ظهر وطلع .

وقد أضاف الأولاد إلى القلوب ، فجعلهم ثماراً لها دون سائر الأعضاء ، لأن القلب سيد الأعضاء الرئيسية ومنبع العواطف الشريفة .

---

(31) المحازات الببوية ص 358 .

يظهر لنا واضحاً أن ما تجلى من عاطفة سيد البشر تتحلى به قلوب كل المؤمنين من البشر .

عمقها : عمق العاطفة ملازم لقوتها النبي محمد (ص) الشفوق العطوف على بني الإنسان شملت عاطفته أيضاً الحيوان . فقد رأى بعيراً في بعض حيطان المدينة فحن إليه كالشاكي همومه ، فقال (ص) : « إن بعيرك يشكوك ، ويزعم أنك أكلت شبابه حتى إذا كبر تريد أن تنحره »[32] .

والمراد بقوله : اكلت شبابه : أي استهلكت شبابه في حال القوة ، واجمعت على نحره في حال ضعفه وكبره .

وهذا القول مجاز حيث شبه استعمال البعير في شبابه بأكل شبابه ، بجامع الافناء واشتق من الأكل بمعنى الاستعمال طول مدة الشباب على طريق الاستعارة التبعية . وقلب محمد (ص) لا يعرف غير الحب ، والحب عنده طبيعه وفطرة ، من أجل هذا كان يبذل حبه بسخاء نادر النظير ، فأحب الله وأحب عباد الله من صديق وعدو ، وأحب كل شيء في رحاب الكون الفسيح . لقد قال وعمل بالحكمة الخالدة : « الخلق كلهم عيال الله وأقربهم إليه أنفعهم لعياله » .

فهل يسمع ويعمل بهذه الحكمة الإنسان في لبنان ؟ وهل يصغي إلى صوت الضمير ويخلد إلى شفافية النفس الخالصة فيحب في سبيل الله ، ويعمل في سبيل الله ، ويجاهد في سبيل الله ، ويغضب من أجل اعلاء كلمة الله ، ويساهم مع المؤمنين في تثبيت شريعة الله .

المعنى :

إن الإحاطة بجميع المعاني لمن أردنا نقد أدبه ، يفضي بنا إلى الصعوبة والاطالة ، لذلك سوف نتخذ الجزء دليلاً على الكل . وسوف آخذ بعضاً من الأحاديث النبوية وأحللها قدر طاقتي ، لأظهر ما تتضمنه من القيم التعبيرية والشعورية . معتمداً في ذلك مقاييس العرب لنقد المعنى ليكون مثالنا مقبولاً .

ولا ريب أن الحديث النبوي هو نفسه مقياس لكل ـائد بلاغة أو فصاحة أو بيان ، يقاس به ولا يقاس بغيره . وكل من نطق الضاد وقرأ العربية ، وتحلى بشيء من عقل وذوق ، حكم أن الحديث النبوي أفصح كلام عربي بعد القرآن الكريم .

---

(32) المجازات النبوية ص 429 والحائط هنا : البستان وجمعه حيطان وحياط .

من أهم الجوانب التي تعرض لها النقاد العرب في نقد المعنى : الابتكار والتقليد : بعض الأدباء قد يأتي بمعان جديدة لم يسبق إليها من قبل ، والبعض الآخر : « ما يحتذيه على مثال تقدم ورسم فرط »[33] فيكون مقلداً .

من المعاني الطريفة التي ابتكرها الرسول الأعظم (ص) نذكر جانباً من الأحاديث علنا نفي بالغرض المطلوب . روى عبد الله بن عمر قال : « إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمٰن يصرفها كيف شاء »[34] .

فالكلمة التي اكسبت الحديث جمالاً وقيمة هي (إصبعين) فماذا يعني بها ؟ .

الاصبع في كلام العرب وإن كانت الجارحة المخصوصة فهي أيضاً الأثر الحسن ، يقال لفلان على ماله وإبله اصبع حسنة ، أي قيام وأثر حسن . قيل في راع أحسن القيام على إبله :

ضعيف العصا بادي العروق ترى له   عليها إذا ما أجدب الناس إصبعاً[35]

وقد وردت الكلمة نفسها عند لبيد بن ربيعة :

من يبسط الله عليه إصبعاً   بالخير والشر بأي أولعا
يملأ له منه ذنوباً مترعاً[36]

فالاصبع فيما ورد تعني الأثر الحسن والنعمة ، فيكون المعنى : ما من آدمي إلا وقلبه بين نعمتين جليلتين ، ونعم الله على عباده كثيرة لا تحصى ولكن الأرجح أن يكون في ذلك نعم الدنيا ونعم الآخرة .

وقد يكون هناك وجه آخر في كنايات العرب وهو أن يكون المعنى في ذكر الأصابع ، الأخبار عن تصريف القلوب وتيسيرها وتقليبها ، والفعل فيها ودخول كل ذلك تحت قدرته جل وعلا . ألا نرى أنهم يقولون : هذا الشيء في خنصري وإصبعي ، وفي يدي وقبضتي وكل ذلك إذا أرادوا تيسيره وتسهيله . وعلى هذا يؤول المفسرون قوله تعالى : ﴿ **والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه** ﴾ [الزمر الآية : 68] .

فالنبي (ص) لما أراد المبالغة في وصفه بالقدرة على تقليب القلوب وتصريفها بغير

---

(33) كتاب الصناعتين ص 75 وفرط : سبق .

(34) أمالي المرتضى ج 1 ص 318 .

(35) راجع نقد الحديث للمؤلف ج 2 ص 213 .

(36) ديوان لبيد بن ربيعة .

مشقة وإن كان غير الله لا يتمكن من ذلك ويعجز عنه قال : القلوب بين أصابعه كناية عن هذا المعنى . ولا يخفى ما في هذا التعبير من البساطة والايجاز وتضمين أقل الألفاظ أبعد المعاني بعيداً عن التكلف والصناعة اللفظية . وهذه هي البلاغة تعريفاً ودلالة .

ومن أحاديثه المبتكرة البليغة أيضاً قوله (ص) : « ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة ؟ أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون . ألا أخبركم بأبغضكم إلي وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة ؟ الثرثارون المتفيهقون »[37] .

فالموطئون أكنافاً هم لينوا الأخلاق الذين لا يؤذون ولا يزعجون . والثرثارون المتفيهقون هم الذين يكثرون الكلام ، ويخرجون عن القصد متباعدين عن الحق . وكلمة ثرثار يقال أنّها مأخوذة من العين الثرثارة ، وهي الواسعة الغزيرة المياه . ومنه النهر الثرثار الذي ذكره الأخطل شاعر بني أمية حيث قال :

لعمري لقد لاقت سليم وعامر على جانب الثرثار راغية البكر[38]

« والمتفيهقون » هم أيضاً ثرثارون ولكن بطريقة أخرى من النطق . كقولنا : فهق الغدير يفهق : إذا كثرت ماؤه وفاض على جانبيه .

وفي الحديث عدة استعارات ففي الأولى : الموطئون أكنافاً . فقد شبه لين الأخلاق بتوطيء الجانب واشتق من التوطيء معنى اللين ، الموطئون أي الليّنون على سبيل الاستعارة التبعية .

« والثرثارون المتفيهقون » شبه الثرثار بالنهر الكثير الماء . والمتفيهق : الرجل المتحذلق في كلامه ، يخرج الحروف قوية حتى تكاد تملأه وتنفخ خديه . كالغدير الكثير الماء ، يملأ جوانبه ويكاد يسيل منها . أو كالذي تملأ فمه بالطعام ويفهق به حتى يكاد يجاوز جوانبه بجامع الامتلاء ، واشتق من الفهقة متفيهق على سبيل الاستعارة التبعية .

ثم إذا لاحظنا هذا التسلسل في التوضيح والتفسير ، دون إطناب أو تطويل ، لراعنا ذلك . لقد فصَّل لنا المعاني المتسلسلة تدريجياً شارحة بعضها بعضاً (الموطئون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون) ولعمري لهو تعبير مبتكر رائع حسن الأداء كامل التعبير . ومن

---

(37) المجازات النبوية ص 187 وأحاسنكم جمع أحسن . الكنف : الجانب . الموطئون الذين يطأون الناس أي يدوسون جانبهم فلا يؤذون ولا يزعجون . والمراد : لين الاخلاق .

(38) الثرثار : نهر بالشام . البكر : الفتى من الابل . الراغية : المصوتة التي ترعى .

ذلك قوله (ص) : « مات حتف أنفه »[39] .

الميت حتف أنفه هو الميت على فراشه من غير جرح أو قتل ، إنما يتنفس شيئاً فشيئاً حتى تخرج بقية الروح وتفنى النفس . وقد خص الأنف بذلك لأنه منه خروح النفس وحلول الموت . ففي الحديثَ مجاز لأنه جعل الحتف لأنفه صفة خاصة ، بينما هو في الحقيقة صفة عامة ، والنفس تخرج من الأنف وهي التي تهلك دون الأنف .

وهذا تعبير نبوي مبتكر لم يسمع به العرب من قبل . روي عن أمير المؤمنين علي (ع) أنّه قال : « ما سمعت كلمة عربية من العرب إلا وقد سمعتها من رسول الله ، وسمعته يقول : مات حتف أنفه . وما سمعتها من عربي قبله »[40] . ومن تعابيره الأدبية التي ولدها : « الآن حمي الوطيس »[41] .

كانت المناسبة لهذا الحديث يوم (حنين) عندما رأى تجالد القوم فقال: «الآن حمي الوطيس » وهذه اللفظة هي على الأغلب من جملة الأمثال من كلامه وهو يعني اشتداد الحرب وعظمة الخطب . والوطيس في كلامهم هي الحفرة التي توقد فيها النار للاشتواء ، وتجمع على وطس ، والمراد من تلك العبارة ، حر الصراع وشدة المضاربة بالسيف من هنا قالت العرب : أوقد نار الحرب بين آل فلان وآل فلان .

وقال الله عز وجل مخرجاً الكلام متناسباً مع أوضاعهم ولسانهم : ﴿ **كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله** »[41] .

ومن تعابيره البكر التي لم يسبقه إليها أحد ، ثم اتخذت نموذجاً فيها بعد . قوله (ص) : « أخاف أن تصف حجم عظامها »[42] .

قال هذا الكلام في قبطية كساها أسامة بن زيد امرأته . والمعروف أن القبطية مصنوعة من قماش رقيق تلصق بالجسم ، فتبين تفاصيل أعضاء الجسم فتظهر واضحة الملامح لمن أراد النظر إليها ، فجعلها لهذه الحال كانوا صفة لما تحتها ، والمخبرة عما استتر بها .

ومن تعابيره الجديدة : **الارداف والتوابع** :

---

(39) المجازات النبوية ص 68 .

(40) المرجع السابق ص 69 .

(41) المرجع السابق ص 45 .

(42) قبطية : ثياب مصرية منسوبة إلى قبط مصر .

وهو أن يريد المتكلم الدلالة على معنى فيترك اللفظ الدال عليه ، الخاص به ، ويأتي بلفظ هو ردفه وتابع له . من ذلك قوله عز وجل : ﴿ **فيهن قاصرات الطرف** ﴾[43] وقال (ص) : « لا تسأل المرأة طلاق أختها لتكتفىء ما في إنائها »[44] .

إنه تعبير جامع ، فقد أراد (ص) أن المرأة لا ينبغي لها أن تطلب طلاق أختها لتتصل هي بالزوج الذي كان لها ، لأنها تكون قد استبدت بالنفع عليها وحولت عنها مجرى نعمتها واكتفأت ما في إنائها ، إذا أمالته إلى نفسها ، واستفرغت ما فيه لتشربه كله . فعبارة : لتكتفىء ما في إنائها هي ما يسمى بالازداف والتوابع .

لقد ترك اللفظ الدال عليه وأتى بلفظ هو ردفه وتابع له . كما في الحديث استعارة تمثيلية حيث شبه حالة الأخت التي تعمل على طلاق أختها من زوجها لتتزوج هي به ، بحالة الشخص الذي يقلب الإناء فيفرغ ما فيه ثم يشربه كله . فوجه الشبه على ما يظهر منتزع من متعدد : وهو تشبيه طلب التطليق بمحاولة قلب الإناء . ووقوع التطليق بافراغ الإناء . والزواج بزوج الأخت بشرب ما في الإناء كله .

المماثلة : وهي أن يريد المتكلم التعبير عن معنى فيأتي بلفظة تكون موضوعة لمعنى آخر ، إلا أنها تنبىء عن المعنى الذي أراده[45] . كقولهم : فلان نقي الثوب . أي أنه لا عيب فيه وليس موضوع نقاء الثوب للبراءة من العيوب .

وكقوله عز وجل : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط** ﴾ [الاسراء الآية : 29] فمثل البخيل الممتنع من البذل بالمغلول ، لمعنى يجمعهما ، وهو أن البخيل لا يمد يده بالعطية ، فشبهه بالمغلول . ومن ذلك قوله (ص) : « إياكم وخضراء الدمن »[46] .

ولعله يريد بذلك المرأة الجميلة شكلاً والمطعون بها نسباً وأخلاقاً . فوجه المجاز هنا أنّه شبه المرأة الحسناء بالروضة الخضراء لجمال ظاهرها ، كما شبه منبتها السوء بالدفنة لقبح باطنها أو سوء بيتها . فقد نهى عن نكاح مثل هذه المرأة المطعون في نسبها وأخلاقها .

---

(43) الرحمان الآية 56 .

(44) المجازات النبوية ص 52 .

(45) راجع كتاب الصناعتين ص 364 .

(46) المجازات النبوية ص 69 والدمنة : الابعار المجتمعة التي لعلوها التراب وهي محل القذارة .

الفصل الحادي عشر

المعارف في صدر الإسلام

تعريف المعرفة

حدد علماء اللغة المعرفة فقالوا بأنها إدراك الشيء على ما هو عليه . ومن معانيها : الحكمة والعلم والدلالة ، والعرف ويعني ما استقر في النفوس من جهة شهادات العقول ، فتلقته الطباع السليمة بالقبول . .

وقد أطلق القرآن الكريم على المعرفة « الحكمة » . قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة ان اشكر الله . . .** ﴾ . فإذا قرأنا أقوال لقمان الواردة في القرآن وجدناها من هذا النوع . وفي سورة النحل قال تعالى : ﴿ **ادعُ إلى سبيل رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن . . .** ﴾ [الآية : 125] ولا ريب أن بالحوار العلمي والجدال المنطقي تتكشف وجوه المعرفة العلمية .

وقد سمى الله ما أوحى به إلى الرسول الأمين محمد ، حكمة . فقال جل شأنه : ﴿ **ذلك مما أوحى إليك رَبُّكَ من الحكمة ولا تجعل مع الله إلّهاً آخر . . .** ﴾ [الإسراء الآية : 39] . وقد سئل أحدهم : ما الحكمة ؟ قال : معرفة الدين والفقه فيه ، والسير عليه ، ووضع الشيء في مكانه .

أما المعرفة بمعنى العلم Science كعلم الفقه وعلم النحو . . . لم ترد في القرآن الكريم بالمعنى الذي استعمل بعد ، ومما يبدو أنه استعمل بمعنى المعرفة بأوسع معانيها . قال تعالى : ﴿ **ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فَلِمَ تُحاجُّون فيما ليس لكم به عِلْمٌ والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ [آل عمران الآية : 66] .

وبهذا المعنى تطلق اللفظة حتى على المعارف الدنيوية ، كما ورد على لسان قارون :

﴿ قال إنما أوتيته على علم عندي أوَلَمْ يعلم أنّ الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوةً وأكثرُ جمعاً . . . ﴾ [القصص الآية : 15] .

هذا النوع من المعرفة وكأنها المعرفة التي يعتد بها الله وهي أقرب إلى الحكمة . قال تعالى : **﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ﴾** [النمل الآية : 15] .

والمعرفة عند بعض الباحثين هي مطابقة نظام الكون ونظام العقل[1] .

وهي عند غير هؤلاء : تحصيل العلم ، أو العمليات العقلية التي يستعملها الباحث لتحصيل العلم أو البحث في المعرفة التي تم له اكتسابها .

وقد أثار القرآن الإنسان ليسلك مسلك العقل ودعاه إلى التأمل والنظر إلى ما في العالم من ظواهر في آيات كثيرات . منها : قال تعالى : **﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾** [آل عمران : 190 ـ 191] .

وقال سبحانه وتعالى : **﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴾** [الروم : 22] .

هذا الضرب من الآيات بعث العقل من رقاده وحث الإنسان على التأمل في نظام هذا الكون وخلق المخلوقات ، وكان له الأثر الهام في الحياة العقلية وفي تحريك العجلة الحضارية الإنسانية ونظرية المعرفة عند الفلاسفة تعتمد على رأيهم في تفسير المعرفة ، أياً ما كانت الحقيقة المعروفة .

فمنهم من ميز بين المحسوس ، وما هو خارج عن دائرة المحسوس ؛ ومنهم من ميز بين ما يدركه العقل إدراكاً بديهياً فطرياً ، وبين ما يتم اكتسابه عن طريق التجربة والبعض الآخر من الفلاسفة بحثوا وقارنوا بين المعلومات الذاتية والمعلومات الموضوعية . فقالوا : إن كل ما يتصل بالذات المدركة يرجع إلى علم النفس ، وكل ما يتعلق بالمواضيع المدركة يرجع إلى العلوم الطبيعية وفلاسفة آخرون بحثوا كذلك في موضوع الوجود والتغيير والتطوير من أجل حياة أفضل وأكمل .

من خلال هذه التعاريف المختلفة ، تظهر طبيعة المعرفة مختلفة من فريق إلى آخر

---

(1) راجع وحدة المعرفة لمحمد كامل حسين ص 7 .

ومترجرجة بين العالم الخارجي والعقل . فطبيعتها خارجية عند الفلاسفة الوضعيين وطبيعتها عقلية عند الفلاسفة المثاليين. . . فهي منسوبة إلى العالم الظاهر عند الفريق الأول ، وإلى العالم الباطن عند الفريق الثاني . .

حدود المعرفة وإمكاناتها

كما اختلف الفلاسفة في طبيعة المعرفة فنسبها بعضهم إلى العالم الخارجي المحسوس ، ونسبها آخرون إلى العالم الباطني ، إلى العقل . وكما اختلفوا في مصدرها وطرق الإنسان في تحصيلها ، كذلك اختلفوا في امكان المعرفة وحدودها[2] .

قال أصحاب المذهب العقلي : إن المعرفة ممكنة إلى غير حد تقف عنده ، إذا لم يكن هناك عوائق أمام العقل أو أمام المواضيع التي يراد البحث فيها .

وقال النقديون إنها ممكنة شرط أن تقف عند حدود الخبرة الإنسانية . . . وقال فريق من المشككين : قد يستحيل على الإنسان أن يعرف معرفة يقينية عن حقيقة العالم الذي يعيش فيه[3] .

هذا مخلص بسيط عام لنظرية المعرفة من مختلف جوانبها ، عند أصحاب المدارس الفلسفية ، القديمة والحديثة . . .

فأين هم المسلمون في هذه المجالات ؟ وما هي المعارف التي حصلوها ؟ وهل كانوا مقلدين ، أم مقتبسين ، أم مبدعين ؟ .

جاء الإسلام فحث الناس على العلم والتعلم وأفاد الحركة العلمية من عدة وجوه ، بعد أن وضع العجلة الحضارية في مسارها الصحيح .

أولاً : إن نشر الدين كان يستتبع الحاجة إلى القارئين والكاتبين والمتعلمين ، فقد كانت آيات القرآن تكتب ويتلوها من يعرف القراءة على من لا يعرف . وورد في الروايات التي أكدها المؤرخون أنه في غزوة بدر « كان فداء بعض الأسرى الذين يكتبون أن يُعَلِّموا عشرة من صبيان المدينة الكتابة » فيطلق عنذها سراحهم . .

ورأى المسلمون أنهم بحاجة ماسة إلى الكتابة ليعرفوا دينهم على الوجه الأكمل . فتهافتوا على التعلم والتعليم في جميع الحقول التي تفيدهم لفهم القرآن الكريم الذي كان

---

(2) راجع نظرية المعرفة ص 4 : 1 وما بعدها .

(3) المرجع نفسه ص 11 وما بعدها .

ولم يـزل المعجزة الأدبيـة والفكريـة والعلمية والأخلاقية فهو أم المعارف جميعهـا والمـركـز الرئيسي لسير الحياة الحضارية السعيدة ودفعها في المسار الإنساني الصحيح .

فـالإسلام نقـطة المركـز في الدائـرة Centre والعلماء المسلمون شعـاع هذه الـدائـرة يصلون بـين المركـز والمحيط وكلما كانـوا متعمقين في علومهم كلما كـان الشعاع الـدائري أطول والدائرة أكبر . ولا يخفى أن الدائرة الكبرى هي الدائرة الإسلامية .

ثـانياً : ومما أثر بـه الإسلام في الحـركة العلميـة والنهضة الحضـارية ، أنـه نشر بين العرب كثيراً من التعاليم فساعد على إلغاء نظام الـرق الذي كـان متفشياً في ذلـك العصر عند اليونان والرومان والفرس . . . ونظم الحياة الاجتـماعية تنـظيماً إنسـانياً لائقـاً ، وأقر مبـدأ المساواة بـين جميع خلق الله ، والغى العصبيـة القبلية ، وانتشـل الناس من عبـادة الأوثـان إلى الصراط المستقيم ، وجعل مبـدأ التقويم للشخصيـة الإنسـانيـة « **تقى الله** » **﴿ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾** .

ثم شرح أحكاماً عديدة في الاقتصـاد والاجتماع والشؤون المدنيـة والجنـائية أصبحت قانوناً نظمت حياة الناس ، واتخذها الفقهاء والمشرعون مرجعهم ، يستنبطون الاحكام ، ويستهدون بها فيما يعرض عليهم من حوادث جديدة وقد كان ذلك أساساً لحركة تشريعية واسعة .

وأمر آخر هام جداً كان للإسلام الدور البارز في تعميمه وهـو : **اللغة والـدين** فأمـا اللغـة العربيـة فقد سـادت الممالـك جميعها ، وانهزمت أمـامهـا اللغـات الأصليـة للبـلاد المفتوحة ، وأصبحت هي اللغة المستعملة في البلاد ، لغـة السياسـة ولغة العلم في جميـع ميادين المعرفة الإنسانية والمجالات الحضارية .

وكذلك الدين الإسلامي ، فقد ساد جميع الأقطار واعتنقه أهلها بالرضـا والطواعيـة **﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الـرشد من الغي ﴾** . وقـل من بقي من سكان تلك البـلاد على دينه السابق .

ثالثاً : وأمر آخر كان للإسلام دور كبير في تفتيح الأذهان وتحريك الحياة العقلية وهو أنه سلك في دعوته إلى الإيمان بالله وصفاته من علم وقدرة ووحدانية ، مسلكاً خاصـاً يثير العقل ، ويدعو إلى التأمل والتفكير . وهـو الدعـوة إلى النظر إلى مـا في العالم من ظـواهر تستحق الوقوف عندها والتأمل ملياً في دقة تكـوينها وحسن تنـظيمها ودقـة صنعها . قـال تعالى :

﴿ فلينظر الإنسان مما خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ [الطارق : 5 ـ 6 ـ 7] .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ، انا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فانبتنا فيها حبا ، وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبًا ﴾ [عبس : 24 ـ 25 ـ 26 ـ 27 ـ 28 ـ 29 ـ 30 ـ 31][4] .

وقال سبحانه : ﴿ والشمسُ تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمرَ قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌ في فلك يسبحون ﴾ [يس : 38 ـ 39 ـ 40][5] .

وقال تعالى : ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [الروم : 9] .

إذا تتبعنا هذه الآيات القرآنية وأمثالها استنتجنا بوضوح أن هناك ساحات واسعة اشتملت على موضوعات عدة تتعلق بالمجتمع والتربية والأحكام والتاريخ والطبيعة . وتركز بصورة خاصة على الدراسة والتدبر والتأمل بغية التوصل إلى استدلال واستنباط لقوانينها وسننها ونظرياتها وأحكامها كل ذلك للاستفادة منها في مسيرة الإنسان الارتقائية وحياته السعيدة الراقية . فما هي المعرفة الإنسانية في المنظور الإسلامي ؟ .

إذا قارنا الفكر الإسلامي مع بقية الأفكار والنظريات الفلسفية الأخرى تبين لنا بوضوح وتأكيد أن للإسلام منهجاً خاصاً متميزاً عن بقية المناهج .

ولكي نعرف عمق ومصداقية أي مذهب أو منهج لا بد أن نفهمه وفقاً لمنطقه ومنهجه الخاص به .

والفكر الإسلامي نستطيع معرفته وتبويبه وفقاً للقواعد والأسس التالية :

أولاً : معرفة الله جل وعلا : الغاية من هذه المعرفة التي تعد من أعلى مراتب المعرفة وأسماها ، هي المعرفة اليقينية بذات الله تعالى ، والاطلاع على دينه ورسالته وما تأمر به وتنهى عنه بقلب خاشع وإرادة صادقة ونية صافية مخلصة . ثم يجسد هذه المعرفة الإلهية

(4) قضبا : علفاً رطباً للدواب . حدائق غلبا : بساتين عظيمة متكاثفة الاشجار . أبًا : كلأ وعشبا .

(5) العرجون : عود عذق النخلة العتيق .

اليقينية في سلوكه المستقيم وأفعاله الصالحة التي يرضى بها الله ويتقرب إليه ؛ وكأن الله عز وجل يشاهده ويراه في كل حركاته وسكناته .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **هذا بلاغ للناس ولِيُنْذَروا به وليعلموا أنما هو إلّه واحد وليذكر أولوا الألباب** ﴾ [إبراهيم الآية : 52] .

وقال النبي (ص) : أما علامة العلم فأربعة : العلم بالله والعلم بمحبيه، والعلم بفرائضه ، والحفظ لها حتى تؤدى »[6] .

وقال الإمام علي (ع) « أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده »[7] .

ثانياً : **معرفة النفس ومحاسبتها** : بعد معرفة الخالق تأتي معرفة المخلوق ، ومعرفة نفسه بالدرجة الأولى لبنائها بناء صالحاً وتهذيبها وتقويمها . ويحصل هذا بدون معرفة حقيقية ويقينية للنفس بجميع طاقاتها وامكاناتها ومواهبها التي تعطي وتنتج عن طريق التربية الإسلامية الصحيحة . وللمعرفة النفسية مراحل عدة ، فبعد معرفة وجود النفس يستلزم معرفة قدراتها ومقوماتها في المجال العملي ، على صعيد التجربة .

وعند ذلك تتفتح آفاق وأبعاد جديدة لمسيرة الإرتقاء الفردي والاجتماعي في مجتمع حضاري متطور تسود فيه العدالة الاجتماعية والحياة السعيدة الراقية .

وقد طلب إلينا الله عز وجل لنتبصر في أنفسنا بعد أن وضع لنا في الأرض آيات دالة .

قال تعالى : ﴿ **وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ [الذاريات : 20 ـ 21] .

ولمعرفة النفس فوائد كثيرة شخصية واجتماعية . منها : **معرفة قدراتها وامكاناتها** إن معرفة الإنسان لقدراته الخاصة حسن تقديره لامكاناته وطاقاته تساعده بلا ريب ، على تحديد سيره واتجاه مسيرته التكاملية في الحياة .

جاء في الحديث: رحم الله امرءاً عرف حده فوقف عنده» ومعرفة الحدود تتطلب ثقافة وخبرات وعلماً ، ولا يكفي معرفة الحدود ، بل يجب الالتزام بنهجها والوقوف عند

---

(6) البحار ج 2 ص 27 .

(7) نهج البلاغة ص 23 .

حدودها التي عينتها . والرسول الأعظم يريد منا معرفة جميع الحدود : الحدود الحقوقية ، والعلمية ، والتربوية ، والأخلاقية والأدبية والاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية وما إلى ذلك من حدود تتطلبها الحياة المنظمة الراقية .

ويطلب إلينا (ص) عدم التجاوز أو القصور دون هذه الحدود . فمن تجاوزها كان من الطماعين ومن وقف دونها كان من الجاهلين . وكلاهما خاسر في الدنيا والآخرة .

وقال الإمام علي (ع) في هذا المجال : « العالم من عرف قدره ، وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره »[8] .

هذا من حيث معرفة العيوب ، أما معرفة فضائل النفس فضرورية هي أيضاً لكسب الحقائق الحياتية ، والمعالي الإنسانية التي توصل الإنسان إلى اسمى درجات التكامل في السلم الحضاري .

دخل رجل على رسول الله (ص) فقال : يا رسول الله ، كيف الطريق إلى معرفة الحق ؟ فقال : « معرفة النفس »[9] .

وقال الإمام علي (ع) : « الفوز الأكبر ، من ظفر بمعرفة النفس »[10] .
ومعرفة النفس تؤدي عند المتأمل المدرك إلى معرفة الله عز وجل . قال رسول الله (ص) : « من عرف نفسه عرف ربه »[11] .

إذا تأمل الإنسان ملياً في تركيب جسده وما فيه من أجهزة خالصة تعمل بنظام تام متكامل من جهاز تنفسي إلى جهاز عصبي إلى جهاز الدم إلى غير ذلك من أجهزة تعمل متعاونة بطريقة علمية تجعل من هذا المخلوق ، الإنسان ، آية فيها تكمن أسرار الخالق عز وجل وسر هذا الجرم الذي وصفه الإمام علي (ع) فقال :
وتزعم انك جرم صغير بك انطوى العالم الأكبر .

ولا يخفى على المؤمنين أنّ النفس البشرية جوهرة إلٰهية ، ونفخة ربانية ، وهي المرآة التي تتجلى فيها الصفات الرحمانية فمن المنطق أن من عرف المخلوق عرف الخالق وبان أمامه ضياء الطريق ونور الحق بعيداً عن الأوهام والخيالات والظنون .

---

(8) نهج البلاغة ، محمد عبده ج 1 ص 214 .
(9) البحار ج 7 ص 72 .
(10) نهج البلاغة محمد عبده ج 1 ص 214 .
(11) البحار ج 2 ص 32 .

ومن خلال معرفة الإنسان نفسه يستطيع معرفة نفوس الآخرين من سائر الناس . فيقدر قيمهم وخصوصياتهم ، ويشيد معهم علائق اجتماعية وسياسية ونفسية واقتصادية . . وفقاً لمقاييس حقيقية وارتقائية تحافظ على حقوق الإنسان وكرامته وإنسانيته العظيمة .

وقد حثنا الله تعالى في كتابه العزيز على معرفة أحوال الناس والأمم . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ [الحجرات الآية : 13] .

وقال أمير المؤمنين الإمام علي (ع) « . . . **يا بني** ، إنه لا بد للعاقل من أن ينظر في شأنه فليحفظ لسانه ، وليعرف أهل زمانه »[12] .

ثالثاً : معرفة الأنبياء والأئمة عليهم السلام .

قلنا إن المعرفة الإنسانية تتمثل في أنبل مقامها وأروع صورها في معرفة الله سبحانه وتعالى ، معرفة الحق المطلق والمثل الأعلى ، ومن أجل استمرارية هذا الحق المطلق في حياة الفرد والأمة ، يستلزم الأمر وجود روابط وصلات صحيحة بين الخالق والمخلوق ، بين الإنسان ومثله الأعلى . وهذه الروابط يجسدها في واقع الحال الأنبياء الذين ارسلهم الله تعالى رحمة للعالمين وهداية إلى صراطه المستقيم .

ولأن الأنبياء اختتموا بأشرف الخلق خاتم النبيين ، النبي محمد (ص) استلزم الحال وجود أئمة (ع) يحملون عبء الرسالة والمسؤولية الإنسانية . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين** ﴾ [المائدة الآية : 67] .

والمؤمنون وضعهم الله عز وجل مع الرسول (ص) وحملهم مسؤولية الرسالة وطلب إلينا إطاعتهم . قال تعالى : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾ [المائدة : 55] . فمعرفة أولياء الله تنبثق من معرفة مبدأ النبوة والامامة .

وهي معرفة ضرورية ولازمة للمسلمين . وما أجرانا نحن اليوم بمثل هذه المعرفة في عصر التحديات والمتغيرات ، عصر المال والماديات . قال الرسول الأعظم : « الفقهاء

(12) امالي الطوسي ج 1 ص 146 .

أمناء الرسول »[2] .

كل هذه المعارف المتفرعة من مصدر واحد ، المعرفة اليقينية ، مصدر تحصيلها العقل . فماذا يعني العقل في الإسلام كوسيلة أساسية من وسائل تحصيل المعرفة الإنسانية ؟ .

اعترف فلاسفة المسلمين وعلماؤهم بالعقل كمصدر من مصادر المعرفة ، مع تباين آرائهم بالتعويل عليه ودرجة أهميته . فعن طريق العقل وما ينطوي عليه من امكانيات فاعلة وطاقات هامة يستطيع الإنسان تفسير الألوهية ومشكلة وجود الإنسان . قال الفارابي : « واجب الوجود عقل محض يعقل ذاته بذاته ، فهو عاقل ومعقول في آن معاً »[14] .

والعقل عند ابن سينا قوة من قوى النفس ، يسمى الناطقة . وهو عملي يسوس البدن ، وينظم السلوك ، ونظري يختص بالادراك والمعرفة .

فبالعقل نعلل الأمور ونبرهن القضايا ونكشف الحقائق ونثبت النتائج العلمية وبذلك هو باب من أبواب المعرفة .

والعقل عند فلاسفة المسلمين مناراس يشع بنوره ليهدي الإنسان في مسيرته الحياتية فيبين له معالم الطريق ويحصل عن طريقه الحقائق اليقينية الصائبة من ملاحظات وتجارب عديدة ؛ إلى أن يصل إلى القانون العلمي الدقيق .

والعقل في الإسلام مصدر من مصادر المعرفة الرئيسية والأساسية في تحصيل المعرفة الإنسانية عن الله عز وجل والكون والحياة . . . وقد طلب الله عز وجل من البشر جميعاً أن يحكموا عقولهم ويفكروا ويتأملوا ويعقلوا . . في آيات كثيرات نذكر بعضها على سبيل الذكر : قال تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ [فاطر : 28] .

وقوله : ﴿ **هل يستوي الأعمى والبصير ، أم هل تستوي الظلمات والنور** ﴾ [الرعد : 16] . ﴿ **وذكري لأولي الألباب** ﴾ [غافر : 54] .

﴿ **أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب** ﴾ [الزمر : 18] .

وقوله : ﴿ **إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي**

---

(13) البحار ج 1 ص 216 .

(14) آراء المدينة الفاضلة ص 10 .

الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ [آل عمران : 190 ـ 191] .

وقوله : ﴿ **هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، بنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ والنجومُ مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ [النحل : 10 ـ 11 ـ 12] . (**فيه تسيمون : أي فيه** ترعون دوابكم) .

وقال الرسول الأعظم (ص) : « إنما يدرك الخير كله بالعقل ، **ولا دين لمن لا عقل** له » .

وقال الإمام علي (ع) : « العقول أئمة الأفكار ، والأفكار أئمة القلوب ، والقلوب أئمة الحواس ، والحواس أئمة الأعضاء »[15] .

وقد قسم الإمام علي (ع) العقل إلى قسمين[16] : **فطري وهو علم الضروريات** ، ومستفاد ، وهو الذي ينمو بالدراسة والتجربة . فقال : عقل مسموع وعقل مطبوع ، ولا ينفع الثاني دون الأول ، كما لا تنفع الشمس وضوء العين محجوب عنها .

وفي وصية له (ع) لابنه الإمام الحسين (ع) : « **أي بني الفكرة تورث نوراً والغفلة ظلمة** »[17] ويعتبر العقل في الوحي الإسلامي وفكره ومنطقه من طليعة الفضائل التي زود بها الله الإنسان وفضله على جميع خلقه ، ونال بواسطته العناية الكبرى من رب العالمين .

وقد وضع الإسلام موضع التحقير كل الذين يجمدون نعمة العقل ، ولا يستعملونه فيما خلق له . لأن تعطيل العقل يؤدي بالإنسان وفق المنطق القرآني إلى مستوى الحيوان . قال تعالى : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ [الاعراف : 179] .

---

(15) مستدرك النهج ص 176 .

(16) قسم الفلاسفة العقل إلى عشرة أقسام .

(17) تحف العقول ص 65 .

قلوب لا يفقهون بها الحق . وأعين لا يبصرون بها النور . وآذان لا يسمعون بها كلام الله . ذلك إن القلب عندما يفسد ويزيغ عن خط الله ، يفسد معه كل شيء في الإنسان فهل يكون القلب مصدراً للمعرفة الإنسانية ؟ . وما مدى مصداقية القلب كمصدر للمعرفة الإنسانية من منظار الإسلام ؟ .

يقول الإمام الغزالي : « إذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر ، وتكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغفلة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية »[18] .

ويرى المتصوفون أن القلب موضع المعرفة وهو علم المعارف وعلم الأسرار ، وكذلك هو علم الحقائق وعلم الخواطر ، علم الباطن وعلم الورع . قال تعالى : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾ [الزمر : 22] .

وقوله عز وجل في سورة الشرح : ﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾ [الآية : 1] .

ينزل الله من السماء ذكراً تتلقاه القلوب المؤمنة الحية فتتفتح وتنشرح وتتحرك للحياة والله عز وجل يشرح للإسلام قلوباً يعلم منها الخير ، ويصلها بنوره فتستضيء به .

وهل ألطف وأصفى وأرقى من هذه الحال ؟ حال القلوب المنشرحة التي يظللها التفتح والبشاشة ، ويضيء طريقها الاشراق والاستنارة .

وعندما كان صدر الرسول الأعظم مثقلاً لهموم الدعوة وكان يحس العبء فادحاً على كاهله كانت هذه المناجاة الحلوة : ﴿ **ألم نشرح لك صدرك ؟** ﴾ .

ألم نشرح لك صدرك لهذه الدعوة ؟ ونشرع لك طريقها حتى ترى نهايته السعيدة ؟ عند ذلك ارتاحت نفس الرسول (ص)عندما وجد الرَوْحَ والانشراح والنور والاشراق ، والراحة بعد كل تعب واليسر مع كل عُسْرٍ .

فالقلب موضع علم نوراني لدين يقذفه الله في القلب فينكشف للمؤمن الحق وينقدح في قلبه نوراً ساطعاً . من ذلك علم الخضر الذي وهبه الله علماً غزيراً . قال تعالى : ﴿ **فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه ، رحمة من عندنا وعلمناه من لَدُنَّا علماً** ﴾[19] .

ويرى برجسون : « إن العقل أداة العلم ، أما الوجدان Intuition فهو أداة

---

(18) راجع إحياء علوم الدين ج 3 ص 18 .

(19) الكهف الآية 65 والعلم اللدن عند ابن سينا هو « سريان نور الالهام » .

الفيلسوف إذ أن العقل لا يدرك إلا الصف والمنفصل والكم ، والعدد و . . . وبالجملة المادة . بخلاف هذا تماماً الوجدان : إنه يضعنا فوراً في عمق الواقع ويجعلنا نشهد الصيرورة الخالقة»[20] .

جاء في القرآن الكريم في مواضع عديدة عن القلب فماذا يعني القلب في هذه الآيات ؟ .

قال تعالى : ﴿ **من خشي الرحمان بالغيب وجاء بقلب منيب** ﴾ [ق الآية : 33] منيب : مقبل على طاعة الله .

وقوله تعالى : ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة** ﴾ [البقرة آية : 7] .

وقوله تعالى : ﴿ . . . **ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثِمٌ قلبُه والله بما تعملون عليم** ﴾ [البقرة : 283] .

وقوله تعالى : ﴿ . . . **ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ [آل عمران : 159] .

وقوله تعالى : ﴿ **وألَّفَ بين قلوبهم** . . . ﴾ [الانفال : 63] .

وقال الإمام علي (ع) : « إن القلب إذا صفا ضاقت به الأرض حتى يسمو »[21] .

إذا استنطقنا هذه الآيات الشريفة واستقرأنا الأحاديث النبوية استنتجنا أن للإنسان وجوداً حقيقياً متكاملاً واحداً ولكن له آلاف الأبعاد الوجودية الأخرى والقلب في المصطلح القرآني هو الإنسان ، بمعنى النفس والروح ، وهو مركز التعقل والتفكير ، والخوف والشجاعة ، والحب والبغض ، والتقى والكفر وأمثال ذلك من الصفات النفسية والروحية .

« والأنا » الإنسانية هي عبارة عن مجموعة من الأفكار والآمال والحب والخوف والشوق . . . وكلها بمثابة روافد وجداول تصب في مركز رئيسي واحد يستوعب جميع هذه الأبعاد هو كالبحر . والمقصود بالقلب هو هذا البحر الواسع العميق ومما نلاحظه أن القسم الأكبر من نداءات القرآن تخاطب قلب الإنسان وتدل على دور القلب وأهميته في استحصال المعرفة اليقينية . قال تعالى : ﴿ **إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا** ﴾ [الانفال الآية : 29] .

---

(20) المدخل إلى الميتافيزيقا .

(21) أصول الكافي ج 2 ص 130 .

وقوله سبحانه : ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا** ﴾ [آل عمران الآية : 8] .

وقوله عز وجل : ﴿ **وما أبرىء نفسي إن النفس لامارة بالسوء إلا ما رحم ربي** ﴾ [يوسف الآية : 53] .

هذه الآيات الكريمات وأمثالها تؤكد على ضرورة إيجاد ذلك الجو الروحاني النظيف للنفس لكي يتيسر له استقبال واستيعاب المعارف والحقائق الإلهية ، وضرورة تطهيرها وتزكيتها من الأدران العالقة بها من خلال العوامل النفسية والاجتماعية والاقتصادية .

والنفس البشرية إذا كملت بذاتها وزال عنها دنس الحرص والتعلق بهذه الدنيا تتجه بوجهها على بارئها وتنكشف لها جميع المعارف الإنسانية . قال تعالى : ﴿ . . **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعَلَّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما** ﴾ [النساء الآية : 113] .

وقوله تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ [العنكبوت : 69] . والجهد هنا حسب ما قال المفسرون معناه الوسع والطاقة والمجاهدة . والجهاد له ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، مجاهدة الشيطان المضل ، ومجاهدة العدو الخفي أي مجاهدة النفس . (الجهاد الأكبر) . وقوله : جاهدوا فينا : أي استقر جهادهم فينا ، الجهاد المبذول في سبيل الله من اعتقاد وعمل . وقوله : « لنُهديَنّهم سبلنا » وهي اينما كانت السبل تنتهي إلى الله سبحانه وتعالى ، إلى السبل المقربة منه والهادية إليه تعالى .

والهداية إلى الله تبعدنا عن محرماته ونكون بذلك من المتقين ، وتقوى الله تعني جعل النفس في وقاية ، ولا تكون النفس في وقاية إلا إذا انصعنا لأوامر الله ونواهيه . من هنا كان اكتشاف المعارف ، ومعرفة الحق من الباطل والصواب من الخطأ . والذي يعلم الله أكثر يخشاه أكثر ويتقيه أكثر . قال تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماءُ إن الله عزيز غفور** ﴾ [فاطر : 28] .

وتقوى الله باب من أبواب الهداية واكتشاف المعارف . وللتقوى ، كما لا يخفى على أحد من المؤمنين ثمرات كثيرة وطيبة منها :

الثمرة الأولى نيل رحمة الله تعالى قال تعالى : ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ [الاعراف : 106] .

والثمرة الثانية تفريج أزمات المؤمن وحل مشاكله : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً**

ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ [الطلاق : 3 ـ 4] .

وفي السورة نفسها يقول تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا** ﴾ [الآية : 4] .

والثمرة الثالثة : النصر والتأييد . قال تعالى : ﴿ **إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾ [الأعراف : 128] .

والثمرة الرابعة : تجعل المؤمن في أمن من الخوف والحزن في الدنيا والآخرة : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ [يونس : 62 ـ 64] .

الثمرة الخامسة : تنوير البصيرة . وتنوير البصيرة هو أساس المعرفة . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا** ﴾ [الأنفال : 29] .

فالفرقان هو ما يفرق بين الحق والباطل ، ويميز بين الأشياء المشتبهة . ولا يتم ذلك إلا بالمعرفة اليقينية التي يقذفها رب العالمين في قلب المؤمن .

فالقلب ، كما يستفاد من الأمثلة الواردة ، مصدر أصيل من مصادر المعرفة ، وهذا المنبع الغزير يختلف عن بقية المصادر من حيث أن المجهود فيه لا يعتمد على الاقيسة المنطقية والحواس والتجارب ولا على العقل والأحاديث والأسناد ، ولا من شيء سوى إلهام القلب وحدسه وإشراقه وتقصيه المعارف الخالصة . فينبثق عنه ذلك النوع الأصيل من المعرفة اليقينية الصادقة المتحررة من ربقة الشهوات والتعلق بالماديات . فإذا ماتحررت النفوس أصبحت عند ذلك مؤهلة وجديرة لاستيعاب الحقائق اليقينية المطلقة . بلا أي حواجز أو عوائق كالغضب والحقد والطمع والكبر والاهواء التي قد تفسد الحقائق وتشوه وجهها الصحيح لفترة زمنية محدودة . قال تعالى : ﴿ **ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور** ﴾ [سورة النور الآية : 40] .

قال بعض الحكماء : « الطمع يذهب الحكمة من قلوب العلماء » .

والقرآن الكريم يعتبر الضمير الإنساني مصدراً أصيلاً ومنبعاً هاماً في استحصال المعرفة قال تعالى : ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ [الذاريات الآية : 21] .

ولذلك يطلق على الاشخاص الذين يعتقدون بأن النفس أو القلب مصدر هام للمعرفة بأهل العرفان . فالعارف ينظر إلى الوجود على أنه مظاهر لنور الخالق الباري

جل وعلا . والإنسان المؤمن العالم هو الذي يزكي نفسه بالمعارف اليقينية وينظفها من الشوائب والأمراض النفسية لتصبح نقية ، صافية كالمرآة المجلوة لا يشوبها شائبة ؛ تعكس المعارف والحقائق الخارجية في نفس الإنسان كما هي .

والمستقرىء للآيات القرآنية يرى بوضوح مدى اهتمام الإسلام بالنفس وكل ما يتعلق بها من أمور . فهي عالم مستقل ومنبع هام للمعرفة ينطوي على أحكام وقوانين وضوابط تستحق العناية والدرس .

يعتقد الفيلسوف الإسلامي ابن سينا إن هذه القوة موجودة في الأفراد بدرجات متفاوتة .

والغزالي أيضاً يرى أن أكثر معلومات البشر المرتبطة بالاحتياجات المعيشية هي من قبيل الإلهام وقد ابثقت من النفس البشرية[22] .

والعالم المعروف نصر الدين الطوسي وجد في بحثه عن النبوة والوحي أن معظم ما توصل إليه البشر تم عن طريق الإلهام .

والفيلسوف الألماني (كانت) استرعى انتباهه في الحياة أمر أن فأعجب بهما إيما اعجاب . أمر ظاهر : هو السماء الزاهرة بالنجوم المتلألئة والمستقرة فوق رؤوسنا .

وأمر آخر باطن : وهو الوجدان والضمير المستقر في أعماقنا .

وكذلك الفيلسوف والعالم الفرنسي (الكسيس كارل) يقول : « من المؤكد إن الاكتشافات العلمية ليست فقط حصيلة الفكر الإنساني النوابع يمتلكون خصائص معينة كالاشراق ؛ وعن طريقه يدركون ما خفي عن الآخرين ، ويبصرون الروابط المجهولة بين القضايا ، ويتوصلون إلى فهم المسائل الهامة دونما دليل أو برهان »[23] .

نستخلص مما ذكرناه أن النفس أو القلب أو الضمير الإنساني يعتبر مصدراً لأنواع المعارف الإنسانية ، وهي قوة عظيمة تمنح الإنسان عزماً أكيداً وإرادة قوية ، تنول له الطريق وتهدي له السبيل وتلهمه الأفكار العلمية الصحيحة .

---

(22) راجع المنقذ من الضلال .

(23) راجع الإنسان ذلك المجهول نظرية الاشراق والالهام .

الفصل الثاني عشر

الحركة الفكرية والعلمية في صدر الإسلام

كل تغيير أو تطوير في المجتمع الإنساني يحتاج إلى علم وعمل وقراءة وكتابة وتوجيه في جميع مجالات الحياة . وكذلك هي الحال في أمر انتقال الدعوة الإسلامية الذي يحتاج إلى سلسلة من المؤلفات الإسلامية والثقافية والأدبية والأخلاقية والعلمية بالمعنى المادي والروحي . وقد برز علماء الدين الإسلامي والاجتماعي في العصور الأولى التي رفعت العرب ووضعتهم في مكان الصدارة وحمل الرسالة . وقد ساهموا إلى حد بعيد في بناء الحضارة الإسلامية ونهضة الحضارة الإنسانية . ذلك أن الإسلام يعتبر مادة العلم وقواعد المعرفة هي كالماء والهواء والنور ملك لجميع البشر . . الأمر الذي يجعلنا نجد ونعمل ونزيد على كل هذا لنتابع ما خطه الأولون في بناء الحضارة الإسلامية عملا بقول الرسول الكريم : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

طبيعة المسلم العربي :

يقولون كلما قلت حاجات الإنسان زادت حريته ، وكلما زادت حاجاته قلت حريته واحتاج إلى معرفة وثقافة وعمل . . ويتيح العمل والتجريب للعقل والعلم أن يتسع ويمتد ، وللحواس أن تنمو وتجود . . وقد تميز أبناء الصحراء بصفاء العاطفة وحدة البصر وشدة السمع . وإن هذه تضعف كلما انتقل العربي من الصحراء إلى المدينة وحبس ذاته وانطوى على نفسه . وهذا ما حصل للعرب في فجر الإسلام يوم انتشروا وذابوا في الشرق الأوسط في العصور البعيدة[1] .

وبظهور الإسلام وتمام نزول القرآن وبالرغم ما داخل العرب من نسيان ماضيهم

(1) راجع فجر الإسلام لاحمد أمين .

الجاهلي وتأثرهم القديم بالديانات الروحية ، اختلطت عندهم الحرية وصفاتها وتأثير الصحراء الصافية مع العناصر الفكرية والثقافة الإسلامية الدافعة ، فمالوا نحو الحركة والعمل والمعرفة الهادفة . ومن وهج الفتوحات وخيرات البلاد المفتوحة والتأثر بالثقافات القديمة تكونت عند العرب المسلمين مفاهيم اجتماعية وأخلاقية وسلوك جديد صقلها الإسلام وأعطاها صورة النقاء والصفاء الروحي والأخلاقي .

وقد حدث هذا مدة عصرين أو ثلاثة كانت فيها الخلافة أو القيادة الإسلامية تبتعد عن مركز النور الأول (مكة المكرمة والمدينة المنورة) ولهذا فقد عرب الجزيرة الأول بعضاً من طبيعتهم . وأصبحت اللغة العربية لغة القرآن الكريم ، حفظها العرب داخل صحرائهم بذرة صالحة بعيدة عن خطر التآكل والطغيان وأصبحوا بنعمة الله إخواناً عملاً بقوله تعالى : ﴿ . . **هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس** ﴾ [الحج الآية : 78] .

والعرب اكملوا مسيرة الجهاد الحضاري ومروا بمراحل شاقة نجحوا فيها إلى حد بعيد وقد دخل من غير العرب في القيادة الحربية لا بضعة محاربين وإنما كمقدمة للجهاد عملاً بالحديث المأثور : « الخلق كلهم عيال الله وأقربهم إليه أنفعهم لعياله » . والقول الكريم : ﴿ **إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ .

إن اختلاط العرب مع غيرهم من الشعوب أدى إلى ازدواجية في المعرفة (العلمية الإسلامية العربية) حتى أن جماعة من علماء الفرس المنتسبين للإسلام ، ومنهم سكان العراق المتأثرين إلى حد ما بالثقافات الأخرى تولوا أمور الثقافة الإسلامية وخاصة العلمية منها والفلسفية وكان لهم دور معروف في تعريب المعرفة اليونانية والفارسية .

يمكننا القول أنَّ العرب لم يعودوا محصورين في الصحراء ولا خاضعين لشروط الطبيعة القاسية الصافية . ولهذا أصبح من حق الباحث الواعي أن يقوم الأوضاع ويخطط للحاضر والمستقبل ، وهو يرى القاسم المشترك الأول : القرآن الكريم وكل ما يتضمن من حقائق علمية ومعجزات وعناصر دافعة لصحة الحضارة الإنسانية والثقافة العامة التي تتمركز في عقولنا وقلوبنا وهي مؤهلة لمتابعة الرسالة الخالدة إن شاء الله بقيادة المسلمين المؤمنين .

الحركة العلمية القديمة

عندما ولد الإنسان ولد العلم وولدت المعرفة ثم بدأت تتطور يوماً بعد يوم تبعاً للظروف الحياتية والاجتماعية والسياسية التي مرت بها الشعوب وعصور التاريخ انقسمت

إلى قديمة ووسطى وحديثة . والديانات السماوية بدأت مع القديمة ونشطت في الوسطى . وقد جاء الدين الإسلامي في نهايتها واستمر على الأرض ما استمرت الحياة في الإنسان .

ونحن نعترف بفضل الأقدمين بما فيهم اليونان والفرس والهنود على الحضارة القديمة والوسطى ، ونعتبر الفلسفة والمعرفة اليونانية في القرون الوسطى كانت نشطة ضمن الإطار والمنطقة التي ظهرت وعاشت فيها ولم تكن بعيدة عن بلادنا العربية .

وقد تطورت المعرفة اليونانية اقليمياً داخل أوروبا وتأثيرها كان ضعيفاً على الشرق وذلك يعود لجهل الأسيويين اللغة اليونانية ، فالثقافة اليونانية كانت محصورة فقط في مدينة واحدة هي أثينة وبعدد من الفلاسفة لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد ، بالإضافة إلى البعد الزمني قبل المسيح وقبل الإسلام بقرون خلت .

والحقيقة أنّه لم يكن لليونان وفلاسفتهم أي تأثير على شخصية الرسول الأعظم محمد بن الله (ص) . وما كان لهم أي ذكر في القرآن الكريم . . غير أن المعرفة التاريخية الواردة في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف كانت ذات صلة غير متينة بالروم والفرس الذين كانوا بجوار العرب كمستعمرين وليس كمثقفين لهم صلة باليهودية أو المسيحية .

وتصبح المعلومات الواردة عن الإيمان الديني وعن طبيعة وحقيقة الوجود الإلّهي وقصة الأنبياء قبل نزول القرآن ، كانت ذات صلة ثقافية بالكتابين المقدسين التوراة اليهودية والإنجيل المسيحي . والتاريخ يثبت أنهما ما كانا مدونين وموحدين ، وحتى الآن ما زالا كذلك . . فتصبح المعلومات الواردة عن اليهودية والعبرانيين وعن حياة السيد المسيح وتعلماته هي ثقافية وليست علمية تستحق المناقشة والجدل من قبل علماء المسلمين . لكن السير على خط واحد مثالي هو الإيمان بالله الواحد الأحد كان الأساسي والجوهري في حركة الإسلام . وقد استمرت مثبتة بخلود ووحدة القرآن الكريم واستمرارية وجود العلماء المسلمين والثقافة الإسلامية .

ومن الوجهة الحضارية نعتبر المسلمين بتعرضهم للمعرفة اليونانية وللتاريخ الإنساني القديم قد قدموا للعالم مادة تاريخية ثقافية ، وأنهم فكوا القيود الروحية الجامدة التي قيدت حرية البحث العلمي في القرون القديمة والوسطى وأعطته صفة المعرفة العلمية والحرية الصحيحة ، على اعتبار أن الإسلام جمع بين الوجود الإنساني الفكري والروحي وبين الطبيعة وحقيقة الحياة . من هنا كانت الحركة العلمية الأولى في الشرق العربي الإسلامي . . وللأسف أن هذه النهضة الإسلامية الحضارية قد تعرضت لعشرات، الضربات سببها تقصير قادة العرب المسلمين وسوء تصرف الكثير منهم .

من هنا كان اختلاف المجتمعات الإنسانية في رقيها ودرجة حضارتها . فلماذا تختلف هذه المجتمعات وتتباين درجة العمران فيها ؟ .

يجيبنا عن هذا السؤال علماء الاجتماع وقد اخترنا من بينهم ابن خلدون . يقول ابن خلدون الذي تميز باختصاص علم العمران : إنه يوجد عوامل عديدة تؤثر في العمران البشري وتسبب بالتالي تباين المجتمعات الإنسانية وهي :

1 ـ العوامل الطبيعية :

يرى ابن خلدون أن للمناخ تأثيراً بيناً في أحوال البشر ، إذ نجد سكان الاقاليم المعتدلة أعدل أجساماً وأخلاقاً وأدياناً . فهم على غاية في التوسط في مساكنهم وملابسهم وأطعمتهم وصنائعهم .

أما سكان الأقاليم الحارة فأخلاقهم تميل إلى الخفة والطيش والكثرة «تجدهم مولعين بالرقص» . أما سكان الأقاليم الباردة فيميلون إلى الحزن . هذا من جهة الأخلاق . أما من جهة اللون ، فترى أن جلدة سكان الأقاليم الجنوبية سوداء لشدة الحر ، وجلدة سكان الأقاليم الشمالية بيضاء لشدة البرد فيها .

ثم ينتقد ابن خلدون الذين قالوا : إن اختلاف الشعوب يرجع إلى النسب . وكما للمناخ تأثير في أخلاق البشر وعاداتهم ، كذلك للتربة أيضاً أثر أيضاً حيث نجد أهل الأقاليم الخصبة، الكثيرة الزرع والضرع يتصفون بالبلادة في الذهن والخمول في التفكير وتنقصهم الشجاعة والقوة نظراً لوفرة القوت والرزق عندهم أما سكان التربة القاحلة ، فهم أصحاء الأبدان والعقول ، يمتازون بالذكاء والشجاعة وسرعة الخاطر ؛ لأن أثر الخصب لا يظهر فقط في البدن وأحواله إنما يظهر أيضاً في أحوال الدين والعبادة . « فنجد المتقشفين من أهل البادية والحاضرة من يأخذهم الجوع وقهر الجسد أحسن ديناً وإقبالاً على العبادة والترف والخصب » .

نستخلص من هذا كله أن في ذلك إشارة لأثر العوامل الطبيعية على المعتقدات .

2 ـ العوامل الاقتصادية :

قال علماء النفس : العادة طبيعة ثانية . وأكد ابن خلدون أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه وأن لوسائل المعاش (وسائل الانتاج) دورها في تكوين العادات والتقاليد والقيم . فأنواع العمل المختلفة تولد عادات مختلفة . إن ممارسة الإنسان لعمل معين يؤدي به بلا ريب إلى قيم معينة تنسجم مع طبيعة عمله . فالطبيب والصيدي والعامل والمدرس والعسكري والمحامي والقاضي . . . وغيرهم كل يتأثر بما يعمل وبالوسائل التي يعمل بها .

يلاحظ ابن خلدون أن حياة الترف في المدن تؤدي إلى أخلاق فاسدة ، لأن طريقة تحصيل معاشهم (التجارة) و (الصناعة) فيها نوع من الاحتيال والغش أما أهل الريف الذين يقومون بأعمال بسيطة كالفلاحة والزراعة وبعض الأعمال اليدوية تكون أخلاقهم أصفى وأبسط وأقرب إلى الخير .

يقول مارون عبود في كتابه الرؤوس في الفصل الأول : « إن طبيعة المكان القاسية كيفت هذا الإنسان المنفرد في الصحراء ، الحمراء السمراء ، جعلت لونه نحاسياً ، وعزيمته فولاذية ، ودفاعه غريباً عجيباً . إن ذلك المناخ العنيد العربي رأساً فريداً ، إذ أفنى الضعيف منه ، ولم يُبقِ من هذا الرأس الأسمر إلا الصالح للحياة » .

ثم يزيد فيقول : « ومن خواص العربي في الجاهلية الإيجاز . وهذا مقتبس من شكل الحياة : فبيته وجيز ، ولباسه وجيز ، وطعامه وجيز »[2] .

العوامل النفسية والاجتماعية

يُبين ابن خلدون أنّ هناك عوامل نفسية واجتماعية تؤثر في الاجتماع وتتباين المجتمعات منها .

أ ـ العادات : يقول أنّ استمرار العوائد من جيل إلى جيل ، من السلف إلى الخلف يؤثر في تباين المجتمع ، لأن من أدرك أهله ينعمون بالرفاه والحياة الميسورة الهادئة ، أو يحتجبون عن الناس في المجالس ، يعتاد على ذلك ولم يعد بإمكانه مخالفة سلفه في ذلك إلى الخشونة في اللباس والاختلاط بالناس لأنه قد اعتاد على ذلك وبات من الصعب التغيير . وإلا عد منبوذاً في مجتمعه .

ب ـ الميل إلى التقليد والاقتباس : من طبيعة الفئات المغلوب على أمرها في المجتمع أن تقلد ذوي النفوذ والسلطان . وقديماً قيل :« إن الناس على دين ملوكهم » والتقليد يكون في المأكل والملبس والكلام والعمل وغير ذلك . . .

ج ـ العصبية : العصبية في رأي ابن خلدون من أهم الأسباب النفسية في تباين المجتمعات وهي تقوم بدور كبير في العمران البدوي وانتقاله إلى العمران الحضري ، وفي نشوء الدولة وانهيارها .

أما عن تطور العمران في المجتمعات الإنسانية فهو يرى أن المجتمع يجتاز طورين الطور البدوي ، والطور الحضري ، وأنَّ أجيال البدو والحضر طبيعية في الوجود . أما

---

(2) يرمي من وراء الايجاز : البساطة .

من تبعه في علم الاجتماع فقد رأوا أن المجتمع يمر بمراحل ثلاث :

1 ـ المرحلة البدائية .
2 ـ المرحلة الميتافيزكية .
3 ـ المرحلة العلمية[3] .

البذور العلمية الأساسية

وضع الإسلام البذور العلمية الأولى للإنسان ، وعليه هو أن يعتمدها ويطورها عن طريق المنهج العلمي والممارسه الواعية والتجربة الصحيحة وقد أوصانا الله في كتابه العزيز الاهتمام بالأبدان لأنها أوعية للأرواح فلا ننسى نصيبنا من نعم الدنيا وخيراتها العميمة التي فوضها الله على الإنسان وعليه أن يقنصها قدر طاقته وبالحدود المعتدلة الشرعية من هنا يختلف الالتزام الدقيق بين الأفراد وذلك حسب معرفتهم العلمية المضبوطة وإرادتهم الشخصية القوية . قال الرسول الأعظم : « رحم الله امرءاً أعرف حده فوقف عنده » .

ومعرفة الحدود تتطلب علماً ، والوقوف عندها دون التجاوز يتطلب إرادة جاء في سورة القصص قوله تعالى : ﴿ **وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾ [الآية : 77] .

فعلى الإنسان الواعي أن لا ينسى نصيبه من متع الحياة فيقع في الحرمان بسبب جهله وعدم معرفته . وهذا ما نلاحظه اليوم عند أكثر الناس الجاهلين أمور حياتهم ، الذين يعتقدون أن البعد عن ملذات الدنيا هو الطريق الوحيد والمعبر الأمين للدخول إلى الجنة وكسب رضى الله عز وجل لقد حفظوا القسم الأول من الآية الكريمة ونسوا القسم الثاني .

علم الطب :

علم الطب ينظر في بدن الإنسان في محاولة لحفظ الصحة وإبعاد المرض بالأدوية والأغذية بعد أن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها .

وقد اهتم العرب في صدر الإسلام اهتماماً بالغاً بهذا العلم . قال صاعد الأندلسي :

---

(3) راجع علم الاجتماع الأدبي للمؤلف الفصل الأول .

« وكانت العرب في صدر الإسلام لا تعني بشيء من العلم إلا بلغتها ، ومعرفة أحكام شريعتها ، حاشا صناعة الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد من العرب غير منكرة عند جماهيرهم ، لحاجة الناس طراً إليها ، ولما كانت عندهم من الأثر عن النبي (ص) في الحث عليها . حيث يقول (ص) : « يا عباد الله تداووا ؛ فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء إلا واحد وهو الهرم » .

وكان من أطباء العرب : الحارث بن كلدة الثقفي . وكان على عهد النبي (ص) وقد تعلم الطب بفارس واليمن ، ومنهم : ابن الحبر الكناني من أمهر الأطباء في عهد عمر بن عبد العزيز ، كان عمر يبعث إليه بمائة إذا مرض[4] .

تطور الطب في صدر الإسلام :

كان العرب في الجاهلية ككل الشعوب البدائية يعتقدون أن سبب المرض : حلول أرواح شريرة في جسم الإنسان وأن إعادة الصحة إليه تكون في طرد هذه الأرواح . فكان التطبيب من أعمال السحرة والكهنة يستخدمون خلاله التعاويذ والتمائم . قال أحد الشعراء رافضاً هذا الزعم :

وإذا المنية انشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

وبعد ظهور الدعوة الإسلامية ، انتشر الإسلام ، واطمأن المسلمون إلى مدائن الأرض التي فتحوها ، فاتجهوا إلى العلوم والمعارف وعنوا بالطب عناية فائقة . وقد استفادوا من كتب من سبقهم من اليونان وأهل فارس وغيرهم . وقد صححوا ما وجدوه خطأ وعدلوه ، وأضافوا أبواباً جديدة لم يسبقهم إليها أحد .

فقد عرفوا علاج الماء الذي ينصب في العين بالتحويل . وعرفوا الحميات ذات البثور كالجدري والحصبة : حتى أن الطب الحديث لم يزد شيئاً على ما وصفوه من العلاج لهذين المرضين[5] .

كما عرفوا أمراض الأطفال ، وتفتيت الحصاة ، وعلاج النزيف بصب الماء البارد . كذلك عرفوا الأمراض النفسية ودرسوا التشريح بتقطيع أجسام القردة وهم أول من استعمل التخدير الذي نظن أنه من الاكتشافات الحديثة وذلك باستعمال « الزؤان » حتى يفقد المريض الاحساس والوعي تماماً .

(4) راجع طبقات الأمم .

(5) راجع قصة الحضارة تأليف ديورانت ج 2 ص 289 .

وفي أوروبا في عصر النهضة تكاد تكون سائر المعارف الطبية مأخوذة عن العرب وقد برعوا في ميدان الجراحة وتشخيص الأمراض عن طريق مراقبة التنفس والحرارة وجس النبض وفحص البول القائم على تقلبات لونه ومراقبة رواسبه . والطب مدين لهم بكثير من المواد الطبية مثل : خيار الشنبر والراوند ، والتمر الهندي . . . وغير ذلك . كما هو مدين لهم أيضاً بكثير من المستحضرات المستعملة اليوم مثل : الأشربة والمراهم واللزق والأدهان والماء المقطر . . .[6] .

وهم أول من أنشأوا مدرسة للصيدلة ، وأول من أوجد مخازن الأدوية والصيدليات وأقاموا الرقابة عليها .

وقد كان للأطباء نظام خاص يسيرون عليه « لم يكن القانون يجيز لإنسان أن يمارس صناعة الطب إلا إذا تقدم إلى امتحان يعقد لهذا الغرض ، ونال إجازة من الدولة »[7] . ولم يقتصر النبوغ في الطب على الرجال فقط ، فقد نبغ من النساء عدد غير قليل كأخت الحفيد بن زهر الأندلسي ، وابنتيها اللتين نبغتا في الطب ، وخاصة في أمراض النساء .

علم الفلك :

نجح العرب في هذا العلم وتقدموا به تقدماً ملحوظاً ، حتى فاقوا به أساتذتهم ، فقد جمعوا بين آراء الفرس ، والهند والكلدان واليونان وغيرهم فأخذوا منها ما وجدوه نافعاً وأضافوا إليها إضافات هامة . وفي ذلك حفظوا الكثير من كتب الفلك اليونانية التي ضاعت أصولها . جاء في حضارة العرب :

« وكان علم الفلك يدرس بحماس في مدارس بغداد ودمشق وسمرقند والقاهرة وفاس ، وطليطلة ، وقرطبة ، وغيرها . وقد أقاموا له المراصد العديدة التي انتشرت في مختلف البلاد الإسلامية من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي[8] .

وقد اكتشفوا إدخال خطوط التماس في الحساب الفلكي منذ القرن العاشر الميلادي ووضع جداول لحركة الكواكب ، وتحديد سمت الشمس تحديداً دقيقاً ، وتدرجة في النقص ، وتقدير تقدم الاعتدالين تقديراً صحيحاً ، ووضع أول تحديد صحيح لمدة السنة ، وإثبات ما في أكبر خط عرض للقمر من ضروب عدم الانتظام ، واكتشاف عدم

---

(6) راجع كتاب محمد رسول الله لا لفونس إتبين دينيه ص 376 .

(7) قصة الحضارة لديورانت ج 2 ص 195 .

(8) حضارة العرب لكستاف لوبون ص 481 .

التساوي القمري الثالث المعبر عنه اليوم بالتغيير[9] .

وقد توصلوا بمجهودهم إلى اكتشاف نظرية دوران الأرض ، وتحسين آلة الاسطرلاب واختراع آلة الرصد (التلسكوب) والآلة المعروفة بالمثقال التي يعرف بها الأوقات . كما حددوا في جميع أنحاء الدولة اتجاه القبلة في المساجد تحديداً دقيقاً . إلى غير ذلك من المعلومات الفلكية الهامة .

وبذلك يكون المسلمون قد أضافوا إلى الفكر الإنساني معلومات فلكية جديدة لم تكن معروفة من قبل . إلى جانب هذا كله صححوا الكثير من الأخطاء الفاحشة التي وقع فيها الإغريق . وقد استفادت منهم كثيراً الحضارات الحديثة في الغرب التي ما زالت تحتفظ بهذا العلم بأسماء عربية معروفة .

علم الكيمياء :

الكيمياء هو علم ذي أصول يبحث في طبيعة الأجسام وتحولاتها وكيفية تفاعلاتها وطرق الانتفاع بها . وقد جاءت نتيجة تجارب عديدة توصل الكيمائيون بنتيجتها إلى وضع مركبات دون قصد منهم . والكيمياء علم قديم يهدف إلى تحقيق غايتين هامتين . هما :

أ ـ تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب .

ب ـ واكتشاف أكسير الحياة وهو مركب يحمي شاربه من الشيخوخة ويحفظ له شبابه وحيويته .

وقد عني المسلمون بعلم الكيمياء عناية جلى ولهم في تقدمه فضل كبير واكتشافات مهمة . فهم الذين أسسوا الكيمياء الحديثة بتجاربهم وملاحظاتهم الدقيقة ومستحضراتهم الهامة . يقول العلامة ديورانت :

« يكاد المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علماً من العلوم . ذلك انهم أدخلوا الملاحظة الدقيقة ، والتجارب العلمية ، والعناية برصد نتائجها في الميدان الذي اقتصر فيه اليونان على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة والدليل على طول باعهم في هذا المجال آثارهم الدالة عليهم . فقد اكتشفوا كثيراً من المركبات الكيماوية التي بنيت عليها الكيمياء الحديثة . كالكحول[10] Alcool وزيت الزاج (الحامض الكبريتي) وماء الفضة (الحامض النتري) وماء الذهب (الحامض النتر + هيدروكلوريك) والبوتاس ،

---

(9) محمد رسول الله لا لمونس اتبين دينيه ص 375 ولوبون ص 481 .

(10) إن لفظة Alcool مأخوذة من اللفظة العربية الأصيلة الكحول .

وروح النشادر وملحه ، وملح الطرطير ، وملح البارود (نترات البوتاس) والزاج الأخضر (كبريتات الحديد) والزرنيخ ، والسلمياثي (كلوريد الزئبق) وغير ذلك[11] .

مارس العرب في علم الكيمياء والتجربة بضمير علمي سليم ، رافضين كل استنتاج لا يستند إلى البرهان الحسي . وذلك انطلاقاً من قول الله عز وجل في كتابه العزيز : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا** ﴾ [الاسراء الآية : 36] .

يطلب إلينا الله سبحانه أن لا نتبع كل ما يقال لنا مما ليس لدينا علم يقيني .

وقد اتصفت أعمالهم بالمنهج العلمي الحديث حيث اعتمدوا عملية تصنيف الأجسام Classification فقد ميزوا بين الأجسام المعدنية والنباتية والحيوانية والمشتقة سائرين في هذا التصنيف على تشابه خصائص الأجسام ، مقسمين كل صنف إلى فئات مازلنا نستعملها حتى اليوم . وقد أجروا تجارب مخبرية عديدة أهمها :

1 ـ عملية التذويب وغايتها تحويل بعض الأجسام الصلبة إلى سوائل بواسطة الحرارة .

2 ـ عملية التصعيد وتقضي بتحول الأجسام الصلبة إلى بخار دون أن تمر في مرحلة الصهر .

3 ـ عملية التقطير وهي تحويل الأجسام لاستخراج خواصها .

4 ـ عملية التبخير وتقضي بتحول الأجسام الصلبة والسائلة إلى بخار بفعل الحرارة .

5 ـ عملية التشميع وغايتها تليين المعادن لامكان استعمالها بأشكال متنوعة .

6 ـ عملية التخمير وبها يتم تحويل المواد العضوية والسكرية إلى كحول .

7 ـ عملية التكليس وتقضي بتحويل الأجسام الصلبة عن طريق الاحتراق والتفاعل عن طريق الاحتراق والتفاعل مع أوكسجين الهواء إلى أوكسيد الجسم المحترق .

ولم يكتفوا باكتشاف الأجسام بل استخدموها في صناعات شتى ومتنوعة .

علم الفيزياء :

لم يهتم العرب بالفيزياء اهتمامهم البالغ بالطب والكيمياء ومع ذلك فقد نهضوا بهذا العلم نهضة واضحة ، وأضافوا إليها معلومات جديدة هامة ، ولا سيما البصريات . ومن

---

(11) راجع حضارة العرب ، أبو زيد شلبي ص 356 .

آثارهم فيها : تعينهم الكثافة النوعية للكثير من أنواع الحجارة الكريمة . فشرحوا الأسباب التي تقضي بخروج الماء من العيون الطبيعية والآبار الارتوازية عن طريق نظرية الأواني المستطرقة .

ومن منجزاتهم رؤية الأجسام وتكون الصورة المرئية . لقد كان الرأي السائد عند اليونان أن النور ينطلق من عين الرائي إلى الجسم المرئي لتحدث الرؤيا بينما اكتشف المسلمون أن النور ينطلق من الجسم المرئي فتتقبله العين فتحدث الرؤيا . وقد أصبحت هذه النظرية أساساً لعلم البصريات (Optique) من هنا كان اشتغالهم بالعدسات وبراعتهم في البصريات .

وقد اجروا التجارب لايجاد العلاقة بين وزن الهواء وكثافته ، فألغوا في المرايا المحرقة كتابات قيمة وكتبوا في الضوء إلى غير ذلك من الأبحاث التي أفاد منها العلماء من بعدهم .

ومن المؤسف أن معظم مؤلفات العرب الهامة في الفيزياء قد ضاعت ، ولم يبق منها إلا القليل . ومع ذلك فإنه يمكننا أن نقف من هذا القليل على مدى تقدمهم في هذا العلم ، وما أفادته البلاد الأوروبية من تقدمهم فيه(12) .

علم الحساب :

استخدم العرب في الجاهلية الحروف الهجائية لتدوين الكميات والمقادير الحسابية فاعتمدوا طريقة الألفاظ اللغوية . وكان ذلك قبل أخذهم بنظام الترقيم الذي أخذوه عن الهنود ثم أضافوه إليه وحسنوه .

استخدموا الرموز الحرفية القائم على إعطاء كل حرف من الأبجدية قيمة مطلقة عددية . مثلاً : ألف = 1 ب = 2 و = 6 ح = 8 ق = 100 وهكذا فإذا أرادوا أن يرمزوا إلى عدد ركبوه بواسطة الأحرف .

فكلمة حق مثلاً 108 أي ح 8 + ق 100 = 108 وكلمة أبي = 1 + 2 + 10 = 13 ولما استقر وضع الدولة الإسلامية استعملوا النظام العددي الذي أخذوه عن الهنود ، وحتى اليوم يقال في الاستعمال الدارج : حساب هندي ، لكنهم هذبوه ونظموه فأصبح على ما هو عليه الآن من تسعة أرقام ، ثم أضافوا إليه

---

(12) حضارة العرب للعلامة كوستاف لوبون ص 500 .

الصفر وهذه العملية تعد من أرقى ما وصل إليه العقل البشري في الرياضيات ، وفضل العرب فيه عظيم . استعملوه للدلالة على (لا شيء) كما يبدو من بيت شعر جاء في قصيدة لحاتم الطائي :

أماويّ ! إن يصبح صداي بقفرة ... من الأرض ، لا ماء هناك ولا خمر
تريْ أنّ ما أهلكت لم يك ضرّني ... وإن يدي مما بَخِلتُ به صفر[13]

أما الأرقام المستخدمة في أوروبا فيقال أنها هندية المصدر . ومن الثابت أن العرب كانوا قد أوصلوا هذه الأرقام إلى أوروبا عن طريق الأندلس .

والنظام العشري سمي كذلك لأن عدد عناصره الأساسية عشرة . ولهذا النظام ميزات جلى . أولها : اختصار الأعداد إلى عشرة بدلاً من عدد أحرف الأبجدية ثانيها : تسهيل إجراء العمليات الحسابية بعد أن أصبح لكل رقم قيمتان : قيمته المطلقة بذاته ، وقيمته المتحصلة من مرتبته في الأعداد المركبة ، أي في الخانات أما اكتشاف الصفر فقد أسهم إلى حد بعيد في تسهيل حل المعادلات الجبرية من سائر الدرجات .

« وكما ساعدهم نظام الأعداد العربية على إدراك الكمال في الطرق الأولية للحساب فإن معرفتهم خصائص الأعداد الفردية والزوجية ، وما بينها من العلاقات ساعد على استخراج الجذور التربيعية والتكعيبية »[14] .

من هنا كان تقدم علم الجبر على أيدي العرب المسلمين تقدماً ظاهراً ، وما زال محتفظاً باسمه العربي في كافة اللغات الأوروبية .

وكذلك هي الحال في الهندسة فإنهم لم يقتصروا على معلومات اليونان ، وإنما جددوا وغيروا وزادوا . وقد اعتبر العلماء هذه الخطوة ثورة علمية كبرى في عالم الرياضيات قال العلامة (هل) : « ومن تراث العرب علم حساب المثلثات ونظريات الزوايا والتماس ، ولم يكن في استطاعة بيورباخ ورجيونانوس وكوبرينق أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه دون أساس من علوم العرب ، وما ساهموا به في ميدان الرياضيات ؛ ذلك أن العرب أحبوا تدعيم نظرياتهم بنماذج عملية ، وساعدهم ذلك على وصول درجة الكمال في علم مقياس سطح الأرض وارتفاع الجبال واتساع الوديان ، أو حساب المسافة بين نقطتين تقعان على سطح منبسط ، واستخدام العرب هذا العلم أيضاً في مجاري المياه »[15] .

---

(13) الديوان ص 73 .

(14) الحضارة العربية للعلامة ى . هل تعريب الدكتور إبراهيم العدوى ص 108 .

(15) المصدر نفسه .

علم التاريخ :

اهتم العرب المسلمون بعلم التاريخ اهتماماً كبيراً وقد ظهر ذلك في مؤلفاتهم العديدة التي وصلت إلينا . وكان أهم حافز على هذا الاهتمام حرصهم الشديد على معرفة سيرة النبي (ص) والتعرف الكامل على أخبار الفتوح التي كانت في عهده وعهد الخلفاء الراشدين من بعده .

وقد اتحفونا بمؤلفات تاريخية كثيرة جداً تعد بالمئات . جاء في الحضارة العربية : « المؤلفات التاريخية للعرب المسلمين كثيرة جداً حتى أن حاجي خليفة وحده عد في كتاب كشف الظنون ألفاً ومائتي مؤرخ عربي »[16] .

أما المنهج الذي اتبعوه في التأليف فقد كانت الرواية بالسند حتى يتصل بالرسول (ص) من أقوال وأفعال وتقارير .

ولقد اقتفى علماء التاريخ الأصول والقواعد التي وضعها جهابذة علماء الحديث ذكر ذلك الدكتور أسد رستم في كتابه « مصطلح علم التاريخ » فقال :

« اقتفى أكثر هذه الأصول والقواعد (قواعد الحديث) المؤرخون فدرجوا عليها ، واعترافاً بجهود المحدثين وفضلهم على علم التاريخ ، نرى من الواجب أن نسمي أولى خطوات المؤرخ المدقق المنقب : التقميش ، فنقول : على المؤرخ قبل كل شيء ، أن يعني بتقميش الأصول ، لأنه إذا ضاعت الأصول ضاع التاريخ معها »[17] .

وقد نهج هذا النهج في ذكر حوادث التاريخ ابن جرير الطبري والحافظ ابن كثير وغيرهما ثم رأوا الاكتفاء بذكر الحوادث بلا إسناد مرتبة فقط على حسب السنين كما فعل ابن الأثير ، وأبو الفداء .

ولما توسعت الفتوحات الإسلامية ، وزاد العمران نوّعوا تآليفهم ؛ فمنهم من ألف في السير ، ومنهم من أرخ لدولة أو لمدينة مثل : تاريخ بغداد وتاريخ حلب وتاريخ بيروت . . . ومنهم من كتب في التاريخ العام ، ومنهم من كتب في الطبقات ، إلى غير ذلك .

أشهر من كتب في السيرة ابن إسحاق (ت 150 هـ) وقد وصلتنا عن طريق عبد الملك بن هشام (ت 218 هـ) وعرفت باسم سيرة ابن هشام .

---

(16) الحضارة العربية للعلامة جوستاف لوبون ص 477 .

(17) راجع نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية للمؤلف ج 2 ص 87 .

ومن المؤرخين الذين ألفوا لدولة : المقريزي (ت 845 هـ) كتب عن مصر وممن كتب في تاريخ المدن الخطيب البغدادي (ت 463 هـ) وكتابه تاريخ بغداد يعد من أعظم الكتب في موضوعه . وابن كثير صاحب كتاب « تاريخ دمشق » وهو موسوعة تاريخية جيدة .

ومن ألف في التاريخ العام ابن جرير الطبري (ت 310 هـ) ومؤلفه أفضل ما كتب عن تاريخ الدولة الإسلامية . والمسعودي (ت 346 هـ) جمع بين الحقائق التاريخية والجغرافية وأشهر كتبه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » .

وابن خلدون (808 هـ) وكتابه : « المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر » وضع في مقدمة كتابه مبادىء في النقد التاريخي قيمة ، وهو يعتبر أول كتاب من نوعه في فلسفة التاريخ ونقده .

ثم أشهر من كتب في التراجم حاجي خليفة ، صاحب كتاب « كشف الظنون » من كتاب القرن العاشر . وكتابه معجم فريد من نوعه لاسماء الكتاب . فقد جمع ما يقارب ثمانية عشر الفاً وخمسمائة كتاباً . ألحق اسم كل كتاب منها باسم مؤلفه وسنة وفاته .

علم الجغرافيا :

اعتنى العرب المسلمون بعلم الجغرافيا عناية فائقة واسهموا في تقدمه بنصيب موفور وقد ألفوا فيه مؤلفات كثيرة وأعطوا معلومات جديدة لم تكن معروفة من قبل درسوا معارف اليونان وصححوها وأضافوا إليها الكثير مما لا عهد لليونان أو لغيرهم به . والذي ساعد العرب على هذا التفوق حبهم للسياحة والرحلات والتجارة ، حيث جابوا البلاد من الصين إلى الهند إلى شمالي أفريقيا ، فأقاموا علاقات تجارية واسعة مع بلاد لم يسمع بها الأوروبيون .

من الرواد الناجحين في عالم التجارة التاجر سليمان ، الذي أبحر من الخليج الفارسي ، وجاوز المحيط الهندي ، وبلغ شواطىء الصين . وعندما عاد كتب رحلته في سنة 851 م في كتاب يعد أول مؤلف نشر في بلاد الغرب عن بلاد الصين وقد ترجم الكتاب إلى اللغة الفرنسية[18] .

ثم جاء من بعده الرحالة المعروف المسعودي (346 هـ) الذي قضى ربع قرن من حياته في الطواف في رحاب المملكة الإسلامية ، وفي الممالك المجاورة لها كبلاد الهند

(18) حضارة العرب للعلامة جوستاف لوبون ص 491 ـ 499 .

وسجل ما شاهده في جولاته المهمة في كتاب هام يعد مأثرة من مآثره هو كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » .

وآخر رحالة عربي يعتد به ، الرحالة المعروف ابن بطوطة (779 هـ) الذي بدأ رحلاته من مدينة طنجة ، وطاف في جميع أنحاء العالم القديم تقريباً ، كتب عن رحلته العظيمة هذه وترجمت إلى عدة لغات إلى الفرنسية والإنكليزية ثم طبعت في مصر 1287 هـ وإذا ما قابلنا بين الأمكنة التي عينها الإغريق والأمكنة التي عينها الرحالة المسلمون عرفناها حققه هؤلاء من الدقة المتناهية والحقائق العلمية الواقعية .

ومما يجدر ذكره أن المسلمين بدأوا بوضع الجغرافيا قبل اطلاعهم على كتاب بطليموس الذي كان مفخرة عندهم ويعولون عليه كثيراً في تقويم البلدان .

ويرجع اهتمام المسلمين هذا إلى أسباب عدة منها :

1 ـ **الحج** : وكما هو معلوم فريضة على كل مسلم ومسلمة من استطاع إليه سبيلاً . فالمسلمون على اختلاف بلدانهم يحجون إلى مكة كل عام . وهذا بطبيعة الحال يحتاج إلى معرفة الطرق وتقدير المسافات والمنازل . قال تعالى : ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا** ﴾ [آل عمران الآية : 97] .

2 ـ **الخراج** : ضريبة وضعت على الأراضي التي فتحت في صدر الإسلام ، وهو مدعاة لمعرفة مساحتها وجيدها من رديئها ، وأنواع غلاتها لما في ذلك من مصلحة لبيت مال المسلمين[19] .

3 ـ **طلب العلم** : قال الرسول الأعظم : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

اهتم المسلمون بالعلم وكانوا يرحلون إلى سائر الأمصار الإسلامية لطلب العلم والاستزادة منه عملاً بقوله تعالى : ﴿**وقل ربِّ زدني علماً**﴾ والرحلة هذه كما هو معلوم تستلزم معرفة الأماكن والمنازل والمناطق معرفة واقعية . ولا ننسى أن كل هذه الرحلات كانت تتم على ظهور الإبل وسيراً على الأقدام . وهذا يتطلب ملاحظة دقيقة ورؤيا واضحة .

4 ـ **الصيام** : فرض الصيام في الشريعة الإسلامية على البالغين الأصحاء من رجال ونساء . ولا ريب أنه صحة للأبدان وصيانة للنفس وتربية للإرادة .

---

(19) آداب اللغة العربية للاستاذ جرجي زيدان ج 2 ص 201 .

والصيام يتطلب معرفة توقيت الكف عن تناول الطعام والشراب ، وتوقيت الإفطار ومراقبة الهلال لمعرفة أول الشهر القمري ونهايته . ولا يخفى أنه لكل بلد من البلدان الإسلامية توقيت خاص يختلف عن البلد الآخر كلما بعدت الشقة وهذا يتطلب من المسلمين علوماً جغرافية لا بد منها .

5 ـ **الصلاة** : فرضها الله على المسلمين خمس مرات في اليوم . آيات عديدات تشير إليها منها : ﴿ **فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم** ﴾ [الحج : 78] . ولا بد لكل مسلم ومسلمة من معرفة التوقيت الدقيق لاقامة كل فرض في وقته المعين . الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء .

كل هذه الأسباب كانت باعثاً على الكتابة في علم الجغرافيا ، وكانت أكثر الكتب الجغرافية التي كتبت في القرنين الثاني والثالث من الهجرة يهتم بالوصف الجغرافي للاقاليم الإسلامية .

والحقيقة أن ما كتب المسلمون العرب في الجغرافيا تآليف مهمة للغاية ، ولا نعجب إن كان بعضها أساساً لدراسة هذا العلم في البلدان الأوروبية قروناً عديدة . وأبرز من اشتهر من علماء العرب المسلمين في علم الجغرافيا :

أ ـ الشريف الادريسي في القرن الخامس الهجري كتب مؤلفه المعروف « نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » وهو كتاب عظيم لاشتماله على معلومات كثيرة لمن سبقه في هذا العلم ، ولما شاهده الكاتب بعينه وما سمعه من السائحين قبله . وهو فريد بمعلومات جغرافية مصورة عن منابع النيل ومواقع جغرافية هامة . وقد نقل هذا الكتاب إلى اللاتينية ، واستفادت منه أوروبا في القرون الوسطى .

ب ـ ياقوت الحموي (626 هـ) صاحب كتاب « معجم المبلدان » وهو موسوعة جغرافية ضخمة إلى جانب ما فيه من معارف تاريخية وأدبية عظيمة .

جـ ـ أبو الفدا صاحب حماة (722 هـ) ذكر اسماء ستين عالماً جغرافياً مشهوراً أفاد منهم .

وهكذا يبدو لنا فضل المسلمين العرب جلياً في هذا العلم . قال لوبون : « ويكفي أن نشير مع ذلك إلى ما حققه العرب في الجغرافيا لاثبات قيمتهم العالية فالعرب هم الذين عينوا بمعارفهم الفلكية مواقع الأماكن تعييناً مضبوطاً في الخرائط ، فصححوا بذلك

أغاليط علماء اليونان ، والعرب هم الذين نشروا رحلاتهم الممتعة عن بقاع العالم التي كان يشك الأوروبيون في وجودها ، والعرب هم الذين وضعوا الكتب الجغرافية التي جاءت ناسخة لما تقدمها ، فاقتصرت أمم الغرب عليها وحدها قروناً طويلة »[20] .

(20) حضارة العرب ص 499 قارن بالحضارة الإسلامية لآدم متز ج 2 ص 12 .

الفصل الثالث عشر

الفن المعماري في صدر الإسلام

الدين الإسلامي كان يدعو دائماً إلى الاعتدال في شؤون الحياة الإنسانية فلا إفراط ولا تفريط ، ولا تقتير ولا إسراف بل حياة هادئة سعيدة معتدلة .

وقد غلب على المسلمين في عهد الرسول والخلفاء الراشدين البساطة في العيش والجهاد في سبيل الله . فكان المجتمع الإسلامي على حد قول زكي محمد حسن : خالياً من الفنون الجميلة بأنواعها[1] . وفي ذلك يقول ابن خلدون في مقدمته « فكان الدين أول الأمر مانعاً من المغالاة أو البنيان والإسراف في غير القصد »[2] .

ولما كثرت الفتوح ، واتسعت رقعة البلاد الإسلامية واختلط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى جمعوا شتى الأساليب الفنية القديمة وطبعوها بطابع دينهم الجديد . ومن مرحلة الاقتباس انتقلوا إلى مرحلة العطاء الجميل والإبداع ، فأخرجوا صوراً فنية جديدة لا تخرج عما رسمه الدين الإسلامي .

وما يجدر ذكره أن العرب في صدر الإسلام لم يعنوا بـ[illegible] حت، والتصوير المجسم عنايتهم بالبناء والزخرفة ، لأنهم رأوا في ذلك تشبهاً بعبدة الأوثان ولذلك نلاحظ العنصر الأساسي في زخرفتهم الرسوم النباتية والهندسية[3] وكل حضارة تتأثر بالحضارات المحيطة بها في أول أمرها ثم تتخذ لها طابعاً خاصاً بها فيما بعد . والعرب أخذوا عن أهل فارس وأهل الشام طرازاً خاصاً للعمارة يتناسب مع حالة معيشتهم ونمط حياتهم ومستوى

---

(1) فنون الإسلام ص 10 .

(2) المقدمة الفصل الثامن من ص 312 .

(3) فنون الإسلام ص 1 .

ثقافتهم . فامتازت مبانيهم بأشكال خاصة من الأعمدة والأقواس والقباب والعقود والزخارف البارزة المنقوشة التي تشبه خلايا النحل ، نجدها في واجهات المساجد وفي المآذن ، وتحت شرفات البناء ، أو في تيجان بعض الأعمدة . وقد استخدمت هذه الزخارف في السقوف الخشبية فضلاً عن الأبنية الحجرية[4] .

ولقد احتفظت العمارة الإسلامية بطابعها الجديد على الرغم من استعانة العرب بغيرهم من مهرة الصناع في البلاد التي دخلت تحت سلطانهم ، فتميزت بمزايا خاصة بها .

وقد تمثلت العمارة الإسلامية أول الأمر في المساجد . وكان مسجد قباء الذي أسسه الرسول (ص) ، النموذج الأول لسائر المساجد الإسلامية ومما لا ريب فيه أن زيارة الحجاج إلى مكة المكرمة وإلى المدينة المنورة في كل عام من شهر ذي الحجة ، وهم يؤدون الصلاة في المدن والقرى التي كانوا يمرون بها ، قد ساعد على تقليد مساجد الحجاز ومحاكاتها .

وقد أذخلت المقصورة في باب المسجد لينظر فيها الإمام حتى يحين وقت الصلاة . كذلك أدخل عمارة المآذن والمحراب الذي يدل على جهة القبلة . ثم الأروقة التي تحيط بالصحن ذات أقواس مقامة على أعمدة أو دعائم .

لم يهتم الخلفاء الراشدون في زخرفة المساجد ، لأن همهم الحصر في التركيز على الدعوة ونشرها . أما في العصر الأموي والعباسي فقد تقدم من الزخرفة والنقوش والاشكال الخارجية . فحفروا الآيات القرآنية والأبيات الشعرية وعبارات التحية والتهنئة على الجدران .

وفي هذا الوقت كان قد انتشر الإسلام وامتد سلطانه إلى كثير من البلاد ، فاختلط العرب بغيرهم من الأجناس الأجنبية عنهم ، مما أدى إلى اتساع أفق الفن عند المسلمين . وكان قد دخل في الإسلام عنصر جديد ما زال يحب الحياة الدنيوية البحتة ويتفنن فيها على حساب الحياة الروحية ؛ حتى سرت عادات دخيلة إلى نفوس الحكام المسلمين الذين لم يكونوا من الاتقياء المتحمسين للعقيدة الإسلامية . وبذلك تسللت إلى الإسلام فنون لم تكن تتفق وقواعده كل الاتفاق ، حيث بدأ الحكام الأميون إلى الحياة الغنية بزخارفها وإسرافها وما إلى ذلك مما قد يصلح للملك من الملوك ولا يليق أبداً بخليفة من خلفاء

---

(4) المرجع السابق .

رسول الله (ص) الذين ارتضاهم ليسيروا على رسالته وينهجوا نهجه .

وفي هذه الحال انتقلت عدوى حب الفن إلى هؤلاء وأولئك فظهر فن متميز يمكن أن نسميه « فن الزخرفة في البناء » .

وما يدلنا أن فناً ملكياً دنيوياً أوجده الحكام الأمويون ، هو فن النقوش على الجدران الذي لا تزال آثاره باقية حتى الآن في بعض المناطق من شبه الجزيرة العربية[5] .

بناء الأمصار

لما كثرت الفتوح واتسعت رقعة البلاد الإسلامية ، وصعب أمر الاتصال بين المسلمين في شتى النواحي ، واحتاج الجند إلى أماكن يستريحون فيها من عناء السفر حتى يلقوا عدوهم ، وهم على أحسن حال من القوة ؛ كان لا بد لهم من منازل يقيمون فيها إذا شتوا ، ويأوون إليها إذا رجعوا من غزوهم . وهذا ما دعا المسلمين إلى بناء المدن وتمصير الأمصار .

وإذا تأملنا أشكال البناء الإسلامي وجدنا المسلمين يهتمون في ثلاثة أنواع من العمارة .

أ ـ عمارة مدنية تتمثل في المدن والبيوت الخاصة .

ب ـ وعمارة دينية اهتم بها الخلفاء ، تتمثل في المساجد .

ج ـ وعمارة حربية تتمثل في الحصون والقلاع .

كانت مباني العرب أول الأمر في غاية البساطة ، ولم يكن في مكة ، وهي البلد المعروف ، إلا مبان قليلة أهمها « الكعبة » حرسها الله .

وكانت أغلب الدور من طبقة واحدة ، وأكثرها من الطين ، ولها فناء واسع ، وفي وسطها بئر . ولما اتسعت الفتوح الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب وكثرت الأموال في الحجاز ، توافد على المدينة الكثير من الخبراء في فن العمارة من غير العرب . كالبيزنطيين والايرانيين فارتقى فن العمارة فيها ، وشيد كبار الأغنياء في مكة والمدينة القصور الواسعة والدور الفخمة من الحجارة والرخام .

ورد في التمدن الإسلامي لجرجي زيدان أن الدار التي بناها عثمان بن عفان كانت

(5) جاء عند بعض المستشرقين انه لا تزال آثار باقية في بيت للصيد في الصحراء شرقي البحر الميت .

غاية في العظمة والبهاء . ويقول المسعودي إن الصحابة في عهد عثمان أقاموا لأنفسهم دوراً فخمة ، فشيد الزبير بن العوام في المدينة دوراً فخمة جداً وكذلك فعل في الكوفة والفسطاط والاسكندرية . وكان لسعد بن أبي الوقاص قصر فخم في وادي العقيق بالمدينة .

وكما هو معلوم أن الحجر نادر في الحجاز لذلك كان يكلف كثيراً ، وخارج الحجاز استعمل الإيرانيون الجص والقاشاني في زخرفة عمائرهم ، وامتازت بعض المدن الإيرانية ، ولا سيما شيراز وأصفهان بها . كما عني الإيرانيون بالخط عناية جعلها تحفاً رائعة .

ولما استولى المسلمون على بلاد الشام وفارس اتخذوا طرازاً للعمارة خاصاً بهم يتناسب مع طبيعتهم وحالة معيشتهم ، وكان لهذا الطراز طابع جديد بما أدخل عليه من عناصر فنية جديدة . فعنوا بالخط والتصوير على الجدران كرسم الورود والزهور وبعض الحيوانات والطيور الجميلة .

وقد امتازت العمارة الإسلامية بالقباب والمآذن والأعمدة والمنحنيات ، وقالوا : إن هذه تشبه من بعض الوجوه صورة النخيل المحبب إليهم لأن النخلة من أعظم أغذيتهم ومن مصادر ثرواتهم .

وقد كانت المدن تحاط بأسوار منيعة للدفاع عنها ، كما كان لأصحاب كل حرفة حي خاص من أحياء المدينة يعرف بهم . ولكل حي أو قسم من المدينة أبواب منيعة تفصله عن سائر الأقسام والأحياء . ومن الطبيعي أن يقوم الحراس على حراسة هذه الأبواب التي تغلق إذا قامت ثورة في المدينة أو حدث اعتداء خارجي .

البصرة :

فطر العرب على حب الصحراء ذات الفضاء الواسع والهواء النقي والمراعي والكلأ لماشيتهم التي هي مصدر معيشتهم وأعز أموالهم ، لذلك لم يطب المقام في « المدائن » قاعدة بلاد فارس . وقد رأى عمر بن الخطاب أن لا يحول بحر بينه وبين المسلمين إذا أراد أن يمدهم بالجند فولى عليها عتبة بن غزوان[6] . يقول الطبري :

« فاقبل عتبة في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، وانضم إليه قوم من الأعراب وأهل

---

(6) وهو من المهاجرين الأولين .

البوادي ، فقدم البصرة في خمسمائة في شهر ربيع الأول سنة أربعة عشر»[7] والبصرة من أقدم المدن الإسلامية ، تقع عند ملتقى دجلة والفرات ، وهو ما يعرف بشط العرب ، وموقعها قريب من الماء والمرعى في طرف البر إلى الريف ، فيه قصباء[8] . وكانت في أول أمرها أشبه بالقرية منها بالمدينة .

ولما مات عتبة ولى عليها عمر أبا موسى الأشعري . فاختط الناس وبنوا المنازل باللبن والطين بدل القصب (لأن القصب كان يحترق) . وأول ما بنى أبو موسى المسجد ودار الامارة باللبن والطين ، وسقفها بالعشب[9] .

ونظراً لموقعها في العراق على شط العرب ، ووسطاً بين الشام وفارس ، أسرع إليها العمران ولم يمض على تأسيسها عشرون عاماً حتى أصبحت من أهم المراكز التجارية في العالم الإسلامي .

وكان معظم سكان البصرة من ربيعة ومضر ، ثم وفدت إليها جاليات من الهند والصين ، كما تردد عليها كثير من العرب للتجارة . وكان لذلك أثر هام في النواحي الأدبية والثقافية والحضارية . اشتهر أهلها بالتجارة الخارجية والأسفار. جنوباً إلى الحبشة وغرباً إلى أقصر بلاد المغرب وشرقاً إلى الهند والصين . حتى ضرب المثل بهم في ذلك فقيل : « وأبعد الناس نجعة في الكسب بصري وخوزي » (من أهل خوزستان) .

وكانت مياه البصرة مرسى مئات السفن التجارية ، التي كانت تحمل أصناف التجارات منها وإليها ، فتكاثرت ثروتها ، وبنى أهلها القصور والحدائق ، وانشأوا البرك والميادين[10] .

يقول الطبري : وبذلك حلت البصرة محل الأُبلة على الخليج الفارسي[11] .

الكوفة :

العرب أهل بادية وأجسادهم قد تعودت على مناخ الصحراء الجاف ، لذلك استوخموا مدينة البصرة لكثرة مياهها ومستنقعاتها . ففكروا في تأسيس مدينة أخرى أصح منها مناخاً وانظف هواء ، بعيداً عن الرطوبات .

(7) الطبري ج 3 ص 90 ومعجم البلدان ج 2 ص 194 .

(8) القصباء منبت القصب والقصب محركة كل نبات ذي أنابيب .

(9) معجم البلدان ج 2 ص 194 .

(11) الطبري ج 4 ص 148 .

(10) راجع اريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان .

فبعث سعد بن أبي وقاص سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان يرتادان له موضعاً تتوافر فيه هذه الشروط ، فوقع اختيارهما على مكان غربي الفرات على مقربة من الحيرة ، هو حصباء ورمل ، فيه ديرات ثلاث « قد ارتفعت أرضه عن البقة ، وتوسطت الريف ، وظعنت في أرض البرية »[12] اسمه الكوفة[13] . وقد كان ذلك سنة 17 هـ ـ 638 م .

عسكر الجند في الخيام أول الأمر ثم بنوا بيوتاً من القصب ، وقد فضل ذلك عمر بن الخطاب لأنه يرى أن الإقامة في الخيام أجد في الحرب وأهيب في عين العدو . ولما وقع حريق في الكوفة والبصرة استأذنوا عمر في البناء باللبن ، فقال : « إفعلوا ولا يزيد أحدكم على ثلاثة أبيات (حجرات) ولا تطاولوا في البنيان » ، وكتب إلى أهل البصرة بمثل ذلك ، وجعل على تنزيل أهل الكوفة ، والاشراف على بنائها أبو الهياج بن مالك الأسدي ، وعلى تنزيل أهل البصرة والاشراف على بنائها عاصم بن الدلف أبو الجرداء .

اختط أبو الهياج شوارع الكوفة وأزقتها ، وأسس بها جامعاً وبنى في مقدمته ظلة مقامة على أساطين من الرخام . وجعل العرب المسجد في وسط المدينة حيث تتفرع الطرق والدروب ، وبنى في نهاية أحد هذه الطرق دار سعد بن أبي وقاص واتخذ فيها بيت المال . والذين قاموا ببناء المسجد ودار الامارة هم من الفرس بنوا على طراز مباني الاكاسرة . وكانت الطرق فسيحة رحبة حتى لا يحتجب عن العرب هواء البادية الصحي الذي اعتادوا عليه .

وقد أقام في وسط المسجد رام شديد النزع فرمى عن يمينه وشماله ، ومن بين يديه ومن خلفه ، ثم أمر بالبناء وراء مواقع السهام[14] .

ثم اتسعت الكوفة وامتد عمرانها حتى بلغت في أوائل القرن الرابع الهجري ستة عشر ميلاً تقريباً وبنى فيها خمسون ألف داراً للعرب من ربيعة ومضر أكثرهم من أهل اليمن[15] .

ولما ولي علي بين أبي طالب الخلافة ترك المدينة واتخذ الكوفة مقراً لخلافته لأن بها

---

(12) الخراج لأبي يوسف ص 17 .

(13) سميت الكوفة لاستدارتها ، أخذاً من قول العرب رأيت كوفاناً للرميلة المستديرة وقيل سميت كوفة لاجتماع الناس بها من قولهم تكوف الرمل . معجم البلدان ولسان العرب .

(14) راجع الطبري ج 3 ص 148 ومعجم البلدان لياقوت ج 7 ص 297 .

(15) معجم البلدان ج 7 ص 297 من هذه الدور ستة آلاف داراً لأهل اليمن .

شيعته وأنصاره ، ثم لخصوبة أرضهـا وكثرة خـيراتها ، ووقـوعها في مكـان متوسط سهـل الاتصال بأجزاء الدولة الإسلامية .

وقد تبين له بعد فوات الفرصة أن اعتماده عـلى أهل الكـوفة لم يكن إلا سرابـاً ، علماً أنه كان يحب الكوفة ويؤثرها على المدينة حتى قال فيها : « يا حبذا مقامنا بالكـوفة تعـرفها جمالنا العلوفة أرض سوداء سهلة معروفة »[16] .

وسرعـان مـا زادت أهميـة البصرة والكـوفـة حتى أصبحتـا من أعـظم مـراكـز العلم والسياسة والحرب في العالم الإسلامي كله .

دمشق :

قبل الفتح العربي جعل الروم من دمشق مقراً لحكمهم ، حتى خلافة معـاوية بن أبي سفيـان أصبحت حاضرة الـدولة الإسـلامية وأكـبر مدنها في ذلـك العصر ، امتازت عـلى غيرها بكثرة الانهار والينابيع والأبنية الضخمة . وقد اشتهرت بالـزراعة منـذ زمن طويـل قبل الإسلام وأهم منتوجاتها الدمقس ، وهو ضرب من الحرير عرفت به وقيل إن اسمهـا دمشق اشتق منه .

ذكر ياقوت أن مدينة دمشق كانت حصينة ، أقيمت حولها أسوار منيعة بلغ ارتفاعهـا ثمانية أمتار وعرضها خمسة عشر قدما .

وكان لدمشق سبعة أبواب ، ترى ابراجها العالية لكل قادم إليها من بعيد وقد شيـد فيها معاوية قصر الخضراء ، وقد سمى بهـذا الاسم للون طلائـه ونقوشـه ولما ولي الحكم أقام المباني الضخمة في المدينـة وضواحيهـا واهتم بالتشييـد والبناء اهتـماماً يلفـت النظـر الوليد ، وقد سارت كلفة الوليد بالعمارة سير الأمثال . حتى قيل :

« إن الناس في دمشق كانوا في عهد الوليد يتكلمون على العمارات وجمالها ، وفي عهد سليمان بن عبد الملك يتحدثون عن الطعام والنسـاء ، وفي عهد عمـر بن عبد العـزيز عن الدين والقرآن »[17] لأن الناس كما يقولون : على دين ملوكهم .

هذا الاهتمام البالغ بـالعمارة والبناء والتزيـين له أسبـابه ودوافعـه أهمها هـو لفت نظر العامة إلى نشاطات الدولة الزائدة بأمور الأمة الإسلامية علماً أن أكثر الحكام الأمويـين هم في واد والإسلام في واد .

---

(16) الطبري ج 4 ص 141 .

(17) راجع معجم البلدان ج 7 ص 297 وما بعدها .

من آثارهم في دمشق مجاري المياه ، فنهر بردى يجلب الماء إلى المدينة ، والقنوات السبع التي شقها الأمويون لتوصيل الماء إلى أنحاء المدينة والقناطر الكثيرة المقامة على الأعمدة التي شيدوها لتوصيل ماء الشرب إلى الدور ، حتى أصبح لكل دار في دمشق نافورة خاصة بها .

الفسطاط[18] :

تقع الفسطاط في المنطقة التي فيها جامع عمرو بمصر القديمة وهي أول مدينة اختطها المسلمون بعد الفتح الإسلامي سنة 21 هـ . فبعد أن تم لعمرو بن العاص فتح الاسكندرية وإجلاء الروم عنها وطردهم من مصر ، أراد أن يجعلها مقراً لولايته . فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في سكناها فسأل عمر الرسول : « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء » ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل . فكتب إلى عمرو : « إني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب إليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت »[19] . ترك عمرو الاسكندرية ورجع إلى موضع الفسطاط ، فسميت البقعة بالفسطاط لذلك .

وهذا الموضع هو من أنسب الأماكن للمسلمين، فهي في مكان يسهل منه الاتصال بحاضرة الخلافة ، فضلاً عن كونه وسطاً بين شمالي البلاد وجنوبها ، وقريباً من النيل . وقد تم نقل مقر القيادة من الاسكندرية إلى الفسطاط لأن العرب لم يكونوا أمة بحرية ، فكان لا بد أن يتخذوا حاضرتهم الجديدة في نقطة برية سهلة الاتصال ببلاد العرب .

أخذت الفسطاط تتسع وتزداد عماراتها وتعلو ، فبعد أن كانت الدور تبنى من طابق واحد أصبحت تبنى من أكثر فقد بلغت الخمسة أو تزيد ، وبعد أن كانت الدار لا يسكنها إلا نفر قليل ، صار يسكنها المائه بل والمائتان[20] .

وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال ، وقد تكلم المؤرخون العرب على مساجدها وحماماتها ومسالكها ، بما قد يرتاب فيه بعض الناس[21] .

وكانت بيوت الصحابة بمدينة الفسطاط في بادىء الأمر ثم توسعت وزادت ، وقد

---

(18) الفسطاط : بيت من الشعر ، وفيه لغات : فستات وفستاط . راجع القاموس ومعجم البلدان والتنبيه والاشراف للمسعودي .

(19) التنبيه والاشراف للمسعودي ص 311 والخطط للمقريزي ج 1 ص 296 .

(20) الحضارة الإسلامية لآدم متزج 2 ص 267 .

(21) معجم البلدان ج 6 ص 384 .

أشاد الشعراء بهذه المدينة الإسلامية العظيمة ، التي فاقت في كثير من نواحيها البصرة والكوفة ، من ذلك قول الشريف العقيلي :

تبدت عروساً والمقطم تاجها   ومن نيلها عقد كما انتظم الدر[22]

وظلت الفسطاط قاعدة البلاد المصرية ، ومقراً للامارة فيها ، حتى بنيت مدينة العسكر في سنة 133 هـ في عهد صالح بن علي العباسي ، أول ولاة العباسيين فانتقل إليها أمراء مصر .

ولما قدم صلاح الدين الأيوبي مصر سنة 572 هـ أمر ببناء سور على الفسطاط ، والقاهرة ، والقلعة التي على جبل المقطم ، بلغ سبعة أميال ونصف[23] .

وقد بني جامع عظيم عرف بالجامع العتيق وهو أول جامع بني في مصر . كانت تقام فيه حلقات الدروس منها للوعظ والارشاد ومنها للفقه والحديث وعلوم القرآن والأدب . فكان بمثابة جامعة إسلامية ذاع صيتها في الآفاق ، حتى صار الطلاب يقصدونها من الاقطار المختلفة . ولما قدم الامام الشافعي سنة 119 هـ ألقى دروسه في هذا الجامع . فكان ما يقرب من 2200 طالباً يقوم بتدريسهم وتثقيفهم أئمة الفقه وأهل الحكمة والأدب .

وإلى جانب هذا المسجد أقيم دار للحاكم يجلس فيه للنظر في مصالح الناس ، كما كان دار قضاء يجلس فيه القاضي للفصل في الخصومات . وكان فيه بيت لحفظ مال المسلمين يسمى بيت المال[24] .

القيروان :

توسعت الفتوحات الإسلامية حتى شملت إفريقيا ففي نهاية العهد الراشدي ولى معاوية بن أبي سفيان عقبة بن نافع الفهري إفريقية سنة 48 هـ ، وكان إذ ذاك يقيم بنواحي برقة ، فدعا إليه من أسلم من البربر وضمهم إلى الجيش الذي بعث به معاوية فسار إلى إفريقيا ونازل مدنها وافتتحها عنوة ، وأسلم على يده كثير من البربر .

---

(22) كان موضع الفسطاط بين النيل والمقطم وموضعها الآن في مصر في محلة زين العابدين والمديح .

(23) معجم البلدان ج 6 ص 284 وقد زرت مصر 1970م ورأيت ذلك المكان بالذات الذي ما زال أثراً تاريخياً عظيماً .

(24) معجم البلدان لياقوت ج 6 ص 381 والخطط للمقريزي ج 2 ص 253 وتاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان .

فكر عقبة في الأمر بعد انتصاره على البربر فوجد من الأنسب أن يتخذ مدينة تحمي جند المسلمين وأموالهم من عدوان أهل البلاد المفتوحة عليهم ، فاختار موقع القيروان لسبب استراتيجي هام وهو بعد الموقع عن ساحل البحر حتى يكون المسلمون بمأمن من غارات الروم . ثم اختط عقبة في ذلك الموقع نفسه داراً للامارة ، وبنى الناس من حولها الدور والأسواق ، كما بني فيها أيضاً المسجد الجامع .

والقيروان سكنها أخلاط من الناس من سائر بطون العرب من قريش وربيعة ومضر وقحطان ، وكان فيها فريق من الفرس من أهالي خراسان .

كما أقام بها أيضاً البربر والروم .

كان يحيط بالقيروان ، على عادة بناء المدن العريقة في ذلك العصر ، سور كبير مبني باللبن والطين ، بناه القائد العباسي محمد بن الأشعث الخزاعي سنة 144 هـ .

وقد هدم هذا السور زيادة إبراهيم بن الأغلب سنة 209 هـ بعد أن خرج عليه أهل القيروان . ثم أعاد بناءه المعز بن باديس بن منصور الطنهاجي سنة 444 هـ ذكر ابن خلدون في مقدمته عند كلامه على ما « تجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن المراعاة » إنه يجب أن تحاط المدينة بالأسوار وأن تبنى إما على هضبة متوعرة من الجبل ، وأما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة . كما يجب أن تراعي عند اختيار موضعها طيب الهواء للسلامة من الأمراض . فإن الهواء إذا كان راكداً أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو منافع متعفنة أو مروج خبيثة ، أسرع إليها العفن فأسرع المرض للإنسان والحيوان وتفشت الحميات ، وقرب الزرع منها فيحصل الناس على الأقوات ، وقربها من البحر ليحصل الناس على حاجاتهم من البلاد النائية .

وخلص ابن خلدون إلى القول : إن العرب لم يراعوا هذه الشروط في اختيار مواقع المدن التي أسسوها كالبصرة والكوفة والقيروان وغيرها ، وأنها كانت أقرب إلى الخراب إذ لم تراع فيها الأمور الطبيعية .

ما نراه أن كلام ابن خلدون هذا لا ينطبق على جميع المدن التي أسسها العرب ، بل ينطبق على بعضها . كالفسطاط مثلاً التي روعي عند تأسيسها الأمور الطبيعية والسياسية ، فالمزارع تقع بينها وبين الجبل من جهة وبين جبل يشكر من جهة أخرى . والنيل يحدها شرقاً والجبل غرباً . أضف إلى ذلك وقوعها على رأس الدلتا ليسهل

الإشراف على الوجهين القبلي والبحري ، ولما لم يكن العرب أمة بحرية لم يكن ثمة ما يدعو لاتخاذ الحاضرة على البحر الأحمر .

طراز العمارة الإسلامية

كانت حياة العرب قبل الإسلام بسيطة ساذجة من جميع نواحيها ، في المأكل والملبس والمنزل وما إلى ذلك . فمن حيث البناء كانت الأبنية بسيطة جداً ، وعامة الدور تبنى من طابق واحد ، أكثرها باللبن وقليل منها بالحجارة . حتى مكة ، وهي من أهم المدن العربية لم يكن بها من الأبنية إلا القليل .

ولما اتسعت الفتوح وأقبلت الدنيا على المسلمين ، بني الكثير منهم القصور الفخمة والدور الواسعة بالحجارة والرخام في المدينة والكوفة وغيرها كطلحة ابن عبيد الله والزبير بن العوام . وقد وكلوا أمر بنائها إلى المهرة من الفرس والروم .

وعثمان بن عفان هدم مسجد النبي (ص) وأعاد بناءه بالحجارة والرخام كما بنى له داراً خاصة في المدينة تجذب الانظار لفخامتها وزخرفتها ، شيدها بالحجارة والرخام والكلس وجعل أبوابها من الساج والعرعر[25] .

ولما استولى العرب على بلاد فارس والروم واختلطوا بأهل هذه البلاد ، استفادوا من خبرتهم في جميع الفنون وخاصة فن العمارة الذي تطور وترقى على أيديهم إلى درجة الاتقان والابداع . حتى أنهم تفوقوا عليهم وبزوهم في ذلك .

اتخذوا لأنفسهم أشكالاً خاصة بهم وانماطاً في البناء هم ابتدعوها ، متميزة عن الأشكال الفارسية والبيزنطية ؛ وذلك بما يتلاءم مع طبيعتهم وأحوالهم ، وظلوا يعالجونه بالتهذيب مرة ، والإبداع أخرى حتى وصلوا به إلى أرقى درجات الروعة والابداع وفاق الطرازين الفارسي والبيزنطي من حيث الاتقان وجمال التنسيق . أحدثوا فيه ما لم يكن معروفاً من قبل كالبناء الذي عرف بالحيرى ، وهو البناء الذي أحدثه المتوكل في قصوره ، فجعل تخطيطها على مثال تعبئة الجيوش ، تشتمل على رواق فيه الصدر وهو مجلس الملك ، وعلى كمّين وهما الميمنة والميسرة لخواصه وخزائنه[26] .

وقد تبعه الناس في ذلك كبناء الدور عند أهل العراق التي كشفت عنها حفائر سامراء

---

(25) راجع مروج الذهب للمسعودي ج 1 ص 434 .

(26) المرجع نفسه ج 2 ص 369 .

وكآيات الصناعة المدهشة الباقية إلى اليوم في قصر الحمراء بغرناطة ، وهو الذي شهد الافرنج أنفسهم بأنه في هندسته ونقوشه مبتدع على غير مثال سابق .

وفي هذا المجال أجمع الباحثون على أن أعظم ما ابتكرته قرطبة في فن العمارة ، هو طريقة عمل الأقبية التي تقوم على عقود متقاطعة وأضلاع ظاهرة ، وهذه الطريقة تحل المعضلة الأساسية في العمارة ، وهي عمل الأسقف ، وذلك بالطريقة نفسها التي اتبعت في العمارة القوطية في أوروبا بعد ذلك بقرنين من الزمن . وما نلاحظه حتى اليوم في بناء المساجد والجوامع .

« وقد حفظت لنا التواريخ الكثير الطيب من وصف قصورهم الفخمة ، وصروحهم الشاهقة وما كان لهم فيها من إحكام الوضع وتشييد البناء ، وتنميق الزخرف ، ومساجد صنعاء تذكرنا بأشهر المباني التي انتهى إليها فن العمارة الإسلامية »[27] .

حتى أن أوروبا قد استعانت بكثير من المعماريين للعرب في العصور الوسطى منذ عصر شارلمان ، فاستفادت من خبرتهم وفنهم في العمارة والبناء .

مظاهر فن البناء الإسلامي :

اتخذ فن البناء الإسلامي اشكالاً خاصة به أهمها :

1 ـ إتخاذ الأعمدة والمنحنيات ، والمشربيات ، والشرفات والقباب والمآذن والمدخل الملتوي ، وبعض هذه المظاهر مستوحى من بيئاتهم وأحوال معيشتهم[28] .

يقول السيد أمير علي : مما لا شك فيه ، أن الطراز المعماري لأي شعب من الشعوب يستمد ميزاته من خصائص الوطن الأصلي لذلك الشعب وأحوال معيشته البدائية ، ولهذا تلاحظ في رسوم الأقواس والأعمدة ، والمنائر والقباب المستعملة في الفن المعماري العربي تشابهاً قوياً مع نقوش وتقبب أحواض النخيل المحببة إلى قلوب العرب[29] .

2 ـ كانت المدن تحاط بأسوار منيعة ، ولها أبواب متينة يمكن إغلاقها عند الحاجة كأسوار بغداد وأسوار الفسطاط وغيرها من المدن الإسلامية في ذلك الوقت .

3 ـ يترك في وسط المدينة ساحة واسعة يشاد عليها مسجد كبير .

4 ـ البيوت التي كانت تبنى مطلة على الشارع ليس لها نوافذ .

---

(27) حضارة العرب لجوستاف لوبون ص 65 .

(28) المشربيات : نوافذ سدت بستائر شبكية من الخشب . والمدخل الملتوي : كان يلاحظ بصفة خاصة في الحصون حتى يكون بداخلها مستوراً .

(29) تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ص 169 .

5 ـ يخصص في المدينة حي خاص لكل أصحاب حرفة يعرف باسمهم ، كما أن بغضهم للنظام المركزي جعلهم يتجمعون قبائل منفصلة أينما حلوا ، لكل قبيلة منهم حيها الخاص بها ومنازلها ، ومسجدها ، وسوقها ، ومقابرها ، وهذا ما يظهر الحرية التي فطروا عليها . وكان هذا الطراز معمولاً به في أغلب المدن الإسلامية كالكوفة والبصرة والفسطاط .

6 ـ إن اختيار موقع المدينة وتخطيطها يكون قريب الشبه من باديتهم ، وأحوال معيشتهم من حيث الموقع ، واتساع الخطط ، وقد برعوا في تخطيط المدن وبزوا غيرهم كما وضح من كثير من المدن التي عمروها .

7 ـ إن زخارفهم كانت مستمدة من المناظر الطبيعية ، والأشكال الهندسية والنباتية ، وقد تحاشوا التماثيل والصور المجسمة ؛ لأنها محرمة عليهم ، حتى لا يتشبهوا بعبادة الأوثان .

8 ـ بعد أن ارتقى فن العمارة كان تخطيط المساجد يقوم على أربعة ايوانات مسقوفة وعقودها محمولة على عمد من الرخام ، وأكبرها ايوان المحراب ، ويتوسط الايوانات صحن مكشوف ، كثيراً ما تتوسطه قبة[30] .

بناء المساجد

الحرم النبوي الشريف :

لما وصل النبي إلى المدينة المنورة بنى مسجده الذي دفن فيه ، كانت الأرض التي بنى عليها المسجد لغلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة ، وكانت مربداً[31] للتمر . وقد أرادوا تقدمة هذه الأرض هبة لله وللرسول فأبى إلا أن يشتريها بالثمن وأمر بقطع النخل وحفر الحفر وشرع بالبناء من اللبن .

وقد كان يبني فيه بنفسه ليرغب المسلمين بالعمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار . كان سقف المسجد من الجريد ، وأعمدته من خشب النخل ، وارتفاعه قدر قامة . ثم بنى الصفة وهي موضع مظلل من المسجد يأوي إليها الفقراء من المسلمين . وبعد فتح خيبر زاد عدد المسلمين فبنى (ص) بجوار المسجد بيوتاً من اللبن وسقفها من

(30) راجع فتوح البلدان للبلاذري ومعجم البلدان لياقوت وتاريخ الحضارة الإسلامية أرنولد ص 62 ـ 95 والنظم الإسلامية لحسن إبراهيم حسن والحضارة الإسلامية لآدم متز ج 2 ص 203

(31) المربد : الموضع الذي يجفف فيه التمر .

جذوع النخل[32] ، ولما ولي عمر بن الخطاب أراد أن يوسع المسجد ، وكان إلى جانبه دار للعباس بن عبد المطلب عم الرسول . فاشتراها الخليفة وضمها إلى المسجد ، فلم يرض العباس بيعها بثمن بل وهبها إلى الله والمسلمين . بذلك أصبح طول المسجد مائة وأربعين ذراعاً ، وارتفاعه أحد عشر ذراعاً وجعل له ستة أبواب وحصنه وكان ذلك سنة (17 هـ) ثم جاء بعده عثمان فرغب في تحسين المسجد فجلب إليه الحجارة المنقوشة والمرصعة لتزيينه . وجعل سقفه من الساج وكان ذلك حوالي سنة (29 هـ) .

وفي عهد الوليد بن عبد الملك كان والي المدينة عمر بن عبد العزيز المعروف بعدله وتقاه . قد أدخل على المسجد حجرات خاصة لزوجات الرسول (ص) فأصبحت مساحته مائتي ذراعاً ثم كتب إلى إمبراطور الروم يطلب منه العمال المهرة في فن البناء فلبي طلبه وأرسل إليه أربعين رجلاً من الروم وأربعين من القبط بالإضافة إلى هديه بالغة من الفسيفساء وألف مثقال من الذهب .

وشرع العمال في بناء المسجد فبنوا الأساس والجدران والأساطين بالحجارة ، وجعلوا عمد المسجد من الحجارة المحشوة بعمد الحديد والرصاص ، وجعل المحراب والمقصورة من الساج . ثم تولى أمراء المسلمين مسجد الرسول بالعمارة والتجديد[33] .

والمساجد كونها دوراً للعبادة كانت لها مجالات أخرى تفيد منها الدولة ، فكل شؤون الدولة كانت تدار في المسجد قبل إنشاء الأبنية الخاصة بدور الحكومة . يقول في ذلك أرنولد : « لم يكن المسجد مكاناً للعبادة فقط ، بل كان أيضاً مركز الحياة السياسية والإجتماعية . فكان النبي يستقبل في المسجد السفراء ويدير شؤون الدولة ، ويخطب في جماعة المسلمين من على المنبر في الأمور السياسية والدينية والإجتماعية . . .

فمن فوق منبر المدينة أعلن عمر تقهقر جيوش المسلمين في العراق وحث قومه على السير إلى هذه البلاد ، ومن على المنبر أيضاً وقف عثمان يدافع عن نفسه . كما كان الخليفة يلقي بعد بيعته من فوق المنبر خطبته الأولى التي هي بمثابة بيان لسياسته في الحكم . فكان المنبر بذلك أشبه بالعرش الذي يلقى من فوقه بيان سياسة الدولة في الأمم الدستورية .

ثم يزيد فيقول واصفاً شكل البناء :

---

(32) السيرة النبوية لابن هشام .

(33) راجع معجم البلدان لياقوت .

كـان المسجد الـذي بناه محمـد (ص) في المدينـة سنة 622م يعتـبر النموذج الأول لسائر المساجد الأخرى »[34] .

ولقد كان للعقيدة الإسلامية أثرها في تغيير أسـاليب فن العمارة المحليـة المختلفة كـما أعان على أن يستخرج منها طرازاً له مميزاته الذاتية . فـالأبنية التي اهتم العـرب في بنائهـا أول الأمر أكثرها من المساجد والقصور . والمسجد بصورة خاصة هو أهم ما كانت تتمثل فيـه العمارة العـربية ، وكـان يختلف إلى حد مـا باختـلاف البقاع ولكنـه ظل دائـماً يحتفظ بمميزاته الرئيسية .

والذي ساعد على وجود نظام تقليـدي لبناء المسجـد هو الحـج السنوي إلى مكـة من سائر أنحاء العالم الإسلامي . قال تعالى : ﴿ **وأذن في الناس بـالحج يـأتوك رجـالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق** ﴾ [الحج : الآية 27] .

وبعد فترة من الـزمن فقد المسجـد بعض أهميته السيـاسية والإجتـماعية ولم يعـد مقراً لتفسير الحديث وتلقي العلم ، بل غدا مقصـوراً على إقـامة الخـطبة الـدينية ، يمجـد فيه الله ، ويترحم على الصحابة ، ويدعى للخليفة باعتباره نـائباً عن الـرسول في المحـافظة عـلى الدين . لقد فقد المسجد مظاهر السياسة وبـات لا يذكـر فيه إلا إسم الخليفـة كاعـتراف ضمني بسلطته الإسمية .

مسجد الكوفة :

إن التخطيط الذي وضع لبناء الكوفة ينبىء عن نظام هندسي جميـل فضلاً عن كـونه يتلاءم مع طبيعة العرب . وكان أول ما خط بـالكوفـة مسجدهـا . وقد أقـاموا في وسـطه رامياً شديد النزع فـرمى عن يمينه وعن شـماله ومن بـين يديـه ومن خلفه ثم بنى المسجـد خلف مواقع السهام . كما بنى في مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتـان ، على أسـاطين رخـام كانت كالأكاسرة ، سماؤها كسماء المساجد الـرومية وبنـوا لسعد داراً بحيـاله بينهـما طريق منقب مائتي ذراع ، وجعل فيها بيوت الأمـوال ، وبنى لها روزبـة الفارسي من آجـر بنيان الأكاسرة بالحيرة[35] .

---

(34) تراث الإسلام ص 113 . ذهب المستشرق الايطالي كيتاني إلى أن النبي لم يشيد في يثرب مسجـداً وإنما داراً لم تصبح جامعاً إلا بعد أن نقل علي بن أبي طـالب مقر الحكـومة إلى الكـوفة . وكثـيرون من المستشرقين يؤيـدون هذا الرأي ويلفتون النظر إلى أن الدار المذكورة كانت أشبه شيء بدار الندوة للجماعة الإسلامية تبث فيها أمورهـا ويقضى فيها بين أفرادها .

(35) سعد : هو عـامل الخليفـة عمر بن الخـطاب على الكـوفة . راجـع تاريـخ الطبري ج 3 ص 148 . ومعجم البلدان ج 7 ص 297 .

وقد اتخذ علي (ع) الكوفة مقراً لخلافته[36] وما زال لها شأن وأهمية عند جميع الشيعة إلى وقتنا الحاضر . وفي ولاية عبيد الله بن زياد ، بنى المسجد وأنفق عليه أموالاً طائلة ، حتى أصبح فريداً بين مساجد زمانه ، مما دفع بالشعراء إلى الإشادة به ، ومنهم الشاعر إسماعيل الحميري . قال فيه :

لعمرك ما من مسجد بعد مسجد ... بمكة ظهراً أو مصلى بيثرب
بشرق ولا غرب علمنا مكانه ... من الأرض معموراً ولا متجنب
بباين فضلاً من مصلى مبارك ... بكوفان رحب ذي أراس ومحصب[37]

ذلك المسجد الذي بناه النبي محمد (ص) في المدينة سنة 662 هـ يعتبر النموذج الأول لسائر المساجد الأخرى ، ولعل السقف كان مصنوعاً من جريد النخل المغطى بطبقة من الطين . وكان جماعة المصلين يولون وجوههم شطر الشمال أي شطر بيت المقدس وهذا الاتجاه وهو القبلة كان يحدده المصلون بطريقتهم وفي سنة 624 هـ تغيرت قبلة المضلين من بيت المقدس إلى مكة ، أي من الشمال إلى الجنوب بالنسبة إلى أهل المدينة . وقد أوحي إلى النبي (ص) أن يجعل قبلته الكعبة الشريفة لما نزل قوله تعالى : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون** ﴾ [البقرة الآية : 144] .

مسجد دمشق :

أول من اختطه أبو عبيدة بن الجراح ثم بناه الوليد بن عبد الملك سنة 88 هـ على وجه التقريب . وكان الوليد كما يروى عنه كلفاً ببناء المساجد خاصة وبفن العمارة عامة . وقبل أن يشرع ببناء مسجد دمشق جمع زعماء النصارى في دمشق وعرض عليهم رغبته في إدماج كنيسة القديس يوحنا في مسجد المسلمين ويعوض عليهم بدلاً منها أي مكان شاؤوا ، كما عرض عليهم ثمناً مضاعفاً لبناء كنيسة أخرى ، فرفضوا اقتراحه واحتجوا بالعهد الذي أخذه المسلمون على أنفسهم ، بأن لا يتعرضوا لكنائس النصارى ولا لأي ذمي موجود في ظل دولتهم بسوء . ولكن الوليد لم يأبه لقولهم وتناسى العهود المكتوبة وسارع إلى هدم الكنيسة وبنى مكانها مسجد دمشق . وقد تأنق في بنائه كثيراً حتى قيل أنّه

(36) لأن بها شيعته وأنصاره ، ولخصوبة أرضها ، وكثرة خيراتها ووقوعها في مكان متوسط بين أقاليم الدولة الإسلامية ، ولأنها من وجهة نظره أصلح من غيرها في حرب معاوية .

(37) معجم البلدان ج 7 ص 299 .

أنفق على عمارته خراج دولته سبع سنين تقرباً إلى الله بهذا العمل الديني الجليل[38] .

قال المسعودي في مروج الذهب : « لما بدأ الوليد ببناء مسجد دمشق وجد في حائط المسجد لوحاً من حجارة فيه كتابة باليونانية ، فعرض على جماعة من أهل الكتاب فلم يقدروا على قراءته ، فوجه إلى وهب بن منبه فقال : هذا مكتوب في أيام سليمان الحكيم بل داود عليهما السلام فقرأ فيه : بسم الله الرحمن الرحيم يا آدم ، لو عاينت ما بقي من يسير أجلك لزهدك فيما بقي من طول أملك ، وقصرت عن رغبتك وحيلك ، وإنما تلقى ندمك إذا زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك ، وانصرف عنك الحبيب ، وودعك القريب ، ثم صرت تدعى فلا تجيب فلا أنت إلى أهلك عائد ، ولا في عملك زائد : فاغتنم الحياة قبل الموت والقوة قبل الفوت ، وقبل أن يأخذ منك ويحال بينك وبين العمل ، وكتب زمن سليمان بن داود ، فأمر الوليد أن تكتب بالذهب على اللاوزردي في حائط المسجد :

ربنا الله لا نعبد إلا الله . أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين . وهذا الكلام مكتوب بالذهب في مسجد دمشق إلى وقتنا هذا وهو سنة إثنتين وثلاثين وثلثمائة »[39] .

ومسجد دمشق هذا هو المسجد الأموي اليوم الذي يعتبر بحق آية من آيات الفن العربي الإسلامي . وقد زرته منذ مدة قريبة فوجدته ما زال محافظاً على رونقه وبهائه . وقد قال عنه المعجبون : هو جامع المحاسن كامل الغرائب معدود من احدى العجائب .

وقد تأنق الوليد في بناء مسجد الشام ، فرصع محرابه بالجواهر الثمينة وعلق عليه قناديل من الذهب والفضة ، وحلاه بالفسيفساء ، والسلاسل الذهبية حتى أطلق عليه البعض أنه قصير النظر مبذر ، لأنه أسرف كثيراً من بيت مال المسلمين دون أي فائدة تدر عليهم من وراء هذا الإسراف . وقد وصلت هذه الأخبار إلى مسامع الوليد . فجاء إلى المسجد وخطب في جماعته المتقدمين قائلاً :

« بلغني أنكم تقولون وتقولون في بيت مالكم عطاء ثمانية عشر سنة إذا لم يدخل لكم فيها حبة قمح » وهذا يدل على ثراء الدولة في ذلك الوقت من جهة وعلى قصر نظر الوليد

---

(38) مروج الذهب ج 2 ص 152 .

(39) تاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم حسن ج 1 ص 526 .

من جهة ثانيـة[40] . ولما جـاء عهد عمـر بن عبد العـزيز ، العـاقل المـدرك ، ورأى هذا البـذخ الذي لا مـبرر له ، نـزع الفسيفساء عن المسجـد ووضع حبـالاً بـدل السـلاسـل الذهبية ، وعوض على بيت مال المسلمين ما أصابه من بعض الخسائر .

ومما يظهر أن أول منارة أو مئذنة في الإسـلام كانت في مسجـد دمشق . بنيت لتكون مكاناً مشرفاً يدعو منه المؤذن بصوته الندي المؤمنين إلى الصـلاة ، على غـرار ما كـان عند المسيحيـين بدق المقـرعة قبـل استخدام النـواقيس[1] ، أو مقابـلاً عنـد اليهـود من نفـخ الأبواق .

(40) راجع خطط المقـريزي ج 2 ص 248 ونـذكر انـه عندمـا ولد النبي محمـد (ص) ضرب بالنـاقوس ابتهـاجاً وفرحاً . راجع إسلاميات أحمد شوقي .

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم :

أ

1 ـ الاتقان في علوم القرآن للسيوطي مطبعة حجازي بالقاهرة .

2 ـ إحياء علوم الدين للغزالي القاهرة 1346 هـ .

3 ـ أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية مطبعة جامعة دمشق 1381 هـ.

4 ـ الاحكام السلطانية لأبي يعلى ـ البابي الحلبي 1356 ه.

5 ـ الاحكام السلطانية للماوردي ـ البابي الحلبي 1357 هـ.

6 ـ الاخلاق الإسلامية للسيد علي فضل الله دار مكتبة الحياة .

7 ـ أدب العرب في عصر الجاهلية للمؤلف المؤسسة الجامعية بيروت 1984 م .

8 ـ الاسطورة عند العرب في الجاهلية للمؤلف المؤسسة الجامعية بيروت 1988 م .

9 ـ الاستيعاب في معرفة الاصحاب لابن عبد البر القاهرة 1358 هـ .

10 ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير القاهرة 1286 هـ .

11 ـ الإسلام لسعيد حوى دار المكتبة العلمية بيروت 1399 هـ .

12 ـ الأسلوب للدكتور أحمد الشايب مكتبة النهضة المصرية 1358 هـ .

13 ـ اشتراكية الإسلام للدكتور مصطفى السباعي جامعة دمشق 1378 هـ .

14 ـ الاصنام لابن الكلبي ط ، مصر 1343 هـ .

15 ـ إعجاز القرآن للدكتور الرافعي .

16 ـ إعجاز القرآن للباقلاني القاهرة السلفية 1349 هـ .

17 ـ أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية مطبعة النيل 1325 هـ .

18 ـ الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ دمشق 1349 هـ .

19 ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني دار الكتب المصرية المؤسسة العامة المصرية .
20 ـ اقتصادنا للسيد محمد باقر الصدر دار التعارف 1402 هـ .
21 ـ الاقتصاد للسيد حسن الشيرازي مؤسسة الوفاء بيروت 1400 هـ .
22 ـ الكافي للشيخ الكليني دار الكتب الايرانية 1385 هـ .
23 ـ امالي المرتضى دار الكتاب العربي بيروت .
24 ـ الإمام جعفر الصادق تأليف عبد الحليم الجندي القاهرة 1977 م .
25 ـ الأم للشافعي المطبعة الأميرية بولاق ـ مصر 1322 هـ .
26 ـ إمتاع الاسماع للمقريزي مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1941 م .
28 ـ أنباء الرواة للقفطي .
29 ـ الإنسان ذلك المجهول تعريب شفيق أسعد فريد القاهرة .
30 ـ أيام العرب في الإسلام دار إحياء الكتب العربية 1388 هـ .
31 ـ الأموال لابن سلام القاهرة 1353 هـ .
32 ـ آداب اللغة العربية ـ جرجي زيدان .

ب

33 ـ البرهان في علوم القرآن للزركشي دار إحياء الكتب العربية القاهرة 1376 هـ .
34 ـ الباعث الحثيث في مختصر علوم الحديث تأليف أحمد محمد شاكر القاهرة 1370 هـ .
35 ـ البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون 1948 م .
36 ـ البحار .

ت

37 ـ تاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم حسن ـ النهضة المصرية 1964 هـ .
38 ـ تاريخ البغدادي طبعة الخانجي بمصر 1349 هـ .
39 ـ تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان دار مكتبة الحياة بيروت .
40 ـ تاريخ الحضارة الإسلامية ـ أبو زيد شلبي مكتبة وهبة 1383 هـ .
41 ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي طبعة مصر 1305 هـ .
42 ـ تاريخ الشعوب الإسلامية ـ كارل بروكلمن نقله إلى العربية أمين فارس ومنير بعلبكي ـ دار العلم للملايين .
43 ـ تاريخ الطبري مؤسسة الاعلمي بيروت .
44 ـ تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي بغداد 1950 م .

44 ـ تاريخ اليعقوبي دار بيروت 1400 هـ .
45 ـ تراث الإسلام تأليف الدكتور محمد حسن ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر 1936 م .
46 ـ تدريب الراوي للسيوطي دار الكتب الحديثة 1385 هـ .
47 ـ التصوير الفني في القرآن للسيد قطب القاهرة 1949 م .
48 ـ تفسير الطبري (انظر جامع البيان) .
49 ـ تفسير القرطبي ـ الجامع لاحكام القرآن دار الكتب المصرية 1358 هـ .
50 ـ تقييد العلم للخطيب البغدادي دمشق 1949 م .
51 ـ التنبيه والاشراف للمسعودي طبعة ليدن 1894 م .

ج

52 ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي دار الكتب المصرية .
53 ـ الجامع الصغير للسيوطي القاهرة .
54 ـ الجرح والتعديل لأبي حاتم الرازي طبع الهند 1371 هـ .
55 ـ جواهر البلاغة للهاشمي مطبعة السعادة بمصر .

ح

56 ـ حضارة العرب في عصر الجاهلية للمؤلف المؤسسة الجامعية بيروت 1984 .
57 ـ حضارة العرب ـ أبو زيد شلبي مكتبة وهبة 1964 .
58 ـ الحضارة العربية ي ـ هل تعريب الدكتور إبراهيم العدوي .
59 ـ الحضارة العربية ـ حسين مؤنس ـ سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت عدد 1 .
60 ـ حضارة العرب ـ غوستاف لوبون ـ ترجمة عادل زعيتر القاهرة 1969 م .
61 ـ الحضارة العربية ـ مصطفى الرافعي ـ دار الكتاب اللبناني 1978 م .
62 ـ الحضارة الإسلامية ـ آدم متز ـ القاهرة ـ لجنة التأليف والنشر .
63 ـ الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام ـ محمد عبد المنعم خفاجي ـ دار الكتاب اللبناني بيروت 1973 م .

خ

64 ـ الخراج لأبي يوسف المكتبة السلفية القاهرة 1952 م .
65 ـ الخصائص لابن جني ـ دار الهدى بيروت ـ حققه محمد علي النجار .
66 ـ خطط المقريزي ـ طبع مصر 1270 هـ .

د

67 ـ دائرة المعارف (وجدي) .

68 ـ الدر المنثور للسيوطي طبعة الحلبي بمصر 1314 هـ .

69 ـ درر الحكام في شرح غرر الأحكام المطبعة الشرقية 1304 هـ .

70 ـ الدراية للشهيد الثاني مطبعة النعمان ـ النجف 1379 هـ .

71 ـ ديوان الأعشى شرح الدكتور محمد محمد حسين المكتب الشرقي 1968 م .

72 ـ ديوان ابن الرومي شرح حسين نصار .

73 ـ ديوان لبيد بن ربيعة العامري تحقيق احسان عباس الكويت 1962 م .

ر

74 ـ رسائل الجاحظ القاهرة 1365 هـ .

75 ـ روح الدين الإسلامي ـ للاستاذ عفيف طبارة .

ز

76 ـ زاد المعاد لابن قيم الجوزية ـ القاهرة 1324 هـ .

س

77 ـ سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ـ البغدادي ـ المشهور بالسويدي بغداد 1280 هـ .

78 ـ سبل السلام ـ الصنعاني ـ القاهرة ـ 1950 م .

79 ـ السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي د . مصطفى الرافعي ـ دار العروبة ـ القاهرة 1380 هـ .

80 ـ سنن الترميذي ط ـ الحلبي 1950 م .

81 ـ السياسة الشرعية لعبد الوهاب خلاف ـ القاهرة .

82 ـ سيرة الأئمة الاثني عشر للسيد هاشم معروف الحسني دار القلم بيروت 1981 م .

83 ـ سيرة المصطفى للسيد هاشم معروف الحسني دار القلم بيروت 1981 م .

84 ـ السيرة لابن هشام ـ البابي الحلبي 1348 هـ .

ش

85 ـ شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي ـ دار الكتب المصرية .

ص

86 ـ صبح الاعشى ـ للقلقشندي ـ القاهرة 1917 م .
87 ـ صحيح مسلم ـ دار الطباعة العامرة 1332 هـ .
88 ـ الصناعتين لأبي هلال العسكري ـ مطبعة بابي الحلبي ـ 395 هـ .
89 ـ الصواعق لابن حجر 1375 هـ .

ط

90 ـ طبقات ابن سعد ـ دار صادر بيروت 1376 هـ .

ع

91 ـ العقد الفريد لابن عبد ربه ـ لجنة التأليف والنشر ـ القاهرة 1965 م .
92 ـ العقد الاجتماعي ـ جان جاك روسو ـ ترجمة عادل زعيتر القاهرة 1945 م .
93 ـ علوم الحديث ومصطلحه ـ د . صبحي الصالح ـ دار العلم للملايين 1971 م .
94 ـ العمدة لابن رشيق القيرواني ـ مطبعة السعادة بمصر1325 هـ .
95 ـ عيون الأخبار لابن قتيبة ـ طبعة برلين 1900 م .
96 ـ علم الاجتماع الادبي ، د. حسين الحاج حسن ـ المؤسسة الجامعية ـ 1983 .

ف

97 ـ فتوح البلدان للبلاذري ـ شركة طبع الكتب العربية ـ مصر 1319 هـ .
98 ـ الفخري في الآداب السلطانية ـ لابن طباطبا ـ شركة طبع الكتب العربية بمصر 1317 هـ .
99 ـ الفهرست لابن النديم . ط. القاهرة .
100 ـ فنون الإسلام ـ محمد حسن ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر 1936 م .
101 ـ في معركة الحضارة لقسطنطين زريق ـ دار العلم للملايين 1964 م .
102 ـ فجر الإسلام لأحمد أمين ـ دار الكتاب العربي .

ق

103 ـ القاموس المحيط للفيروز آبادي ـ بولاق 1301 هـ .
104 ـ قواعد التحديث لجمال الدين القاسمي ـ مطبعة ابن زيدون دمشق 1353 هـ .
105 ـ قصة الحضارة للعلامة ديورانت .

ك

106 ـ الكامل لابن الاثير ـ دار صادر ـ بيروت .
107 ـ الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي طبع الهند 1357 هـ .

108 ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي حيدر آباد 1313 هـ .

ل

109 ـ لسان العرب لابن منظور ـ بولاق 1300 هـ .

م

110 ـ المدخل في تاريخ الحضارة العربية للاستاذ ناجي معروف بغداد 1960 م .
111 ـ مروج الذهب للمسعودي المطبعة البهائية المصرية 1346 هـ .
112 ـ المجتمعات الإسلامية لشكري فيصل ـ دار العلم للملايين بيروت 1978 م .
113 ـ المجازات النبوية للشريف الرضى ـ مؤسسة الحلبي وشركاه ـ القاهرة .
114 ـ المحدث الفاضل ـ الرامهر مزي ـ دار الكتب المصرية .
115 ـ المزهر للسيوطي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ البابي الحلبي .
116 ـ معالم الحضارة الإسلامية ـ مصطفى الشكعة ـ دار العلم للملايين بيروت 1975 م .
117 ـ معالم الحكومة الإسلامية للشيخ جعفر السجاني ـ دار الأضواء 1405 هـ .
118 ـ معجم البلدان لياقوت الحموي ـ مطبعة السعادة ـ 1323 هـ .
119 ـ المغني لابن قدامة الحنبلي ـ المنار 1367 هـ .
120 ـ المقدمة لابن خلدون القاهرة 1322 هـ .
121 ـ المنتجب العاني للدكتور أسعد علي مطبعة النعمان 1388 هـ .
122 ـ منهج الفن الإسلامي للسيد قطب دار القلم .
123 ـ منهل الواردين للدكتور صبحي الصالح دار العلم للملايين ـ بيروت .
124 ـ من حديث الشعر والنشر للدكتور طه حسين دار المعارف بمصر .
125 ـ محمد عند علماء الغرب للشيخ خليل ياسين ـ دار الاندلس 1967 م .
126 ـ مصطلح علم التاريخ للدكتور أسد رستم ـ منشورات المكتبة العصرية ـ صيدا .
127 ـ مصابيح السنة للبغوي ـ القاهرة .
128 ـ محمد المثل الكامل ـ المكتبة الأموية ـ دمشق ـ بيروت 1973 م .
129 ـ مسند الامام أحمد القاهرة 1313 هـ .
130 ـ مكارم الاخلاق للطبرسي .
131 ـ محمد رسول الله ـ الفونس ن اثبين دينية .
132 ـ النظم الإسلامية للمؤلف المؤسسة الجامعية 1987 م .
133 ـ النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم حسن ـ النهضة المصرية 1964 م .

134 ـ النظم الإسلامية للدكتور صبحي الصالح ـ دار العلم للملايين 1978 م .
135 ـ نظم الحكم في الشريعة الإسلامية لظافر القاسمي ـ دار النفائس بيروت 1977 م .
136 ـ نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية للمؤلف ـ مؤسسة الوفاء 1985 م .
137 ـ النقد الجمالي ـ اندريد ريشار ـ ترجمه هنري زغيب ـ منشورات عويدات ـ بيروت 1974 .
138 ـ النهاية للشيخ الطوسي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت 1400 هـ .
139 ـ نهج البلاغة للامام علي بن أبي طالب ـ شرح الشيخ محمد عبده .
140 ـ نظرية المعرفة زكي نجيب محمود .

و

141 ـ وحدة المعرفة لمحمد كامل حسين .

الفهرس

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع